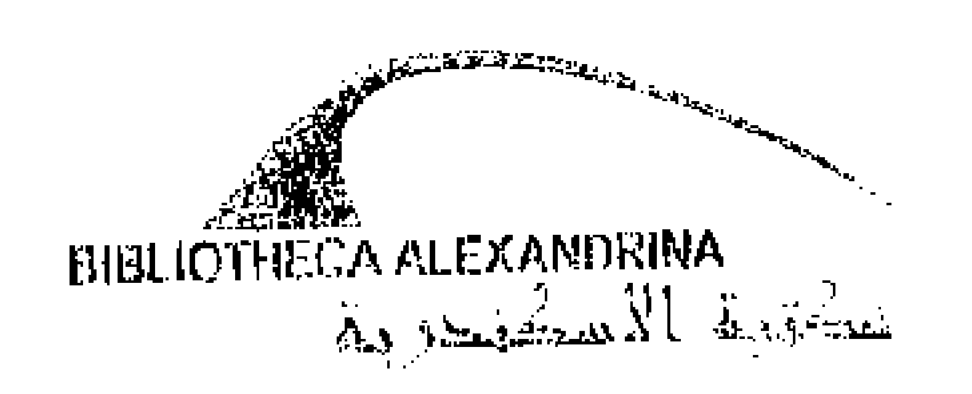
هالــة العــوري

أهــل الكهـف

قــراءة في مخطوطـات البحـر الميــت



هالــة العــوري

أهــل الكهــف

قــراءة في مخطوطــات البحــر الميــت

مكتبة أبو العيس الإلكترونية



PEOPLE OF THE CAVE
A STUDY OF THE DEAD SEA MANUSCRIPTS

BY:

HALA AL-OURY

First Published in April 2000
Copyright © **Riad El-Rayyes Books Ltd**
BEIRUT - LEBANON

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 185513 486 1

All rights reserved. No part of this publication
may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by
anymeans, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise,
without prior permission in writing of the publishers

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: نيسان/أبريل ٢٠٠٠

المحتويات

إهداء ٩

المقدمة ١١

الفصل الأول

شياطين التعامرة ٢٣

الفصل الثاني

اصطياد الكهوف ٤٩

الفصل الثالث

الإجماع المقدس ٧٧

الفصل الرابع

غموض مريب ١٠٥

الفصل الخامس

انصياع مؤقت ١٢٩

الفصل السادس

ورطة التحديث ١٥٩

الفصل السابع

البحث ما زال جارياً ١٨٧

الفصل الثامن

أسينيون أم نصارى ٢٢١

الفصل التاسع

قراءة ما بين السطور ٢٤٩

الفصل العاشر

استقطاب وثورة ٢٨١

الفصل الحادي عشر

قمران تتحدث ٣١٥

الفصل الثاني عشر

للحديث بقية ٣٥١

المراجع ٣٩٣

فهرس الأعلام ٣٩٩

فهرس الأماكن ٤٠٥

إهداء

إلى الأرض التي تُحدث في النهاية أخبارها

هالة العوري

المقدمة

تهويد المسيحية!

ليس غريباً أن يبدي بعض المسيحيين مخاوفهم واستياءهم إزاء بعض الخلط المتعمد بين المسيحية واليهودية، وما أسفر عنه من مفاهيم دينية مشوّشة تفشت في الغرب، جاء أغلبها على حساب جوهر القيم والتعاليم الإنسانية الرفيعة التي نادى بها السيد المسيح.

ولقد تنبه المفكر اللبناني جورجي كنعان مبكراً لهذا الخلط وما يسببه من أخطار على الصعيدين الديني والوطني، فأخذ يتساءل في مقدمة كتابه «الأصولية المسيحية في نصف الكرة الغربي» محذراً:

هل تعلمون «أن أكبر عملية تزييف في التاريخ تتم بصمت وتآمر، هي عملية تهويد المسيحية؟».

يستند المفكر اللبناني، في وجهة نظره، إلى أن الدين قوة محركة في الكيان الاجتماعي لا يخلو مجتمع من ممارستها، إلاّ فيما ندر، وفي الأغلب على حساب جوهر القيم والفضائل والمفاهيم الاجتماعية الإنسانية، مرجعاً السبب في هذا التشوه الحاصل إلى الثقافة السياسية السائدة في الغرب حيث «الفكر اليهودي الديني ـ (الميثولوجي)» متأصل في الفرد المسيحي، مؤمناً كان أم غير مؤمن، الذي كان ولا يزال حتى

اليوم رغم الرقي والتقدم العلمي المذهل، يحمل في وجدانه طبيعة دينية على أساس العقلية الدينية التي اكتسبها عبر العصور.

حاييم وايزمن، أول رئيس لدولة إسرائيل، جسّد هذه المخاوف حين أشاد بفضل العقلية الدينية الغربية، بقوله صراحة «إن تدين الإنكليز، لا سيما أصحاب المدرسة القديمة، قد ساعدنا في تحقيق آمالنا، لأن الإنكليزي المتدين يؤمن بما جاء في التوراة من وجوب عودة اليهود إلى فلسطين، وقد قدمت الكنيسة الإنكليزية من هذه الناحية أكبر المساعدات».

ولم يكن إسحق رابين، رئيس وزراء إسرائيل الراحل وسفيرها السابق في الولايات المتحدة الأميركية، أقل اعترافاً بهذا الفضل، حين تحدث عن التأييد والدعم اللذين يمنحهما اليمين المسيحي الجديد لإسرائيل، بقوله:

«لقد حصلت إسرائيل على مكانة خاصة في الوعي الأميركي تفوق كثيراً حجم الجالية اليهودية في الولايات المتحدة، ويرجع هذا إلى أن جزءاً كبيراً من الجمهور الأميركي يرتبط بالتوراة ارتباطاً دينياً أيديولوجياً... وأعني بصورة خاصة طوائف الإنجيليين والمعمدانيين وغيرهما التي تضم عشرات الملايين في الولايات المتحدة».

والحقيقة التي لا ريب فيها، كما يطرحها جورجي كنعان صراحة بأسلوب مباشر، أن مسيحيي العالم، في غالبيتهم، يؤمنون بأن اليهود شعب الله المختار. وأنه قد وعدهم فلسطين وطناً. كيف لا وهناك في الولايات المتحدة ثمانون ألف قس يبشرون صباحاً ومساءً عبر أكثر من ستمائة محطة بث سمعية ومرئية بأهداف إسرائيل السياسية وكأنها أطروحات دينية مقدسة لا يجوز المساس بها، مما يعمل على تسويغ ما تمارسه إسرائيل من احتلال وتشريد وقتل.

اليهودية تنتظر مسيحها الموعود الذي يرتبط مجيئه برجوع الشعب اليهودي برمته إلى فلسطين. ومع أن مجيء مسيح اليهودية يبطل مسيح النصرانية، فالمسيحية الصهيونية متلهفة، تنتظر عودته في غبطة، بعد مرحلة دامية من الحروب الكونية البشعة والكوارث الطبيعية المهلكة، ووفقاً لنبوءات حزقيال في «العهد القديم».. ليخوض مع المسيحيين المولودين من

جديد هرمجدون فيسحقوا أعداء الرب ويحكموا العالم لمدة ألف سنة!

دائرة جهنمية يبدو فيها العرب التعساء أشبه بعائق يحول دون رجوع الشعب المختار، ودون المجيء الثاني للسيد المسيح، فلا بأس من استئصالهم عن بكرة أبيهم، إذا كان هذا يعجل بالعودة الميمونة!

عبثاً حاول البابا شنودا الانتصار للحق بشواهد من التوراة نفسها، بقوله:

«إن الوعد لإبراهيم كان مشروطاً، والوعد بالرجوع إلى فلسطين كان من السبي، وقد تمَّ وانتهى الأمر في القرن الخامس قبل الميلاد».

ولكن هيهات، فتحرير الوجدان الجمعي، خصوصاً الأوروبي والأميركي، من ربقة الأيديولوجيا الصهيونية ليس ممكناً قبل تحرره أولاً من أيديولوجية المسيحية الأصولية المترسخة، وهذا أمر جسيم تنوء بحمله الجبال، يحتاج إلى ثورة فكرية جذرية شاملة، آليتها المادية ومتطلباتها ليست في متناول الشرق ولا بمقدوره.

مفكر لبناني آخر هو أكرم إبراهيم يعتقد، من ناحيته، أن قادة الغرب لا يدعمون إسرائيل بوحي ديني، بل يستخدمونها كأداة لتحقيق مصالحهم: فأولئك وهذه لا يبنون سياساتهم على أسس دينية، وإن كان الدين أحد أسلحتهم في تحقيق المآرب، ولعل ما تكشف عن الحروب الصليبية، حروب الفرنجة كما أطلق عليها بحق العرب القدامى، لخير دليل على هذا. فالدين ليس موجهاً للسياسة، بل السياسة هي التي توجهه حتى في الفاتيكان، وما تبرئة اليهود من دم المسيح سوى تهوين لشخصه حيث تصبح محنة الصلب مجرد حدث يخضع للنسيان بفعل عامل الزمن.

هذا قول صحيح، غير أنه لا يفسر ذلك الاستعداد المسبق الهائل لدى جموع المسيحيين، الغربيين بخاصة، لتقبل الصهيونية وأفاعيلها على علاتها.

اللافت في كتاب المفكر اللبناني «التوراة في ميزان الحقائق المسيحية» دعوته الصريحة لأقرانه الشرقيين إلى ضرورة الفصل بين الكتابين، العهد القديم والإنجيل

«لأن المسيحية ضاعت بسبب الربط بينهما، فالأول ليس كتاباً للمسيحيين،

بل ورثوه عن بعض الكهنة الجهلة غير المستقيمين منذ القرن الرابع للميلاد».

وذلك دفعاً لمأزق تهويد المسيحية واتقاءً لمن يريد الصيد في الماء العكر:

«فالروح التوفيقية ربما كانت مقبولة في فجر المسيحية، لكن الحزم بات الآن أمراً ملحاً وواجباً أخلاقياً ودينياً ووطنياً، فهذا التوفيق كاد أن يهود المسيحية».

هذه دعوة صريحة لعودة الوضع إلى سابق عهده، قبل أن تنجح الجمعيات الإنجيلية العالمية في التأثير على الشرقيين وإقناعهم بدمج الكتابين معاً!

إن المشكلة تكمن، وفقاً لأكرم إبراهيم، في أن عملية الدمج بين الكتابين يتم إنتاجها في الغرب المشبع بروح العنصرية والحقد والكراهية، لذلك كان من الطبيعي أن تنتصر اليهودية وتلون الدين الرسمي المسيحي بلونها، لأنها تجسد هذه الروح وتغذيها:

«فهذه المذاهب انطلقت في الغرب في العهود الوسيطة، لتعود بنا إلى الظلمة التي كانت قبل المسيح».

ويبقى سؤال أفرزته أخيراً مخطوطات البحر الميت.

سؤال بات يؤرق الكثيرين، في الغرب، حول عملية التزييف، أكانت نتاجاً للقرون الوسطى أم أن أسسها تعود إلى أبعد من ذلك بكثير؟!

اتجه البحث عن النزعات الأصولية إلى المذهب البروتستانتي في الدول الأنجلوسكسونية، الذي تطور منذ القرن السادس عشر إلى أيديولوجية سياسية سادت بلدان أوروبا إبان حركة الإصلاح الديني، لتصبح من مقومات الثقافة الغربية الأكثر تجذراً في الذهن الأوروبي، قبل انتقالها إلى العالم الجديد لتنغرس عميقاً في العقل الأميركي، وليصبح «العهد القديم» الملك المتوج وصاحب العصمة الحرفية في تشكيل الذهن الجمعي لغالبية مسيحيي الغرب. وقد زادت البروتستانتية الطين بلة حين دعت إلى حرية الفهم دون التقيد بتفسيرات سابقة، مما فرخ العديد من الطوائف التي لكل

منها رؤاها وتوجهاتها الخاصة، الأمر الذي يسّر للصهيونية التعامل مع كل منها على حدة. وهكذا ازدحمت الساحة بجمعيات مشتركة، لا حصر لها، بين رجال الدين وبين ممثلي الصهيونية، لتصب الجهود في النهاية لخدمة إسرائيل ومآربها السياسية، بعد تغليفها بقشرة من الادعاءات الدينية.

والتربة خصبة ممهدة، حيث تبدو فلسطين في الموروث اليهودي المسيحي الغربي، أشبه بعالم سحري مبهم. أرض فضاء معلقة اقتصرت سكناها على اليهود، والفضل في هذا المفهوم الساذج والمغلوط يعود إلى المصادر الغربية، خصوصاً اليهودية، في مقدمتها «العهد القديم»، صاحب القول الفصل فيما يعرف الآن بالأصولية المسيحية، فهو في مجمله تأريخ لليهود في فلسطين حيث أقاموا مملكتهم الموحدة، صاحبة اليد الطولى في الحضارة الغربية لتقديمها النموذج الأول والفذ للدولة القومية، قمة التطور في النظام السياسي. وفي مقابل هذا الإسهام الحضاري العظيم تمّ إسكات وتشويه ليس تاريخ فلسطين فحسب، بل تاريخ الشرق القديم بأسره!

بالرغم من قوة النفوذ الثقافي الغربي فإن الواقع الموضوعي يدحض ذلك المفهوم. ففلسطين كانت دوماً موطناً لشعوب عدة، وفي حالة تفاعل وانفعال بجوارها الجغرافي حتى في عهد الهيروديين، ولم تخلُ يوماً من سكانها العرب الأصليين، وليست العصور الهلينستية والرومانية بمنأى عن هذه القاعدة، ففي العصر الهلينستي (اليوناني) كان الأدوميون العرب يقطنون الجنوب، وقهروهم على اعتناق اليهودية، لا ينفي بقاءهم عرباً، فضلاً عن الجماعات العربية المقيمة في شرق وشمال شرق فلسطين، وثمة عرب آخرون يقيمون على مقربة من قيسارية على الساحل الفلسطيني إضافة إلى مناطق واسعة من السهل الساحلي الجنوبي. فمن المعروف، بشكل عام، أن فائض السكان العرب في الأردن كان يدخل فلسطين باستمرار، ناهيك عن المقدونيين واليونان والرومان، فحال فلسطين بالأمس كحالها اليوم لم تقتصر على الفئة اليهودية ولم تنقطع يوماً عن جوارها الجغرافي.

أكثر من هذا، إن ثراء الهيروديين وازدهار مملكتهم، يعودان بالدرجة الأولى إلى روابطهم الوثيقة بمملكة الأنباط العربية وعاصمتها البتراء، التي وصلت إلى المصاهرة. فأنتيباتر مؤسس العائلة، أياً كانت أصوله يونانية أم أدومية عربية، كانت والدته أميرة عربية من الأنباط. كما أن سالومي شقيقة هيرودس الأكبر، سمية سالومي الشهيرة، كانت متزوجة من كوستوباريوس الآدومي. ومملكة الأنباط كانت تضم في أقصى اتساعها جنوبي فلسطين وشرق الأردن وجنوب شرق سورية وشمالي الجزيرة العربية، وقد وصلت علاقتها التجارية إلى أبعد المناطق في العالم المتمدن، آنذاك. وحضارة الأنباط حضارة مركبة، عربية اللغة، آرامية الكتابة، سامية الديانة، وهلينستية الفن والهندسة المعمارية.. استولى الرومان على البتراء في الفترة ما بين ٦٠ ـ ٣٠ق.م، وأصبح ملوكها تابعين لروما أسوة بالملوك الهيروديين الذين انخرطوا في التجارة العربية، حيث تعبر القوافل من البتراء، محملة بالمر والصمغ والبخور من جنوبي جزيرة العرب وبالمنسوجات الحريرية من الهند، لتجتاز البحر الميت إلى أورشليم أو تتوجه مباشرة إلى ساحل البحر المتوسط.

أتى المؤرخ فلافيوس يوسيفوس على ذكر الهجوم الواسع الذي شنّه ملك البتراء، الحارث أرتياس، حوالى ٣٧ ـ ٨م، ضد هيرودس أنتيباتر انتقاماً لإقدام الأخير على قتل يوحنا المعمدان، ذلك الثائر الورع المعبر عن الفقراء وهمومهم، الذي انطلق ينتقد أوضاع الطغمة الهيرودية الحاكمة وممارساتها الفاسدة، فقتله هيرودس خارج حدود هيمنته، في مكاريوس شرقي نهر الأردن، خوفاً من اندلاع الاضطرابات لشدة تأثيره على الجموع، التي اعتبرت، بدورها، الهزيمة التي أنزلها به الحارث انتقاماً عادلاً لفعلته الشنعاء بالنبي الثائر.

الغريب، أن يوسيفوس، شأنه شأن القديسين يوحنا ولوقا ٣:١٩، لم يأتِ في هذا السياق على ذكر هيروديا أو ابنتها سالومي صاحبة الرقصة الشهيرة، ولم يشر أيضاً إلى رأس يوحنا المعمدان المقدم على طبق، فيما يورد متى منسوباً إلى يسوع قوله بصدد المعمدان:

«لأن يوحنا جاءكم في طريق الحق فلم تؤمنوا به، وأما العشارون والزواني آمنوا به» (٢١/٢٢).

وهذا غريب، فإذا وضعنا الزواني وإيمانهم جانباً فالعشارون للمفارقة، ليسوا سوى الهيروديين الذين تولوا جباية الضرائب للرومان، فكيف يُنسب قول كهذا إلى يسوع؟!

بولس، أيضاً، أتى على ذكر ممثل الحارث، وإن كان في سياق موجز ومختلف، حين نجح في الإفلات منه متدلياً من طاقة زنبيل من السور (كورنثوس الثانية ١١/٣٢)، دون توضيح سبب ملاحقة الحارث له. وجاءت «أعمال الرسل» على ذكر طريقة الفرار نفسها ولكن في سياق آخر، عندما أخذ التلاميذ بولس ليلاً وأنزلوه من السور في سلة خشبية على حياته (٩/٢٥).

هذا الفرق بين ما يورده المؤرخ وبين ما يطرحه نص ديني يشير إلى اللبس والتباين الواضح الذي يواجه الباحثين كلما تناولوا القرن الأول للميلاد بالدراسة والبحث. فعملية التزييف كما يطلق عليها البعض أو التكيف كما يفضل البعض الآخر تسميتها، ربما تعود إلى عصور أبعد بكثير. وهنا تكمن على وجه التحديد أهمية مخطوطات البحر الميت، المعروفة بلفائف قمران، وخطورتها أيضاً.

ونبدأ بالخطورة

لسخرية القدر، تمَّ تدوين وثائق قمران وفلسطين تحت الاحتلال الأجنبي الوثني، يونانياً كان أم رومانياً. وجاء اكتشافها، للمفارقة، بعد ألفي عام وفلسطين ترزح أيضاً تحت الانتداب البريطاني والاستيطان الصهيوني (اليهودي) على أشده. وإذا كانت الوثائق حجة على التاريخ، فهذا القول يصدق وينطبق على مخطوطات البحر الميت بوجه خاص، فغالباً ما تعبر الوثائق عن الجانب المنتصر وتطرح رؤاه، غير أن وثائق قمران تعبر حصراً عن الجانب المقهور، الذي سُلب دوره وغيبت قيمه طويلاً، لأنه لم يكن أبداً أداة دعائية للجانب المهيمن.

صحيح أيضاً أن الوثائق ليست نصوصاً دينية بالمعنى الحرفي، ولكنها تضع الدين في سياقه التاريخي وتضيء أحداثاً أحاطت بها العتمة لقرون طويلة، ولهذا فأهميتها تفوق المؤسسات الدينية التي غالباً ما تدّعي امتلاك الحقيقة وحدها، وتقولب القيم والمبادىء الرفيعة وتخضعها لمصلحتها، مما يؤثر سلباً على القيم ويفقدها حيويتها وانطلاقها.

تلقفت المؤسسات الغربية المخطوطات منذ أواخر الأربعينيات وفرضت عليها حصاراً محكماً لقرابة أربعة عقود، ربما لأنها تكشف عن التحالفات المضادة في مواجهة ما جاء به السيد المسيح من تعاليم وقيم رفيعة، والنفوذ الصهيوني ليس بغائب والتربة ممهدة لتوجيه الأبحاث والدراسات المتعلقة بالمخطوطات بما يثبت الآراء والأفكار اليهودية في صلب المسيحية بهدف التشكيك بمضمونها واعتباره امتداداً للمفاهيم اليهودية الحالية. وبالفعل، اتخذت غالبية الدراسات ذلك المنحى، الذي بات يُعرف باليهودية المسيحية. وبذلك، ضُرب عصفوران بحجر، إظهار أن ما اعتقده المسيحيون منزلاً لا يعدو في الواقع يهودية متطرفة، والتأكيد أن النصرانية ليست خروجاً على دين الآباء وإنما مذهب من مذاهبهم. نتيجة هذه التوجهات، اختصر الباحثون العرب، في غالبيتهم، الطريق وأشاحوا الوجوه عن الموضوع برمته، على اعتبار أن وثائق البحر الميت صحائف غير موثوقة وأساطير توراتية أو مخطوطات مزعومة لا يعول عليها، وكفوا أنفسهم شر القتال وعناء البحث!

غير أن القراءة المتفحصة لوثائق البحر الميت تكشف عن معطيات مغايرة، تتحدى الموروث والشائع، حيث تنبيء بحركة معارضة تمتد جذورها من الفترة المكابية إلى ما بعد ظهور المسيحية، مروراً بالمرحلتين الهيرودية والرومانية. فالوثائق تشير إلى العديد من الشخصيات الرئيسة مثل المعلم البار، الكاهن الشرير، الكذاب، والمهرج، كما تشيد بمجموعة من القيم مثل البر، التقوى، الحق، الكمال، العمل والحفاظ على العهد، وتشن انتقاداً مريراً على نهب الثروات، الزنا، الخيانة، والسعي وراء الأشياء الناعمة. فالمسؤولون عن كتابة هذه الوثائق عبروا عن موقفهم ووجهة

نظرهم الذاتية عبر أيديولوجية متميزة، عن قضايا عصرهم.

الخلاف على أشده الآن بين التيارين، المحافظ والليبرالي، حول تأريخ الوثائق وهوية أصحابها، فأصحاب الاتجاه المحافظ يجمعون على أنها ترجع إلى مرحلة ما قبل الميلاد، وتتعلق حصراً بالفترة المكابية، فيما يعتقد الليبراليون أنها تعود إلى القرن الأول للميلاد وترتبط بالأسرة الهيرودية والرومان.

إن أهمية الوثائق، على العكس مما يشيعه المحافظون، لا تنحصر في الخلاف على تفصيلات شرعية فحسب، بل في موقف أصحابها الرافض المعارض للحكم الأجنبي والمتعاونين معه. فالسعي وراء الأشياء الناعمة، تعبير سياسي أكثر منه دينياً، حيث كانت السيطرة على مؤسسة الهيكل محل تنافس مرير بين الكهنة المكابيين والفريسيين، حتى تمت الغلبة للفريسيين وسيطروا على المؤسسة في عهد الهيروديين. وهذا يعني أنهم تعاونوا مع الحكم الأجنبي الروماني الوثني وأدواته المحلية، مما يعني موافقتهم على ممارسة الهيروديين المضادة للشريعة والموالية للرومان، وكلها ممارسة تطفح الوثائق بشجبها والتنديد بها. وهذا يشكل في حد ذاته صدمة ليهود اليوم الذين طالما اعتبروا الفريسيين أشد الفرق التزاماً بأهداب الدين وأكثرهم وطنية في مقاومة الرومان، في حين تندد الوثائق بكل أشكال التعاون مع الحكم الأجنبي وأدواته. والمثير أنها لا تتفق أيضاً واللهجة التصالحية التي تستشف في ثنايا العهد الجديد، وتلك أيضاً معضلة أخرى تطرحها مخطوطات البحر الميت، زادت من حدة تطويقها!

إن مخطوطات البحر الميت عبارة عن مكتبة عامرة تحتوي على نصوص توراتية، فضلاً عن كتابات الجماعة الخاصة التي تساعد على إيضاح ما شهدته أرض فلسطين من أحداث لفها الغموض والتعتيم لقرون طويلة. كما تقدم فلسطين كوجود تاريخي حقيقي وتضع الشخصيات، أياً كانت مكانتها الدينية في سياقها التاريخي وفي مواجهة الشخصيات والمؤسسات الفاعلة في القرن الأول للميلاد، مما يساعد على تشكيل نسيج تاريخي بالمعنى الدقيق. فهذه المخطوطات جزء من إرثنا الثقافي العربي وجزء من تاريخ المنطقة، وليس هناك من هم أولى من الباحثين العرب، بغض النظر

عن انتماءاتهم العقائدية، لقراءة هذه النصوص والكشف عن القواسم المشتركة في القيم الروحية والكفاحية، واستخلاص النتائج العلمية الموضوعية من معطياتها، مما يفوت الفرصة على المغرضين.

فما تدفق من الكهوف، لا سيما رقم أربعة، يشكل تحدياً لدراسات العهد القديم، حيث جاءت رقاع الأسفار الخمسة الأولى، بالآرامية أو العبرية البدائية، متفقة في كل نقاطها الأساسية مع النسخة السامرية، التي يرفضها الغرب باعتبارها هرطقة غير مقيدة بنص معين. فالسامريون أصغر طائفة دينية في العالم يؤمنون بالأسفار الخمسة الأولى ويرفضون الباقي باعتباره من صنع الإنسان.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن، كيف لجماعة قمران، المفترض أنها يهودية متزمتة، اعتماد نسخة سامرية هرطوقية؟

والحقيقة السافرة الآن، بناء على ما كشفته الوثائق، أن نسخ العهد القديم، سواء التوراة العبرية المعروفة بالماسورا أو اليونانية المعروفة بالسبعينية، قد جاءتنا بالاختيار الذاتي والحر مما يفسر اختلافهما، ومما ينفي أيضاً عن النسخة العبرية تميزها لمجرد كونها بالعبرية، والمطلوب حالياً في الغرب وضع نسخة معيارية جديدة، أقرب ما تكون إلى ما قاله الأنبياء أو دوّنوه، وذلك بالرجوع إلى كافة الرؤى المتوافرة بما فيها وثائق قمران. وتلك مهمة كما يقر علماء الغرب بالغة التعقيد والدقة، وليس أقلها التخلص من الأهواء الذاتية والتزام الموضوعية المجردة.

هذا الكتاب يهدف إلى إطلاع القارئ العربي على موضوع مخطوطات البحر الميت في كافة جوانبه ويعمل على تتبع مسيرة المخطوطات، منذ واقعة الاكتشاف المثيرة الأولى والحصار الذي ضرب حولها، وأخيراً إلقاء الضوء على ما فجرته محتوياتها من خلافات حادة ورؤى مغايرة، اعتمد أصحابها على معطيات منطوق الأرض الذي جاء مخالفاً للموروث والشائع.

هذا الكتاب ليس مقارنة أو مفاضلة بين الأديان، بل دعوة للتفكير الموضوعي الجاد، دون إجحاف بالجوهر، فليس هناك من هو أحوج منا، أياً كان انتماؤنا العقائدي لتحريك العقل والخروج من قيد الفهم الحرفي

للنص الديني، بغرض التلاقي عند القواسم المشتركة في مستوياتها العليا، الإنسانية والوطنية. وإذ يأمل الكاتب أن يجد القارىء العربي ما يفيد بأن الحقيقة المطلقة واحدة المنبع، وإن خضعت معرفتها وأسلوب التعبير عنها لتطور الإنسان وتقدم معارفه، فالتاريخ الإنساني ما هو إلاّ صراع الإنسان بغية الوصول إلى القيم العليا، الحرية والعدل والخير والجمال، التي كلما اقترب منها ابتعدت لاصطدامها بالطبيعة الإنسانية المجبولة بالسلب والإيجاب. وما التضليل والحروب والاقتتال إلاّ بسبب غطرسة الإنسان وأنانيته المفرطة، فيما القيم الدينية والروحية منها براء.

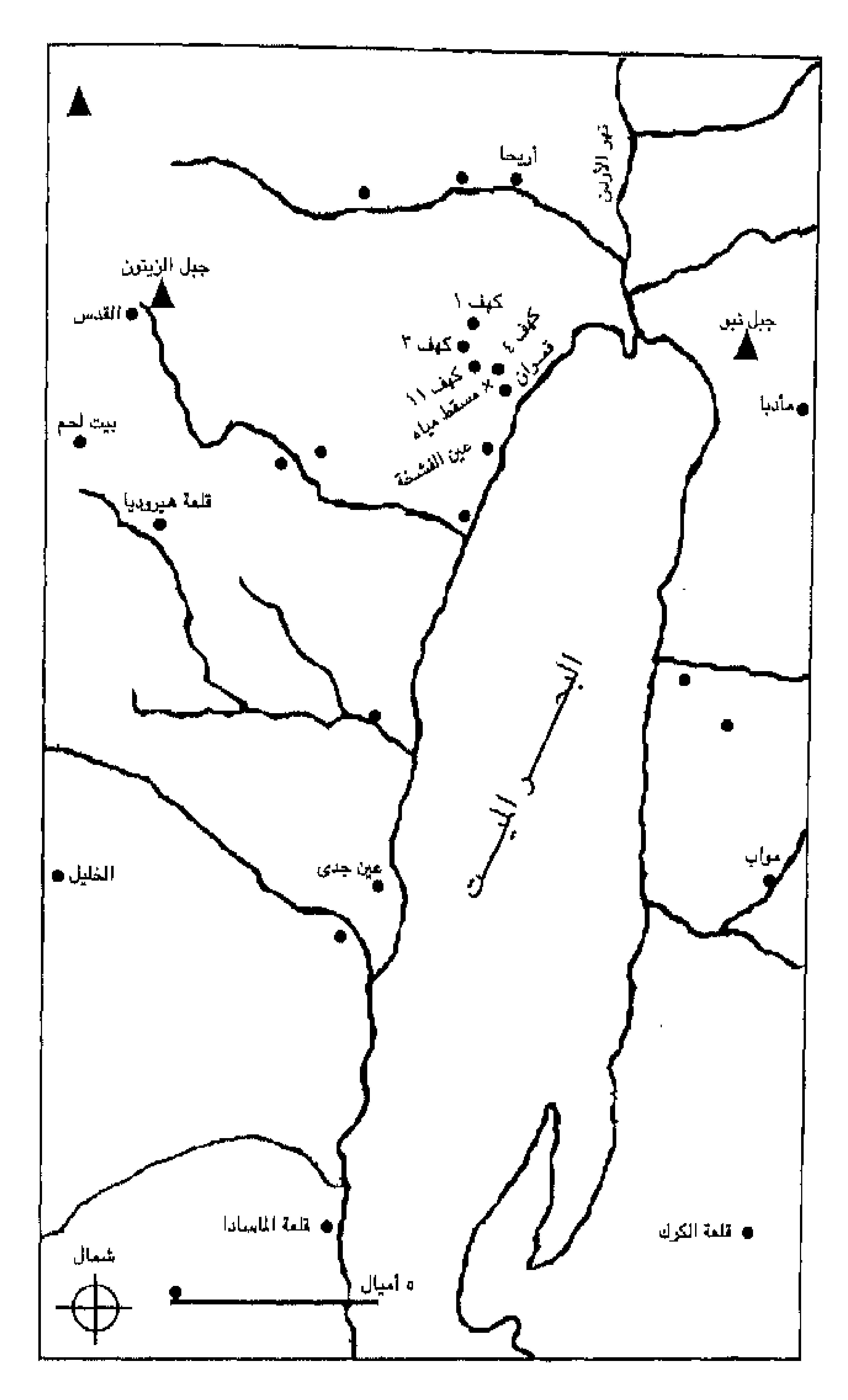
كلمة أخيرة، كان علينا توحيد المصطلحات لتعدد الترجمات، فقد جاء المصطلح الإنكليزي **Righteousness Teacher**، إشارة إلى معلم جماعة قمران، وهي ترجمة للآرامية أو العبرية لمفردة صادوق، **Zadok**، أي الصادق أو الصديق بالعربية، ووقع الاختيار على البار لأنه المصطلح المستخدم في الأناجيل العربية، فضلاً عن أن المصطلح الإنكليزي يحمل معاني الصدق والبر والعدل والصلاح. كذلك كان الأمر مع مصطلح الكاهن الشرير **Wicked Priest**، وليس الكاهن الكافر فالكاهن ليس بكافر أو ملحد وإن ضل في أسلوب التقرب إلى الله.

ونخص بالشكر الصديق «أسامة أبو غزالة» الذي تكرم، رغم المشقة، بإرسال كافة المراجع اللازمة من الولايات المتحدة الأميركية، لإخراج هذا العمل.. وكذلك نقدم عظيم الامتنان إلى الزملاء «فيصل الخيري» الباحث في التراث الفلسطيني الذي ساعد كثيراً بمكتبته العامرة واطلاعه الواسع، و«أحمد العودات ومحمد خالد الأزعر» لتتبع هذا العمل، ولملاحظاتهما القيّمة.

والله من وراء القصد.

هالة العوري

عمان: أيار/مايو ١٩٩٩



أريحا
نهر الأردن
جبل الزيتون
القدس
كهف ١
كهف ٤
كهف ٣
قمران
كهف ١١
× مسقط مياه
بيت لحم
عين الفشخة
قلعة هيروديا
جبل نبو
مأدبا
البحر الميت
الخليل
عين جدى
مواب
قلعة الماسادا
قلعة الكرك
شمال
٥ أميال

البحر الميت

الفصل الأول

شياطين التعامرة

اختلف الباحثون على الزمان، قال بعضهم وقع في عام ١٩٤٧، بينما أصرَّ بعضهم الآخر على العام ١٩٤٦. أما المكان فمتفق عليه: منطقة نائية موحشة تنخفض عن سطح البحر بألف وثلاثمائة قدم، تقع بمحاذاة البحر الميت على بُعد بضعة أميال من أريحا، تُعرف حالياً بقمران. أبطال واقعة الاكتشاف الأول ليسوا محل خلاف، فالكل مجمع على أنهم من عرب التعامرة، وإن تباينت الآراء حول عددهم بين فرد وثلاثة أفراد.

في نيسان/أبريل ١٩٤٨، أعلنت جامعة ييل الأميركية عن اكتشاف أقدم مخطوط باللغة العبرية لسفر أشعيا، يسبق بنحو ألف عام النسخة المعروفة للعالم من «العهد القديم». وأغفل الإعلان متعمداً، حينذاك، ذكر موقع الاكتشاف الحقيقي، خشية إثارة شهية لصوص الآثار والمتاجرين فيها، فيهرعون فرادى وجماعات من كل حدب وصوب للتنقيب عنها. والله وحده يعلم ما كان يمكن أن يحدث في بلاد تعصف بها الفوضى وتتهددها حرب شاملة بين عشية وضحاها.

مرّ نحو عام على انقضاء حرب ١٩٤٨، وأخذ الهدوء النسبي يسود البلاد تدريجياً، وسرعان ما علمت الدنيا بواقعة الاكتشاف وموقعه، لتغدو قمران وجوارها المقفر الوعر، بين يوم وليلة، محطّ أنظار الباحثين وموضع اهتمام الغرب.

شهور طويلة مرت، تناهز العامين، بين واقعة الاكتشاف الأول وبين الإعلان عن طبيعته، ولا بد أنها حفلت بأحداث مثيرة غامضة، كانت ولا تزال تلقي بظلالها الكثيفة على قمران ولفائفها، لتجعل منها موضع خلاف تتصاعد أصداؤه يوماً بعد يوم.

تضاعفت دهشة العالم، حين أخذت اللفائف الجلدية الداكنة اللون في التدفق الواحدة تلو الأخرى من كهوف قمران. وغدت المنطقة النائية المقفرة ملتقى الباحثين الغربيين لقرابة عشر سنين. وما لبث أن أدرك هؤلاء أنهم بقايا مكتبة عامرة تعود إلى جماعة لم تكن معروفة للعالم من قبل، وقريبة العهد من السيد المسيح، مما يؤهلها للكشف عن خفايا القرن الميلادي الأول، فتلك المرحلة على أهميتها البالغة في تاريخ الإنسان، تعدّ الأقل توثيقاً والأكثر غموضاً.

اشتعل اهتمام العالم، وباتت قمران وجوارها القاحل على كل لسان ومحط أنظار الباحثين، يتلقفون ما تطرحه كهوفها المتناثرة من نتف اللفائف، انتظاراً لتجميع القطع بعضها إلى بعض تمهيداً لترجمتها وإعدادها للنشر، والدنيا تتابعهم بلهفة لمعرفة ما تحمله اللفائف العجيبة من خفايا وأسرار. لكنها كانت لهفة تصحو وتخفت. تصحو مع كل خبر جديد يدوي بشأنها، أو بسبب احتدام النقاش حول مضمون إحداها، ثم لا تلبث أن تخفت تدريجياً حين تتوقف الصحف فجأة عن متابعة النشر وتصمت

لسنوات، لتعاود اللهفة والصحو من جديد مع خبر أو خلاف جديد. واستمر الحال بين صحو العالم وسباته لقرابة نصف قرن متصل.

جنّي في الكهف؟

تناول معظم الكتّاب الغربيين واقعة الاكتشاف الأول وما تخللها من أحداث ومشاحنات مثيرة، حتى فاق عدد ما صدر عن قمران ولفائفها ثلاثة آلاف دراسة وكتاب بشتى لغات العالم الحيّة. لم يقصر الكتّاب في إحاطة واقعة الاكتشاف بعناصر التشويق، مما أضفى على قمران طابعاً أسطورياً مثيراً، بدا متجانساً وطبيعة المكان الموحشة، حيث تتداخل ظواهر الطبيعة بتنوعاتها الخلابة. فهناك هضاب شاهقة تلامسها منحدرات كلسية بيضاء، تشرف على وديان متعرجة وعرة، يحاذيها بحر ساكن شديد الملوحة تنعدم فيه أسباب الحياة. وتعلو المنطقة سماء صافية معظم أيام السنة، تتوسطها شمس حارقة. وجميعها ظواهر لا بد أن تبعث في النفس شعوراً بالرهبة والجلال.

زمن الاكتشاف نفسه مفعم هو الآخر بالإثارة، فقد حدث في أوائل النصف الثاني من أربعينيات القرن العشرين، بينما فلسطين تنساب من أيدي العرب لتتلقفها الصهيونية لقمة سائغة، وقوات الانتداب البريطاني على وشك الرحيل، تحزم أمتعتها إيذاناً بمغادرة البلاد، والمجال يزداد اتساعاً لتفاقم العنف وتصاعد القتال بين العرب واليهود.

في خضم هذا التوتر والكآبة، تُجمع غالبية الروايات على أن فتى عربياً من بدو التعامرة يدعى محمد الديب، أي الذئب بالعربية الفصحى، كان على مقربة من خرائب قمران يرعى كعادته قطيعاً

من الماعز في ربيع عام ١٩٤٧. وبينما كان يجلس مسترخياً، إثر جولة مضنية في القفار المحيطة الشاسعة، لمح على التلال البعيدة عنزة تتقافز بعيداً فوق الصخور الشرسة بحثاً عن الكلأ. نهض محمد متثاقلاً يلاحق العنزة فوق المنحدر الوعر، حتى تملكه الإعياء وربما الضجر من وهج الشمس اللافح وعناد عنزته المشاكسة، فألقى بجسده النحيل في ظل صخرة لالتقاط الأنفاس، وأخذ يجيل النظر متأملاً الصخور المطلة من حوله في أعلى المنحدر. وقعت عيناه على فوهة صغيرة بدت له أكثر غرابة من مجرد كونها مدخلاً لكهف أو مغارة، فالكهوف في منحدرات قمران أكثر من أن تعد أو تحصى، ومحمد قد خبر الكثير منها.

تسلق محمد المنحدر بخفة يسبقه الفضول متوجهاً صوب الفوهة في أعلى المنحدر، وحين وصلها التقط حجراً وقذف به داخلها. لم يسمع الصوت المعتاد لارتطام الحجر بالصخر، بل كان فخاراً يتحطم. أعاد الكرة مرة تلو الأخرى حتى تيقن من سلامة حدسه، فشبَّ على قدميه، متشبثاً بالصخر، ودس رأسه في الفوهة. وما أن اعتادت عيناه الحادتان عتمة الداخل، حتى تبين عدداً من الجرار أسطوانية الشكل منتفخة بشكل لافت. دبت البرودة في أوصال محمد وانتابه إحساس مفاجىء بالخوف اقشعر له بدنه، فالشمس آخذة في المغيب والصمت من حوله أصبح أشد وطأة. فمن غير جنّي يمكنه السكن في مغارة كهذه، لا تسمح فوهتها بمرور إنسان[1]!!

ألقى محمد بجسده النحيل إلى الأرض، وقد أصاب الخدر ذراعيه وسكنت له الهواجس. فانطلق يعدو مغادراً المكان، غير عابىء بالعنزة فلتذهب إلى الجحيم، وأسرع مهرولاً إلى خيام ربعه، والقطيع يتراكض من حوله.

في هدأة الليل، أسرَّ محمد إلى رفيق يكبره ببضعة أعوام، بأمر المغارة وربما الجنّي الذي يسكنها. لم يلق الرفيق بالاً بالجنّي، فالمغارة وما قد تخفيه في جوفها بدا له أكثر أهمية. وأخذ يلح على محمد باصطحابه إليها. استجاب الأخير لإلحاح رفيقه، ومضى الاثنان في صباح اليوم التالي إلى منحدرات قمران. حشر أحدهما جسده في الفوهة الضيّقة، ونفذ إلى داخل الكهف بصعوبة. لم يتمكن الرواة من تحديد أيهما دلف أولاً، والأرجح أنه محمد لنحول عوده. المهم أن من دلف منهما أولاً وجد نفسه في مغارة ضيّقة مستطيلة، مرتفعة السقف، تتوسط أرضيتها أكوام من قطع الفخار المختلطة بالركام الكثيف، المتساقط من السقف على مدار قرون طويلة، تحيط بثماني جرار بدت لحسن الحظ في حالة سليمة تماماً وبعضها كان مغطى بإحكام.

حبس الرفيقان أنفاسهما وشرعا بالبحث داخل الجرار. كلها فارغة، ما عدا جرة واحدة عثرا بداخلها على حزمة من الرقع البالية، تحتوي على ثلاث لفائف تتحول بمجرد لمسها إلى فتات.. نزع أحدهما قطعة من طرف إحداها، فلم ير سوى مادة سوداء على رقعة من الجلد الداكن الرقيق. ويمكن للقارىء تصور خيبة الأمل التي أصابت التعمريين، فلا ذهب ولا فضة، بل حزمة من رق بال وحسب!

لا بأس، دسَّ التعمريان اللفائف في طيات ملابسهما، وقفلا عائدين من حيث أتيا. في المخيم، قام التعمريان بمجرد وصولهما ببسط إحدى اللفائف، وتملكتهما الدهشة حين امتد طرفاها على طول الخيمة. لم يكن باستطاعة محمد ورفيقه، بل القبيلة بأسرها التعرف إلى نقوشها، فعملا على لفها، وقد أعياهما الأمر، ووضعاها واللفافتين الأخريين في كيس علقاه في أحد أعمدة الخيمة.

كانت تلك لفافة سفر أشعيا من «العهد القديم»، ويبلغ طولها زهاء أربعة وعشرين قدماً، وهي أولى لفائف قمران التي خرجت إلى النور بعد قرابة ألفي عام.

هل كان محمد، ذلك البدوي الغر، علاء الدين القرن العشرين كما صوره غالبية الباحثين الغربيين؟

لم يتقبل نيل أشر سيلبرمان Neil Asher Silberman، هذه الرواية الشائعة، ووجّه انتقاداً لاذعاً لكبار باحثي الخمسينيات، الذين أشبعوا واقعة الاكتشاف، بوجه خاص، بالرموز السياسية والدينية، إضافة إلى تعمدهم تجريد الشخصيات الرئيسة من هويتها ومن سياقها التاريخي، مما جعل رواياتهم أشبه بحكايات ألف ليلة وليلة، ناهيك عن أسلوبهم في السرد الذي جاء مشوباً بالتعالي والاستخفاف بذكاء التعامرة ودوافعهم الحقيقية. يعود سلبيرمان بواقعة الاكتشاف الأول إلى شتاء عام ١٩٤٦، وليس إلى ربيع أو صيف عام ١٩٤٧، كما زعم معظم المؤرخين. فمنذ وصول التعامرة إلى المنطقة في القرن السابع عشر الميلادي، وحلّهم وترحالهم ليس بالأمر الاعتباطي، بل يتزامن بدقة مع حاجة قطعانهم للمرعى. فهم في الصيف، موسم الجفاف، يخيمون في الهضاب على أطراف بيت لحم لبيع منتوجاتهم من الصوف والألبان لسكان بيت لحم والقرى المجاورة، بينما تجوب قطعانهم الحقول لتقتات بما تبقى بعد موسم الحصاد. وحين يحل الشتاء، موسم البرد والأمطار، يسوق التعامرة قطعانهم في اتجاه الشرق، نحو شواطىء البحر الميت ووادي الأردن، بحثاً عن الدفء والكلأ، الأمر الذي يجعل شتاء عام ١٩٤٦، الأكثر احتمالاً لتاريخ الاكتشاف.

لم تكن واقعة الاكتشاف، محض صدفة أو خبطة عشواء لفتى

تعمري ساذج، بل تعود في الحقيقة إلى أبناء عمومة ثلاثة، إثنان منهما يدعيان: خليل موسى وجمعة محمد، وهما رجلان ناضجان، وثالثهما الفتى محمد أحمد حامد، المعروف بالديب. وحسب رواية جون تريفر John Trever، الذي كان في القدس وعايش أحداث الاكتشاف في مراحله الأولى، فقد لفتت الفوهة الصغيرة انتباه جمعة أثناء تجوله ورفيقيه في التلال المحاذية للبحر الميت، فألقمها حجراً ليدرك، من فوره، ما يخبئه الكهف. هذا تصرف صياد متمرس للآثار، يعرف بغيته جيداً وليس راعياً ملأه الضجر والملل. غير أن الوقت لم يكن ملائماً لدخول الكهف، فالشمس كانت على وشك المغيب والليل بدأ يرخي سدوله، فأرجأ ورفيقيه المهمة إلى اليوم التالي. لكنهم لم يعودوا في الموعد المحدد، فقد اضطرتهم سقاية أغنامهم إلى التغيب ليومين، في عين الفشخة، التي تقع على بعد ميلين إلى الجنوب. لم يطق الفتى محمد صبراً، فغافل رفيقه وأسرع بمفرده إلى الكهف في صبيحة اليوم الثالث، ليجد اللفائف الثلاث الأولى، سفر أشعيا، شروح سفر حبقوق، وأخرى أطلق عليها «قانون الجماعة».

تملك الحنق الشديد جمعة وخليلاً من رفيقهما الصغير لانفراده بالذهاب إلى قمران وحده، وتنازع الاثنان وادعى كل منهما ملكيته للفائف وبدأ الشجار.

أيعقل أن يكون كل هذا الحرص على اللفائف والتشاحن حولها ـ والكلام لا يزال لسلبيرمان ـ لرجال سذج يجهلون قيمة ما وقع في أيديهم؟!

ألم يكن الأولى بهم، وهم من هم بلاهةً وغفلة، إلقاء تلك الحزم المتسخة البالية بعيداً وببساطة متناهية؟

يلجأ سيلبرمان إلى استحضار التاريخ ليبرهن على سلامة وجهة نظره، فيعود إلى تقارير الأركيولوجيين القدامى، وهي لا تخلو من الإشارة إلى عرب التعامرة. فقد أثبت هؤلاء على مرّ السنين جدارتهم ومهارتهم الفائقة في تبين مواقع الآثار واقتناصها من الكهوف والوهاد المحيطة بالبحر الميت. حتى إنهم تفوقوا بالفعل على الأركيولوجيين الغربيين، ولهذا فهم ليسوا بجامعي قمامة، بل رجال أشداء يتسمون بالدقة والالتزام، وعلى دراية واسعة بأعمال الحفر والتنقيب وبجدوى ما يعثرون عليه.

مما لا شك فيه، أن المتاجرة في القطع الأثرية والمخطوطات كانت تشكل للتعامرة، منذ زمن بعيد، مصدراً إضافياً للعيش في بقعتهم النائية القاحلة هذه. وقد تحول بعضهم إلى رجال أعمال حاذقين يعرفون جيداً ما يبحثون عنه، بعد أن أهلتهم الخبرة الطويلة المتوارثة لأخذ زمام المبادرة بأيديهم. فالتعامرة ليسوا مجرد عمال يقومون بالحفريات عند الطلب، فقد عمل أسلافهم، في القرن التاسع عشر، بالأجر لدى القنصل الفرنسي بالقدس رينيه نوفيل، حين بدأ جولاته الاستكشافية بين كهوف واد يقع جنوب شرقي بيت لحم، مما أكسبهم مهارة فائقة بالفعل حتى إنهم أخذوا يتبعون أساليب منهجية في أعمال الحفر والتنقيب، وأظهروا حذراً شديداً في إزاحة طبقات الأتربة والركام، حرصاً على مصلحتهم الخاصة. وللحق، فإن الأركيولوجيين في تلك الأيام، ليسوا بأفضل حال منهم.

ليس العثور على مخطوطات، في منطقة البحر الميت، بالأمر المستجد أو المستهجن بالنسبة إلى عرب التعامرة، ففي بداية ثلاثينيات القرن العشرين، عرض بعضهم عملات وجراراً قديمة على عمال يهود في معمل للفوسفات، يقع على الطريق الشمالي

للبحر الميت، وأبدى التعامرة استعدادهم لاصطحاب أولئك العمال لرؤية كهوف تحتوي على «كتب من أيام ملوككم». إن علاقة البدو بالآثار تعود بشكل عام إلى عهود سابقة، حيث ترجع الاكتشافات المسجلة للمخطوطات في منطقة البحر الميت إلى قرون بعيدة. يتحدث الأب والباحث التوراتي أوريجانس "Origens"، الذي قام بزيارة فلسطين في بداية القرن الثالث للميلاد، عن اكتشاف مخطوط قديم «كتب بالعبرية واليونانية في جرة بالقرب من أريحا». كما أدلى البطريرك النسطوري[٢] «طيموثاوس» بمعلومات مفصلة عن اكتشاف مخطوط، في ظروف تكاد تكون متطابقة إلى حد بعيد مع الظروف التي أحاطت بالعثور على لفائف قمران!

كتب البطريرك النسطوري إلى صديقه أسقف عيلام «سرجيوس» رسالة في القرن الثامن الميلادي، يقول فيها:

«علمنا من يهود ثقاة بالعثور، قبل عدة سنوات، على كتب مخبأة بين الصخور بالقرب من أريحا».

غير أن الفضل يعود في تلك المرة إلى كلب وليس إلى عنزة، دلف الكلب إلى أحد الكهوف أثناء مطاردته لإحدى الفرائس ولم يخرج. فلحق به صاحبه البدوي ليجده داخل تجويف صخري واسع، بداخله كتب كثيرة. أسرع البدوي إلى القدس وأخبر اليهود بما رآه، فهرعوا بأعداد غفيرة إلى الكهف ليعثروا على «كتب للعهد القديم ولغيره بالحروف العبرية».

ويستطرد البطريرك في رسالته مضيفاً:

«ولوجود عالم بينهم ـ أي بين اليهود ـ اطلع على تلك الكتب وتمعن بدراستها، قمت بسؤاله عن مقاطع كثيرة وردت في كتابنا

المقدس بوصفها اقتباساً من «العهد القديم»، غير أننا لا نجدها في النسخ المتداولة حالياً، سواء بين المسيحيين، فأجابني العالم بقوله: إنها موجودة، ويمكنك رؤيتها هناك في الكتب المكتشفة حديثاً».

أمام إشارة طيموثاوس هذه، لم يتمالك الكاتب الأميركي سلبيرمان نفسه من إبداء الدهشة، واندفع معلقاً:

«تلك إشارة مذهلة بالفعل، تلمح إلى وجود كتاب مقدس بالعبرية في العصور القديمة، يختلف عن العهد القديم المعترف به، والذي في حوزتنا الآن»[٣].

لم يكن، إذن، العثور على لفائف قمران، المعروفة بمخطوطات البحر الميت، بالنسبة إلى التعامرة بالأمر الجديد غير المألوف، فقد خبروا العثور على المخطوطات ويدركون منذ نعومة أظفارهم أهميتها جيداً. بالطبع ليس بمقدورهم التعرف إلى ماهيتها أو تقدير قيمتها الحقيقية، لكن هذا لا يعني بحال أنهم يجهلون انطواءها على قيمة ما لأصحاب الشأن. لذلك، فليس بالمستغرب أن تشهد الأيام التي أعقبت الاكتشاف الأول، ذهاب وإياب التعامرة من وإلى الكهف لجلب ما يتأتى لهم من لفائف وجرار، أصبح معرفة عددها الآن بدقة أمراً متعذراً على الباحثين، إلى حد افتراض بعضهم أن التعامرة استخدموا اللفائف كوقود والجرار لنقل المياه!

هذا الافتراض محض سخف وافتراء، لا يتفق بحال والخبرة التي اكتسبها التعامرة من أسلافهم عبر السنين.

على أية حال، تأبط أبناء التعامرة اللفائف الثلاث وتوجهوا إلى شيخ مسلم في بيت لحم، ليطلعوه على المخطوطات. ما أن تيقن الشيخ أنها ليست باللغة العربية حتى أشار عليهم بمراجعة خليل إسكندر شاهين، المعروف بكاندو، فالرجل إسكافي يتبع الكنيسة السريانية،

وهو ملم بالعاديات القديمة، يتاجر بها بيعاً وشراء كلما سنحت له الفرصة. بلغت هنا غطرسة الباحثين الغربيين أوجها، عندما زعم بعضهم أن التعامرة ذهبوا إلى كاندو لاعتقادهم بأن لفائفهم الجلدية تلزمه لترميم الأحذية والنعال!

ادعاء بلغ حداً من السخف والعجرفة، دفع سلبيرمان إلى التعليق بقوله:

«إن كل من رأى اللفائف أو سمع بأوصافها، يعلم مدى هشاشتها وسهولة تفتتها بمجرد اللمس. لكن ما العمل مع هؤلاء الباحثين الذين يعمدون غالباً إلى تضخيم أدوارهم على حساب العرب!!».

كان كاندو، غير مؤهل هو الآخر، للتعرف إلى ماهية المخطوطات، أو تقدير قيمتها الحقيقية، لكنه أدرك، منذ وقعت عليها عيناه، بحكم تمرسه، بأنها لا تفتقر إلى قيمة ما لمن يهمهم الأمر. ربما تعمد كاندو ألا يفغر فاه دهشة، أو يبدي أمام عملائه التعامرة حماساً ملحوظاً، لكنه بالتأكيد لم يأخذ اللفائف لترميم النعال، ولم يلق بها غير عابىء في زاوية مظلمة من حانوته لأسابيع طويلة حسبما زعم الباحث البريطاني المعروف جون أليغرو "John Allegro".

هل أتاكم حديث شابيرا؟

لعل ما وقع لموسى شابيرا، منذ عقود مضت، كان ماثلاً في ذهن كاندو. فالناس حوله ما زالوا يتداولون حكايته، كانت مأساة حقيقية حافلة بالمعاني، فشابيرا كان صاحب حانوت للعاديات والتحف الشرقية، في حارة النصارى بالقدس القديمة، وتجمعه صلة وثيقة بالكثير من الزوار الأجانب، ومعتاداً على التعامل مع المتاحف الأوروبية. وعلى غرار كل الاكتشافات الأثرية السابقة واللاحقة،

عثر بعض البدو، في ١٨٧٨، أثناء فرارهم من السلطات التركية على لفائف جلدية داكنة اللون، تغلفها خروق بالية.

استطاع شابيرا، بمساعدة أحد أصدقائه من الشيوخ، شراء اللفائف. ثم أمضى أسابيع طويلة في فحص المخطوط ودراسته، ليتبين له فيما بعد أنه نسخة قديمة لسفر التثنية تحمل رؤية مختلفة تماماً عن النسخة الرسمية المعمول بها، كما يتضمن الخطبة الأخيرة لموسى، فضلاً عن صيغة مختلفة للوصايا العشر.

أجرى شابيرا سلسلة طويلة من الاتصالات والمشاورات، ظهر بعدها في لندن عام ١٨٨٢، وقد سبقته تغطية إعلامية واسعة في الصحف البريطانية. فحص الخبراء البريطانيون المخطوط وأعلنوا أصالته. ونشرت صحيفة «التايمز» اللندنية ترجمة لبعض مقاطعه. أكثر من هذا، قام رئيس الحكومة البريطانية، آنذاك، ويليام غلادستون بزيارة شابيرا، ومفاوضته لشراء المخطوط بمبلغ مليون جنيه استراليني، ولنا أن نتصور ما يعنيه مبلغ كهذا، في ذلك الوقت.

وسط ذلك الصخب وتلك الجلبة، وقبيل انتهاء الصفقة، ظهر بغتة باحث فرنسي متعجرف مبعوثاً من قبل الحكومة الفرنسية، يدعى شالز كليرمنت جانوي للاطلاع على المخطوط والإدلاء برأيه. سمحت السلطات البريطانية لجانوي بإلقاء نظرة سريعة على رقعتين من المخطوط، ثم توجه إلى حيث تعرض اللفائف في المتحف البريطاني ليمضي يومين، والزوار يتدافعون من حوله، يتطلع من خلف الزجاج إلى الرقاع المعروضة، خرج الباحث الفرنسي بعدها ليعلن على الملأ بأن اللفائف مزيفة وليست ذات قيمة تذكر!

جاء موقف الباحثين البريطانيين أكثر غرابة، فقد أخذوا يرددون

كالببغاء رأي الخبير الفرنسي، من دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة إعادة النظر في اللقائف وتفحصها من جديد. وزادت الصحف البريطانية، بدورها، من تدهور الموقف حين أخذت تصب الزيت على النار وتتناول الموضوع بالإثارة والمبالغة، حتى تحول الأمر برمته إلى ملهاة، لينهار الموقف تماماً. لم يستسلم شابيرا أمام الهجمة الشرسة، واندفع بكل طاقته في مواجهة الطوفان يشن حملة واسعة للدفاع عن أصالة مخطوطه وصواب موقفه، أتت في النهاية على كل ما في حوزته من مال. وفي لحظة يأس مريرة وإحباط كامل من الحملات الشعواء المضادة وضع شابيرا، في آذار/ مارس ١٨٨٤، نهاية لحياته التعسة في غرفة باردة بفندق روتردام في وسط لندن. لسخرية القدر وحتى تكتمل المأساة، ما لبث أن انكشف أمر الخبير الفرنسي، الذي لم يكن سوى تاجر للعاديات، يكن عداءً شديداً لشابيرا، ربما بسبب ما يحتويه مخطوطه، وقامت الصحف الشعبية البريطانية بفضح جانوي واصفة إياه باليهودي الماكر[٤].

لكن ما حدث قد حدث، ودفع الرجل حياته ثمناً لرأي ألقى به آخر، لدوافع خفية، دون أن يراجعه أحد، والله وحده يعلم حقيقة بواطنه!!

على أية حال، اختفت مخطوطات شابيرا، ولا أحد يعلم إلى اليوم ماذا ألمّ بها، وشعر الباحثون لاحقاً بالحزن لفقدان تلك اللفائف الثمينة، وفي مقدمتهم البريطاني جون اليغرو الذي عبّر عن ذلك بالقول:

«ليت ذلك الاكتشاف حدث في القرن العشرين، فربما أصبح لتلك المخطوطات أهمية موازية للفائف قمران.. لكنها الأنانية والعجرفة والمصالح المكتسبة والسمعة العلمية، التي تقف دائماً حائلاً دون

الموضوعية.. وكلها سمات تأتي في المقدمة في القرنين التاسع عشر والعشرين على حد سواء».

إقدام شابيرا على الانتحار، يعكس في رأي سيلبرمان، تصرف رجل لم يطق تحمل العار الذي أُلحق به، تصرف يعبر عن اعتزاز رجل بذاته وليس مغامراً خرج يبحث عن الشهرة والمال. ثم يعمد الكاتب اليهودي الأميركي إلى معالجة مأساة شابيرا من زاوية أخرى، أكثر عمقاً من البليوغرافيا ومن الأسباب التي كانت وراء ارتياب تاجر عاديات فرنسي. المشكلة الحقيقية وفقاً لسيلبرمان، تكمن في أن مخطوطات شابيرا وضعت على المحك وبشكل مباشر، ثبات وعصمة النص التوراتي بصفته وحياً مباشراً من الله، وهو الأمر الذي كان يعد تحدياً وإهانة للشعور الديني العميق لدى الباحثين. قد لا تعود مخطوطات شابيرا إلى عام ٨٥٠ق.م، كما اعتقد صاحبها، ولكنها شأن لفائف قمران لاحقاً، دفعت إلى السطح احتمالاً قوياً مؤرقاً، بأن استعمال الحروف العبرية القديمة جاء تعبيراً عن الشعور الوطني لليهود في عهد الملوك المكابيين وأثناء الثورة في مواجهة الرومان لاحقاً. فقد جرى في تلك الفترة الساخنة توزيع مكثف للكتب الدينية بين اليهود، واعتبر التحرر حينها في إعادة صياغة التوراة دلالة على الوحي الإلهي وليس مجرد هرطقة(٥).

قصارى القول، لم يكن المناخ السائد في القرن التاسع عشر مهيأ بعد لرؤية ولتحد كهذين.

حيرة ما بعدها حيرة!

اتصل كاندو بصديق له سرياني يعمل بائعاً متجولاً في القدس يدعى جورج شعيا، وحسبما تؤكد بعض المصادر، كلف كاندو

صديقه بالذهاب إلى قمران بصحبة تعمريين كي يتعرف إلى الكهف ويقوم بالمزيد من البحث والتنقيب. تمت المهمة الاستكشافية بنجاح، وعاد ثلاثتهم محملين بآلاف النتف، شكلت في مجموعها أربعة لفائف، في حين كان سائق سيارة الأجرة ينتظرهم تحت وهج الشمس الحارقة، أسفل المنحدرات على جانب الطريق، سابحاً في عرقه لساعات طويلة.

غني عن القول أن كافة هذه الأنشطة تقع خارج نطاق القانون، فحسب قانون الانتداب البريطاني، الذي طبقته الحكومة الأردنية لاحقاً، يدخل كل ما في باطن الأرض من آثار في ملكية الدولة، مما يفترض معه تسليم كل ما يعثر عليه من لفائف وجرار وعملات إلى دائرة الآثار. لكن فلسطين شأنها دائماً، كانت في حالة من الغليان، والقدس مقنسمة إلى ثلاث مناطق، عربية ويهودية وبريطانية، يعصف بها العنف وتعمها فوضى شاملة، وسلطات الانتداب البريطانية غارقة حتى أذنيها في متابعة ما يجري على الأرض من أحداث وعنف، من دون أن يتوفر لديها الوقت الكافي للالتفات إلى ما يدور في باطن الكهوف أو في السوق السوداء، في حين كان كاندو وفريقه يعملون بهمة وفي سرية تامة، لمتابعة الحفريات وإجراء المساومات من دون أن يطرف لهم جفن.

ينتهي المشهد الأول مع تولي كاندو وفريقه مهمة العثور على أهم كشف أثري في القرن العشرين والعمل على تسويقه، وقد أصبحت سبع لفائف وآلاف النتف موضع مساومات مضنية ومحل تداول في السوق السوداء، وسلطات الانتداب في غفلة تامة عما يدور في الخفاء. لم يكن أمام كاندو أفضل من الأب إثناسيوس يشوعا صمويل، مطران الكنيسة السريانية في القدس، للاتصال به وإطلاعه على أمر اللفائف، فهو يعرفه رجلاً طموحاً

وذكياً، يتمتع بشخصية جذابة، وفوق هذا هو معروف بولعه في اقتناء المخطوطات. عند هذه النقطة، يبدأ التناقض في تفاصيل قد تبدو هامشية، إلاّ أنها ألقت بظلالها على مصير بعض اللفائف. ما إن علم المطران صمويل بأمر اللفائف من شعيا، حتى طلب ترتيب لقاء عاجل مع التعامرة، وشاء حظه العاثر أن ينسى إبلاغ رهبان الدير بالزيارة المرتقبة، فما إن رأى هؤلاء التعامرة بباب الدير بملابسهم الرثة ووجوههم المغبرة والحزم البالية التي يتأبطونها، حتى طردوهم شر طردة!

استاء التعامرة من المطران ورفاقه لاستقبالهم الجاف، وأصروا على عدم التعامل المباشر معه، وذهب الغضب بأحدهم إلى درجة رفض بيع حصته من اللفائف للمطران، مفضلاً بيعها لتاجر آخر في بيت لحم. استطاع كاندو تدارك الأمر، فقام بشراء الحصص الباقية نيابة عن المطران مقابل أربعة وعشرين جنيهاً إسترلينياً، احتفظ منها بالثلث وأعطى الباقي إلى عملائه التعامرة. احتوت الصفقة على أربع لفائف «سفر أشعيا، سفر حبقوق، كتاب قانون الجماعة، وأخرى أطلق عليها لاحقاً «أبوكريفا التكوين»».

أما المطران صمويل فقد عقد العزم على أخذ المبادرة بنفسه، فاللفائف الأربع ليست كافية، فقام على الفور بإرسال أحد القساوسة برفقة شعيا إلى قمران، لإجراء المزيد من أعمال البحث والتنقيب في الليل، تحاشياً لعيون الشرطة. واستطاع بعد عناء الحصول على لفافة أخرى، فهي كل ما بقي في الكهف، بعد أن سبقه التعامرة ونظفوا الكهف على أفضل وجه. مع ذلك يصر البعض على أن حملات المطران الليلية قد أسفرت عن لفائف عدة، لم يكشف النقاب عن بعضها.

يرجح المطّلعون على بواطن الأمور، أنه بحلول عام ١٩٤٧، كان يوجد مجموعتان متنافستان، تسعى كل منهما إلى الحصول على أكبر قدر من نتف اللفائف، بعد أن شاع أمرها في أوساط التعامرة وتجار الآثار في القدس. ويبدو أن كاندو اتخذ قراراً بتوسيع دائرة نشاطه إثر الحماس الذي أبداه الأب صموئيل، فعمل بمساعدة التعامرة على تكثيف حملات التنقيب. أما جمعة وخليل فقد فضلا منفذاً آخر لترويج بضاعتهما، فقاما ببيع كل ما لديهما من لفائف إلى تاجر آخر في بيت لحم، يدعى فيضي العلمي، الذي اقتنع أخيراً بجدوى اللفائف المادية، خصوصاً وقد اشتد الطلب عليها. دفع العلمي سبعة جنيهات، أي ما يوازي ٢٤ دولاراً أميركياً، مقابل ثلاث لفائف، تضمنت مخطوط «حرب أبناء النور مع أبناء الظلام»، ترانيم شكر، ومخطوطاً آخر لسفر أشعيا، فضلاً عن جرتين من قمران دفع مقابلهما مائة وخمسين قرشاً!

قام العلمي، يحدوه الأمل بالربح الوفير، بالاتصال بصديق أرمني يدعى «نصري أوهان» يدير دكاناً للعاديات يقع مقابل الكنيسة اللوثرية في حارة النصارى بالقدس القديمة. من هنا بدأت همزة الوصل مع أليعازر سوكنيك "Sukenik Eleazare" مدير الجامعة العبرية ووالد إيغال يادين،، قائد العمليات المعروف في الهاغاناه. لم يكن سونيك عالماً وفق المعايير الأكاديمية المعروفة، فقد التحق بالجامعة لعامين فقط، ثم اعتمد على جهوده الخاصة في اكتساب المعرفة بعلم الأركيولوجيا، ليصبح بذلك أول من يرسي دعائم هذا العلم في الدولة الصهيونية المرتقبة. اتجه سونيك، وهو صهيوني ملتزم، إلى التنقيب في المعابد والمقابر اليهودية، التي تعود إلى القرون الأولى قبل الميلاد. واستطاع بالفعل اكتساب خبرة واسعة في التعرف إلى الحروف العبرية القديمة، من كثرة اطلاعه على

شواهد القبور. وما أن أطلعه أوهان على رقعة من اللفائف حتى أدرك الرجل، من فوره، ماهيتها، فقد جاءت حروفها متشابهة، إلى حد أذهله، لشواهد قبور تلك الحقبة السحيقة التي اعتاد تفحصها.

مع دخول الصهيونية إلى حلبة اللفائف، كان لا بد من تضافر جهود الكتّاب الغربيين، لتكثيف جرعة الرموز الدينية والسياسية في رواياتهم. فكان على لقاء سوكنيك مع أوهان أن يتم في عجالة، في ٢٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٧، عبر الأسلاك الشائكة التي تفصل بين القطاعين العربي واليهودي في القدس، حيث لم يجد العالم الصهيوني متسعاً من الوقت للحصول على تصريح بالمرور!! ويزداد التكثيف حدة باتخاذ سوكنيك قراراً بالتسلل خفية، برفقة أوهان في سيارة عربية عامة، إلى بيت لحم في ٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٧، فهذه أيام تاريخية للحركة الصهيونية ولمشروعها في إقامة دولتها، فالتاريخ الأخير يوافق يوم تصويت الجمعية العامة للأمم المتحدة على قرار تقسيم فلسطين. ورغم حساسية الموقف وخطورته، أصرَّ العالِم الصهيوني على الذهاب إلى بيت لحم، ليلتقي بالعلمي في منزله، حيث أطلعه الأخير على مخطوطات قمران وخفاياها. وبلغ العلمي من اللياقة والكياسة حد السماح لسوكنيك بأخذ لفافتين معه لإجراء المزيد من الدراسة!

وهكذا عاد سوكنيك إلى منزله في المساء، حاملاً لفافتين وجرتين، يبلغ طول الواحدة منهما قدمين بعرض عشر بوصات!

وبينما كان منكباً، على فحص اللفافتين، إذ بالمذياع ينطلق في منتصف الليل، معلناً صدور قرار الجمعية العامة بتقسيم فلسطين. وفي غمرة حماس العالِم الصهيوني وابتهاجه بنتيجة التصويت اتخذ قراراً فورياً بضرورة شراء اللفائف[٦]!

نتف في الهواء!

كان الوقت يمر وعلى المطران صمويل التعرف إلى ماهية اللفائف الأربع التي في حوزته. قام باستشارة خبير سرياني يعمل في دائرة الآثار، فأفاده بأن اللفائف حديثة تماماً. حمل المطران لفائفه إلى آخر هولندي، يعمل في المدرسة الفرنسية للتوراة بالقدس، التي يديرها رهبان الدومينكان والتي تتولى الحكومة الفرنسية تمويلها جزئياً. بدا العالِم الهولندي حائراً متشككاً، فمضى يعرضها على عالِم بارز، فعاجله الأخير بمحاضرة طويلة حذره فيها من الأفاقين الذين يغرقون الأسواق بالمخطوطات المزيفة! فما كان من الخبير الهولندي إلاّ أن انسحب من العملية برمتها عملاً بنصيحة صديقه المستشار البارز، لتضيع فرصة المدرسة الفرنسية في الاستحواذ على اللفائف، لكن إلى حين.

لم يعد أمام المطران صمويل من مخرج سوى اللجوء إلى الخبراء اليهود، فعرضها على أحدهم وكان يعمل في مكتبة الجامعة العبرية بالقدس، فجاء رأيه بأن اللفائف تعود إلى العصور الوسطى، وأنها «قد تستحق الدراسة لغرابتها ولكنها لن تثير أية ضجة»، أما د. توما ديكسلر، وهو من هو علماً وشهرة فقد تمكن من تحديد ماهية اللفائف، لكنه حاول جاهداً إقناع المطران بالإقلاع عن أوهامه بقدم تلك الرقاع، حتى أنه ضرب المائدة التي تفترشها اللفائف قائلاً بحزم: «أتعلم لو أن هذه المائدة صندوق ملأته لتتمته بأوراق النقد، لما أوفيت هذه اللفائف قيمتها الحقيقية، لو أن عمرها ألفا عام»(٧).

ذهبت محاولات ديكسلر الحثيثة لإقناع المطران بالعدول عما في رأسه من أوهام أدراج الرياح، فقد بقي الأخير متصلباً واثقاً بأصالة اللفائف وعتقها. كيف لا وقد خلبت لبه منذ أن وقعت عليها عيناه، وأدرك من فوره أهميتها.

غالباً ما تصف المصادر الغربية المطران بالرجل المتواضع الثقافة الأقرب إلى السذاجة، وإن لم يكن يعوزه الدهاء، خصوصاً أن الكاتدرائية التي يتبعها غنية بالمخطوطات القديمة، مما أتاح له التنبه إلى قيمة لفائف قمران. غير أن لسيلبرمان رأياً آخر مغايراً في المطران، فهو يعده باحثاً متميزاً، تمَّ تعيينه فور دخوله السلك الكنسي مساعداً لأمين مكتبة دير مار مرقس. وقد اشتهر بمهارته في التعرف إلى النصوص القديمة وقراءتها إلى درجة أن الأسقف أرسله في عام ١٩٣٩ لمصاحبة الباحث الإنكليزي، بريد ألكسندر، للبحث عن مخطوطات سريانية في مكتبة دير سانت كاترين بسيناء. كما أنه أصبح، وهو في أوائل الأربعين من العمر، رئيساً للأساقفة السريان في القدس. ويستطرد سيلبرمان معلقاً:

رغم كل التقدير للأبحاث والأطروحات الجامعية، فليس هناك من سبب يدعو لافتراض أن الباحثين الشباب في كليات اللاهوت، أكثر حذقاً ومهارة في معالجة النصوص القديمة من كاهن سرياني نابه، علاوة على اعتزاز الكنيسة السريانية الشديد بمعرفتها الوثيقة بدقائق العقيدة المسيحية، فالسريان ما يزالون حتى اليوم يؤدون طقوسهم الدينية، باللغة السريانية، وهي نوع من الآرامية، التي يُعتقد أنها اللغة التي كان يتحدث بها يسوع المسيح[٨].

آخر المطاف، حمل المطران صمويل لفائفه، وغادر القدس متجهاً إلى حمص، مقر الكنيسة السريانية، لإطلاع البطريرك على الأمر. لم يتسرب شيء عما دار بين الرجلين، لكن الأب صمويل بادر، فور عودته إلى القدس، باستئناف عمليات التنقيب في قمران بنشاط ملحوظ، وبدا أشد إصراراً على معرفة عمر اللفائف.

ما يثير الدهشة، وصول مايلز كوبلاند لمباشرة عمله، ممثلاً

للمخابرات المركزية الأميركية، في دمشق، أثناء وجود المطران صمويل في سوريا. كانت هوية كوبلاند معروفة للجميع، حيث لم تكن أعمال المخابرات حينذاك تتطلب السرية. فوجىء كوبلاند، في خريف عام ١٩٤٧، بتاجر مصري يدخل إلى مكتبه، مدعياً أن بحوزته كنزاً ثميناً. ثم أخرج من كيس بالٍ لفافة متآكلة الأطراف. حمل كوبلاند اللفافة وبسطها على سطح المفوضية الأميركية بدمشق لالتقاط الصور، وأثناء قيامه بالعمل هبت، على نحو مفاجىء، رياح شديدة عاصفة، تطايرت معها آلاف النتف في الهواء وتناثرت في الشوارع وعلى أسطح البنايات المجاورة!

أرسل كوبلاند الصور إلى خبير باللغات الشرقية القديمة في السفارة الأميركية ببيروت، بغية التعرف إلى مضمونها، فقرر الخبير أنها سفر دانيال من «العهد القديم» باللغتين الآرامية والعبرية. وضع كوبلاند الصور في أحد أدراج مكتبه، وجلس ينتظر عودة التاجر الأريب، الذي لم يعاود الظهور واختفى تماماً!

حتى اليوم لا أحد يعلم مصير الصور الملتقطة، أو المخطوطة، التي وجد لها بعد خمس سنوات عدة نسخ في أحد كهوف قمران. أما التاجر المصري فلم يسمع أحد به بعد ذلك!

هل كان المطران صمويل على علاقة بالتاجر المصري الغامض، واللفافة التي بحوزته؟ لا أحد يستطيع الجزم بذلك، فثلاث من لفائف المطران يستحيل بسطها بالطرق المعتادة، والرابعة خاصة بسفر أشعيا وليس دانيال.

هل أخطأ الخبير الأميركي في تحديد هوية اللفافة؟

هذا احتمال يتعذر أيضاً الإجابة عليه، بالإثبات أو النفي، خصوصاً أن اللفافة حسبما وصفها كوبلاند، أقصر من لفافة سفر أشعياء

والتي بحوزة المطران، والتي يبلغ طولها أربعة وعشرين قدماً.

المثيـر، أن باحثـاً إسرائيلياً علم، بعد عدة سنوات، بواقعة كوبلاند، فاكتسحت الحيرة ملامح وجهه، واندفع قائلاً لمحدثه بحماس بالغ:

«لعلها لفافة لم يسبق لأحد الاطلاع عليها، إذا توفرت لديك معلومات إضافية بشأنها، فإنني على استعداد لمبادلتك بما لدي من معلومات حول اللفائف المفقودة»[٩].

أتعني ردة فعل الباحث الإسرائيلي واقتراحه اللاحق وجود معلومات حول اللفائف ما تزال غير معروفة، أم تراها لفائف أخرى لم يكشف النقاب عنها بعد؟

مخطوطات للبيع

تمضي الأيام متسارعة والوضع في فلسطين يزداد سوءاً، والأب صمويل أعيته اللفائف ولم يتمكن بعد من معرفة عمرها، وذلك أمر حيوي يتوقف عليه السعر، فإذا كانت اللفائف في عمر مخطوطات الراحل شابيرا، أو حتى مقاربة لها، فهذا يعني ثروة طائلة. لم يعد أمام المطران من مخرج، فالوقت ليس في صالحه، وعليه الإسراع بالموافقة على لقاء مدير قسم الآثار في الجامعة العبرية، أليعازر سوكنيك، وإطلاعه على اللفائف بناء على اقتراح سائقه، أنطون كيزار الذي رافقه في رحلته إلى حمص، فالباحث الصهيوني أصبح على علم بالأمر، وربما ابتاعها بسعر مرتفع. وقد سبق لأنطون التعرف إلى سوكنيك، منذ بضع سنوات، عندما كان الأخير ينبش القبور في أرض تعود ملكيتها لعائلته. وبالفعل تمّ تحديد موعد للقاء في جمعية الشبان المسيحيين، فأمين مكتبتها يتبع، هو الآخر، الكنيسة السريانية.

كانت الجمعية تقع في القطاع البريطاني من القدس، في الجانب المقابل لفندق الملك داود المعروف، الذي فجرته منظمة شتيرن الإرهابية عام ١٩٤٦. تأبط سوكنيك العديد من المجلدات حتى يبدو مجرد باحث مجتهد، تفادياً للإجراءات الأمنية المشددة، وتمّ اللقاء في سرية تامة، في أواخر كانون الثاني/ يناير ١٩٤٨، حيث اطلع سوكنيك على اللفائف، التي بدت في حالة أفضل كثيراً مما لديه، والمطران كان أيضاً كريماً مع العالِم الصهيوني فسمح له باستعارة اللفائف لبضعة أيام لمزيد من الفحص!

أعاد سوكنيك اللفائف، لتبدأ المساومات المضنية حول الصفقة مع نائب المطران، وفيما كان سوكنيك يسعى جاهداً لجمع الأموال المطلوبة، وصلته رسالة تبلغه بتراجع المطران عن إتمام البيع!

تعزو بعض المصادر تراجع المطران صمويل عن إتمام الصفقة، إلى ارتباطه بمفاوضات مع المعهد الأميركي للدراسات الشرقية بالقدس، المعروف بمعهد أولبرايت، غير أن الحقيقة في تراجع المطران، في اللحظة الأخيرة، تعود إلى تحذير صديقه المقرب، الأب بطرس سومي، بضرورة قطع الاتصال مع الباحث الصهيوني، نظراً للعنف المتصاعد بين العرب واليهود، وبعرض لفائفه على جهة أكثر حياداً.

انصاع المطران صمويل إلى تحذير صديقه، وانطلق الاثنان معاً في ١٨ شباط/ فبراير، إلى المعهد الأميركي بالقدس. كان المعهد شبه خالٍ، نظراً للظروف المحيطة، سوى من المدير وباحث أميركي شاب يدعى جون تريفر، وسرعان ما انضم إليهما زميل آخر، يدعى براد لي، فور عودته من مكتب البريد. اطلع الشابان على اللفائف، وعملا على مقارنة حروفها بعرضها على الكتب الخاصة بتطور حروف الكتابة العبرية. وما لبثا أن أعلنا، من فورهما، عن اقتناعهما

بِقِدم اللفائف، بما يتفق ومقولة مارك توين الشهيرة، بأن الأميركيين كانوا دوماً الأكثر سذاجة والأسرع تصديقاً. لحسن الطالع، كان الباحث تريفر مصوراً بارعاً، فقام بالتقاط الصور للفائف في الطابق الأسفل للمعهد. ورغم الظروف الصعبة، خرجت الصور واضحة للغاية. أسرع تريفة بإرسالها إلى العالِم الأميركي المعروف، ويليام فوكسول أولبرايت، في جامعة جون هوبكنز بالولايات المتحدة الأميركية. ولم تمضِ سوى أيام قليلة إلا وجاء رد العالِم الأميركي ينبض حماساً وفرحاً «أُرجح أن اللفائف تعود إلى القرن الأول قبل الميلاد.. إنه لاكتشاف مذهل للغاية».

الخامس عشر من أيار/مايو ١٩٤٨، آخذ في الاقتراب والقوات البريطانية على وشك الرحيل، وبوادر الحرب العربية ـ اليهودية تلوح في الأفق، والوضع المتوتر يزداد تفاقماً في البلاد. كلها عوامل ساعدت الباحثين الأميركيين على سرعة إقناع الأب صمويل بمنح حق نشر الصور للمعهد الأميركي للدراسات الشرقية. تمّ الاتفاق شفهياً وبُذلت الوعود للمطران بمساعدته في العثور على مشترٍ جيد للفائف. ثم بدأت الأحداث في التسارع.

قام المطران بتهريب اللفائف إلى بيروت ووضعها في أحد البنوك. أصدر البطريرك أفرام إيغنابوس قراراً بتعيين المطران صمويل قاصداً رسولياً في شمال الولايات المتحدة.

حمل المطران أمتعته ومرَّ ببيروت والتقط اللفائف.

أسرع المطران بعد إتمام الترتيبات، متوجهاً إلى الولايات المتحدة الأميركية، تدغدغه أحلام الثراء وتنشيط الكنيسة السريانية الأرثوذكسية في العالم الجديد ودفع الدماء في عروقها.

وصل الأب صمويل إلى نيويورك، في كانون الأول/ يناير ١٩٤٩،

وأودع اللفائف في أحد البنوك حيث استقرت لعدة سنوات. وجنَّ جنون الباحث الصهيوني سوكنيك لدى سماعه بمغادرة المطران واللفائف للبلاد، واستشاط غضباً، وبدأ يمطر المسؤولين في واشنطن بالرسائل مطالباً بإعادة اللفائف، وتوجه إلى رئيس الحكومة الإسرائيلية، دافيد بن غوريون، وأخذ يحثه على استعادة اللفائف بصفتها ملكية شرعية للدولة الوليدة. غير أن الدولة كان لديها أولويات أكثر أهمية وإلحاحاً.

لا بأس، إذن، أن تنتظر اللفائف في أحد بنوك نيويورك لبعض الوقت ريثما تصبح الظروف مواتية، وإن غداً لناظره قريب.

الهوامش:

(١) John Allegro, **Dead Sea Scrolls** Penguin Books, 1990, P. 20.

(٢) يركز أتباع المذهب النسطوري اهتمامهم على رسالة المسيح وليس شخصه، فيؤمنون بالناسوت وليس اللاهوت، ويعتقدون بوقوع حادثة الصلب، ويحظى المذهب حالياً باهتمام واسع في الغرب بعد اكتشاف إنجيل توما ضمن مخطوطات نجع حمادي في مصر عام ١٩٤٦م.

(٣) Neil Asher Silberman, **The Hidden Scrolls,** Mandarin Paperback, 1995, P.35.

(٤) Michael Baigent and Richard Leigh, **The Dead Sea Scrolls Deception,** Corgi Books, Jonethan Cape, 1993, P. 331-33.

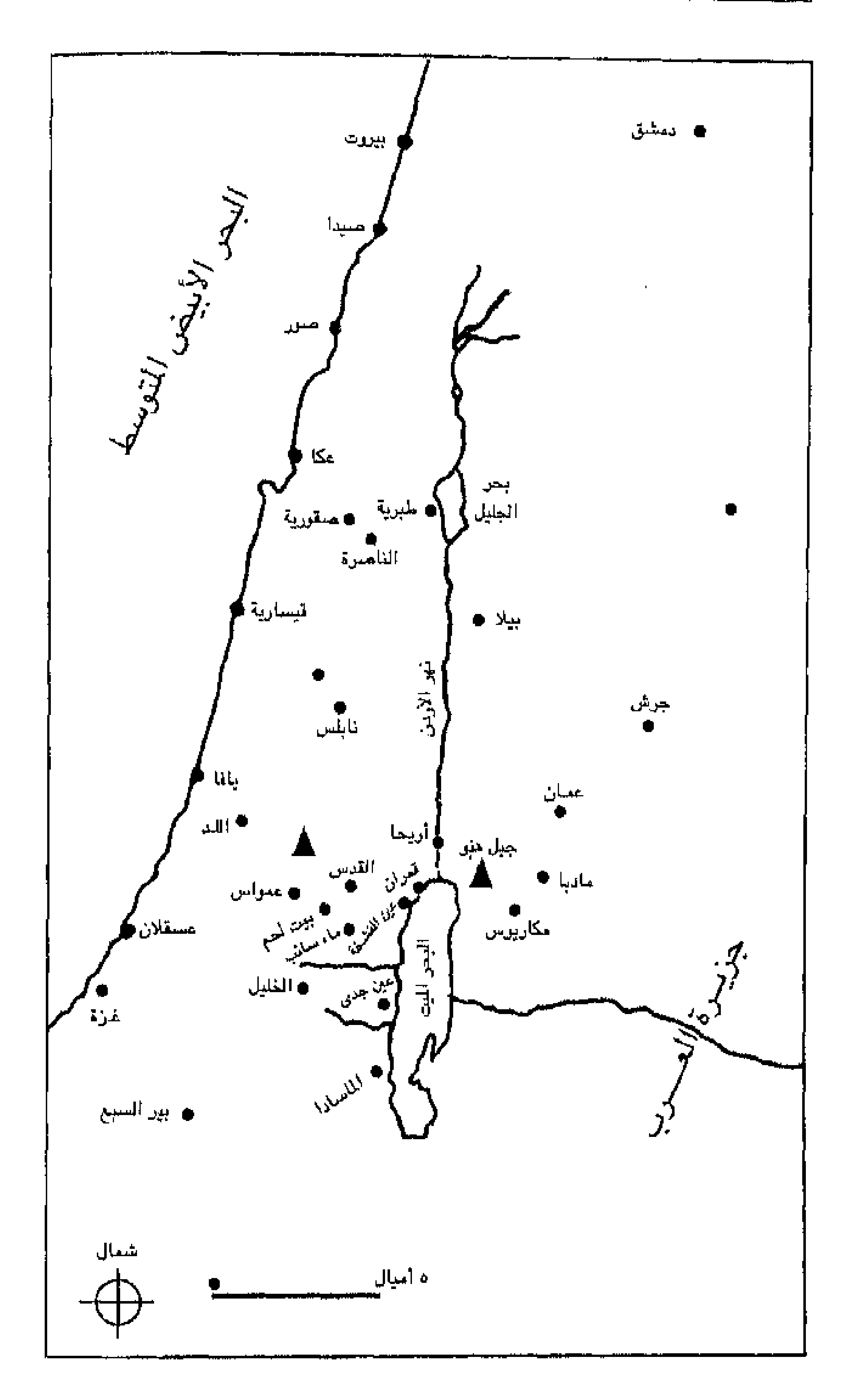
(٥) Silberman, P. 36-38.

(٦) Ibid, P. 49-50.

(٧) Baigent and Leigh, P. 52.

(٨) Silberman, P. 60.

(٩) المصدر نفسه ص ٣٢٤.



دمشق
بيروت
صيدا
صور
البحر الأبيض المتوسط
عكا
بحر
الجليل
طبرية
صفورية
الناصرة
قيسارية
بيلا
نهر الأردن
نابلس
جرش
يافا
عمان
اللد
أريحا
جبل نبو
القدس
قمران
مادبا
عمواس
مكاريوس
عسقلان
بيت لحم
البحر الميت
جزيرة العرب
الخليل
عين جدى
غزة
الماسادا
بير السبع
شمال
٥ أميال

فلسطين

الفصل الثاني

اصطياد الكهوف

جاءت حرب فلسطين عام ١٩٤٨ لتشغل الدنيا عن قمران وخرائبها، غير أن الاكتشاف الغامض بقي ماثلاً في بؤرة اهتمام قوى دينية وسياسية أخذت تعد العدة في صمت، خلف الأحداث الدامية التي تعصف بالبلاد، تمهيداً لدخولها معمعة قمران حال عودة الهدوء النسبي إلى المنطقة.

ما إن وضعت الحرب أوزارها حتى تسارعت الأحداث. في ٧ كانون الثاني/ يناير ١٩٤٩ تمَّ إعلان وقف النار على الجبهة الشرقية. وفي الثاني من حزيران/ يونيو من العام نفسه أعلنت وحدة ضفتي نهر الأردن، الشرقية والغربية، وقيام المملكة الأردنية الهاشمية، وبذلك أصبحت الضفة الغربية وقمران بداخلها تحت السيادة الأردنية، ليتولى جيرالد لانكستر هاردينغ مسؤولية قمران ومغاورها، بصفته رئيساً لدائرة الآثار في العاصمة عمان.

مرَّ قرابة عامين على اكتشاف اللفائف الأولى، ولم يتأت بعد للجهات الرسمية والمتخصصة التعرف إلى الكهف أو تحديد موقعه، علماً بأن قمران غنية بالمغاور والكهوف المتوارية، التي لا تلتقطها

سوى عيون حادة مدربة، فضلاً عن فشل محاولة المعهد الأميركي للدراسات الشرقية في زيارة الموقع، بسبب ظروف الحرب التي حالت دون إتمامها.

مع عودة الهدوء الحذر، بدأت قمران تعيش مرحلة جديدة لا تقل إثارة عن مرحلة ما قبل الحرب. بدأ المشهد الثالث، بوصول الكابتن البلجيكي فيليب ليبنز، عضو لجنة الرقابة الدولية التابعة للأمم المتحدة، وهو خريج مدارس الجيزويت، ومتخصص أيضاً في الدراسات الشرقية من جامعة لوفان وعلى اطلاع واسع بما ظهر من اللفائف. وجد الكابتن ضالته في الأب رونالد ديفو Roland Devaux مدير المدرسة الفرنسية للدراسات التوراتية بالقدس، ونجح في إثارة فضوله، فالرجل لم يكن حتى ذلك الوقت معنياً باللفائف ويراها غير ذات قيمة. أبدى الكابتن فيليب استعداده لتحديد موقع الكهف، شرط أن يرافقه الأب ديفو، لإضفاء الشرعية على عملية البحث والتنقيب. وفي المقابل تعهد بتعيينه مديراً فنياً للحفريات المقبلة، فوافق الأب ديفو، من فوره، على هذا العرض المغري.

أسرع الكابتن فيليب، بحكم موقعه في لجنة الرقابة الدولية، بإجراء اتصالات بالضباط البريطانيين في الفيلق العربي ـ الجيش الأردني ـ طلباً لمساعدتهم في الحصول على دعم الجهات الرسمية، وفي مقدمها مدير دائرة الآثار لانكستر هاردينغ. كان الأخير على علم مسبق بحدوث اكتشاف مذهل، قرب البحر الميت، قبل ثمانية عشر شهراً، كما لم يفته الاطلاع على نشرة المعهد الأميركي للدراسات الشرقية، وبات بالتالي على دراية تامة بمدى اهتمام الأكاديميين الغربيين باللفائف منذ أن ظهر أمرها في العلن، مما يفرض عليه بحكم منصبه مواجهة هذه المشكلة العاجلة والهامة.

كان على هاردينغ العثور، أولاً، على مصدر اللفائف وهو أمر تكتنفه مصاعب بالغة، ثم القيام بمسح شامل للمنطقة، فليس من المستبعد وجود لفائف أخرى في الكهوف والمغاور المتناثرة التي تذخر بها قمران. والأهم، ضرورة أخذ التدابير اللازمة الكفيلة بإبعاد اللصوص والمتلاعبين. فها هو المطران صمويل قد نجح في تهريب اللفائف والانطلاق بها آمناً غانماً إلى الولايات المتحدة الأميركية، وهيهات أن تسترد رغم محاولات الحكومة الأردنية المتكررة، فالرجل أصبح على بعد آلاف الكيلومترات، وعلى دراية تامة الآن بقيمة اللفائف المادية، وقصته أصبحت على كل لسان لتزيد أسعار اللفائف في السوق المحلية اشتعالاً وتصل بها إلى أرقام فلكية.

انطلق هاردينغ من مقر عمله في عمان إلى القدس، وطلب من أمين عام متحف روكفلر، يوسف سعد، العثور على الأفراد الضالعين في واقعة الاكتشاف الأول للفائف، وحثه على معرفة أسماء التجار الذين يتداولونها سراً في الأسواق. اصطحب أمين عام المتحف صديقه الأميركي، مدير معهد الدراسات الشرقية، وتوجها معاً إلى أزقة القدس القديمة، حيث يقع دير مار مرقس.

كانت المهمة حينها أقرب إلى الانتحار، فالهدنة كانت ما تزال غير مستقرة، والقذائف تتطاير بين الجانبين الأردني والإسرائيلي، ناهيك عن نيران القناصة الكثيفة المتبادلة.

لم تسفر المهمة عن نجاح يذكر، اللهم سوى عودتهما سالمين، فقد التزم جورج شعيا، المساعد السابق للمطران صمويل، الصمت المطبق في مواجهة الأسئلة المتعلقة بموقع اللفائف ومصيرها، غير أنه اعترف بقيام الدير بعملية تنقيب واحدة. ولم تجد محاولات

يوسف في الترغيب والترهيب لدى شعيا أذناً صاغية، وذهبت كلها سدى.

مع ذلك، لم تنته المهمة بالفشل الكامل، فقد لمح أمين عام المتحف أثناء مغادرته الدير قساً طاعناً في السن كان يقترب منه ببطء، والتفت نحوه فجأة وباغته بالسؤال عن موقع الكهف. انطلق الأب العجوز بتلقائية شديدة وبصوت أرعشته السنون، يدلي بما يعرفه من معلومات حول الكهف وموقعه، وشعيا يحاول عبثاً لجمه عن متابعة الكلام.

عظيم، لقد أصبح معروفاً الآن لدى أمين عام المتحف، أن الكهف يقع في الجهة الأخرى المحاذية لأريحا، بين المنحدرات المطلة على البحر الميت، على ارتفاع ألف قدم. معلومات أولية لا بأس بها، ولكنها تظل غير كافية، وظل الأمل يحدو أمين عام المتحف في التوصل إلى اتفاق مع شعيا رغم عناده وموقفه المتصلب، فدأب على الاتصال به محاولاً إغراءه بالمال وباقتسام ما يعثر عليه من لفائف. استمرت المساومات والمفاوضات بينهما تراوح مكانها لأسابيع طويلة من دون أن تثمر، أو تضيف جديداً إلى المعلومات التي تطوع بالإدلاء بها القس العجوز.

ما العمل في هذه الورطة، كيف يمكن إيجاد كهف في منطقة مقفرة تغص بمئات الكهوف والمغاور!!

بينما كان يوسف مستغرقاً يقلب المشكلة على كافة الوجوه بحثاً عن مخرج، لمعت في ذهنه فكرة أثناء عبوره بوابة المتحف، وهو في طريقه إلى مكتبه، لدى رؤيته جندي الحراسة العربي المنتصب في المدخل. أخذ يوسف يتأمل الجندي القادم من صحراء الجزيرة، فمَنْ غير صاحب عينين حادتين كهاتين، يمكنه العثور على كهف في

منحدر صحراوي قاحل. تبلورت الفكرة في رأس أمين عام المتحف، فعاد أدراجه، من دون أن يعرج على مكتبه، لالتقاط صديقه الأميركي وذهبا معاً لطلب المساعدة من الجنرال لاش، قائد إحدى فرق الفيلق العربي. لم يفاجأ الجنرال البريطاني بطلبهما، فقد سبقهما الكابتن البلجيكي فيليب وأطلعه على المشكلة برمتها، ملحاً عليه بضرورة العثور على الكهف، مصدر اللفائف، وقد تمكن الجنرال، بالفعل من الحصول على دعم هاردينغ في عمان، ولم يعد أمامه سوى الشروع في البحث على ضوء معلومات القس العجوز، التي جلبها للتو أمين عام المتحف.

في ٢٦ كانون الثاني/يناير ١٩٤٩، وصل من عمان البريغادير آشتون، الضابط البريطاني المختص بالأركيولوجيا في الفيلق العربي، وبرفقته النقيب عكاشة الزبن وجنديان آخران من عرب البادية. انطلق الركب في اتجاه البحر الميت، وبعد يومين فقط كان النقيب عكاشة على الهاتف يبلغ مقر القيادة بالعثور على الكهف المنشود، فيما الجنرال آشتون منهمك في رسم الخرائط وتدوين الملاحظات. التي كان لها دور كبير في الحفريات اللاحقة.

ما لبث هاردينغ أن لحق بالجنرال آشتون ورجاله لتفقد الكهف، وكان على الأرجح بمفرده، وليس بصحبة الأب ديفو والكابتن فيليب حسبما زعم البعض. طلب هاردينغ وضع حراسة مشددة على مدخل الكهف لحين وصول الباحثين المختصين، غير أن رداءة الطقس وهطول الأمطار، دفعا الجنرال آشتون إلى سحب رجاله، فلم يكن ممكناً أن يتركهم في العراء على باب كهف موحش في طقس بارد ماطر كهذا!!

استقرت الأحوال الجوية، بعد قرابة أسبوعين، ليشرع بعدهما الأب

ديفو وأمين عام المتحف وآخرون في عملية التنقيب داخل الكهف، حيث وجدوا مئات النتف المتناثرة وبقايا من الرقع البالية والكثير من حطام الفخار بما يكفي لتكوين أربعين أو خمسين جرة! كان الضرر الذي لحق بالكهف جسيماً واضحاً، فقد أزال التعامرة جزءاً كاملاً من واجهة المنحدر في حفرياتهم السابقة، من أجل توسيع مدخل الكهف.

كان على هاردينغ التحرك بسرعة، وبأية وسيلة، لجمع اللفائف ونتفها. فالأوساط الأكاديمية في الخارج في حالة استنفار، تحثه على الإسراع بجمع اللفائف، بعد أن تبيّنت أهميتها البالغة، وكل كلمة، على حد قول الباحثين، تساوي وزنها ذهباً.

و.. تحقق مطلب الباحثين إلى حد كبير، وصدق حدسهم بالنسبة إلى أهمية اللفائف. غير أن التكلفة المالية كانت باهظة، دع عنك الجهد الإنساني المبذول. فما إن انتشرت أخبار المطران صمويل وآلاف الدولارات التي سوف يحصدها من جراء اللفائف التي فرَّ بها، حتى انفلت الموقف تماماً. الحركة من وإلى منطقة البحر الميت باتت شبه دائمة، واللفائف أصبحت الشغل الشاغل لعرب التعامرة، إلى درجة أنهم بسطوا سيطرتهم على منطقة قمران، لمنع أبناء القبائل والعشائر العربية المجاورة من اقتحام المنطقة، ولو بقوة السلاح إذا استدعى الأمر، خشية اقتسامهم للغنيمة.

هكذا احتكر التعامرة ما يمكن وصفه «باصطياد الكهوف» وإفراغها مما تحتويه من كنوز، وتفتقت أذهان بعضهم عن ألف حيلة وحيلة لتهريب النتف. وكاندو، وسيطهم المفضل، من ورائهم يحضهم على المزيد من الحفر والتنقيب، وعلى جلب كل ما يقع في أيديهم من لفائف ونتف، فقد أصبح الأمر كناية عن تجارة رائجة يطلبها

الكثيرون، مما أدى من ناحية أخرى، إلى إنعاش عمليات التزييف وإغراق الأسواق بالرقاع المزيفة.

أمام ذلك الوضع المتردي، منح هاردينغ أمين عام المتحف يوسف سعد، سلطة مطلقة في إجراء التحريات الواسعة لمعرفة ذلك الوسيط الغامض، الذي تشير إليه التقارير دائماً من دون أن تذكر اسمه صراحة، فالعثور عليه لا بد أن يقود إلى تحديد القبيلة العربية، التي تعرف وحدها المنبع الأصلي للفائف.

اختصاراً للوقت، ولملاحقة التطورات المتسارعة، قرر هادرينغ عدم التمسك بحرفية القانون، ومن ثم الشروع بشراء ما يتاح من اللفائف والنتف، خشية تعرضها للتلف لعدم توافر الشروط اللازمة لحفظها، ومنعاً لإخفائها لدوافع الاستثمار.

نجح هاردينغ بدرجة كبيرة في سياسته تلك، والفضل يرجع، أساساً، إلى طلاقة لسانه بالعربية، التي يتحدث بها كأحد أبنائها، إضافة إلى دماثته في التعامل، مما يسر له اكتساب صداقة أبناء البادية والتجار. غير أن سياسته هذه أدت، من ناحية أخرى، إلى ارتفاع أسعار نتف اللفائف، حتى وصل سعر السنتمتر المكعب الواحد إلى ما يعادل جنيهاً استرلينياً. مع ذلك، فكل الكياسة واللياقة التي كان يتمتع بها هاردينغ، لم تنجح في حل عقدة لسان شعيا ليبوح باسم الوسيط. والقس العجوز، بدوره، لم يعد لديه ما يضيفه إلى المعلومات التي سبق وتفوه بها.

غادر هاردينغ وأمين عام المتحف دير مار مرقس، بعد فشلهما في إقناع شعيا، وبينما هما غارقان في تدبر الأمر، اندفعت نحوهما فجأة امرأة، وكانت نجدة من السماء، أخذت من فورها تشكو لهما مر الشكوى من سوء أحوال زوجها جبرة وحظه العاثر. فقد

أعطاه القس، ولعلها تعني المطران صمويل، قطعة بالية من الرق نظير عمله، بدعوى أنها بالغة القيمة، لكن المسكين جبرة لم يعثر بعد على مشتر مناسب. وتدفقت المرأة تعلن بحرارة ولهفة عن استعدادها لإحضار زوجها في الحال.

بهت هاردينغ ورفيقه لهذا العرض الذي لم يكن في الحسبان، وتهللت أساريرهما وإن حاولا التماسك، ولسان حالهما يقول: بل نحن الذين نذهب إليه. أسرع هاردينغ وأمين عام المتحف يهرولان خلف المرأة من زقاق لآخر في البلدة القديمة، حتى وجدا ضالتهما في أحد المقاهي. لم يستغرق إقناع جبرة وقتاً يذكر، فقد سال لعاب الرجل للإغراءات، ووافق من فوره على الذهاب معهما إلى المتحف. واستطاع التعرف إلى نتف اللفائف وقطع الفخار الموضوعة في الطابق الأسفل للمتحف، التي جاءت مطابقة لما سبق له رؤيته في قمران.

استرسل جبرة في الحديث عن مرافقته لأشعيا قبل نحو عام، للتنقيب في أحد كهوف قمران. لكنه سرعان ما أرتج عليه وأطبق فمه من دون أن يتفوه بكلمة عندما بادره هاردينغ بالسؤال عن اسم الوسيط. اكتسح الفزع ملامح الرجل في ثوان وكأنه رأى شبحاً، واستغرقت طمأنته وقتاً وجهداً كبيرين حتى لفظ أخيراً اسم الوسيط.

......

بدت مواجهة كاندو وزمرته مهمة تحفها المخاطر، فالهلع الذي انتاب جبرة ينبيء بالكثير الكثير، فالرجل كما يبدو مستعد لقطع الشوط إلى نهايته، لمنع أي تدخل خارجي في دائرة نشاطاته.

لم تعد المشكلة الآن متوقفة على المال فحسب، وعلى أمين عام

المتحف مواجهتها مهما كان الثمن. كان الذهاب إلى بيت لحم، في ظل الظروف السائدة عام ١٩٤٩، يشكل مخاطرة في حد ذاته لا تقل عن مواجهة كاندو، فالمسافة بين القدس وبيت لحم لم تعد تستغرق ربع الساعة كالحال قبل قيام دولة إسرائيل، بل باتت تستغرق اثنتي عشرة ساعة في طريق ضيّق التفافي متعرج، يتطلب الاستعانة بالبغال والحمير لقطع مراحله الأخيرة. وفوق هذا كله، فهو ليس آمناً حيث لم تفرض الحكومة المركزية سيطرتها بعد بشكل كامل.

ترك أمين عام المتحف حارسيه على أطراف بيت لحم، ومضى بمفرده للقاء كاندو في دكان شرقي صغير، أشار إليه بعض المارة، ليجد رجلين متحفزين وكأنهما على علم مسبق بوصوله، أحدهما عريض الصدغين تبدو عليه المهابة ويرتدي جلباباً وطربوشاً أحمر اللون، أما الآخر فبدا أكبر سناً، كث الحاجبين، أخذ يرمق يوسف بنظرات حادة مرتابة. كان الأفضل في موقف كهذا الدخول في الموضوع مباشرة. وما إن أتى يوسف على ذكر قمران ولفائفها، حتى قفز الرجل الأكبر سناً نحوه متهماً إياه بالخيانة والعمالة للحكومة، وأخذ يقذفه بألسنة حادة وبكل ما في جعبته من سباب. وكاد الموقف أن يتطور إلى اشتباك بالأيدي، لولا أن أنسلّ الرجل الآخر مغادراً المكان، ليخيم الهدوء من جديد.

عاد أمين عام المتحف وصرف الحارسين، ثم أخذ له مسكناً للبقاء في بيت لحم حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، وبدأ بالتردد على كاندو يوماً بعد آخر، يجاذبه أطراف الحديث في شتى الموضوعات ما عدا اللفائف، وحظي، أثناء زياراته المتكررة بالتعرف إلى جورج ساعد كاندو اليمين، ورفيقه في عمليات التنقيب. وشيئاً فشيئاً

توطدت أواصر الثقة بينهما، مما سمح ليوسف بمعاودة فتح موضوع اللفائف مع كاندو، بعد أن أكد له انتفاء الضرر وتعهد بمساعدته في الحصول على أفضل الأسعار. خصوصاً تهريب اللفائف إلى الخارج ليس بمأمون العواقب، فقد يودي باللفائف وبحرية المهرب معاً.

غادر أمين عام المتحف بيت لحم عائداً إلى القدس، على وعد من كاندو برد الزيارة.

أنجز كاندو ما وعد، وبدأ يتردد على يوسف في مقر عمله بالمتحف من دون أن يأتي على ذكر اللفائف.. حتى بدأ الشك يتسرب إلى أمين عام المتحف في حقيقة امتلاك كاندو لأية لفائف. وأخيراً جاء اليوم الذي طال انتظاره، حين انتحى كاندو بيوسف جانباً في حديقة المتحف، ليطلعه بحذر شديد على قطعة من الرق، لا يتعدى حجمها أصابع اليد الواحدة، وسمح له بتفحصها، ثم أعادها بسرعة إلى حافظته مغادراً حديقة المتحف على موعد للقاء في مدينة أريحا لبيع كل ما لديه من لفائف لحساب باحث بريطاني.

في الموعد المحدد، اصطحب أمين عام المتحف أحد مساعدي هاردينغ، بصفته الباحث المذكور، وبحوزته ألف جنيه إسترليني. تمّ اللقاء، في أحد أطراف أريحا، في جو يشوبه الحذر والترقب. وضع كاندو على المائدة كل ما يحمله من نتف، الواحدة منها لا يتجاوز حجمها ١,٢٥ سم^{٢}، فشرع المساعد على الفور في قياسها وتفحصها، ثم أبدى استعداده لدفع ثمانمائة جنيه مقابلها. رفض كاندو العرض بإشارة من فمه، وانحنى على المائدة يلملم النتف، فيما أخذ يوسف يجمع الأوراق المالية. وهكذا فشلت الصفقة

وافترق الجمع، كاندو ورفاقه من حيث أتوا، ويوسف والمساعد البريطاني إلى فندق ونتر بالاس في شارع أريحا الرئيس والوحيد، حيث كان يقبع هاردينغ متخفياً في انتظارهما وقد تملكه الخوف وسكنته الهواجس على الرجلين، وعلى ما يحملانه بالطبع من أموال.

على أية حال، كانت توقعات هاردينغ في محلها، فقد عاد كاندو إلى المتحف في صباح اليوم التالي، وتمت الصفقة، وفق السعر الذي حدده وتمسك به. وقبيل مغادرة كاندو المتحف صافح أمينه العام، ثم باغته مداعباً «تحياتي للسيد هاردينغ».

الآن، أصبح اللعب على المكشوف، فكاندو من ناحيته باتعلى علم بعلاقة أمين عام المتحف بهاردينغ، رئيس دائرة الآثار، ويدرك في الوقت نفسه حرص الحكومة على معاملته باللين، طالما بقي ملتزماً باللعب في مربعها. وهاردينغ في الناحية الأخرى لا يزال في أمسّ الحاجة لمعرفة، أصحاب الفضل الأول في الاكتشاف المذهل، فربما يوجد المزيد من اللفائف في كهوف أخرى في قمران، ومَن غير التعامرة يمكنه العثور عليها.

لم يطل انتظار هاردينغ، فما لبث أن أخبره كاندو بأسمائهم. وقام مدير دائرة الآثار بدعوة الشباب التعامرة الثلاثة إلى عمان حيث التقاهم بدماثته المعهودة ورحب بهم ببساطة وأريحية. وعاد الثلاثة إلى ربعهم وقد أسرهم هاردينغ بحسن استقباله وطلاوة لسانه، وأخذوا يحدثون رفاقهم طويلاً عن ذلك الإنكليزي الساحر، الذي يعرف البدو جيداً، ويحترم أعرافهم وتقاليدهم، على العكس تماماً من ذلك التعالي الذي يلاقونه عادة من أبناء جلدتهم العرب في المدن والقرى المجاورة.

شهور قليلة وتحققت توقعات هاردينغ، عندما ذهب بعض التعامرة إلى المتحف في القدس، أثناء غيابه والأب ديفو خارج البلاد، وأطلعوا أمينه العام على قطعة من الرق عثروا عليها ضمن لفائف كثيرة في كهف جديد آخر بقمران. طلب يوسف من التعامرة اصطحابه، على الفور، لزيارة الموقف فوعدوه خيراً وذهبوا ولم يعودوا. لم يعد أمام أمين عام المتحف سوى التصرف بسرعة لوأد عملية التنقيب، غير القانونية، في مهدها قبل ضياع الفرصة، هذا إذا لم تكن قد ضاعت بالفعل، وقام التعامرة بتنظيف الكهف الجديد وإخفاء كل ما وجدوه من لفائف وكنوز.. لتبدأ بعدها ملاحقة التعامرة والوسطاء من جديد بكل ما يعنيه هذا من جهد واستنزاف لميزانية محدودة أصلاً.

أسرع يوسف إلى بيت لحم بعد حصوله على رسالة توصية من البريغادير آشتون تتيح له الحصول على المساعدة من نقاط الجيش المتمركزة على الطرق، إضافة إلى حارسه الشخصي وجنديين آخرين. توجه الركب من بيت لحم إلى حيث يقيم التعامرة، فقام هؤلاء، والحق يقال، بواجب الضيافة على أكمل وجه ولكنهم تحاشوا تماماً الانجرار في الحديث عن اللفائف والكهوف، بل بادروا هم بسؤال أمين عام المتحف والإلحاح عليه لمعرفة سبب حملته الصغيرة. ولم يأخذوا، بالطبع، على محمل الجد ادعاءاته المتكررة بالخروج لمجرد ممارسة الرماية فحسب.

غادر يوسف خيام التعامرة في صباح اليوم التالي وأسرع بأقصى سرعة يجوب الصحراء على غير هدى، لعله يعثر على الكهف. ولكن هيهات، فقد انتشر خبر وجوده بالمنطقة، والعيون العربية الحادة باتت ترقبه خلف الصخور المحيطة، وقد توقف أصحابها عن

العمل داخل الكهف، كي لا يفتضح أمرهم بواسطة ستار الغبار الكثيف الناتج عن أعمال الحفر والتنقيب. كان من العبث استمرار التوغل في الصحراء، فقد تدارك التعامرة الأمر واتخذوا كل أسباب الحيطة، مما يؤكد بدوره صدق حدس أمين عام المتحف بعثورهم على كهف جديد. وإلاّ فلمَ كل هذا الحذر؟!

استدارت السيارة عائدة أدراجها إلى بيت لحم، وشعور بالإحباط يلف الجميع. وفيما السيارة تقترب من المدينة لمح يوسف ذلك التعمري، الذي جاء لمقابلته في المتحف قبل أيام قليلة، يسير على جانب الطريق. فما كان من يوسف إلاّ أن أمر السائق بالتوقف واندفع لتنفيذ فكرة مجنونة استولت عليه: اقترب أحد رجاله من التعمري بحجة السؤال عن عنوان ما، وما هي إلاّ لحظة حتى غافله واقتاده إلى داخل السيارة، التي انطلقت بأقصى سرعة في اتجاه البحر الميت، بعد تأمين دعم من أحد مراكز الحراسة الموجودة على الطريق.

أسقط في يد التعمري ووافق ممتعضاً على اصطحابهم إلى الكهف الجديد، حيث اضطر الجميع إلى السير على الأقدام لسبع ساعات متواصلة لشدة وعورة الطريق، حتى وصلوا إلى واد ضيق تحيط به المرتفعات الشاهقة من كل جانب. تبين يوسف في واجهة المنحدر البعيدة كهفين، وليس واحداً، يحجبهما غبار كثيف، مما يعني انهماك التعامرة في أداء واجبهم! فجأة تعالت الصيحات ترددت أصداؤها في جنبات الوادي، واندفع الرجال خارج الكهوف وبسرعة البرق أخذوا يتسلقون الصخور. انقسم الجنود بسرعة إلى مجموعات انتشرت في عدة جهات للحاق بهم ومحاصرتهم، وهم يطلقون الأعيرة النارية في الهواء، ويدعون الفارين إلى تسليم

أنفسهم. وفيما الجميع منشغل غارق حتى أذنيه في ذلك الصخب، اتجه يوسف بمفرده إلى الكهف ليجد قاعة مذهلة في انتظاره تمتد لحوالى ٤٥ متراً في جوف المنحدر، بعرض عشرين قدماً، ويبلغ ارتفاع سقفها من ١٠ إلى ١٣ متراً. والغبار الكثيف ما يزال عالقاً في الهواء، لكن القاعة بدت خاوية، فالتعامرة قد أنهوا مهمتهم بجدارة فائقة، لا تقل جدارة عن أي فريق متخصص ومجهز جيداً!

لم يعثر الجنود على شيء مع التعامرة، وأقرّ هؤلاء عند استجوابهم بوجود أشياء رائعة في الكهف، ولكنهم بالطبع لم يأخذوا شيئاً، كما أن ليس لديهم أدنى فكرة عمن قام بذلك!

عاد أمين عام المتحف أدراجه إلى القدس، بعد أن أودع التعمري لدى الشرطة العسكرية في بيت لحم، ووصل منزله في صبيحة اليوم التالي خالي الوفاض، اللهم إلاّ من بقايا صندال قديم ونتفة من لفافة، بعد أن أمضى ليلة كاملة سائراً على قدميه. ومن فوره أبلغ دائرة الآثار بموقع الكهف الجديد، ثم استسلم لنوم عميق، واستيقظ في المساء ليجد المدينة في حالة اضطراب وغليان شديدين، احتجاجاً على اختطاف التعمري واحتجازه لدى الشرطة العسكرية، والسلطات المدنية في حالة استنفار، هي الأخرى، تسأل عن سبب احتجاز مواطن محترم في المملكة، وتعريضه لمعاملة سيئة!

استغرقت معالجة المشكلة بضع ساعات ليعود الوضع بعدها إلى طبيعته المعتادة. رأى البعض أن استعمال العنف مع التعمري لإجباره على الإدلاء بما لديه من معلومات، قد أضرَّ بعملية استعادة اللفائف، وأدى بالتعامرة إلى إحكام السرية في إخفائها مما يعرضها للتلف.

أياً كان الموقف من ذلك الانتقاد، فقد أدت مغامرة أمين عام المتحف إلى العثور على أربعة كهوف في وادي المربعات، قامت دائرة الآثار كالعادة بشراء معظم محتوياتها، ومن بينها أهم كشف أثري شهدته فلسطين، قدّوم بيد خشبية وسيور جلدية ونصل من الصوان، يعود تاريخها إلى ٤٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ق.م، مما يدل على أن كهوف وادي المربعات كانت آهلة «بالكنعانيين» منذ ذلك الزمن السحيق. كما عثر في الكهوف على رسالتين ممهورتين بتوقيع، قائد الثورة اليهودية، سمعان بن كوخبا ـ ابن الكوكب ـ ضد الرومان في عام ١٣٢ ـ ١٣٥م، الأمر الذي أشعل حماس المعاهد الأكاديمية في الغرب.

سارع هاردينغ والأب ديفو، فور عودتهما من أوروبا عام ١٩٥٢، إلى استكشاف الموقع الجديد، الذي يُعرف بخربة قمران، والذي اتضح فيما بعد أنه موطن لطائفة دينية، لا يزال الخلاف محتدماً، إلى اليوم، حول هويتها الدينية وتاريخ وجودها. يتكون الموطن من سلسلة مترابطة من البنايات، بها غرف صغيرة وقاعات للطعام والاجتماعات والكتابة، علاوة على قنوات للمياه وصهاريج ومغاسل وحوض كبير. وتقع في الجوار جبانة تحتوي على نحو ألف ومائتي قبر، عندما نبش بعضها ظهرت جثتان لامرأتين وأخرى لطفل. الغريب، أن الجثث كانت موجهة للشمال والجنوب، بما لا يتفق وتقاليد الدفن اليهودية أو الإسلامية[1].

بينما كان هاردينغ والأب ديفو مستغرقين في فحص الموقع الجديد، جاءت الأنباء عن انغماس التعامرة في العمل في كهف آخر جديد في قمران. ترك هاردينغ الموقع في عجالة إلى حيث يعمل التعامرة، ليراهم عن بعد، في أعلى المنحدر تجللهم سحابة الغبار المعهودة، مما

يعني انكباب الأركيولوجيين التعامرة على الحفر والتنقيب. استدار هاردينغ بسيارته مسرعاً في اتجاه أريحا، ليعود وبرفقته جنديان من الفيلق العربي، استطاعا الإمساك بأربعة منهم، في حين اختفى الباقون بما تيسر لهم من لفائف. ولم يعد أمام هاردينغ من مخرج سوى متابعة الشراء عبر القنوات المعتادة!

جاء ذلك الكشف الجديد بمثابة تحول مهم، دفع إلى تكثيف العمل في قمران وما حولها. فقد تقرر على الفور القيام بمسح شامل للكهوف والمغاور لضمان أخذ المبادرة من شياطين التعامرة هؤلاء. وتمّ تشكيل فريق عمل من الأب ديفو وثلاثة من زملائه في المدرسة الفرنسية للتوراة، إضافة إلى مدير المعهد الأميركي وثلاثة أركيولوجيين من الفلسطينيين والأردنيين، يرافقهم أربعة عشر تعمرياً لأعمال الحفر. فضّل الفريق الرسمي كالعادة العمل المريح والبقاء أسفل المنحدر للقيام بأعمال التصنيف ورسم الجداول والخرائط، تاركاً مهمة تسلق المنحدرات الشاهقة والعمل المضني في إزاحة الرمال والأتربة للتعامرة. فكان من الطبيعي، أن يعمد هؤلاء إلى عدم الإعلان عن كهوف بعينها لتظهر محتوياتها في الأسواق فيما بعد، ويسارع هاردينغ بشرائها، وفق الأساليب المتعارف عليها! مع ذلك، تمكن الفريق من العثور على اللفافة النحاسية الشهيرة، التي تتكون من أسطوانتين من النحاس، تبيّن للخبراء عند تقطيعهما في عام ١٩٥٦، وترجمة نقوشهما أنهما تحتويان قائمة بكنز مخبأ في القدس والمناطق المجاورة[٢].

كان على هاردينغ إيجاد حل للمشكلة المالية المستعصية ليتسنى له شراء سيل النتف المتدفقة في الأسواق. فالمعاهد المتخصصة، في الخارج لا تنفك تلح عليه بضرورة شراء كل النتف، لتتمكن من

تركيب النصوص وتجميعها. والحكومة الأردنية، اقتطعت بدورها وبصعوبة بالغة، خمسة عشر ألف دينار من ميزانيتها الضعيفة أصلاً، على حساب قطاعي التعليم والصحة، لملاحقة عملية الشراء ولم يعد بمقدورها تقديم المزيد. فكر هاردينغ ببيع اللفائف إلى هيئات أجنبية، في حال علّق الأردن قانون حظر خروج الآثار من البلاد، غير أن هذا ليس بالحل الأمثل، فعلى رغم استحالته، سيتسبب في إعاقة تجميع اللفائف بقصد الدراسة. لم يعد أمام هاردينغ من مفر سوى عرض اللفائف على المعاهد العلمية الكبرى لشرائها شرط دفع الأموال مقدماً، على أن يتم التسليم بعد الانتهاء من تجميع اللفائف وترجمتها ونشرها.

استجابت بعض المعاهد والهيئات الرسمية في الغرب لعرض هاردينغ، وفي المقدمة مؤسسة الفاتيكان. ومن المفارقات، إسراع أحد الكتّاب العرب، من دون قرينة أو بيّنة، باتهام هاردينغ بتهريب عدد من اللفائف إلى الخارج، انطلاقاً من نظرية المؤامرة التي درج عليها الكثير من العرب في رؤيتهم للأحداث، دون بذل أية جهد للتعرف إلى حقيقة الظروف الموضوعية المحيطة وأخذها في الاعتبار[٣]!

بينما كان هاردينغ يسعى لتدبير الناحية المالية، اتصل به الأب ديفو ليخبره بابتياعه، بعد مساومات مضنية، كمية ضخمة من اللفائف، بمبلغ ألف وثلاثمائة جنيه إسترليني. أسرع هاردينغ لدى سماعه أخبار الأب ديفو وبصحبته جنديان، متوجهاً إلى قمران، ليجد أمامه سحابة الغبار المعتادة، ولكنها لم تكن هذه المرة في أعلى المنحدر الصخري، بل تقع على الحافة الصخرية للسهل الكلسي، الممتد من أسفل الجرف في اتجاه شاطىء البحر الميت. اشتعل

هاردينغ بالغضب وتفاقم شعوره بالسخط والاستياء. فالكهف الجديد يقع على مرمى حجر من خربة قمران، حيث كان الفريق الرسمي منذ شهور قريبة ينبش الأرض رأساً على عقب!

جاءت عملية العثور على هذا الكهف الجديد لحساب أحد الشيوخ التعامرة. فقد تنامى إلى مسامع الشيخ في إحدى الأمسيات صدفة، ثرثرة شباب القبيلة، حول نوادرهم في قمران وأحاديث لفائفها. عاودت الشيخ ذكرى أيام بعيدة، حين أصاب طائر حجل وأخذ يلاحقه حتى أمسك به مختبئاً في شق صغير بين الصخور وأسلمه إلى قاعة رحبة بداخلها كوة يتوسطها مصباح من الفخار وعلى أرضيتها تتناثر جرار محطمة. فأصابه الذهول، لكنه تمالك زمام نفسه غير عابىء بما رأى، فالحجل كان ضالته الوحيدة، فحمله ومضى لحال سبيله[٤]!

في صباح اليوم التالي، شدّ صيادو الكهوف رحالهم إلى حيث دلهم الشيخ، وقد تزوّدوا بالماء والطعام والحبال، وعثروا على الكهف في وقت قصير نسبياً، فتدلى أحدهم داخله وبدأ على ضوء سراج في إزاحة طبقات الأتربة والركام، حتى كاد يختنق قبل أن يصل إلى قاع الكهف حيث ترقد عشرات الآلاف من نتف اللفائف. قام الرجال على الفور بتقسيم أنفسهم إلى مجموعات للعمل على مدار الساعة خشية افتضاح أمرهم، وتكللت جهودهم بالنجاح فلم يكتشف هاردينغ، ودائرة الآثار من خلفه، حقيقة ما يجري إلاّ متأخراً في دورية الصباح التالي، وقد أتمّ التعامرة عندها مهمتهم وأتوا على كل ما في الكهف من لفائف، ولم يتركوا للأركيولوجيين سوى القليل القليل ليقوموا به، ولم يبق أمام هاردينغ سوى متابعة الشراء كلما توفر لديه المال اللازم، ليودع

النتف الجديدة فوق ما سبقها في خزانة المتحف الحديدية، التي يحظر الاقتراب منها حتى لالتقاط الصور.

هكذا عاشت قمران طوال خمسينيات القرن العشرين، التعامرة منهمكون في نشاطهم المحموم لاصطياد الكهوف وإفراغها من محتوياتها، وهاردينغ يلهث في أعقابهم، والأب ديفو ينقب وراءهم عن بقايا ما غفلوا عنه. ثم ينتهي الجميع في بيت لحم عند الوسيط كاندو، أولئك يبيعون وهؤلاء يشترون، وكاندو يخرج مبتسماً بحصة الأسد، ويقسم بأغلظ الأيمان، في كل مرة، على نفاد كل ما لديه من لفائف، وسرعان ما تبدأ الدائرة الجهنمية ثانية بعد أسابيع قليلة، مع اصطياد التعامرة لكهف جديد.

عند اشتعال أزمة السويس عام ١٩٥٦، كانت اللفائف ما تزال الشغل الشاغل لهاردينغ، فأمر أمناء متحف روكفلر بالقدس بإعداد صناديق خشبية ذات مواصفات خاصة ووضع اللفائف داخلها، على أن يتم شحنها خارج القدس في حال تدهور الموقف. للأسف، لم يتكرر هذا الحرص في حزيران/ يونيو عام ١٩٦٧، رغم أن الأزمة كانت آخذة في التصاعد والاشتعال وتنبيء بانفجار الموقف.

عقب هزيمة عام ١٩٦٧، وفور استيلاء إسرائيل على القدس الشرقية، أرسل إيغال يادين زملاءه في الجامعة العبرية، يرافقهم ثلاثة ضباط إلى بيت لحم، حيث يقطن كاندو، ليقتادوه مخفوراً إلى تل أبيب، عاد بعدها كاندو يحيط به الضباط الثلاثة، وتوجهوا جميعاً إلى ساحة المنزل الخلفية، ليخرج كاندو، على مضض، لفافة الهيكل، إحدى أهم اللفائف، بعد أن قبعت حوالى ست سنوات في صندوق خشبي. مع ذلك لم يخرج كاندو صفر اليدين، فقد

تقاضى مقابل اللفافة حسب قول يادين مائة وخمسة آلاف دولار أميركي، وفي قول آخر مائتين وخمسين ألف دولار أميركي. كانت الصفقة، رغم ذلك، خاسرة مقارنة بعرض المليون دولار أميركي، الذي تلقاه كاندو قبل اندلاع حرب حزيران/ يونيو بأسابيع قليلة مقابل اللفافة نفسها(٥)!!

مع انتهاء حرب السويس، غادر هاردينغ، رئيس دائرة الآثار، الأردن عائداً إلى بلاده، استجابة للضغوط المحلية والإقليمية بإلغاء المعاهدة الأردنية - البريطانية، بعد أيام قليلة من عثور التعامرة على كهف جديد عامر باللفائف، وقد أثّر رحيله على العلاقات بين الحكومة الأردنية والمتحف الفلسطيني، روكفلر سابقاً، وانسحبت أيضاً آثاره السلبية على اللفائف.

أما التعامرة، أصحاب الفضل في أهم كشف أثري في القرن العشرين، فقد استمروا في اصطياد الكهوف وإفراغها من محتوياتها حتى بداية الستينيات. فذلك العمل على مشقته كان مصدراً أساسياً للرزق، في تلك المنطقة القاحلة. أما اليوم، فقد استقر المقام بمعظمهم على أطراف بيت لحم، حيث يعملون في الزراعة وأعمال البناء، وبقيت قلة قليلة منهم على بداوتها تمارس الرعي، وتعاني الأمرّين من ملاحقة سلطات الاحتلال الإسرائيلية المستمرة لهم وتضييق الخناق عليهم.

ما لبث المطران صمويل أن اكتشف عبث الاتفاقات الشفهية في الولايات المتحدة الأميركية، فسرعان ما تبخّرت الوعود التي قطعها له المعهد الأميركي للدراسات الشرقية في القدس، خصوصاً بعد أن فقدت المعاهد العلمية الأميركية حماسها لشراء لفائف المطران الأربع إثر نشر الصور التي التقطت لثلاث منها في القدس عام

١٩٤٧، الأمر الذي جعل المطران يصرّ على عدم نشر صور اللفافة الرابعة حتى لا يبخس سعرها، وهذه أيضاً أصبح شراؤها غير آمن، نظراً لمطالبة الحكومة الأردنية باسترداد اللفائف ودمغها المطران بالخائن والمهرب. أسقط في يد المطران وأصابه الإحباط بعد فشل محاولات عديدة لبيع اللفائف، فقام بنشر إعلان في الوول ستريت جورنال في الأول من حزيران/ يونيو عام ١٩٥٤، عن بيع لفائف البحر الميت.

التقط أحد الإسرائيليين الإعلان وأبلغ إيغال يادين، الذي تصادف وجوده في الولايات المتحدة لإلقاء محاضرات، فقام بشرائها عبر وسيط، بمبلغ مائتين وخمسين ألف دولار أميركي. وتمّ شحن اللفائف بسريّة تامة، كل واحدة على حدة إلى إسرائيل، وبعد الاطمئنان على سلامة وصولها، صدر بيان صحفي، في ١٣ شباط/ فبراير ١٩٥٥، يعلن حصول إسرائيل على لفائف المطران صمويل الأربعة، حيث تعرض حالياً في مزار خاص أقامته إسرائيل في القدس الغربية، على بعد خطوات من الكنيست الإسرائيلي.

هل انتهت قصة اللفائف؟!

رغم مرور كل هذه السنين لم يغلق ملف لفائف قمران بعد، فبعض العارفين ببواطن الأمور يقولون، إن إكراه سلطات الاحتلال الإسرائيلية كاندو على البيع، دفع آخرين إلى تهريب ما في حوزتهم من لفائف إلى الأردن، حيث تم بيع بعضها إلى كبار رجال البنوك بهدف الاستثمار، فقيمتها تفوق كثيراً أسهم الشركات العالمية في بورصات لندن ونيويورك، ويؤكد جون ستروجنيل "John Strugnell"، أحد الباحثين الأوائل في الفريق الدولي، ورئيسه المسؤول لاحقاً، بأن هناك أربع لفائف رآها بأم عينه، ما لبثت أن

اختفت. فضلاً عن اعترافات هاردينغ، على فراش الموت، باختفاء لفافتين في ظروف غامضة.

أكثر من هذا، تلقى الكاتبان الأميركيان مايكل باجنت "Michael Baigent"، وريتشارد ليه "Richard Leigh"، في أواخر السبعينيات، مخابرة هاتفية من صديق فرنسي، جامع للتحف والعاديات، حدد لهما موعداً للقائه في مطعم بلندن بالقرب من شارنج كروس، وطلب منهما إحضار آلة تصوير. وجد الكاتبان صديقهما الفرنسي في انتظارهما وبصحبته ثلاثة رجال، أميركي وتاجر عاديات فلسطيني ومهندس أردني. ثم ذهبوا جميعاً إلى بنك قريب. وبعد إجراء المهندس الأردني مكالمة هاتفية غامضة مع القدس للحصول على الإذن، قام بإخراج صندوقين خشبيين، على كل منهما ثلاثة أقفال، بعد فتحهما ظهرت مئات من الشرائح الرقيقة من أوراق البردى والرق، عليها نقوش باللغات الآرامية والعبرية واليونانية والعربية، ثم طلب من باجنت التقاط صور لبعضها. تلك المجموعة قد وصلت بالطبع إلى لندن من خلال السوق السوداء في القدس وبيت لحم، وكانت معروضة للبيع بثلاثة ملايين جنيه إسترليني[٦].

ماذا ألمّ بمحتويات الصندوقين؟

لا أحد يعلم.

هل قامت حكومة أجنبية وفق العادة المتبعة دائماً بشرائها في سرية تامة؟

أيضاً لا أحد يعلم.

أما زالت ترقد في خزينة البنك البريطاني، أم تمّ نقلها إلى بنك آخر في بلد آخر؟

سؤال لم يستطع أحد الإجابة عليه بعد.

الهوامش:

(١) Baigent and Leigh, P. 42.

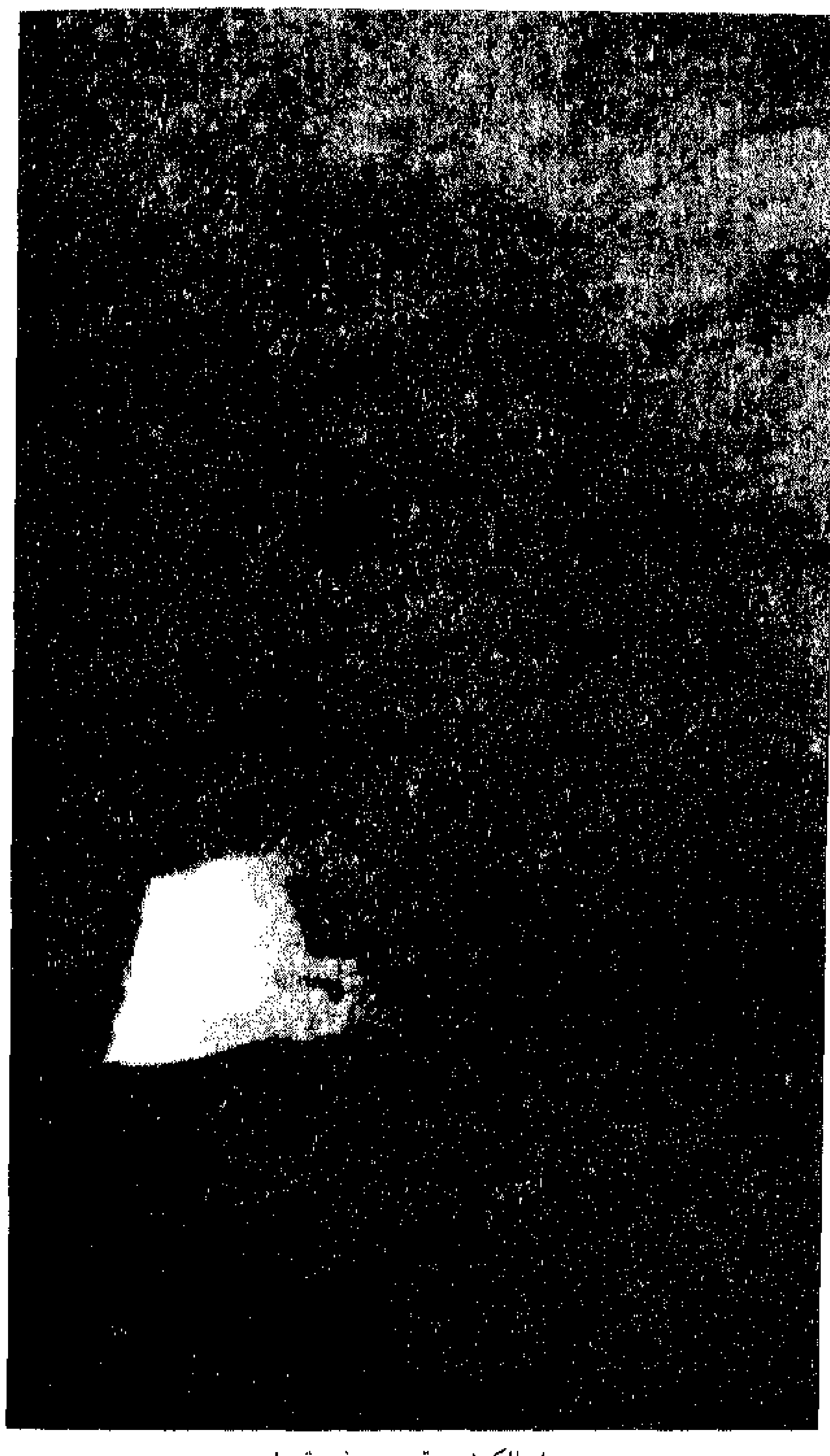
(٢) Allegro, **The Treasure of the copper Scroll,** London, 1960, P. 35.

(٣) أنظر كتاب مخطوطات البحر الميت، حسني عمر حماد، دار منارات للنشر، ١٩٨٢.

(٤) Allegro, P. 180.

(٥) Silberman, P. 180.

(٦) Hershel Ahanks, ed, **Dead Sea Scrolls,** Vintage Books, New York 1993, P. 262.



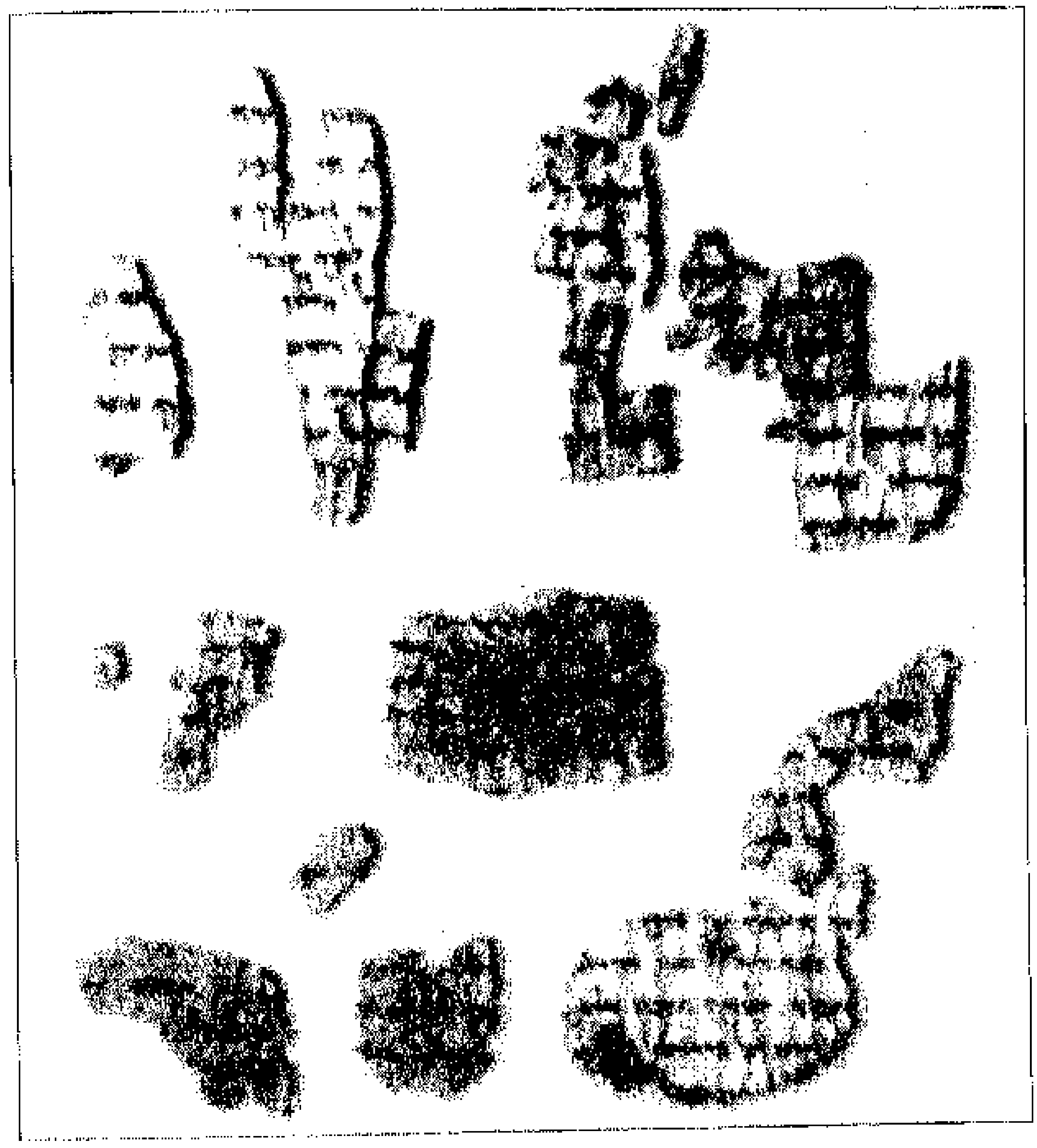
مدخل الكهف رقم (٤) في قمران



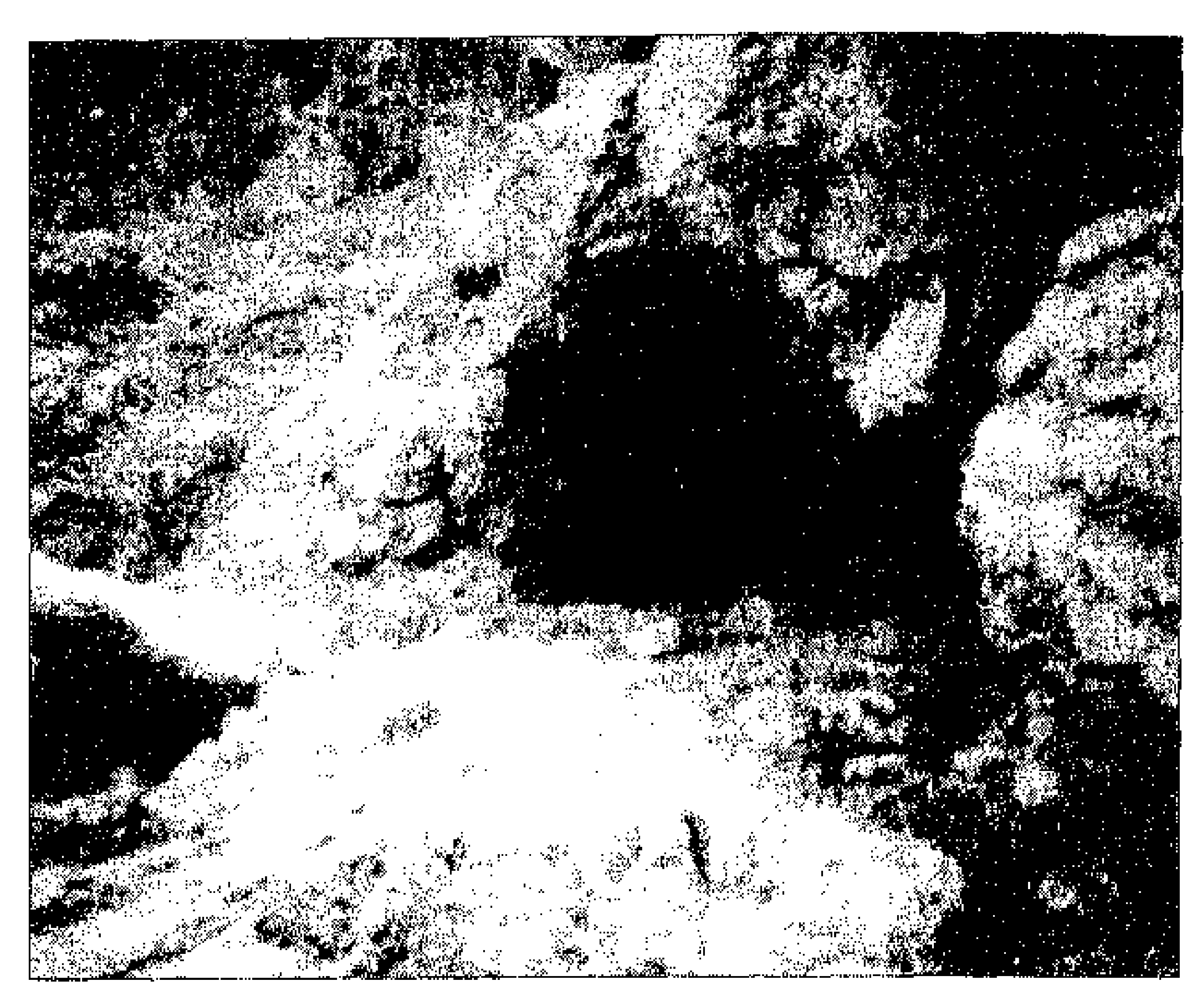
الكهوف ذات الأرقام (٤، ٥، ٦)
ويظهر في الخلف وادي قمران والمنحدرات



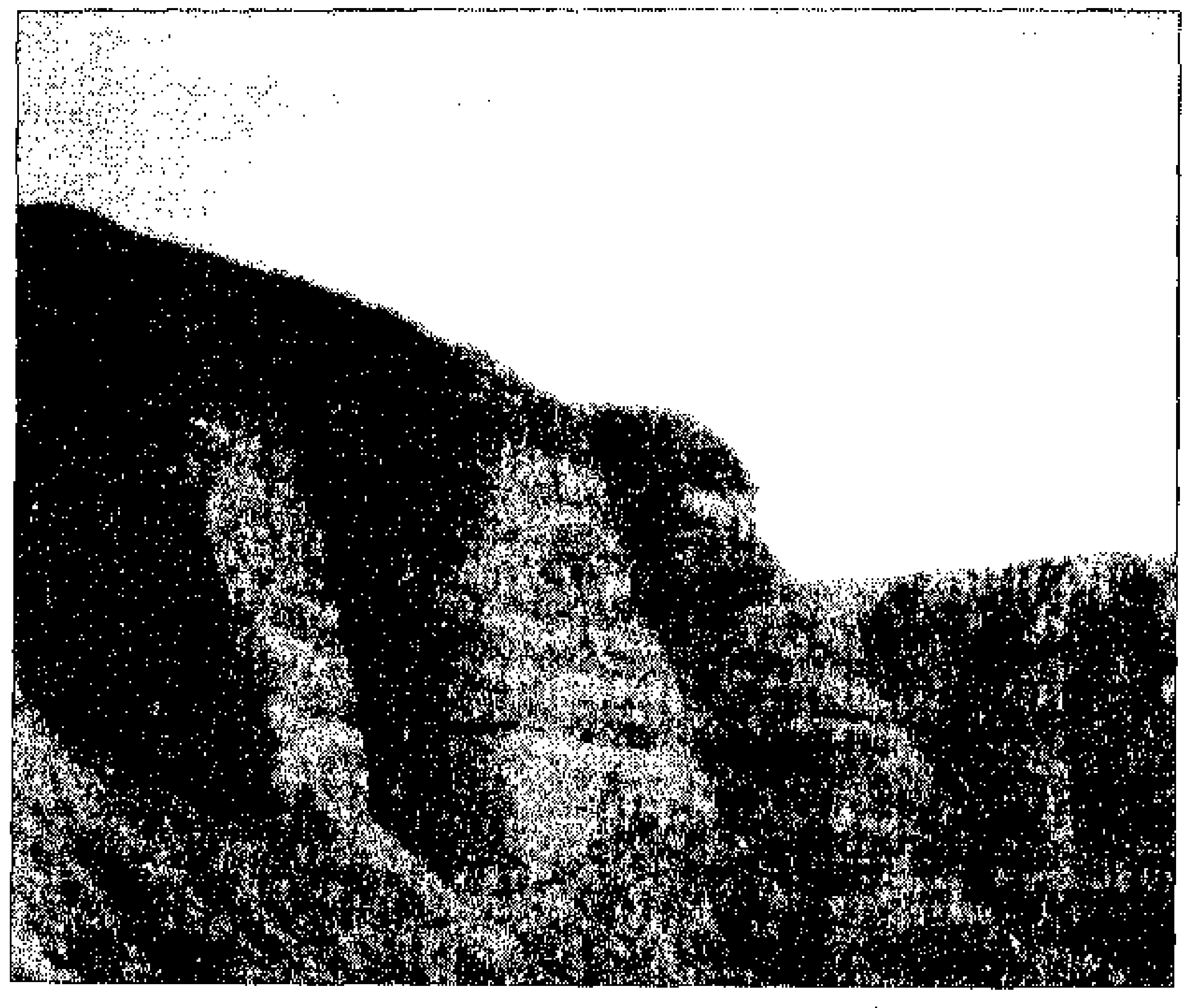
جمعة محمد ومحمد أحمد الحامد اللذان عثرا على الكهف رقم ١١



نماذج من نتف اللفائف



الكهف رقم (٣) في قمران حيث وجدت اللفافة النحاسية



الكهف رقم (٤) كما يبدو من وادي قمران

الفصل الثالث

الإجماع المقدس

تحولت إحدى أكبر قاعات متحف روكفلر، في بداية الخمسينيات إلى ورشة عمل حقيقية، من أجل تجميع النتف وتصنيفها حتى باتت تعرف بالسكرولي The Scrolly، نسبة إلى معنى اللفائف باللغة الإنكليزية Scrolls. تكدست في تلك القاعة الرحبة أكوام وأكوام من النتف بأحجام مختلفة، ومن ضمنها النتف الخاصة بالكهف رقم ٤، ذلك الكهف المثير الذي تعد لفائفه أهم اكتشافات العصر الحديث لاحتوائها على مواد لم يسبق للعالم معرفتها أو الاطلاع على مثلها من قبل، دوّنها أعضاء جماعة دينية، لم تكن معروفة للعالم، سكنت قمران، مما جعلها وكتاباتها محط اهتمام الباحثين وأكثرها مثاراً للخلاف والجدل.

تراكمت آلاف النتف بين ألواح زجاجية على موائد مستطيلة ممتدة، ووفقاً للاتفاق الذي عقد مع الحكومة الأردنية، أنيطت بفريق دولي، يفترض أنه يمثل كافة الطوائف المسيحية، مهمة تركيب النتف وتجميعها بعضاً إلى بعض حسب السياقات المتعلقة بها تمهيداً

لإعدادها للنشر. كان العمل يشبه في الواقع، لعبة عملاقة لتركيب وتوليف آلاف المكعبات الدقيقة الحجم.

يعود الباحث البريطاني جون ستروجنيل، أحد أعضاء الفريق الأوائل ورئيسه لاحقاً، بذاكرته إلى أيام العمل الأولى، ليقول بلهجة ما يزال يشوبها الاستعلاء الاستعماري «لقد قمنا بتوزيع أكوام النتف بيننا مثلما فعل الأوروبيون تماماً عند تقسيمهم أفريقيا»[1].

ما يعنيه الباحث البريطاني بكلامه هذا العشوائية التامة في توزيع العمل!

يوضح عضو آخر في الفريق الدولي هو البروفسور فرانك مور كروس Frank Moor Cross، أسلوب العمل المتبع حينذاك، بقوله:

«كان كل عضو في الفريق يعلم تمام العلم ما يفعله زملاؤه الآخرون. فقد وضعت جميع النتف في قاعة واحدة، حتى يتمكن كل عضو من التجول حول الموائد بحرية تامة لالتقاط ما يناسب النصوص المنوطة به من نتف.. وهكذا كان باستطاعة كل عضو في الفريق رؤية مدى التقدم الذي يحرزه الآخرون. وفي حال واجه أحدهم مشكلة ما، فالجميع يتقدم للمساعدة خاصة وأن الكثير من النتف كان مفقوداً. لذلك كانت الفرصة متاحة أمام الجميع للاطلاع على المواد المطروحة في صورتها الأولية وأياً كان مضمونها، الأمر الذي سبب للفريق الدولي لاحقاً الكثير من المشاكل والحرج».

انصبت جهود الفريق في مرحلة العمل الأولى على تنظيف وبسط كل المواد التي وجدت في الحفريات، ثم المضي في حل شفرتها وتعريفها، لذلك كانت معرفة الآرامية وتطور حروف الكتابة

العبرية، على مرّ السنين، عاملاً أساسياً في تجميع النصوص وتعريفها. فقد تغيرت حروف الكتابة العبرية، حسبما استقر عليه الغرب من القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن الثاني الميلادي، فهناك ثلاثة أساليب: الكتابة العتيقة من ٢٠٠ - ١٥٠ق.م. والمكابية (الحشمونية) من ١٥٠ - ٣٠ق.م. ثم اليهودية من ٣٠ق.م إلى ٧٠[٢]م.

بالرغم من استغراق عملية إعادة تجميع المواد لبضع سنوات، لم يتجاوز عدد أفراد الفريق الدولي الاثني عشر عضواً. على أية حال، لقد أنجز الفريق تركيب غالبية اللفائف وتحديد هويتها في وقت مبكر مع بداية عام ١٩٥٩. غير أن النشر اقتصر على النذر اليسير لمقاطع من أسفار «العهد القديم»، تمَّ على فترات متباعدة، واستمر ذلك التباطؤ لحوالى أربعة عقود!

وفقاً لأقوال الباحثين ستروجنيل وكروس فقد تمَّ إنجاز العمل الأساسي برمته من تجميع ونسخ وترجمة أولية بحلول عام ١٩٦٠، إضافة إلى التصنيف والفهرسة، ولم يبق سوى القليل من الرقائق التي لم تحدد هويتها. ويبدو أن الأب ديفو، رئيس الفريق الدولي، لم ترقه هذه السرعة في الإنجاز، فعند مرحلة معينة من العمل، وفقاً لقول كروس، جاءه الأب ديفو قائلاً: لقد قطعت شوطاً كبيراً وبسرعة بالغة، عليك التوقف الآن[٣].

مرت سنوات وسنوات دون أن تظهر مواد الكهف رقم ٤، التي ينتظرها العالم بفارغ صبر، وهي تبلغ حوالى ثمانمائة لفافة، والفريق الدولي لا يعدم بدوره اختلاق الأعذار، ومن أبرزها توقف المليونير الأميركي المعروف، جون روكفلر، عن دفع هباته المعتادة، مما دفع

أعضاء الفريق، نتيجة لذلك، إلى اقتسام حقوق النشر بينهم، ثم مضى كل منهم إلى حال سبيله!

يعلق الباحث ستروجنيل على اقتسام حقوق النشر متعللاً بقلة الموارد المادية، بقوله:

«لم يكن لدى قلة منا، ما يحفظ الأود، أثناء الانكباب على العمل في اللفائف»(٤).

لم تقنع هذه الأعذار الواهية التي أخذ الفريق الدولي يبديها من حين لآخر غالبية الباحثين في الخارج، ورأوها مجرد تبرير للمماطلة في نشر المخطوطات وتقديمها إلى مراكز البحث. فقد واجه الأب ديفو، رئيس الفريق وعصبه المحرك، على مدار سنوات طويلة وحتى وفاته عام ١٩٧١، إلحاح الباحثين ومطالبتهم المستمرة بنشر المخطوطات، باللامبالاة التامة، وأدار ظهره غير عابىء لمطالبة أبرز علماء الغرب، في اللاهوت والتاريخ، المتكررة بالاطلاع على المخطوطات أو حتى صور لها، رغم أهميتها القصوى للأبحاث التي يعكفون عليها.

كان الأب ديفو رجلاً متصلباً صعب المراس إلى حد أنه لم يتنازل، في معظم الأحيان، حتى بالرد على أولئك الباحثين. ويعلق باحث ذو عقلية مستقلة، على الوضع حينها، بأنه تلقى أمراً بالتباطؤ في أداء العمل المخصص له، «ريثما يتعب هؤلاء المتوهون. وينصرفوا بعيداً»(٥).

من المفارقات، أن مخطوطات نجع حمادي التي اكتشفت في مصر عام ١٩٤٥، قد انتهى العمل بها ونشرت كاملة، في غضون عشر سنين. وما كان مصيرها ليختلف، في الحقيقة، عن مصير مثيلاتها في قمران، لولا أزمة السويس عام ١٩٥٦.

جاء اكتشاف مخطوطات نجع حمادي على يد راعٍ شاب، يدعى محمد علي، وقام المتحف القبطي بشرائها وعهد بها إلى فريق من الباحثين الفرنسيين للعمل عليها ودراستها. أحكم الفريق الفرنسي الطوق حول المخطوطات حتى عام ١٩٥٦، دون إعدادها للنشر. ثم جاء العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، والدور الفرنسي الطليعي في قيادته، ليحبطا استئثار الفريق الفرنسي بالمخطوطات، حيث قامت الحكومة المصرية بتعيين فريق دولي يرأسه البروفسور الأميركي، جيمس م. روبنسون James M. Robinson، من معهد الآثار والدراسات المسيحية في جامعة كاليفورنيا بالولايات المتحدة؛ وكلفته بالمهمة.

وفي خلال ثلاث سنوات، فقط، تمَّ طرح كمية كبيرة من مسودات النسخ والترجمات للباحثين. بحلول عام ١٩٧٣، كانت الترجمة الإنكليزية الكاملة، لما بات يعرف بالأناجيل الغنوصية بين أيدي الباحثين، ومن ثم طرحت المجموعة كاملة في الأسواق عام ١٩٧٧. وهكذا لم تستغرق العملية، برمتها، سوى عشر سنين[٦] .

نعم، لفائف قمران تفوق مخطوطات نجع حمادي كمية، وأكثر منها تعقيداً وزخماً، ولعلها أيضاً أقوى دوياً. لكن المماطلة في النشر، أضرت بمصداقية الأب ديفو وفريقه الدولي، خصوصاً أنه كان قد تعهد حين تشكل الفريق الدولي عام ١٩٥٣، بالتزام الموضوعية ونشر جميع اللفائف عبر جامعة أكسفورد البريطانية، تحت عنوان «اكتشافات صحراء يهودا في الأردن»!

بعد ست سنوات من بداية العمل، ظهر المجلد الأول عام ١٩٥٦ ويتضمن لفائف الكهف الأول. ثم جاء المجلد الثاني عام ١٩٦١ مقتصراً على مخطوطات وادي المربعات، وليس نصوص قمران.

في عام ١٩٦٣ خرج المجلد الثالث ويحتوي على مواد من عدة كهوف، ليس من بينها مواد الكهف رقم ٤، لكنه تضمن اللفافة النحاسية التي نشرت شبه كاملة، وفيما عدا ذلك لم تتجاوز المواد الأخرى اثني عشر سطراً. وقد شمل المجلد أيضاً السفر المعروف بـ Jubiles اليوبيل الفضي، الذي وجدت نسخة منه في قلعة الماسادا. وهذا أمر استنفر له الجميع، وعلى رأسهم إيغال يادين، لأنه يعني أن المدافعين عن القلعة كانوا يتبعون التقويم نفسه المستخدم في قمران، مما يدل على وجود روابط وثيقة بين الجماعتين، الأمر الذي يشكل تحدياً كبيراً للمفاهيم السائدة عن الماسادا. وحاول يادين جاهداً تقديم شتى الأعذار لإبعاد أية لمسة نصرانية عن الماسادا، قد تتضمنها وتكشفها لفائف قمران. أما الأب ديفو، فقد اضطر إلى الاعتراف أمام هذه البيّنة بوجود علاقة ما بين الجماعتين في قمران والماسادا(٧). ظهر المجلد الرابع في عام ١٩٦٥، وحرره البروفسور جيمس ساندرس James, A. Sanders، لحساب المعهد الأميركي للدراسات الشرقية، الذي اشترى المخطوطة عام ١٩٦١. لكن التحفظ ظل مستمراً على الكنز الحقيقي الذي كشفت عنه مواد الكهف رقم ٤، التي أُخفيت عمداً عن المعاهد العلمية والرأي العام العالمي.

يتطلب فهم موقف الفريق الدولي المتشدد تجاه اللفائف، على نحو مستقيم وموضوعي، التعرف إلى أهم أعضاء الفريق وآلية العمل المتبعة. يأتي في مقدمة هؤلاء قائد الفريق ومحركه الرئيس الأب ديفو. فقد وُلد لأسرة محافظة في باريس عام ١٩٣٠، ثم التحق في عام ١٩٥٣ بمؤسسة الدومينيكان، التي أرسلته في العام نفسه إلى المدرسة التوراتية الفرنسية في القدس، ليصبح مديرها، بين عامي ١٩٤٥ - ١٩٦٥، كما ترأس تحرير مجلة ريفيوبيليك

Revue Biblique، التابعة للمعهد بين عامي ١٩٣٨ ـ ١٩٥٣، علماً بأنه كان يتقن اللغتين العربية والآرامية.

اختلفت الآراء حول شخصية الأب ديفو، فالذين التقوه وعرفوه عن كثب، يقولون بأنه كان مذهلاً صاحب شخصية أخاذة، ذو لحية كثيفة، يدخن بشراهة ويرتدي نظارات طبية وقلنسوة سوداء، ولا يتخلى البتة عن رداء الرهبان الأبيض حتى أثناء قيامة بالحفريات. مفعم بالحماس والحيوية، متحدث بارع، ويتمتع بلسان حاذق وبعلاقات عامة متشعبة، مما أهله ليصبح المتحدث الرسمي عن مشروع قمران، إضافة لكونه باحثاً ماهراً. أما الآخرون فيقولون: كان يكمن في الحقيقة خلف هذه السمات الآسرة رجل قاسٍ، ضيّق الأفق، شديد التعصب.. فالأب ديفو ينتمي من الناحية السياسية إلى أقصى اليمين، وكان في شبابه عضواً في «جبهة العمل الفرنسية»، وهي منظمة قومية عسكرية كاثوليكية ازدهرت في فرنسا، في فترة ما بين الحربين الأولى والثانية، تمجد عبادة الدم والتراب، ولم تكن مناهضة للدكتاتورية المتسيّدة آنذاك، في ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا.

تلك كانت سمات الرجل المسؤول عن لفائف قمران، وهي سمات يتعذر معها في رأي الباحثين المحايدين، بحث مخطوطات البحر الميت وإعدادها بشكل موضوعي، ناهيك عن رئاسة الفريق، فالرجل ليس كاثوليكياً ملتزماً فحسب، بل راهباً أيضاً، مما يؤثر لا محالة على توازنه وحياده الموضوعي، لا سيما عند مواجهة مواد دينية شديدة الحساسية.

عند سؤال البروفسور فرانك كروس عن أسلوب تقسيم العمل وكيفية توزيعه على الباحثين، أجاب بأن المواد المتصلة بالعهد القديم

والمواد البسيطة الأخرى تمَّ تخصيصها للباحثين غير المتفرغين، أما المخطوطات الآرامية فقد عُهد بها إلى المتخصصين في تلك اللغة. وقد تمَّ التوصل بسرعة فائقة من خلال النقاش، إلى اتفاق الأعضاء حول تنظيم العمل، وجاءت موافقتهم بالإجماع، ولم يبخل الأب ديفو بمنح بركته لأسلوب العمل هذا!

كان الأب ديفو متسقاً مع ذاته في اختيار أعضاء الفريق، فأول من انضم للفريق كان البروفسور فرانك كروس، زميل معهد ماك كورمك للاهوت، McCormick Theological Seminary، في شيكاغو، والمعهد الأميركي في القدس، وقد عُهِدت إليه النصوص التوراتية والشروح الخاصة بأسفار مختلفة من «العهد القديم». ثم جاء الأسقف باتريك سكهان Patrick Sckehan، من الولايات المتحدة أيضاً، ليتسلم مواد متعلقة «بالعهد القديم» فضلاً عن رئاسته للمعهد الأميركي في القدس، ثم التحق بالفريق الأب جين ستاركي Jean Starky الفرنسي الجنسية، بناء على ترشيح المدرسة الفرنسية للتوراة، وكان خبيراً باللغة الآرامية، فتولى مجموعة المخطوطات الآرامية. وقام الألمان بترشيح د. كلاوس هونو هنزنغر Claus-Hunno Hunzinger، الذي تولى «لفافة الحرب» ومخطوطات بردية أخرى، لكنه ما لبث أن ترك الفريق ليحل محله قس فرنسي، هو الأب موريس بيليه Maurice Baillet، ثم لحق به الأب جوزيف ميليك Josef Milik، وهو إيرلندي مقيم بفرنسا، وكان موضع ثقة الأب ديفو، لذلك خصّه بأهم المواد وأكثرها حساسية، ومن بينها أبوكريفا «العهد القديم» أي الأسفار المتأخرة، فضلاً عن مواد بالغة الأهمية تتصل بتعاليم وطقوس جماعة قمران وأنظمتها السلوكية.

وأخيراً المرشح البريطاني جون م. أليغرو John M. Allegro، الذي كان بحق الرقم الصعب في فريق يغلب على أعضائه التدين الشديد، فقد كانوا أقرب إلى رهبان الأديرة منهم إلى رجال البحث العلمي الموضوعي. التحق أليغرو بالفريق، بناء على توصية أستاذه البروفسور غودفري أر. دريفر Godfrey R. Driver. وكان أليغرو، آنذاك، في طريقه لنيل شهادة الدكتوراه في جامعة أكسفورد، كما كان الوحيد بين أعضاء الفريق الدولي العالم بفقه اللغة التاريخي والمقارن، وقد سبقته شهرته العلمية، إلى القدس، لما قام بنشره من أبحاث في الدوريات البريطانية المتخصصة، الأمر الذي أكسبه مكانة واحتراماً في الدراسات التوراتية، فلم يكن يدانيه أحد من زملائه في الفريق شهرة ومكانة في الأوساط الأكاديمية(٨).

الأغرب من هذا، أن أليغرو كان العضو الوحيد في الفريق غير المنتسب لأي مؤسسة دينية، فقد كان، مثل مواطنه هاردينغ، من أتباع مذهب اللاـ أدرية Agnosticism، وهو مذهب يعتقد أتباعه بأنه لا سبيل إلى معرفة طبيعة اللّه وأصل الكون. تركز عمل أليغرو على مخطوطات تتعلق بشروح جماعة قمران على أسفار التوراة، إضافة إلى متفرقات شعرية تتعلق بالحكمة، والترانيم والخطب والمواعظ، اتضح لاحقاً أنها مواد غير توراتية وبالغة الحساسية، لم يسبق لأحد رؤيتها من قبل، تتصل بجماعة قمران نفسها وهي نتاجها الخاص وتنتمي جميعها إلى الكهف رقم ٤، ذلك الكهف المثير الذي آثر الأب ديفو رفيقه الأب ميليك بمخطوطاته.

أثناء سير العمل، اتضح أن المواد التي يعالجها أليغرو ذات طبيعة مدوية، أكثر كثيراً مما توقعه الفريق الدولي. وزاد الموقف تعقيداً، أن

أليغرو كان يتجول، على غرار العادة المتبعة، بحرية تامة حول المناضد التي تفترشها اللفائف لانتقاء ما يناسب النصوص المنوطة به، ناهيك عن تلقائية الرجل وجرأته والعقلية المتفتحة التي يتمتع بها. وبالفعل لم يمضِ وقت طويل حتى ضاق الرجل ذرعاً بتزمت زملائه في الفريق ونظرتهم الضيقة، فضلاً عن تشددهم ورفضهم المتعنت لتقبل أو حتى مناقشة أي احتمال، أو أية دلائل تشير إليها المخطوطات في حال تعارضت مع المصادر المسيحية المتوارثة، أو المفاهيم المؤسساتية الرسمية.

بدأت الزوبعة بتقديم أليغرو عام ١٩٥٦ لثلاثة أحاديث عن اللفائف، في إذاعة محلية بشمال إنكلترا، بدا واضحاً خلالها أن الرجل قد عقد العزم على تصعيد الموقف بصدد اللفائف، وعلى خرق جدار الصمت الذي يلوذ به الفريق الدولي متلفعاً بضرورة الإجماع. ورغم فداحة الثمن الذي دفعه أليغرو، وما ألَمَّ بمصداقيته وسمعته العلمية من تجريح، فالرجل لم يراوده البتة شعور بالندم لخروجه على إجماع الفريق، ولا على افتتاحه المواجهة مع المنظمة الكاثوليكية التي تسيطر على الوثائق وتتحكم بمسار الأبحاث ونتائجها.

بدأ أليغرو بشن حملة لكسر الحلقة الضيقة المهيمنة على اللفائف، مطالباً بضخ دم جديد في فريق الباحثين، بهدف الإسراع في نشر اللفائف. وأخذ يحث الحكومة الأردنية في الوقت نفسه على تأميم متحف روكفلر، لوضع حد لسيطرة الفريق الدولي على المخطوطات. تكللت جهود أليغرو بالنجاح، وقامت الحكومة الأردنية عام ١٩٦٦ بتأميم المتحف، الذي بات يعرف بالمتحف الوطني الفلسطيني، لكن القرار جاء متأخراً ليصب في مصلحة

إسرائيل. فلم تمضِ سوى شهور قليلة حتى قامت قواتها عام ١٩٦٧ باحتلال الضفة الغربية، وإعلانها الفوري ضم القدس الشرقية لدولة إسرائيل، ليصبح المتحف في قبضتها وتحت سيادتها، فالمتحف بعد التأميم لم يعد تابعاً لهيئة دولية مسؤولة عنه!

تركت إسرائيل، بعد احتلالها الضفة الغربية، الوضع على حاله ولم تتدخل في شؤون الفريق الدولي، حيث كانت حينها في غنى عن استفزاز أعضاء الفريق، ومن ثم المخاطرة بمواجهة الفاتيكان والهيئات الكاثوليكية. فلم تمضِ بعد سوى أربع سنوات على تبرئة البابا جون الثالث عشر اليهود من دم المسيح، وإسرائيل ما تزال في حاجة ماسة إلى التأييد الدولي، أو أقله غض الطرف عن احتلالها للأراضي العربية. استمرأ الفريق الوضع الجديد، واستمر على تشدده ومماطلته في نشر المخطوطات، حتى أن الباحث الأميركي المعروف روبرت إيزنمان Robert Eisenman، الذي تسلم مواجهة الفريق لاحقاً، مضى إلى أبعد من ذلك، حين كشف أن لفائف قمران كانت أحد أهم المواضيع المؤثرة سلباً أو إيجاباً، على العلاقات بين إسرائيل ومؤسسة الفاتيكان. فقد تمَّ اعتراف الأخيرة بإسرائيل فور التوصل إلى حل لهذه العقبة الكأداء، على ضوء المصالح المتبادلة والمكتشفة حديثاً بين الطرفين[٩].

لم يكن العالِم البريطاني أليغرو متحيزاً لأي دين، لكنه كان فيما يبدو كإنسان، وباحث مسؤول، يتحرق شوقاً لمعرفة الحقيقة، فعمر الإنسان قصير نسبياً ولا يحتمل كل هذا التسويف والمماطلة. ولم يتوانَ في سبيل التوصل إلى الحقيقة المجردة عن إدارة ظهره للفريق الدولي والعالِم الأكاديمي معاً، ليتفرغ للدراسة والبحث، وإن بلغ به الأمر أحياناً حد الشطط. لقد تملكه ضيق شديد لاستحواذ الفريق

على اللفائف، فقام في عام ١٩٥٧ بنشر رسالة تفيد تعمد الفريق استبعاد الأعضاء غير الكاثوليك، محذراً بأن موقفاً خطيراً آخذ في التطور، مما ينتهك الفكرة الأصلية لتشكيل فريق دولي من الطوائف المسيحية المتعددة. فكل النتف الخاصة بالكهفين الرابع والحادي عشر، يؤتى بها في سرية مطلقة، إلى الأبوين ديفو وميليك ليقوما بدراستها سوياً، تمهيداً لاتخاذ قرار بشأنها، إما التكتم حولها أو إخراجها إلى العلن.

كان لرسالة أليغرو وقع عميق لدى الباحثين. فقد بدأ الشك يساورهم بأن الفريق الدولي يفرض نوعاً من الرقابة المحكمة والاختيار المتعمد، وبلغت رسالة أليغرو ذروتها حين دعا الباحثين للذهاب إلى القدس في ما يشبه التظاهرة، لقضاء ستة أشهر من كل عام من أجل القيام بمهامهم العلمية. ولم يغفل أليغرو، أيضاً الكتابة إلى مسؤول في متحف روكفلر عام ١٩٥٩، يحذره فيها بأن الأب ديفو لن يوقفه شيء في سبيل إحكام قبضته على المواد، وأنه:

«على ثقة تامة بأن العالم لن يرى، أبداً، أية مواد تتضمن ما قد يؤثر سلباً على العقيدة الكاثوليكية الرومانية.. إن ديفو لن يعدم وسيلة لجمع المال اللازم، وإرسال هذه المواد إلى الفاتيكان، بقصد إخفائها أو تدميرها»[١٠].

وكما كان متوقعاً، أسفر تحدي أليغرو السافر وخروجه على إجماع الفريق الدولي، الذي استطاع الأب ديفو ترسيخه إلى درجة وسمه بالقدسية، عن طرد العالِم البريطاني من عضوية الفريق، واستبداله بباحث بريطاني آخر، جون ستروجنيل، الذي كان هو الآخر يستعد لنيل درجة الدكتوراه في جامعة أكسفورد، غير أنه ما لبث

أن افتتن بشخصية الأب ديفو الساحرة وانطوى تحت جناحيه وسرعان ما تحول إلى المذهب الكاثوليكي.

وبالرغم من الإجحاف الذي لحق بأليغرو، فقد بقي يعمل بمفرده جاهداً لتحرير مخطوطات قمران، وما انفك يعلن بين الآونة والأخرى، إلى أن وافته المنية فجأة عام ١٩٨٧، عن وجود مواد بالغة الأهمية، يخشى إتلافها أو إخفاءها، محذراً من إمكانية إقدام الفريق على تركيب اللفائف وفق نسق معين يتفق وميول أعضاء الفريق المذهبية. كان أليغرو يحارب وحيداً في الساحة، ومع أن مساعيه في كسر احتكار الفريق الدولي للفائف لم تجد نفعاً، إلاّ أنه نجح إلى حد ملحوظ في لفت أنظار الباحثين وتحريك شكوكهم. خصوصاً وأن الأب ديفو هو المسؤول أيضاً، عن النشرة الدورية للمدرسة الفرنسية للتوراة، مما يسمح له بالتحكم في المواد المنشورة.

أدى انفراد الفريق الدولي، بتقديم شروحه ووجهات نظره الملتزمة والمتزمتة لعقود طويلة، إلى إكساب إجماع الفريق مصداقية، باتت تشكل بفعل التراكم الزمني شبه عقيدة أو بديهية مسلم بها، يخاطر بسمعته ومصداقيته العلمية كثيراً، من يجرؤ على تحديها أو انتقادها. وقد وصلت شدة تحكم الفريق الدولي باللفائف، إلى حد توريث الأعضاء، لما بحوزتهم منها إلى باحثين بعينهم. ويعود فضل السبق في هذا المنحى إلى الأب ديفو، الذي أورث لفائفه إلى الأب بيير بنْوَا Pierre Benoit، التابع لمؤسسة الدومنيكان، ليصبح أيضاً الوريث لرئاسة الفريق الدولي والمدرسة التوراتية الفرنسية في آن معاً. حدث ذلك رغم أن الراحل ديفو لا يملك الحق من الناحية القانونية، في تصرف كهذا، لم يسبق للأوساط الأكاديمية أن عرفت له مثيلاً.

ومما يدعو للتأمل، أن أحداً من الباحثين لم يعترض على ذلك التصرف المستحدث، وحين توجه أحد الباحثين بسؤال البروفسور نورمان غولب Norman Golb، من جامعة شيكاغو عن أسباب عدم مبالاة الأوساط العلمية، آنذاك، أجاب غولب بلهجة مختصرة ذات مغزى: «كانت المعارضة حينها قضية خاسرة»!

شكّل تصرف الأب ديفو سابقة أخذ يتبعها بقية أعضاء الفريق، من دون أن يواجهوا اعتراضاً من أحد، ليصبح مجال بحث اللفائف ونشرها، حكراً على الباحثين الكاثوليك وحدهم. وهكذا بقي الإجماع آمناً غير مهدد، لتنتقل رئاسة الفريق الدولي، بعد وفاة الأب بنوا عام ١٩٨٧، بسهولة ويسر إلى البريطاني ستروجنيل، الذي لم يكن متفرغاً للعمل، مما أدى إلى عدم نشر ما في حوزته من نصوص، فيما العالم ينتظر متلهفاً لأكثر من خمس سنوات تعليق الرئيس الجديد على مائة وأحد عشر سطراً!

و.. بدأ الشك يتسرب إلى الأوساط العلمية بوجود مشكلة حقيقية. فقد مرّ قرابة أربعة عقود على تعهد الأب ديفو في آذار/ مارس ١٩٥٩ بنشر كل المواد في موعد أقصاه أواسط عام ١٩٩٢، وتقبل العالم على مضض تعهده هذا، مع أن العمل في النصوص الأصلية حسب اعترافه قد اكتمل في حزيران/ يونيو ١٩٦٠. ومرت السنوات ومات الرجل من دون أن يتحقق شيء من وعوده!

وبدأ استياء الأوساط العلمية يرتفع من جديد، وازدادت حدة الانتقادات وتركزت حول ثلاثة محاور:

عدم أهلية الفريق الدولي للتعامل مع تلك المخطوطات.

- تعمد التأخير في النشر، لكسب المزيد من الوقت، من أجل ترسيخ سمعة الفريق وحيثيته العلمية.
- افتقار الفريق للحيوية والنشاط اللازمين لأداء العمل.

تصاعدت حدة الانتقادات، بقيام الباحث الأميركي إيزنمان بشن حملة شعواء في صحيفة «نيويورك تايمز»، حيث أخذ يتساءل عن أسباب سيطرة حلقة ضيقة من الباحثين لعقود طويلة، على مجال البحث في مخطوطات تخص الإنسانية جمعاء، فقد توفي عدد منهم، منذ سنوات، ومع ذلك استمر من بقي منهم حياً في السيطرة على اللفائف والدراسات، وفي فرض زمرته من الدارسين. ولطالما أغلقت الأبواب في وجوه باحثين وأساتذة متميزين في الأوسط الأكاديمية. فمن الذي يمنحهم القوة لفرض جبروتهم هذا[١١]؟

شهدت نيويورك، عام ١٩٨٥، انعقاد مؤتمر خاص باللفائف ومصيرها، ألقى خلاله البروفسور مورتون سميث Morton Smith، وهو عالم بارز في دراسات التوراة المعاصرة، كلمة اتسمت بالمرارة جاء فيها:

«لقد فكرت أن أتحدث عن فضائح مخطوطات البحر الميت، ولكنها كثيرة.. معروفة.. ومقززة»[١٢].

إزاء اتساع دائرة الانتقاد وارتفاع أصوات الشجب، لم يعد بوسع الفريق الدولي الاستمرار في اللامبالاة أو التزام الصمت المعتاد. فاضطر البروفسور كروس إلى الإقرار ببطء وتيرة العمل، بشكل عام، متذرعاً بعدم تفرغ الباحثين للعمل، وبحالة اللفائف الهشة لدرجة يصعب معها إعادة تجميعها، ناهيك عن ترجمتها!!

لم يكن البروفسور مقنعاً بالمرة، فقد فاته أن معظم الأبحاث المتعلقة

باللفائف، تجري بواسطة الصور، مما ينتفي معه ضرورة ذهاب الباحثين إلى القدس، ثم إن العمل بواسطة الصور أكثر سهولة ويسراً من التعامل مع الرقائق الأصلية. أما بالنسبة إلى صعوبة تجميع النتف، فقد نسي كروس أو ربما تناسى أنه قد أقرَّ بنفسه، عام ١٩٥٨، بانتهاء تجميعها وتحديد هويتها، رغم أن اعترافه ذلك يناقض ما أكده أليغرو بالفراغ من ذلك كله عام ١٩٥٦. فقد كتب أليغرو في عام ١٩٦٤ قائلا، بأن تجميع وتعريف مواد الكهف رقم ٤، الأكثر غزارة وأهمية، كان على وشك الانتهاء بين عامي ١٩٦٠ ـ ١٩٦١، استناداً إلى رسالة وصلته من عضو الفريق ستروجينل، في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٥، يخبره فيها بأن مؤسسة الفاتيكان قد أرسلت ثلاثة آلاف جنيه إسترليني لشراء مواد الكهف المذكور، والتي تمَّ تحديد هويتها في مساء يوم واحد فقط، مضيفاً، بأن تصوير المواد بالكامل لن يستغرق سوى أسبوع واحد! أخفق البروفسور كروس هذه المرة في اختلاق الأعذار ولم يقنع أحداً بما أخذ يسوقه من حجج، فقد جاءت أقواله متناقضة، عما سبق وأعلنه.. ونجح فحسب في تعديل الجملة.

تمَّ تصنيف مواد قمران إلى قسمين متميزين:

الأول، مجموعة نسخ من أسفار «العهد القديم» تتضمن قراءات متعددة ورؤى مغايرة وشروحاً مختلفة، وهذه تشكل في مجموعها ٢٠ ـ ٢٥٪ من كمية المخطوطات.

الثاني، مجموعة كتابات عن موضوعات غير توراتية، تحتوي على وثائق لم يشهدها العالم من قبل، ولهذا أعتُبرت ذات أهمية قصوى، تعود كتاباتها إلى فرقة دينية ما، وتشتمل على نصوص

وقواعد وشروح للتوراة، إضافة إلى رسائل دينية وفلكية، وأخرى تدور حول مخلّصٍ منتظر، أو مخلّصين اثنين.

احتدم النقاش وأخذ يشتد ضراوة يوماً بعد يوم حول نقطتين: المرحلة التاريخية التي ترجع إليها تلك الكتابات، ثم الجماعة المسؤولة عن كتابتها، ماهيتها وإلى أية طائفة تنتمي؟ أم أنها فرقة جديدة متميزة مهدت التربة لظهور النصرانية؟

تناول الكاتب الأميركي اليهودي، نيل أشر سيلبرمان، في كتابه «اللفائف المخبأة» "The Hidden Scrolls" الحرب الضارية حول اللفائف والجماعة المسؤولة عنها، من خلال الغوص بروية ونعومة في أعماق الفريق الدولي ولا سيما رئيسه الأب ديفو.

الأب ديفو، كما يقدمه سيلبرمان، قسيس متقلب المزاج، ينتمي إلى عائلة باريسية محافظة ومعروفة، وجد نفسه فجأة أمام آلاف النتف، الواردة من الكهف رقم ٤. كانت المواد مذهلة مثيرة، وعلى درجة بالغة الأهمية، لم يكن باستطاعة أحد تخيلها أو إغفالها. فالمخطوطات مؤهلة، بالفعل، للكشف عن أهم مراحل تطور الدين في العالم الغربي. كيف يمكن التعامل مع كنز كهذا؟ هل يمكن اعتباره دليلاً أصيلاً وقيماً، على الزمان والمكان وأسلوب التفكير، ليصبح بالتالي نقطة البدء لبحث تاريخي مستقل عن تلك الفترة؟ وأخيراً هل يمكن لأصحاب النزعات الدينية المؤسساتية الارتفاع عن روايات «العهد القديم» و«الأناجيل» واعتبارهما خارج نطاق الدراسات التحليلية؟

يمضي سيلبرمان قدماً في توضيح وجهة نظره.

لا يمكن لنا إنكار الحقيقة الفعلية أن كل مصادر معلوماتنا عن فترة مولد اليهودية الحاخامية ـ التلمودية ـ وعن حياة يسوع وبداية

المسيحية، مستمدة كلها من أعمال أدبية مثل المشنا، التلمود، العهد الجديد، وأعمال المؤرخ يسيفوس فلافيوس والأبوكريفا. وقد وصلتنا هذه المواد عبر أجيال، بعد أن خضعت على امتداد مئات السنين إلى التصحيح والشطب، فضلاً عن الرقابة الصارمة.. وبما أن النسّاخ اليهود والمسيحيين قاموا بمثابرة وصبر بنسخ هذه المخطوطات الدينية بأيديهم، كلمة وراء كلمة، وجملة تلو الأخرى، فقد اتسعت الفرص أمامهم لتغيير السياق التاريخي. ربما تبدو هذه الحقيقة بغيضة على النفس، أو تمثل انشقاقاً، ولكن المعروف والطبيعي، أن فترات الاضطهاد الديني أو الانتعاش قد أدت إلى تحريم بعض الأعمال القديمة وإلقائها طعاماً للنار، في حين أعيدت كتابة أعمال أخرى تنسجم والمعتقد الرسمي الشائع. فما كان لدينا، قبل اكتشاف مخطوطات البحر الميت، لا يعدو وثائق تمّ تحريرها لأسباب عقائدية ودينية فحسب. أو بعبارة أدق، مجرد تسجيل يتناغم بدقة مع رقابة «إكليركية» مستمرة ولا شيء أكثر من ذلك، ولهذا لا يمكن اعتبارها دليلاً موثقاً وأصيلاً عن مجتمع يهودا في القرن الأول للميلاد. ولا يعني هذا في حد ذاته أن قصص «العهد الجديد» تخلو من الحقيقة تماماً، فهناك سند لها إلى حد ما في كتابات الأحبار عن الشخصيات والأحداث والعادات، في يهودا، قبل تدمير الهيكل.

منذ أمد بعيد، توصل الباحثون إلى حقيقة الكتابات الدينية المتوارثة، بينما الأب ديفو استمر على اعتقاده بأن كتّاب الأناجيل رجال آمنوا بالخلاص والتزموا بالإيمان الذي يقدمه المسيح، ابن الله، الذي قام من بين الأموات، لهم وللأجيال المتعاقبة. فأولئك الكتّاب ليسوا مراقبين باردين للأحداث الدائرة حولهم، أو محررين يركضون خلف التفاصيل المحيطة بهم، لذلك لم يكن لدى أجيال النساخ

والشراح، الذين جاءوا بعدهم، أدنى مصلحة في إضعاف قوة هداية الأناجيل، بإغراقها بالتفاصيل الاجتماعية والسياسية المثيرة.

ينسحب الوضع نفسه على الأحبار اليهود الذين سعوا حثيثاً، بدورهم، لإثبات أن انتصار اليهودية الفريسية كان نتيجة طبيعية وحتمية لتراكم اليهودية قبل تدمير الهيكل، ولذلك لم يعبأوا، هم أيضاً، بعرض معتقدات الطوائف الدينية الأخرى أو آرائها الشرعية في صياغة وإطار لائقين. وجاءت أعمال المؤرخ اليهودي يوسيفوس مثالاً صريحاً على ذلك، فقد كتب ما كتب مداهنة وتبريراً لأفعال أسياده الرومان، الذين التحق بهم خلال الثورة التي عمت يهودا ضد روما، وحينها وضع يوسيفوس مصلحته الخاصة نصب عينه، حيث عمد إلى مداهنة الرومان في أعماله المتعددة، التي جاءت، مع ذلك، منطوية على تناقضات تسمح بقراءة مختلفة وباستشفاف مغاير لما بين السطور.

يعاود سيلبرمان التساؤل من جديد:

هل يمكن لوثائق الكهف رقم ٤، طرح رؤى تختلف جذرياً عن الأحداث المتداولة منذ قرون؟

هل يمكن للمخطوطات الكشف عن معتقدات وآمال الجماعات المختلفة في يهودا، الذين ثاروا على الهيمنة الرومانية؟

ثم هل يمكن بحث المخطوطات المسيحية واليهودية الفريسية في ضوء مختلف تماماً عما هو سائد؟

مواجهة هذه الأسئلة تتضمن تحدياً كبيراً، يحتاج إلى سنوات من التحليل والدراسة والجدل، فالتحدي كبير، وهذه الكمية الضخمة من المخطوطات يمكنها الكشف عن المكبوت والمنسي، لحقبة تاريخية بالغة الأهمية، كما تسمح بالتعرف إلى المعتقدات المغايرة،

غير المعروفة، للمتدينين الملتزمين والرافضين للأوضاع السائدة، حينذاك، الذين ملأهم الاقتناع بقرب نهاية العالم. دع عنك ما توحي به هذه اللفائف من فهم جديد، للفكر اليهودي القديم عن الخلاص، وعن العلاقة بين ملكوت الله والأمبراطورية الرومانية.

تدفقت كهوف قمران باللفائف في عام ١٩٥٢، حين كانت العقلية الاستعمارية التقليدية ما تزال حية فاعلة، متحدية التراث، فاتحة الأبواب على مصاريعها، للبرهنة على معتقدات دينية مختلفة تماماً عما درج عليه الناس. لم يكن أعضاء الفريق الدولي يفتقرون إلى المهارة في تجميع النتف وتحليل القواعد اللغوية أو معرفة التدوين، لكن شيئاً ما للأسف كان غائباً، مما أثّر سلباً على أسلوبهم في تناول اللفائف. فقد كتموا وكبحوا، المعنى التاريخي الراسخ ورسالة اللفائف المفحمة القوية، على نحو فاجع طوال العقود الماضية. ولا يعني هذا بالضرورة وجود نية مبيتة أو مؤامرة واعية من ناحيتهم ولكنه الكبرياء، النظرة الضيقة، الإيثار وعجرفة المفكرين(١٣).

لا بأس من الإشارة، بإيجاز، لجوهر الخلاف حول أصول جماعة قمران، الذي ستتناوله الفصول اللاحقة، بشكل أكثر تفصيلاً.

عكست وثائق قمران أساليب الكتابة العبرية في مراحل تاريخية ثلاث، بداية من الغزو السلوقي إلى الروماني وحتى تدمير الهيكل عام ٧٠م. استند الأب ديفو والفريق الدولي، بدعم من العالِم الأميركي المعروف ويليام فوكسول أولبرايت William Foxwell Albright، إلى تطور أسلوب الكتابة ليؤكد أن جماعة قمران، ليست سوى الطائفة اليهودية القديمة، المعروفة بالأسينيين، Essenes، الذين تحدث عنهم المؤرخون القدامى، فيلو، يوسيفوس، وبليني.

فالأسينيون، وفقاً لهؤلاء المؤرخين، جماعة متدينة بعمق، يرتدي أعضاؤها ثياباً كتانية بيضاء، ويحيون معاً حياة جماعية مشتركة، في عزلة تامة عن الأحداث الدائرة حولهم، بأبعادها الاجتماعية والسياسية والدينية. يلتزمون بدقة بشعائر الطهارة، ويزدرون العبادة في هيكل أورشليم. يتنازل الأثرياء منهم طوعاً عن أموالهم وممتلكاتهم الخاصة لصالح الجماعة، ويمارس الأعضاء جميعهم شعيرة العماد، وينكبون على دراسة التوراة، ويشتركون معاً في الوجبات الجماعية المقدسة.

أجمع الفريق الدولي استناداً إلى هؤلاء المؤرخين، إلى جانب بعض الأدلة الأركيولوجية وعلم البليوغرافيا، على أن الجماعة نشأت في الفترة المكابية ـ الحشمونية (١٥٠ ـ ٣٠ق.م) أثناء حكم يوحنا هركانس (١٣٥ ـ ١٠٤ق.م)، أو بعده بفترة وجيزة. وجاء ظهور طائفة قمران والطائفة الفريسية، كرد فعل على انغماس الملوك المكابيين في السلطة الزمنية ومباهج الحياة، مما دفع بالأسينيين والفريسيين إلى الانزواء بعيداً، والانقطاع للتعبد ودراسة التوراة، حتى تم القضاء على جماعة قمران الأسينية عام ٦٨م، على أيدي الرومان قبل اجتياحهم أورشليم وتدميرهم الهيكل عام ٧٠م.

كانت تلك وما تزال رؤية الفريق الدولي للأسينيين، طائفة مثيرة لافتة للانتباه لكنها لم تكن تمثل أسلوباً شرعياً للحياة ولم تنطوِ على فلسفة يمكن لأحد اعتناقها واتباعاً لهذا المنوال، أجمع الفريق الدولي على أن مخطوطات البحر الميت مجرد مادة قيمة، وحسب، تساعد على الإلمام بخلفية العالم الديني ليسوع، إضافة إلى كونها مصدراً أدبياً يقود إلى فهم أفضل لمصطلحات وإيحاءات «العهد الجديد»[١٤].

تمّ للفريق الدولي برؤيته هذه، الدفع بتاريخ كتابات البحر الميت إلى الوراء بعيداً، إلى عهد المكابيين، لتصبح جماعة قمران حالة سابقة، غير ذات شأن، معزولة ومنقطعة تماماً عما دار حولها من أحداث القرن الميلادي الأول!

هكذا أصدر الفريق الدولي رأيه بالإجماع، مصادراً أي رأي مغاير آخر، استناداً إلى المؤرخين القدامى، رغم تناقض وتنافر معلوماتهم عن الوضع الاجتماعي للأسينيين وأماكن سكناهم، الأمر الذي أوقع الباحثين في حلقة مفرغة.

اللافت في إجماع الفريق، من وجهة نظر سيلبرمان، النظرة إلى الأسينيين باعتبارهم وحدة جامدة منفصلة تماماً عن الحياة في منطقة يهودا بأبعادها السياسية والدينية. نعم، حين قام الأب ديفو بزيارة قمران، في أواخر الأربعينيات، وجدها منطقة نائية معزولة عن المناطق المأهولة بالسكان، يتعذر الوصول إليها لوعورة الطريق. لكن عزلتها الحالية لا تعني بالضرورة أنها كانت معزولة قبل ألفي عام. يستطرد سيلبرمان مضيفاً: في حال صحة افتراض الأب ديفو بظهور جماعة قمران حوالى ١٥٠ق.م، فذلك يعني ببساطة أن مؤلفي الوثائق لم يكن لديهم عمل لأكثر من مائتي عام، سوى صب جام غضبهم، وإبداء احتقارهم للكهنة المكابيين الخبثاء، وامتداح المعلم البار، الذي اضطهده أولئك الكهنة. وهكذا دواليك على مدار قرنين، دون أن يفعلوا شيئاً سوى اجترار مرارتهم فيما الدنيا مشتعلة حولهم، حتى إنهم لم يأتوا على ذكر هيروس الأكبر، رغم ما أشيع عن جبروته وطغيانه، وأيضاً لم يُبدوا كراهيتهم للولاة الرومان(١٥)!

وهذا في حد ذاته وضع غريب يفتقر إلى المنطق السليم.

اعتمد الفريق الدولي على البليوغرافيا والأركيولوجيا في موقفه الاجماعي بصدد تحديد مرحلة اللفائف، استناداً إلى شيوع الحروف المكابية المهجورة في نصوص قمران. في حين اعتبر البروفسور غودفري دريفر، من ناحيته، وهو أستاذ ستروجنيل في جامعة أكسفورد، أن البليوغرافيا لا يمكن الاعتداد بها على نحو مطلق، وأرجع المخطوطات إلى ما بعد المسيحية اعتماداً على مضمون النصوص نفسها والسياق التاريخي المواكب لها.

فالنص والدراسات التاريخية في رأيه يمكنهما لعب الدور الرئيس في توضيح النص، أما التعلق بالبليوغرافيا، فأمر يحتمل دفوعاً لا حصر لها، فالطائفة السامرية اليهودية لا تزال تستعمل إلى اليوم حروفاً تعود جذورها إلى ألفي عام، كما أن بعض النساخ في مختلف اللغات يعمدون إلى استخدام أساليب الكتابة القديمة لإضفاء المهابة على كتاباتهم، لا سيما الدينية منها. وليس بالغريب، وجود نسّاخ شباب وشيوخ في قمران في آن معاً، تدرب الشباب منهم على أسلوب أحدث للكتابة، فيما حافظ الشيوخ على ما تعلموه في صغرهم.. وعلى فرض أن أحد الشباب النسّاخ لم يكن يحسن الكتابة، فهل تعد أخطاؤه في هذه حالة تقدماً أم تردياً؟ كل هذه دفوع يتعذر معها تحديد كتابة مخطوط سواء كان في عام ٦٣ق.م، أم في عام ٥٤م[١٦].

على نحو تدريجي، أصبح إجماع الفريق الدولي على إعادة اللفائف إلى الفترة المكابية موضع تساؤل، لكن الفريق استمر متمسكاً بموقفه رغم ظهور أدلة جديدة تدحض رؤيته. فقد تمّ العثور في إحدى خرائب قمران، بجوار الجبانة، على ثلاث أو أربع قصاصات، تبين أنها إيصالات لاستلام مواد تموينية من أريحا، مما

ينفي عزلة قمران المزعومة عن الجماعات المجاورة لها، وتشير الإيصالات إلى عام اثنين لخلاص صهيون أن للثورة ضد روما[١٧].

وهذا يكفي لإثبات أن سكان قمران قد شاركوا في الثورة ضد روما، كما أنهم اعتمدوا التقويم الروماني أسوة بالمناطق الأخرى. أكثر من ذلك، جاءت شروح جماعة قمران على أسفار من «العهد القديم» في نسخ وحيدة غير متعددة، مما يعني أنها تمثل كتابات الجماعة ورؤاها الخاصة المتعلقة بالعقائد المقبولة والمعترف بها لديها، وبذلك يكون عام ٦٨م بداية إيداع الجماعة للفائفها في كهوف قمران وليس نهايته، ولعل إيداعها لفافة شروح «سفر حبقوق» منفردة، بإتقان وحرص شديدين، في الكهف رقم واحد لا يخلو من المغزى. يعلق سيلبرمان على ظهور هذا المخطوط ذي الأسلوب الهيرودي، الذي لا بد أنه يعود بالمخطوط إلى القرن الميلادي الأول، بقوله:

«لم يثر هذا البرهان الناصع أية تساؤلات لدى الفريق، واستمر، رغم ذلك، على موقفه المتصلب، مفترضاً ببساطة شديدة أن الجماعة اكتفت بالتركيز على أحداث بعيدة سابقة، دون أن يكون لديها قضية أو ردة فعل تجاه ما يحيط بها من أحداث محورية امتدت لفترات طويلة».

ويمضي الكاتب الأميركي مضيفاً، أنه من الصعب تصديق أن مؤلفي اللفائف كانوا منقطعين تماماً مأخوذين بحياتهم وكتاباتهم، دون أن يلقوا بالاً للأحداث الصاخبة الدائرة حولهم حتى دهمتهم الفرقة الرومانية بغتة لتفتك بهم وتهلكهم عن بكرة أبيهم.

في الواقع، ارتفعت أصوات قليلة خلال العقود الأولى لدراسة اللفائف، تنتقد تحريم الفريق الدولي وتجريمه لأية رؤى مغايرة..

وأخذ أصحابها في لمز ذلك الإجماع الذي اختلقه الأب ديفو وفرضه بصرامة بالغة. بالطبع لم يسلم هؤلاء الخارجون على إجماع الفريق من الحملات الشعواء التي اتهمتهم بالهوس والنزق الأكاديمي، دع عنك الهرطقة والانحراف، ليصبح، بذلك تقييم الأبحاث والدراسات، نتيجة للإرهاب الفكري الذي يمارسه الفريق، خاضعاً لمدى تطابق آراء أصحابها مع توجهات الإجماع المقدس، وباتت المخاطر بالسمعة العلمية والمستقبل، مصير أي باحث إذا حدث وتجرأ وأعاد اللفائف إلى مرحلة تخالف ما حدده الأب ديفو، أو حتى إذا أبدى امتعاضه من استبداد الحكم الروماني. فسرعان ما تلاحقه اللعنات ليُدمغ بعدم فهم حقيقة ما كان يجري آنذاك.

يرى سيلبرمان أن ما كان يجري بالفعل لم يكن سوى محاولة متعمدة لإظهار مجتمع فلسطين، مجتمعاً مشرذماً ممزقاً، فئاته منعزلة عن بعضها البعض، لا يربطها رابط، بقصد تورية وسلب ما كان قائماً بالفعل من تفاعل وتجانس بين فئاته المختلفة، على حساب طرح كان بمقدوره تقديم رؤى جديدة مغايرة لخلفية الصراعات الاجتماعية والحقائق السياسية الدائرة في ذلك الوقت، عوضاً عن تلك المفاهيم الشائعة التي قادت إلى صعود اليهودية الفريسية، يهودية الأحبار السائدة إلى اليوم، والمسيحية الراهنة. وهكذا تمّ فرض العزلة على كل شيء وليس على جماعة قمران وحدها. ويمكن اعتبار إيغال يادين على سبيل المثال، تجسيداً لهذه النظرة الضيقة، فحين فاجأته وثائق من نوعية مخطوطات قمران في منطقة الماسادا أثناء قيامه بحفريات واسعة، رفض تقبل مغزى وجودها، وأصرّ بعناد على أن وجودها محض صدفة ولا شيء أكثر من ذلك. وأخذ يبرهن على وجهة نظره باحتمال إحضار بعض الفارين

بحياتهم لهذه الوثائق من قمران إلى الماسادا.

لم يقوَ يادين على رؤية أو تصور وجود علاقة ذات بعد عقائدي أو تنظيمي بين الموقعين، خشية تبديل المفهوم الشائع عن الماسادا والمدافعين عنها. كان يادين في موقفه المكابر الرافض هذا، متسقاً ضمنياً مع نفسه ومع الأب ديفو وفريقه الدولي، في إقصاء جماعة قمران والدفع بها بعيداً إلى الفترة المكابية وإن اختلف هدف كل منهما. فالمهم لديهم جميعاً كان الحفاظ على المفاهيم السائدة لدى كل من الطرفين.

وهكذا اقتصر اهتمام كلا الجانبين على النواحي الفنية والمعمارية لقصور آل هيرودس الفارهة في منطقتي الماسادا وأريحا، دون الالتفات إلى مغزاها الاجتماعي.. تماماً مثلما حاز ميناء قيسارية، مقر الحكّام الرومانيين، على إعجابهم الشديد دون اعتبار لمضمونه الاستبدادي، لتصبح بالتالي، الدور الأنيقة للنخبة الأرستقراطية في أورشليم نموذجاً للأناقة وليس مظهراً للفساد والانحطاط[١٨].

لم يفتقر أعضاء الفريق الدولي، ومن لفّ لفهم من الباحثين، إلى البراعة في شرذمة مجتمع فلسطين وتمزيقه في القرن الأول للميلاد، فدفعوا بجماعة قمران بعيداً في الصحراء، وفرضوا عليها عزلة تامة. فذلك أيسر وأقل تعقيداً من محاولة فهم واقع تاريخي معقّد ونشط. وفات الفريق الدولي، وكل من حذا حذوه، أن المجتمعات الحية ينفعل أبناؤها جميعاً ويتفاعلون معاً بكل فئاتهم، أغنياء وفقراء، متدينين وغير متدينين، متكلفين وبسطاء. فهكذا يُصنع التاريخ دائماً.

الهوامش:

(١) Silberman, P. 51.

(٢) الخط الذي سمي بالعبري المربع هو الآرامي، فالعبرية ليست سوى آرامية مكتسبة كتبت بها التوراة ولذا سميت بالكتابة المقدسة، وقد تبناها اليهود بالتدريج مع تحوير حروفها تحويراً بسيطاً. ولدت العبرية في القرن الخامس أو الرابع ق.م. وتبلورت في القرن الثاني ق.م. وتميزت كلغة في القرن الخامس الميلادي. أقدم المخطوطات العبرية لا تتعدى القرن الثاني ق.م. وحتى اليوم لم يعثر على مخطوط أو نص بالعبرية قبل ذلك التاريخ، وتميزت لغة مخطوطات البحر الميت بصعوبة قراءتها بالعبرية، وفسر بعض الباحثين ذلك بأنها «عبرية غير مدرسية» (أنظر **أوهام التاريخ اليهودي**، جودت السعد، الأهلية للنشر، عمان، ١٩٩٨).

(٣) Michael and Leigh, P. 102.

(٤) Silberman, P. 101.

(٥) Michael and Leigh, P. 65.

(٦) James M. Robinson, ed, **The Nug Hummadi Library,** Gharper Collins, New York, 1988.

(٧) Michael and Heigh, P. 300.

(٨) المصدر نفسه، ص ٦٠.

(٩) Robert Eisenman, **The Dead Sea Scrolls and The First Christians,** Element Books Limited, U.S.A. 1996, P. 16.

(١٠) Baigent and Leigh. P. 82.

(١١) المصدر نفسه، ص ١٣٦.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٩٣.

(١٣) Silberman, P. 75.

(١٣) Silberman, P. 75.

(١٤) Shank, P. 24.

(١٥) Silberman, P. 92.

(١٦) Driver G.R., **The Judaean Scrolls,** Oxford, 1965, P. 3.

(١٧) Eisenman, P. 85.

(١٨) Silberman, P. 102.

الفصل الرابع

غموض مريب

هل يمكن لباحثين من رجال الدين التزام الموضوعية والحياد البارد في معالجتهم لمخطوطات ونصوص تحتوي على معلومات حساسة، قد تُعرض، بعض الثوابت في تاريخ الأديان إلى الاهتزاز؟!

اهتم العالم البريطاني فيليب دايفز Philip Davies، أستاذ الدراسات التوراتية في جامعة تشفيلد البريطانية، بالتشوش الدائم بين اللاهوت والتاريخ. فقد تعرف الرجل، من واقع موقعه وتجربته الخاصة، إلى عدد من الباحثين الذين يشكل لهم «العهد الجديد» المرجع الأول. ولمس عن كثب مدى الارتباك والألم الذي يعانيه هؤلاء حين تصطدم أبحاثهم، أحياناً، بالمعتقدات التي نشأوا عليها، لتبدأ عندها حيرتهم: أيلتزمون الموضوعية في حالات كهذه، وهم الذين تشربوا «العهد الجديد» منذ نعومة أظفارهم، على أنه المرجع الأول والأخير الذي تصدق رواياته، وتعبر، حرفياً وبكل دقة عن أحداث القرن الأول للميلاد. فمن المستحيل على الباحث دراسة الوثائق المتوخاة، طالما ظلَّ يعتقد أن «العهد القديم» و«العهد الجديد» ـ الأناجيل

الأربعة وأعمال الرسل ـ حقيقة ثابتة، فهنا تبدأ العقيدة في فرض برنامجها[1].

تحولت ورشة العمل في المتحف الفلسطيني، على نحو تدريجي، إلى ما يشبه الدير برئاسة الراحل الأب ديفو، والعالم قابع ينتظر ما قد تسفر عنه دراسة باحثين، تحكمهم توجهات أقرب إلى العصور الوسطى منها إلى النصف الثاني من القرن العشرين. أيمكن الوثوق في حالة كهذه بأن الفريق الدولي سوف ينشر كل النصوص، دون العمل قدر الاستطاعة على تجنب إرباك المؤسسة الدينية؟!

تساؤلات وحيرة اقتصرت في البداية على الغرف المغلقة، في العقد الأول من اكتشاف لفائف قمران، ثم ما لبثت أن تسربت إلى العلن بعد مرور أربعة عقود لم ينشر الفريق الدولي خلالها سوى ٢٠٪ من مواد الكهف رقم ٤، أي ما يقدر بمائة نص، من مجموع ثمانمائة في قول، أو خمسمائة في قول آخر!

قبل الخوض في أسباب هذه التساؤلات وما تمخض عنها من خلاف وجدل، يجدر بنا أولاً التعرف إلى رؤية الأب ديفو للفائف، في ضوء المفهوم الشائع عن الأحداث التي شهدتها منطقة يهودا قبل نحو قرنين من الألفية الميلادية الأولى.

عاشت يهودا، وفقاً للمفهوم التقليدي، مرحلة بالغة التعقيد، اتسمت بتكرار اندلاع أحداث العنف لأسباب غير واضحة، فقد جاء توثيق تلك المرحلة المضطربة على نحو غامض ومبهم، حيث فشلت الحكومات المتعاقبة في ذلك الوقت في فرض الهدوء الاجتماعي، مما أتاح للسياسات الدينية القيام بدور أساسي في تهدئة الأوضاع حيناً أو تفجيرها في أحيان أخرى.

اندلعت الثورة المكابية في القرن الثاني قبل الميلاد في وجه

السلوقيين، بقيادة كاهن شيخ، يدعى ميتاس الحشموني وأبنائه الثلاثة، تعبيراً عن رفض النفوذ الثقافي الهلينستي، واستياءً من إجبار اليهود على تقديم القرابين لآلهة اليونان، فضلاً عن تفشي الرشوة واتخاذها وسيلة لتولي المراكز الكهنوتية الرفيعة، رغم عدم انتماء هؤلاء لسلالة الصدوقيين التي رسَّمها الملك سليمان لتولي شؤون الكهانة.

خلف الهيروديون المكابيين، في أواسط القرن الأول ق.م، وبدأت السلسلة بـ هيرودس الأكبر، ملك اليهود وابن أنتباتر الآدومي[٢]، الذي نصبه مجلس الشيوخ الروماني ملكاً على يهودا حيث استولى هيرودس الأكبر على أورشليم، بمساعدة قوة رومانية كبيرة فقام بإعادة بناء الهيكل وعمل على ازدهار مملكته بتشجيع التجارة. وبالرغم من نجاحاته، لم يكن هيرودس الأكبر محبوباً من غالبية الشعب، وأحاطته حملة دعائية معادية لأصوله الأجنبية الآدومية، إلى جانب ما اشتهر به من طغيان واستبداد.

أخذت الفرق اليهودية المتناحرة في التكاثر والنمو، امتداداً لما كان سائداً في أواخر أيام المكابيين من تنافر وشرذمة. واستمرت الفرق الدينية في صراعها المرير وتنافسها الحاد للوصول إلى مراكز النفوذ، وأشهر هذه الفرق الصدوقيون Sudducces، الفريسيون Pharises، والأسينيون Essenes.

ارتبط الصدوقيون، وهم فرقة دينية كهنوتية، بالهيكل مما يسر لهم السيطرة على ثروة ضخمة، والتمتع بنفوذ سياسي واسع، أكسبهم مع الأيام صبغة أرستقراطية. وزعم هؤلاء بأنهم الطائفة الشرعية الوحيدة لممارسة الكهانة، واقتصر التزامهم على الشريعة الموسوية المكتوبة وحسب، وهم لا يؤمنون بالآخرة وفقاً لما هو شائع،

وانخرط الصدوقيون إلى جانب استئثارهم بالكهانة، في العمل في المجالات الدبلوماسية والعسكرية.

لم يعثر للأسف على كتابات تعبر عنهم مباشرة، وتوضح معتقداتهم ومفاهيمهم الحقيقية، سوى ما كشفته لفائف قمران، أخيراً. ولهذا فكل المعلومات المتاحة عنهم مستقاة من مصادر أخرى، غير مباشرة، مثل المؤرخ يوسيفوس و«العهد الجديد»، وهي تتراوح بين الاعتدال والعداء الشديد.

تحدث يوسيفوس مطولاً عن الأسينيين، رغم أنهم يشكلون طائفة صغيرة، وربما كان ذلك لاعتقاد المؤرخ بافتتان القرّاء بسلوك هذه الطائفة، الدخيل والغريب، فقد عاش أتباعها في مواقع متعددة من البلاد ومن ضمنها أورشليم، غير أن مجموعة صغيرة منهم آثرت العيش بعيداً، في صحراء البحر الميت، حيث التزمت شريعة موسى على نحو صارم.

أما الفريسيون، فقد شكلوا طائفة دينية ركّزت على التشريع الشفهي، أي على الحاخامية التلمودية، ووضعته في مرتبة لا تقل أهمية عن شريعة موسى المدوّنة. وشأنهم شأن كافة المتسلقين، إبان تفشي الفتن والاضطرابات، احتل الفريسيون منطقة الوسط بين الارستقراطية الصدوقية وبين فرقة شعبية أخرى تعرف بالغيارى، أي الغيورين على التوراة Zealots. ثم انحازوا إلى القوة المغيرة عندما وقعت الواقعة، فالوصول إلى المكانة والنفوذ كان في بؤرة اهتمامهم ومبتغاهم الحقيقي، مما يفسر امتطاءهم الغيورين الثوريين في صراعهم الدائم والمرير مع طائفة الصدوقيين المتسيدة على شؤون الهيكل، ثم تخليهم عن حلفائهم ساعة الجد، ومن ثم التحول إلى جانب القوى المغيرة أملاً في النفوذ والمكاسب[٣].

بالفعل، استطاعت الطائفة الفريسية أن تتخطى وحدها أحداث الثورة الجامحة والهجمة الرومانية وتدميرها الهيكل عام ٧٠م. وخرجت منتصرة على حساب بقية الطوائف والفرق الدينية الأخرى، لتشكل بدورها المفاهيم المعروفة والمستمرة إلى يومنا هذا. أما المعلومات المتوافرة بصدد الفريسيين فتعود إلى مراجع وأخبار متأخرة، وقد أشار إليهم «العهد الجديد» بعداء سافر.

كان الفريسيون يؤمنون بفكرة الماشيح المخلِّص والآخرة، والمخلِّص الذي ينتظرون لن يكون نجاراً متواضعاً أو راعياً مسكيناً، يبشر بالحب والتسامح عبر ضربه الأمثال، كما لن يكون تجسيداً للإله، الذي جاء ليكفّر عن خطايا الإنسان. فالمخلِّص الأخير ـ أو المخلِّصان الاثنان للشعب بالنسبة الى جماعة قمران ـ سوف يكون محارباً منتصراً، قاضياً عادلاً، كاهنا عظيماً، وحاكماً حكيماً حسبما جاء في وثائق قمران. فالشخصيات البارزة التي تقدم الخلاص، تظهر في هيئات متعددة وبأوصاف متنوعة، وتكاد الظروف التي يخرجون من خلالها أن تكون متشابهة(٤).

التزم الأب ديفو وفريقه الدولي، في تناولهم لوثائق قمران، حرفياً بالتاريخ التقليدي الشائع، ورأوا أن جماعة قمران فرقة دينية منشقة، تكونت في وقت ما حوالى العام ١٢٥ق.م، استبد بها الاستياء من تهاون مؤسسة الكهنة في أورشليم، فنأت بنفسها بعيداً، مودعة حياتها الوارفة السابقة، وذهبت تعيش في البرية في خرائب حصن قديم، يرجع إلى «الكنعانيين» في العصر الحديدي. اعتمدت هذه الجماعة المنشقة على مهارة أعضائها في فن المعمار والبناء الحجري، وقامت ببناء ما يشبه الحرم، الذي احتوى على برج كبير وغرف واسعة لعقد اللقاءات وورشة عمل، إضافة إلى شبكة مياه متقدمة

من القنوات المتنوعة، وخزانات وصهاريج وأحواض لتأدية شعيرة الاغتسال.

استند الأب ديفو إلى عملات قديمة، ليخرج بنتيجة مفادها أن جماعة قمران أخذت في التوسع تدريجياً خلال حكم الملك المكابي إسكندر ينيوس (١٠٣ - ٧٦ق.م)، بسبب تدفق اللاجئين المعارضين للمكابيين. والمفارقة، التي لم يلتفت إليها الأب ديفو، أن ينيوس هذا كان نشطاً بوجه خاص، في وادي الأردن ومنطقة البحر الميت. مما يعني أنه كان على علم تام بوجود بؤرة قابلة للتمرد والعصيان، تقع على ملتقى طرق، تتجه شرقاً عبر الأردن وجنوباً على طول الشاطىء الغربي للبحر الميت(٥)!

أتراه كان يتركها شوكة في خاصرته تهدد على الدوام استقرار مملكته؟!

اعتمد الأب ديفو نظرية تدفع بتدمير موقع الجماعة، نظراً لعدم وجود عملات ترجع إلى عهد هيرودس الأكبر (٣٧ - ٤ق.م)، مفترضاً بأن الجماعة قامت بمغادرة الموقع، لفترة ما، ربما بسبب الزلزال الذي ضرب المنطقة عام ٣١ق.م. واكتفى بافتراض وقوع ذلك الزلزال المفاجىء، غير مبالٍ بأية دوافع أو أسباب أخرى قد تكون وراء هجرة الجماعة لموقعها في تلك الفترة!

كانت المرحلة مثقلة، بالفعل، بأسباب واحتمالات كثيرة، لا يستبعد أن يكون أحدها الدافع الحقيقي وراء هجرة الجماعة لمقرها في قمران، مثل الحرب الأهلية التي امتدت لحوالى خمسة وعشرين عاماً في يهودا، أو ربما بسبب الغزو الروماني. كذلك لا يمكن استبعاد الوضع الاقتصادي المتدهور، الذي تفشى قبل تولي هيرودس الأكبر، سدة الحكم. أو لعلها حدثت نتيجة للاضطهاد والبطش، اللذين اتسم بهما حكم هيرودس الأكبر.

مع كل هذه الاحتمالات على كثرتها، يبقى سؤال مهم: لماذا لم تعاود جماعة قمران بناء ما تهدم من مقرها عقب انتهاء الزلزال، مثل قاعة النساخ وقاعة الطعام الجماعية؟

لم يحر الأب ديفو جواباً، ولم يدل بتفسير وافٍ شافٍ حول ذلك السؤال المشروع، بل لم يفترض أصلاً احتمال عودة الجماعة إلى قمران، إثر انتهاء عهدي هيرودس الأكبر وابنه أرخيلاوس الفاسد وغير الكفء. لم تحرك كل هذه الاحتمالات والتساؤلات النابعة من رحم الظروف الموضوعية المحيطة، الفريق الدولي لعرضها على مضمون المخطوطات الغنية بالدلائل والإشارات، بما قد يساعد على فهم علاقة جماعة قمران بظهور المسيحية الأولى، أو إدراك السبب وراء صعود اليهودية الفريسية وانفرادها بالساحة الدينية. وبقي الفريق الدولي، رغم ذلك، يراوح مكانه متمسكاً بالإجماع متشبثاً برأيه، بأن اللفائف قد نُسخت في الفترة ما بين ٢٥٠ق.م إلى أن دمر الرومان الموقع عام ٦٨م، مصراً على أن التحليل البليوغرافي قد وصل إلى مستوى من الدقة، لا يمكن دحضه معها.

ومن ثم، اكتفى الفريق الدولي بتقسيم مخطوطات البحر الميت إلى عدة أنواع، وفق أسلوب كتابتها: منهجياً وشبه منهجي، وآخر بحروف متصلة أو شبه متصلة، ليعيد بالإجماع بضع مخطوطات من الكهف رقم ٤، إلى حقبة بعيدة تسبق تكوين جماعة قمران نفسها، مما يعني إتيان الجماعة بها من الخارج. ثم أعاد الفريق وهو مطمئن آمن، مخطوطات مثيرة مثل «كتاب القانون» و«سفر أشعيا» إلى فترة المكابيين، منوهاً بأن الجماعة أعادت نسخ الكثير من شروح الأسفار والتعليق عليها في عهد الهيروديين[٦].

هكذا وبجرة قلم، أصدر الفريق الدولي قراراً بالإجماع، بانهماك

جماعة قمران وانكبابها على نسخ كتابات وشروح قديمة تتعلق بأحداث الماضي البعيد، لمدة تربو على المائتي عام، وهي غافلة متجاهلة تماماً ما يدور حولها من أحداث وعنف، حتى دهمها الرومان على حين غرة وجعلوا عاليها سافلها، من دون أن تحرك ساكناً!

أيلتزم الباحثون الصمت ويكتفون بما توصل إليه الفريق الدولي ويباركون النتائج التي وافق عليها أعضاؤه في حلقتهم الضيقة؟

كيف يمكنهم ذلك، وقد تسرب الشك مبكراً، وعلى نحو مفاجىء منذ عام ١٩٥٠، حين ألقى البروفسور أندريه ديبونت سومر André Dupont Sommer، أستاذ اللغة والحضارة السامية في جامعة السوربون الفرنسية، محاضرة أحدثت ضجة عارمة. كان البحث يومها متعلقاً بأحد نصوص قمران من الكهف الأول، وختم البروفسور الفرنسي محاضرته بالقول أمام الحضور:

«إن قائد الطائفة المدعوة بالعهد الجديد، والمشار إليه بالمعلم البار، الذي اعتقد أتباعه بأنه المخلِّص، والذي أُضطهد وعذب واستشهد، فاعتقد هؤلاء الأتباع بأن نهاية العالم قد باتت وشيكة، وأن النجاة ستكون لأولئك الذين آمنوا به ...إن المعلم البار ليمثل بدقة، من وجوه عدة، النموذج الأصلي ليسوع»(٧).

وهبت العاصفة، صاخبة مدوية، تعارض وتحتج، تفوق كثيراً ما توقعه سومر، فقد رأى الذين حملوا لواءها في النتائج التي توصل إليها البروفسور، تهديداً يمس تفرد يسوع وأصالته. وسرعان ما بدأت المؤسسة الكاثوليكية، خصوصاً في فرنسا والولايات المتحدة الأميركية، في توجيه انتقادات لاذعة، ارتعدت لها فرائص العالم الفرنسي، فأخذ يلوذ بكل ما تسمح به اللغة من مواربة وأعذار،

وتوارى كل مؤيدي البروفسور بعيداً خشية أن يصيبهم ما أصاب زميلهم من تقريع وتوبيخ.

نجح العالم الفرنسي، رغم الحملة الشعواء، في غرس بذور الشك التي ما لبثت أن أينعت قبل مضي وقت يذكر، في الولايات المتحدة الأميركية، على يد الكاتب الأميركي الشهير، إدموند ويلسون "Edmund Wilson"(٨). لم يكن ويلسون باحثاً متخصصاً في علوم التوراة، ولكنه كاتب معروف بتميزه وجديته ويحظى باحترام عميق وسمعة عالمية.

قام ويلسون في عام ١٩٥٥ بنشر مقالة مطولة في صحيفة «نيويورك» الأميركية عن مخطوطات قمران والفريق الدولي، ليدخل قمران وحديث لفائفها إلى كل بيت في الولايات المتحدة الأميركية. وكانت تلك هي المرة الأولى التي تُطرح فيها المشكلة على الرأي العام، وبات من الصعب على الأب ديفو وفريقه الدولي، القدح في استقامة وجدية الكاتب الأميركي، المعروف بالبراعة والدقة المتناهية.

استشف ويلسون في مقاله، رغبة «الخبراء» في إبعاد وثائق قمران ووضعها على مسافة من اليهودية والمسيحية، فقد بدا له هؤلاء معارضين أكثر منهم متحمسين للعمل، مما زاد في شكوك الكاتب الأميركي فمضى يقول:

«لا يكاد المرء يبدأ في دراسة الخلافات الناشبة حول لفائف البحر الميت، حتى يدرك من فوره وجود توتر ما.. توتر لا ينبع في المقام الأول من النزاع حول تاريخ كتابتها، فالنزاع الدائر كان يخفي في الحقيقة قلقاً من نوع آخر، غير القلق المحض علمي»(٩).

مضى ويلسون يؤكد على أوجه الشراكة بين اللفائف واليهودية التلمودية من ناحية، وبينها وبين الصور المبكرة للمسيحية من ناحية أخرى، ثم أشار إلى الممانعة والكبح الملحوظين لدى الباحثين الملتزمين، يهوداً كانوا أم مسيحيين، في إيضاح أوجه الشراكة هذه، فكتب يقول:

«كم يود المرء رؤية هذه المشاكل والخلافات وقد بُحثت بشكل مفصل، غير أننا لا نملك في الوقت الراهن سوى التساؤل حول أداء هؤلاء الباحثين العاكفين على اللفائف، لو لم يكن معظمهم من أصحاب الرتب الكنائسية ونتاج التنشئة الصارمة على تراث اليهودية التلمودية، فربما تعاملوا حينها مع مسائل كهذه بموضوعية أكثر، دون حاجة لكبح جماح أنفسهم، مراعاة لالتزاماتهم الدينية المختلفة.. إن الواحد منهم يشعر بالتوتر وبالتردد، في معالجة أمور كهذه، وضعها في سياقها التاريخي».

استخدم ويلسون، في مقالته أسلوباً دبلوماسياً رفيعاً، دون أن يتورع عن تناول مضمون اللفائف، ووضعها في سياقها التاريخي، ثم أضاف قائلاً:

«على أية حال، إذا نظرنا إلى يسوع، في ضوء الوثائق، يمكننا تتبع استمرارية جديدة والخروج، أخيراً، بمعنى ما للمأساة التي بلغت ذروتها في المسيحية.. وربما يكون دير قمران مهداً للمسيحية، أكثر من بيت لحم أو الناصرة»[١٠].

هكذا استطاع كاتب جاد لامع، وليس باحثاً متخصصاً، طرح علاقة قمران ولفائفها بالقرن الأول الميلادي. وعبَّر بأسلوب دقيق يموج بالحيوية، ليس عن المسائل الحساسة التي جاهد الفريق الدولي طويلاً لتفاديها فحسب، بل أيضاً عن أزمة الباحثين أنفسهم في

التعامل مع مواد كهذه. أما الفريق الدولي، فعمد إلى تجاهل ويلسون بلطف ولباقة، واصفاً إياه بغير المتخصص، دون اللجوء إلى التجريح والإهانة، مكتفياً بالثناء على براءته ونواياه الحسنة، زاعماً أنه لم يقوَ على فهم تعقيدات المسائل المتصلة بقمران ودقائقها، الأمر الذي جعله يتسرع في إبداء آرائه تلك!

في مواجهة شكوك الكتّاب اللامعين وتساؤلاتهم، كان الفريق الدولي يتخذ عادة أسلوب التعطف الأبوي والترفق ببراعة فائقة، على العكس تماماً من ردة فعله إزاء الباحثين المتخصصين أصحاب الرؤى المغايرة، مما حدا كثيراً منهم على اللوذ بالصمت وعدم الجهر بآرائهم الحقيقية إيثاراً للسلامة. فالسمعة العلمية مسألة بالغة الشأن والأهمية في الأوساط الأكاديمية، ومن السهل زعزعتها. قلة قليلة فقط من الباحثين تمتلك الجرأة والجسارة للمواجهة، وتتمتع بالقوة لتجاوز ما قد يلحق بمصداقيتها من أذى، وتحمل ما يفرض عليها من عزلة.

عاودت بذرة الشك، التي غرسها العالِم الفرنسي سومر الإثمار من جديد، لكن الثمرة جاءت هذه المرة تحمل السم الزعاف، فقد نبتت من داخل الفريق الدولي وعلى يد أحد أعضائه الأوائل، وهو العالم البريطاني أليغرو، الذي كان له من الجرأة والجسارة ما دفعه إلى قطع الشوط إلى آخره.

كان أليغرو متفقاً مع بقية أعضاء الفريق على انتماء جماعة قمران إلى طائفة الأسينيين، الزاهدة المتبتلة المنقطعة عن العالم، اتباعاً لما ذكره المؤرخون القدامى وفي مقدمهم يوسيفوس، لكنه اختلف مع زملائه بشأن علاقة جماعة قمران بالمسيحية الأولى، وسرعان ما ضاق ذرعاً بانغلاق الفريق وعناده في رفض أية رؤى مغايرة، قد

يكون هناك ما يبررها حسب وجهة نظره، فقرر عرض الموقف على الملأ.

بدأت الزوبعة عام ١٩٥٦ حين أدلى أليغرو بثلاثة أحاديث متتالية عن اللفائف في إذاعة محلية شمالي إنكلترا، مطعماً أقواله ببعض عناصر الإثارة والجدل، عند إشارته إلى أن الدراسة الحديثة للوثائق أقنعته بأن العالم الفرسي سومر كان على صواب ربما أكثر مما كان يعتقد(١١).

لم تحظَ أحاديث أليغرو بانتباه واسع في بريطانيا، ومع ذلك بدأت أجراس الإنذار تدق بعنف لدى الفريق الدولي، خصوصاً عندما قامت جريدة «نيويورك تايمز» الأميركية بنشر حديثي أليغرو الثاني والثالث على صفحاتها بشكل غير دقيق، ثم أعقبتهما بمقالة مثيرة، في الخامس من شباط/ فبراير ١٩٥٦، تحت عنوان: «أسس المسيحية في اللفائف»، أثارت ضجة كبيرة، وقد جاء فيها:

«وفقاً لقراءة أحد أعضاء الفريق الدولي السبعة، جون أليغرو، التي أدلى بها في حديث إذاعي الليلة الماضية، يمكن رؤية أصول بعض الطقوس والمعتقدات المسيحية في وثائق طائفة يهودية متطرفة، كانت موجودة لأكثر من مائة عام قبل ولادة السيد المسيح، فالأسس التاريخية لعشاء الرب الأخير وجزء على الأقل من تضرعات الرب وتعاليم «العهد الجديد» ليسوع، تعود إلى القمرانيين»(١٢).

ما لبثت جريدة «التايمز» البريطانية أن لحقت بالركب، فنشرت مقالة في اليوم التالي بعنوان: «الصلب كان قبل المسيح»، أعقبتها بتقرير تحدثت فيه عن عقد اجتماع لثلاثة من القيادات الدينية في الولايات المتحدة، أحدهم يهودي، لدحض مزاعم أليغرو، وقد

حذر هؤلاء بشدة من محاولة طرح الإيسنية مقدمة للمسيحية، أو كمادة ساهمت في تشكيلها، مطالبين الأب ديفو بفعل شيء ما في هذا الصدد.

بدا أليغرو غافلاً عما يدور حوله، فبعث برسالة إلى الأب ديفو يشكو إليه اتهامه بقول أشياء مثيرة، بعضها «حقيقي بالفعل ويدعو للدهشة» غير أن البعض الآخر اختلقه الصحافيون بدافع الإثارة. أقام ما تداولته الصحف الدنيا ولم يقعدها، فقد دخل أليغرو، بأحاديثه الإذاعية تلك، «حقل ألغام» من دون أن يعي تماماً مدى قداسة فكرة تفرد يسوع المسيح واستثنائيته، وبالتالي مدى حرص الأب ديفو وفريقه الدولي على النأي بأنفسهم بعيداً عن ذلك التناول الجريء والفظ، ولم تفلح محاولات أليغرو المتكررة في تهدئة الضجة أو التخفيف من حدة أقواله، فمضى إلى الوثائق يدرسها بعناية وبعقل بارد متوقعاً أن يحذو أعضاء الفريق حذوه، من دون أن تتأثر أحكامهم بولاءاتهم الدينية.

بعث أليغرو برسالة إلى زميله البريطاني، عضو الفريق، ستروجنيل، الذي كان يتطلع وقتها إلى وظيفة رفيعة في المؤسسة الدينية، يناشده فيها الدعم وتهدئة الموقف، ختمها بالقول مداعباً «لو كنت مكانك لما انتابني القلق على الوظيفة الدينية هذه، فمع انتهاء عملي باللفائف لن تعود هناك كنيسة لتلتحق بها»(١٣).

دعابة عابرة، لكنها تكشف مدى اقتناع أليغرو بأهمية المادة التي تطفح بها مخطوطات البحر الميت، وبحجم تأثيرها العميق على المعتقدات الشائعة.

وبدأ من وقتها مسلسل الرسائل المتبادلة بين لندن والقدس.

بعد أيام قليلة من انطلاق الضجة، بعث الأب ديفو برسالة إلى

أليغرو، يحثه فيها على التوقف الفوري عن أحاديثه الإذاعية، مشيراً إلى أن المادة المتاحة له، متاحة أيضاً لبقية أعضاء الفريق في القدس، وأن هؤلاء قد فشلوا في التوصل إلى أية دلائل تدعم قراءته. مضيفاً، بأن زميليه ميليك وستروجنيل، عاكفان على إعداد الدفوع لتنفيذ النتائج التي توصل إليها وأذاعها على الملأ.

سارع أليغرو بالرد، في محاولة لرأب الصدع بينه وبين الفريق، وتعهد بالتوقف عن الإدلاء بأحاديث إذاعية، ولم تفته الإشارة إلى الدفوع التي يعكف عليها زملاؤه، حيث علق قائلاً:

«إنني لا أشن حرباً على الكنيسة، وفي حال قمت بذلك فعليك التيقن من إنني لن أدع لها منفذاً.. فأنا مقتنع تماماً بما ذكرته في أحاديثي الإذاعية الثلاثة، ومع ذلك فإنني مستعد تماماً لتقبل أية قراءات أخرى محتملة».

أرسل الأب ديفو كتاباً آخر إلى أليغرو، في ٤ آذار/ مارس ١٩٥٦، يحذره فيه من انهماك الفريق الدولي برمته في إعداد الدفوع، التي لن يقتصر نشرها على الدوريات المتخصصة، بل أيضاً في جريدة «التايمز» اللندنية، ممهورة بتواقيع كل أعضاء الفريق.

لم يؤت تحذير الأب ديفو ثماره المرجوة، بل لعله دفع أليغرو إلى مزيد من التحدي، فرسالة الفريق المزمع نشرها في جريدة «التايمز» أكثر مدعاة لإثارة الرأي العام في لندن، ولفت انتباهه إلى الأحاديث الإذاعية، التي ربما فات الكثيرون الاستماع إليها. فأرسل أليغرو خطاباً إلى الأب ديفو يقول فيه:

«... إنك تلفت وأصدقاءك بهذا التصرف، انتباه الصحافة في هذا البلد، إلى مقاطع، لم يسبق للصحافة ولغالبية القرّاء الاطلاع

عليها.. عندها سوف تبدأ المطاردة وينقض علي الصحافيون لمعرفة كل ما يتصل بالموضوع، ويأخذون في صب الزيت على النار، حتى يبدو الأمر وكأن خلافاً حاداً أخذ في التطور بين قساوسة اللفائف وعضو مستقل».

وتابع أليغرو، محذراً، بأن نشر الرسالة في «التايمز» سوف يؤكد المخاوف التي أبداها الكاتب الأميركي ويلسون، في عدم رغبة الكنيسة بتناول نصوص قمران بالموضوعية اللازمة، خصوصاً أن أقواله تلك قد أُخذت بجدية في لندن، حيث ترتفع الآن الأصوات في كل ندوة ومحاضرة بالتساؤل عن حقيقة قدسية الكنيسة، وعن مدى الثقة بنشر كل النصوص:

«قد يبدو ذلك سخيفاً لكلينا، ولكن ارتياباً جدياً بدأ يتسرب لدى عامة الناس».

وختم أليغرو رسالته مهنئاً، سلفاً، الأب ديفو وفريقه الدولي على ما سوف يتحقق على يديهم من تشوش وإرباك نتيجة النشر المزمع في الصحف.

لم يكن أليغرو، في الحقيقة، يسعى إلى توسيع دائرة الخلاف ونقله إلى صفحات الجرائد، فقد أنهكته الانتقادات المنهالة عليه من كل حدب وصوب، ناهيك عما قد يحدثه بيان الفريق من تجريح لصدقيته العلمية، عدا عن الإهانة، حين يُعلن على الملأ نبأ إقصائه من عضوية الفريق الدولي.

لكن السيف سبق، وظهرت الرسالة في ١٦ آذار/ مارس ١٩٥٦ في «التايمز» اللندنية، مذيلة بتواقيع أربعة من أعضاء الفريق، على رأسهم الأب ديفو. واللافت، أن الرسالة جاءت خالية من أية دفوع لقراءة أليغرو، واقتصرت على الإشارة إلى أن الفريق الدولي لم

يتمكن بعد من رؤية النتائج التي توصل إليها السيد أليغرو، حيث لم يرد في النصوص ذكر صلب «المعلم البار»، أو إنزاله عن الصليب، فضلاً عن عدم وجود نموذج معين لدى الأسينيين يليق بيسوع الناصري. وأكد البيان اقتناع الفريق الدولي بأن أليغرو قد أخطأ في قراءته للنصوص، أو أنه أقام سلسلة من التخمينات لا تدعمها النصوص(١٤).

إعلان، ربما مدفوع الأجر، نقل أليغرو من موقع الهجوم إلى الدفاع، فقام بنشر رسالة في الصحيفة اللندنية نفسها، لشرح وجهة نظره وتبرير موقفه، أشار فيها إلى وجود مقاطع كثيرة في مخطوطات قمران، يماثلها «العهد الجديد» في الأسلوب، حيث كانت الطائفة تتطلع إلى ظهور مخلّص من نسل داود في الأيام الأخيرة، ويتوافق، تبعاً لهذا المعنى، يسوع مع النموذج المحدد للخلاص، وليس مع الأسينيين كما ووضع على لسانه بطريق الخطأ. وهذا ليس بجديد أو ما يستدعي الدهشة.

ظل أليغرو، رغم الضرر الذي لحق به، أول أعضاء الفريق الدولي في نشر المواد المنوطة به، فيما اقتصر ما نشره ستروجنيل على مائة وإحدى وثلاثين صفحة، اتباعاً لسياسة التباطؤ والتسويف المعمول بها في الفريق، اقتصرت على توجيه انتقادات حادة لأليغرو، علق عليها الباحث الأميركي إيزنمان، بقوله إنها: «بيضة الديك». انطلقت في أعقاب بيان الفريق الدولي، كل آلات الدفاع والهجوم الكاثوليكية تتناول ويلسون وسومر، وعلى نحو خاص أليغرو، بكل ما في جعبتها من سهام، ليصل أحد الكتّاب في نهاية مقالته، التي شابها حماس متقد، إلى نتائج عجيبة، مفادها، أن اللفائف لا تضيف سوى النذر اليسير إلى العقائد الشائعة بين اليهود في القرن

الثاني قبل الميلاد، وأصبح أليغرو، منذ ذلك الوقت، يُنعت بالباحث الفاشل والمعادي الحقيقي للسيد المسيح.

مع ذلك بقي سؤال حائر ومعلق يبحث عن إجابة.

كيف يمكن للأب ديفو وفريقه، إضافة إلى جوقة الباحثين التابعة، تصوير جماعة قمران بفرقة على هيئة فرقة منعزلة تعيش في منطقة نائية، تتمتع بالاكتفاء الذاتي، غير عابئة بأحداث القرن الأول الميلادي الدائرة حولها، وفي حوزة أليغرو اللفافة النحاسية التي تشير بوضوح إلى كنز هائل مخبأ في أماكن معينة بالاسم؟!

والأخطر، وجود احتمال قوي بأن يكون الكنز ملكاً لمؤسسة الهيكل، وتمّ تهريبه سراً أثناء ثورة عام ٦٦م. فهذا وحده كافٍ للبرهنة على أن جماعة قمران، كانت وثيقة الصلة بالأحداث الجارية، وربما في بؤرتها، وعلى اتصال بتيار واسع، ربما يمس نشأة المسيحية الأولى، مما ينسف بالتأكيد التأريخ الذي رسّمه الفريق الدولي على مجموعة وثائق قمران.

حقق كتاب أليغرو عن لفائف البحر الميت عام ١٩٥٦ رواجاً واسعاً، كما توقع صاحبه، بفضل بيان الفريق الدولي في صحيفة «التايمز». فقد نفدت الطبعة الأولى، (أربعين ألف نسخة)، في سبعة عشر يوماً، وأشاد به الكاتب الأميركي ويلسون عبر الإذاعة البريطانية. ولا يزال هذا الكتاب، الذي أعيدت طباعته تسع عشرة مرة، أفضل عرض للفائف قمران.

يقول أليغرو في كتابه: لم نكن نعلم، في الحقيقة، الكثير عن يسوع الإنسان وخلفيته التاريخية، فالأقوال المنسوبة إليه في «العهد الجديد» جاءت عبر سلسلة من الترجمات، ومن خارج السياق التاريخي، وتشير ضمناً إلى عالم مفقود لطائفة يهودية، لم نكن

حتى اليوم مدركين لها. جاءت اللفائف لتؤهلنا، وللمرة الأولى، لفهم المضامين الأصلية لهذه الإشارات، لكن علينا الاعتراف بأن الكثير قد ضاع عبر عملية الترجمة، وربما أيضاً نتيجة لسوء فهم قديم. لهذا يمكن القول، بأن يسوع كان على معرفة بطائفة الأسينيين نظراً لانتشارها في كل أنحاء فلسطين. كما أن بعض اللفائف تكشف بوضوح، أن علاقة يسوع بالأسينيين القاطنين في المدن كانت أوثق من علاقته بالجماعة المقيمة في قمران، مما يفترض وجود تباين معتبر بين فرعي الحركة، وهذا أمر يتطلب دراسة مستفيضة للأسينيين في المدن، لتحديد مدى الصلة التي جمعت يسوع بهم.

فاللفائف تُظهر بجلاء تطابق أسلوبها الاستشرافي مع أسلوب «العهد الجديد»، على نحو أعمق كثيراً من مجرد كونها ميراثاً عاماً لليهودية و«العهد القديم»، فمنذ شيوع أمر الوثائق في الغرب، أخذ هذا التطابق ينزع نحو الربط بين «المعلم البار» للأسينيين وبين يسوع المسيح[١٥].

تدفقت المقالات والأبحاث، إثر ظهور كتاب أليغرو، تنتقد ذلك النزوع للربط بين الأسينيين ويسوع المسيح، بهدف طمأنة العامة بأن استثنائية إيمانهم ليست مهددة، وبوجود اختلافات كثيرة بين «المعلم البار» ويسوع المسيح، مؤكدة على استحالة وجود علاقة بين المسيح والأسينيين أو بينه وبين أي طائفة يهودية أخرى. وبرغم إقرار هؤلاء النقاد بوجود بعض التطابق المثير بين اللفائف و«العهد الجديد» إلاّ أنهم فشلوا في تعيين الاختلافات الجوهرية في الرؤية الاستشرافية لكليهما، وحددوا تلك الاختلافات في أن الوثائق، تطفح على سبيل المثال، بالمرارة تجاه الآخرين، مما يتعارض مع الحب

الذي أبداه يسوع للخطائين، كما أن التزام جماعة قمران بالزهد والنسك يناقض المفهوم الشائع عن اختلاط يسوع حتى بالسكارى وشاربي النبيذ. وأخيراً وليس آخراً، يناقض ذانك الحزن والتبجيل اللذان تبديهما الجماعة لرحيل «المعلم البار»، ما أبرزه «العهد الجديد» لحادثة الصلب، ومضمونها الديني للكنيسة، المتمثل في عبادة القائم من بين الأموات، الذي هو بمثابة الرب نفسه.

أما بالنسبة إلى التفاصيل الواردة في «العهد الجديد» عن حياة السيد المسيح، فالوثائق تدعم الاعتقاد بإسقاط الكثير من النبوءات الواردة في «العهد القديم» على تاريخ يسوع، بحيث يتطابق والتوقعات القديمة الخاصة بالمخلّص، مما يتيح العثور على أصول الكثير من أساطير «العهد الجديد»، فهذا ما تكشفه تعليقات جماعة قمران على «سفر أشعيا»، التي تتحدث عن إعداد وتتويج المخلِّص من نسل داود.

يمضي أليغرو في كتابه معترفاً بفضل لفائف البحر الميت على الفكر الحديث:

«التي كشفت ولا تزال، مدى جهلنا، بأحداث وتوجهات طوائف اليهود عند منعطف الألفية الأولى، فقد ألقت الضوء على مرحلة مهمة في تاريخ الإنسان، كانت من قبل معتمة تماماً.. إن إزالة الزبد وما لا ينفع، أول شرط للتقدم الفكري. لكن هذا يعود للجيل الحالي، إن امتلك البصيرة والشجاعة لإدراك فرص إعادة التقييم، التي تبذلها هذه اللفائف الخارقة، التي اكتشفت في البرية»[١٦].

هذا بعض ما أورده أليغرو في كتابه الأول، وإن لم يأت على ذكر الكنز الهائل، الذي تشير إليه اللفائف النحاسية، التزاماً منه بالوعد الذي قطعه للأب ديفو، خشية تدافع الجموع لنبش أرض فلسطين

بحثاً عن الكنز المزعوم. دع عنك، سرعة نصب بدو التعامرة لخيامهم في أي مكان يحلو لهم والاحتماء داخلها للقيام بأعمال الحفر والتنقيب، من دون رقيب أو حسيب.

لم يخفف احترام أليغرو للوعد الذي قطعه للأب ديفو من غلواء غضب الأخير، فبعث برسالة طويلة إلى أليغرو بمناسبة صدور كتابه، أشبعه فيها نقداً وتقريعاً. فعاجله الأخير بالرد، قائلاً في رسالته:

«إنك ماضٍ في الحديث بسعادة عن الفكر الأول لليهودية/ المسيحية في القدس، دون أن ينتبه أحد إلى أن دليلك الوحيد ـ إذا جاز لك اعتباره دليلاً ـ مستمد من «العهد الجديد» وهو مجموعة من التراث جرى عليها العمل، مرات ومرات، فدليلك لا يتحمل دقيقتين في ساحة القانون... أما بالنسبة إلى يسوع كـ «ابن الرب» ومخلِّص، فلن أنازعك في هذا لدقيقة واحدة. فكلنا بات يعلم الآن من قمران أن الجماعة اعتقدت بأن مخلِّصها ابن الرب و«مولود للرب»، ولا يُثبت هذا بحال ادعاء الكنيسة الوهمي بأنه كان الرب نفسه، فلا يوجد أية تباين في مصطلحات قمران، فالتباين يكمن في الترجمة»(١٧).

وقعت القطيعة بين أليغرو والفريق الدولي عام ١٩٥٧، وانزوى العالِم البريطاني بعيداً بعد أن أصبح استمراره في جامعة أكسفورد مستحيلاً، فقد طاوله التجريح والتشويه وانفض الجميع من حوله، فانكب على الدراسة والنشر حول «أسطورة الشعب المختار» و«نهاية الطريق»، مع تذكير الرأي العام، بين الفينة والأخرى، بأهمية اللفائف والخطر المحدق بها، من جراء استمرار هيمنة الفريق الدولي عليها.

التقط الباحثون ما ورد في رسالة أليغرو، وأصبح لديهم دليل واضح

على التباطؤ المتعمد ومدى أهمية الوثائق وحساسيتها، فهناك نص لم يسبق أن ذكره أحد على أهميته، مع أن تحديد هويته وترجمته قد تمتا منذ وقت مبكر، خصوصاً وقد تمّ تسريب بعض مقاطع من النص، في عام ١٩٩٠، في ظروف لم تتضح أسبابها بعد!

استمر أليغرو في مناوأة الفريق بالرغم من الأضرار الجسيمة التي لحقت به وأنهكته جسدياً وفكرياً. وثابر على تنبيه الرأي العام حتى آخر حياته، حين كتب في عام ١٩٨٧، يقول:

«إن الفريق يجلس على مواد ليست مذهلة فحسب، بل الأكثر حساسية من الناحية الدينية، وليس لدي شك، في أن الوثائق تُضعف تدريجياً استثنائية المسيحيين، فنحن كنا نعرف الحقيقة ولكن الوثائق جاءت لرفع الستار».

مات أليغرو فجأة في عام ١٩٨٨، وهو على اقتناع راسخ بأن الغرب يعيش على كذبة امتدت طوال ألفي عام، بصدد استثنائية إيمانهم وتفرده.

منذ السبعينيات، أصبح الباحثون يتحدثون بصوت عالٍ وصراحة وجرأة على غير العادة عن قيام الفريق الدولي بتفصيل اللفائف وتركيبها بما يوافق ميول أعضائه، وخرج الكاتب الأميركي المعروف ويلسون عن صمته، في أواخر عام ١٩٦٩، معلناً بأن باحثاً كاثوليكياً أسرَّ إليه، بإرساء الفريق لسياسة رسمية تهدف إلى البحث المتحيز في اللفائف، وتعمد التقليل من شأنها. وبدأت الأوساط الأكاديمية تفترض أن التسويف في النشر يرجع إلى التغطية خيفة من فضيحة ما، حتى إن أحد العلماء في الدراسات السامية، د. غيزا فيرمس Geza Verms، بدأ يفقد صبره تدريجياً ليقول في أحد كتبه عام ١٩٧٧ «من حق العالم مساءلة السلطات

المسؤولة عن نشر وثائق قمران، بمناسبة مرور ثلاثين عاماً على ظهورها.. ما الذي ينوون فعله إزاء هذه الحالة الباعثة على الأسى.. فمن المحتمل إذا لم تتخذ إجراءات حاسمة، على الفور، أن تصبح أعظم وأكثر المخطوطات العبرية والآرامية أهمية، الفضيحة الأكاديمية الأولى في القرن العشرين من دون منازع»[١٨].

ومضى عقد من دون أن تُحدث كلمات العالِم غيزا أي ردة فعل!

في مقابلة أجراها الكاتب الأميركي مايكل بايجنت Michael Baigent، عام ١٩٨٩ مع الأب إميل بوتش Emile Puech، المرشح لرئاسة المدرسة التوراتية في القدس، والوريث لحصة الأب الراحل جين ستاركي، التي تتضمن مواد تمّ تصنيفها «بالمجهولة الأصول»، كشف الأب بوتش عن ثلاثة اكتشافات أخرى بالغة الأهمية:

- وجود تطابق جزئي بين ما ورد في اللفائف وموعظة الجبل تشير إلى «الفقراء في الروح».
- المقطع الذي انفرد به برنابا في إنجيله عند إشارته إلى «نبي غير معروف»، ثبت أنه مقتبس مباشرة من إحدى مخطوطات البحر الميت، مما يدل على أحد احتمالين لا ثالث لهما: إما أن برنابا كان أحد أعضاء الجماعة، أو أنه كان يتمتع بحرية الوصول إلى مقر الجماعة في قمران والاطلاع على تعاليمها. وهذا في حد ذاته لا يدع مجالاً لإنكار وجود حلقة اتصال بين قمران وبين التراث المسيحي[١٩].
- اقتباس آخر مشتق مباشرة من لفائف قمران، ورد في أعمال المؤرخ المسيحي جوستين مارتر، في القرن الثاني الميلادي.

انتهى اللقاء على وعد قاطع من الأب بوتش بنشر كل المواد، فعلى

حد قوله «نحن لا نخفي شيئاً». ومضت الأيام والعالم والباحثون ينتظرون تحقيق الوعد الذي قطعه الأب بوتش من دون جدوى. وبقي العالم يتطلع إلى الباحث المقاتل، الذي سوف يقرع أبواع المتحف الوطني الفلسطيني الموصدة، ليعبر إلى غرفة اللفائف، تلك الغرفة السحرية المحرمة.

الهوامش:

(١) Baigent and Leigh, P. 80.

(٢) إحدى الجماعات العربية القاطنة في أرض «كنعان» خاصة شرق نهر الأردن، ويُعد الآدوميون من أشد الأعداء التقليديين للإسرائيليين، إلى أن هزمهم جيش يوحنا هركانس، في الفترة المكابية، وهوّدهم عنوة، واعتبرهم منذ ذلك الوقت جزءاً من اليهود.

(٣) Shanks, P. 20.

(٤) A. Powell Davies, **The Meaing of The Dead Sea Scrolls,** Penguin Books, New York, 1956, P. 100.

(٥) Silberman, P. 142.

(٦) المصدر نفسه، ص ١٢٩.

(٧) Baigent and Leigh, P. 81.

(٨) نشر إدموند ويلسون كتاباً عام ١٩٥٩، بعنوان **لفائف البحر الميت** The Scrolls of the Dead Sea، أعيدت طباعته مع إضافات جديدة مطولة ويعد من أفضل الكتب وأكثرها شعبية في الغرب.

(٩) Edmund, Wilson, **The Dead Sea Scrolls,** 1944-1969, Glasgown, (1977), P. 77.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٩٧.

(١١) Baigent and Leigh, P. 82.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٨.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٩٤.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٩٦.

(١٥) Allegro, P. 95.

(١٦) المصدر نفسه، ص ١٠٧.

(١٧) Baigent and Leigh, P.98.

(١٨) المصدر نفسه، ص ١٩

(١٩) أجمع مؤرخو المسيحية على وجود أناجيل كثيرة في القرون الأولى، اعترفت الكنيسة الرسمية بأربعة منها ورفضت الباقي، ومن بينها إنجيل برنابا، وهو من الأتباع الأوائل للسيد المسيح، وقد صحب برنابا بولس في مهمته التبشيرية الأولى، ثم دب الخلاف بينهما، وليس بمستبعد أن يكون لبرنابا إنجيله الخاص إسوة بغيره. لم يرد ذكر هذا الإنجيل في المراجع التاريخية التي تسبق المنشور الذي أصدره البابا جلاسيوس عام ٤٩٢م، في بيان الكتب المحرم قراءتها، وقد تمّ العثور على نسخة من الإنجيل باللغة الإيطالية في فجر القرن الثامن عشر، وحظيت باهتمام الباحثين في الغرب وقاموا بترجمتها إلى الإنكليزية، ويرجح أنها كانت معروفة في القرن الرابع عشر للميلاد، لوضوح أثرها على الشاعر الإيطالي الشهير دانتي في حديثه عن الجحيم والجنة. وأول من عثر عليها أحد مستشاري ملك بروسيا كريمر في أمستردام عام ١٧٠٩، في مكتبة أحد المشاهير من دون أن يُعرفه، ثم وصلت إلى مكتبة البلاط الملكي في فيينا حيث لا تزال هناك، وقد وجدت لها نسخة بالإسبانية عثر عليها الراهب فرامر نيو في مكتبة البابا أسكتس الخامس، وقد تُرجمت أيضاً إلى الإنكليزية حوالى عام ١٧٨٤ غير أن النسخة الإسبانية فقدت وخمد ذكرها. ما استنكره الباحثون التصريح باسم «النبي محمد (ص)»، فالمعهود في البشارات أنها ترد كناية، ومن غير المستبعد أن المترجم إلى الإيطالية تساهل في الترجمة فذكر الاسم صريحاً، والتساهل معهود في الترجمات المسيحية، أما الهوامش العربية فقد أثارت الكثير من الجدل، ويحتمل أن بعضها من وضع الراهب فرامر نيو، ثم أضاف إليها آخرون، وذلك لتباين الأسلوب وركاكته. وقد دحض الباحث الإنكليزي مرجليوث أن يكون أصلها عربياً، أو من وضع أحد المسلمين، حيث لم يرد ذكرها في فهارس الكتب العربية القديمة، كما لم يستشهد به ابن حزم الأندلسي أو ابن تيمية وهما من أوسع علماء العرب ثقافة واطلاعاً، ولم يستدل على أصل للإنجيل باللاتينية أو الإيطالية القديمة.

الفصل الخامس

انصياع مؤقت

شهدت بداية الستينيات خلافات من نوع جديد وأكثر جذرية، فلم تعد معارضة الفريق الدولي تقتصر على المرحلة التاريخية الخاصة باللفائف، بل بدأت تتخذ منحىً آخر انصبّ على تعريف الجماعة المسؤولة عن كتابة الوثائق.
اتخذ الأعضاء بمن فيهم أليغرو منذ بداية تكوين الفريق، قراراً بالإجماع بإرجاع اللفائف إلى طائفة الأسينيين، مما يعني انتماء جماعة قمران إلى هذه الطائفة على وجه التحديد. وبناء على ذلك، فإن الوثائق تعكس بالنسبة إلى الفريق الأحداث التاريخية التي وقعت حصراً في عهد المكابيين، بين منتصف القرن الثاني إلى منتصف القرن الأول قبل الميلاد. أما «الكاهن الشرير» الذي تحمّله الوثائق مسؤولية اضطهاد، وربما قتل «المعلم البار» ، فقد حدد الفريق هويته، بصورة عامة، بيوناثان المكابي أو شقيقه سمعان، فكلاهما كان يتمتع في تلك الفترة بمكانة رفيعة. واتفق أعضاء الفريق بالتالي على أن الغزو الأجنبي الذي تحدثت عنه الوثائق لا يعدو الهجوم الذي قاده القائد الروماني بومبي عام ٦٣ق.م.

وقع غزو بومبي لفلسطين في عهد يوليوس قيصر عام ٦٣ق.م، وربما كانت حينها ما تزال جمهورية، فلم تتحول إلى أمبراطورية إلاّ في عام ٢٧ق.م، على يد أوكتافيوس بن يوليوس[1] حين دعت الاضطرابات الدائمة والحروب المتصلة إلى قيام نظام حكم يتصف بالصرامة والعدل، ويعتمد على جيش قوي قادر على القتال في ظل قيادة سليمة. اتخذ أوكتافيوس لنفسه لقب أوغسطس، واللقب ذو سمة دينية ارتفع بموجبه القيصر الجديد إلى مصاف الآلهة. وهذا ينسجم بدوره، مع «وثيقة الحرب» الخاصة بجماعة قمران عند إشارتها إلى ملك عظيم للقوات الغازية. وجاءت وثيقة «سفر حبقوق» لتزيد الأمر وضوحاً حين ذكرت بدورها القرابين التي قدمها الجنود المنتصرون للأمبراطور، بما يتفق والتوجه الديني الجديد لروما الأمبراطورية.

هكذا أزاح الفريق الدولي، منذ البداية، اللفائف عن كاهله بهدوء وأعادها إلى ما قبل القرن الأول للميلاد، لينزع بذلك سلاحها أمام أي تحدي محتمل قد تتضمنه معطياتها لتعاليم «العهد الجديد».

لم يكد الفريق الدولي يلتقط أنفاسه من مشاكسات أليغرو وانتقاداته الحادة، حتى خرج في مطلع الستينيات عالمان بريطانيان، يتمتع كلاهما بمنزلة مرموقة في الأوساط الأكاديمية، بوجهة نظر تختلف جذرياً مع القرار الذي استقر عليه إجماع الفريق.

يعد العالم البريطاني الأول سيسيل روث "Cecil Roth" أحد أبرز مؤرخي اليهود في عصره، فبعد التحاقه بالجيش البريطاني في الحرب العالمية الأولى، حصل على درجة الدكتوراه من جامعة أكسفورد. والرجل مؤرخ غزير الإنتاج، فضلاً عن أنه كان رئيس تحرير «الموسوعة اليهودية»، ويحظى باحترام عميق في الأوساط

العلمية، والكل يعترف بقدره وقدرته العلمية لخبرته العميقة في تاريخ اليهود.

بعد سنين طويلة، أمضاها روث في دراسة الوثائق وتمحيصها، قام بنشر النتائج التي توصل إليها في عام ١٩٥٨، ومؤداها أن الخلفية التاريخية لوثائق قمران لا تتفق مع مرحلة ما قبل المسيحية، بل على العكس تماماً، فهي تتزامن مع الثورة التي نشبت في يهودا ما بين ٦٦ ـ ٧٤م، مما يستحيل معه إعادتها إلى مرحلة ما قبل المسيحية. كان العالم البريطاني على ثقة، بأن مضمون الوثائق أكثر دقة وإحكاماً من الأدلة الأركيولوجية والبليوغرافية التي يعول عليها الفريق الدولي، وخلص في دراسته إلى عدة نقاط استشاط الفريق الدولي لها غضباً، خصوصاً أعضاءه الكاثوليك، عندما أثبت روث في أبحاثه، استناداً إلى إحدى الوثائق، أن «الغزاة» أعداء جماعة قمران لم يكونوا سوى قوات الأمبراطورية الرومانية على وجه التحديد وليس الجمهورية. ولدى برهنته على أن التوجه القتالي والحماس المتقد اللذين تغلي بهما وثائق قمران لا يتفقان والسلبية المعروفة عن طائفة الأسينيين، بل يتطابقان حصراً مع توجهات «الغيورين على الناموس» Zealots، وفقاً لما ذكر المؤرخ يوسيفوس[٢].

مع ذلك، لم يستبعد روث احتمال خروج جماعة قمران الأصلية من طائفة الأسينيين التقليدية، غير أنهم غادروا الموقع إثر تدميره في عام ٣٧ق.م، ليشغله بعدهم «الغيورون» على الناموس عام ٤ق.م، فهؤلاء هم الذين أودعوا اللفائف لا الأسينيون. ثم مضى العالِم البريطاني في دراسته خطوة أبعد ليبرهن على وجود حلقات اتصال بين جماعة قمران وبين المدافعين عن الماسادا، التي تبعد عن قمران

قرابة ثلاثين ميلاً في اتجاه الجنوب. وهذا يعني، بدوره، احتمال وجود لمسة نصرانية ما لدى جماعة الماسادا، مما يدحض الأسطورة التي أشبعها المؤرخون الصهاينة تبجيلاً وتقديساً كي تبدو تعبيراً حقيقياً عن «وحدة الشعب اليهودي».

غني عن القول أن تأكيدات روث والنتائج التي توصل إليها فتحت عليه حملة انتقادات واسعة تعذر إغلاقها. فقد تولت الدوائر المحيطة بالفريق الدولي مهمة القدح في أبحاث العالِم البريطاني وتسفيه النتائج التي خرج بها. وما لبث أن انبرى أحد مساعدي الأب ديفو ينتقد روث ويتهمه بعدم تفويت فرصة للربط بين قمران والماسادا، مما يشكل في جوهره إحدى نقاط ضعف نظريته.

للمفارقة، عثر إيغال يادين، بعد ثماني سنين، على نصوص في منطقة الماسادا، تتطابق مع نصوص قمران، الأمر الذي يثبت صحة توجهات روث النظرية ويؤكدها[٣]. رغم ذلك البرهان الساطع، لم يعبأ الفريق الدولي بإعادة النظر في موقفه، وظل على تأييده لرأي إيغال يادين، بأن بعض الفارين من قمران، إثر الغزو الروماني، حملوا معهم نصوصهم المقدسة إلى الماسادا. فالأمر في نظرهم لا يعدو الصدفة المحضة[٤]!

كان الأب ديفو يستند في رؤيته إلى الأدلة الأركيولوجية، مصراً على أن إيداع اللفائف لا يمكن أن يكون قد وقع أبعد من صيف عام ٦٨م، حين استولى الفيلق الروماني العاشر على قمران. فقام العالِم البريطاني روث بنشر مقالة عام ١٩٥٩، ركّز فيها على ذلك الدليل ودحضه على نحو قاطع، فالفيلق المذكور لم يكن قريباً من قمران في صيف عام ٦٨م. ومع ظهور المقال ازدادت ثورة غضب الأب ديفو والمحيطين به اشتعالاً.

لم يكن روث العالِم الوحيد في رؤيته المغايرة لما استقر عليه رأى الفريق، فقد شاركه زميله غودفري دريفر "Godfrey Driver" وجهة النظر نفسها، والرجل لا يقل شهرة وصيتاً في الأوساط العلمية الأكاديمية عن زميله، فقد سبق له العمل هو الآخر في الجيش البريطاني في منطقة الشرق الأوسط إبان الحرب العالمية الأولى، وهو متخرج من جامعة أكسفورد حيث يعمل أستاذاً للغات السامية بما فيها اللغة العبرية. وكان أيضاً أحد مسؤولي الفريق القائم على ترجمة «العهد القديم» إلى اللغة الإنكليزية، وهو الذي قام، كما أسلفنا، بترشيح أليغرو للعمل في الفريق الدولي.

منذ بداية الاكتشافات التزم دريفر الحذر، وتوقف طويلاً عند الإشارات التي تنطوي عليها وثائق البحر الميت، مبدياً عدم ارتياحه من تسرع الفريق الدولي ودفعه بجماعة قمران وكتاباتها إلى الوراء، إلى ما قبل المسيحية، قبل إخضاع الوثائق إلى دراسة متأنية ومستفيضة، كما انتقد ما يلقاه توجه الفريق من قبول عام. عبر دريفر عن توجسه هذا مبكراً في عام ١٩٤٩، عندما حذّر صراحة في صحيفة «التايمز» اللندنية من أن اعتماد الفريق على الأدلة الخارجية ـ الأركيولوجيا والبليوغرافيا[٥]، يعد مجازفة كبيرة خصوصاً أنها متناقضة تماماً مع الإيحاءات والأدلة الداخلية للوثائق. فما تتضمنه الوثائق وتنطق به يدحض في رأيه، كلية، الأدلة الخارجية التي يستند إليها الفريق، أعاد دريفر الوثائق بناء على ذلك المنطلق إلى القرن الأول من الحقبة المسيحية، وخلص إلى القول، بعد التفحص الدقيق لشروح الجماعة على «سفر حبقوق»، بأن القوات الغازية «الكتيم»[٦]، إبان ثورة عام ٦٦م، كانت تتبع فيالق الأمبراطورية الرومانية، ولا شيء غير ذلك»[٧].

قام دريفر في عام ١٩٥٦ بنشر أبحاثه المتصلة بنصوص جماعة قمران، ليؤكد أن إرجاع الوثائق إلى ما قبل المسيحية، لا يستند إلى أسس ثابتة، خصوصاً أن الفريق الدولي يعتمد كلية على البليوغرافيا، وهذا العلم لا يصمد وحده في مواجهة محتويات اللفائف. وانتهى إلى تأييد نظرية زميله روث، بإرجاع اللفائف إلى ثورة يهودا، بين عامي ٦٦م - ٧٤م، وتزامنها بقدر يقل أو يكثر مع «العهد الجديد» مؤيداً رأي زميله، بأن جماعة قمران تضم في جنباتها «الغيورين على الناموس»، وليس الأسينيين التقليديين. وزاد الطين بلة، بإعلانه أن إيداع اللفائف قد تمَّ في فترة تراوح بين ثورة يهودا الأولى ونهاية الثورة الثانية، التي تفجّرت على يد سمعان بن كوخبا بين عامي ١٣٢ - ١٣٥م. ولم يفته توجيه نقد لاذع للفريق الدولي، لا سيما رئيسه الأب ديفو.

كان من الصعب الطعن في مصداقية عالمين بريطانيين في مثل مكانتهما، يتمتعان بالثقة والشهرة الواسعة في مجال التاريخ، إضافة إلى أن ثقلهما العلمي لا يسمح بعزلهما. مع ذلك، لم يعدم الفريق الدولي وسيله لانتقادهما والتقليل من شأن أبحاثهما، بالقول بأنهما خارج دائرة الأبحاث المتعلقة بقمران!

لجأ الأب ديفو حين قام بعرض كتاب دريفر عام ١٩٦٧ إلى أسلوبه المفضل الذي يجيده ببراعة متناهية، فأبدى أسفه الشديد لظهور صراع المنهج والعقل مجدداً بين منتقدي النص والأركيولوجيين. حيث تعود المشكلة، في نظره، إلى الفرق بين من يجلسون في مكاتبهم الوثيرة ومن يعملون في الميدان. ولا يعني قول الأب ديفو أنه كان يقضي كل وقته في صحراء البحر الميت الحارقة، كما قد يتراءى للبعض، فقد كفاه التعامرة شر هذا العناء.

ولعله كان يعني أن قاعة اللفائف في المتحف الفلسطيني بالقدس، تظل أقرب كثيراً لقمران من جامعة أكسفورد، حيث يقبع العالمان البريطانيان، مما أتاح للأب ديفو وفريقه الدولي الفرصة، بالطبع، للاطلاع المباشر على النصوص الأصلية بمجرد وصولها من الكهوف والأسواق، الأمر الذي لم يسمح به قط لعقود كثيرة، لعالمين في مكانة روث ودريفر ولغيرهما من كبار الباحثين.

بدأت علاقة الأب ديفو بقمران عام ١٩٥١ حين شرع ينقب في خرائبها. وبالرغم من البداية الواعدة تراخت أعمال الحفر لتستأنف مجدداً مرة واحدة كل عام حتى سنة ١٩٥٦. ففي عام ١٩٥٨ تمّ اكتشاف موقع متصل في عين الفشخة، يقع على بعد أقل من ميل واحد جنوب قمران. سارع الأب ديفو، قبل أن تنتهي الحفريات، إلى إعلان هوية الجماعة وتأريخها من دون التحقق الكافي من صحة الأدلة الأركيولوجية، ومن دون انتظار لما قد تأتي به عمليات التنقيب اللاحقة!

جاء تصرف الأب ديفو هذا، وكأنه تلبية لرغبة حثيثة كامنة لإبعاد قمران، ونفي أية صلة قد تجمعها بالمسيحية الأولى، ولقطع الطريق أمام أي رأي مخالف. رغم كل هذه الحيطة، أبدى البروفسور روبرت نورث، المتخرج من مدارس الجيزويت، انزعاجه الشديد لعدم وجود باحثين متخصصين ومستقلين لبحث ودراسة موضوع على هذا القدر من الأهمية. وقد استطاع بالفعل، في فترة مبكرة عام ١٩٥٤ التقاط ما لا يقل عن أربعة أخطاء، في نظرية الأب ديفو، مما اضطر الأخير إلى التراجع عن تأريخه السابق[٨].

من ضمن الأدلة التي اعتمد عليها الأب ديفو، وجود طبقة كثيفة من الرماد تغطي محيط خرائب قمران، رأى فيها برهاناً على

نشوب حريق ما دمّر المكان، ودفع الجماعة لهجر الموقع، كلياً أو جزئياً، لبضع سنوات. وقرر الأب ديفو اعتماداً على العملات المكتشفة في الموقع اندلاع حريق في وقت ما، خلال حكم هيرودس الأكبر (٣٧ق.م. - ٤ق.م.)، ثم عودة الجماعة لتعمير الموقع في عهد ابن هيرودس الأكبر أرخيلاوس (٤ق.م. - ٦ق.م). بناء على المعطيات نفسها، سارع الأب ديفو من فوره إلى تعريف جماعة قمران بأنها لا تعدو طائفة الأسينيين المسالمة الزاهدة، التي جمعتها علاقات ودية مع الجميع بمن فيهم هيرودس الأكبر، ليستخلص أن الحريق كان مجرد حادث عرضي سببته كارثة طبيعية، مدللاً على ذلك بوجود شرخ في أحد أحواض الاغتسال، استشف الأب ديفو امتداده على طول مقر الجماعة، من دون أدنى اعتبار لعوامل التعرية الطبيعية(٩).

هكذا انطلق الأب ديفو يعلن على الملأ، أن التدمير والحريق اللذين لحقا بالموقع جاءا نتيجة لسلسلة من الهزات الأرضية العنيفة، التي ضربت المنطقة لعدة قرون متتالية، معتمداً على إشارة أوردها يوسيفوس، إلى وقوع هزة أرضية في بداية عهد هيرودس الأكبر عام ٣١ق.م. وخلص الأب ديفو، في نهاية عرضه لكتاب دريفر، إلى القول باستحالة نظريته. وقد ساعده في ذلك اقتصار دراسة الباحثين البريطانيين على التساؤل وإبداء الشكوك حول المنهج التاريخي الذي اعتمده الفريق الدولي، من دون أن يتعرضا من قريب أو بعيد لمدى مصداقية علمي الأركيولوجيا والبليوغرافيا، وهما السلاحان الأساسيان اللذان تحصن بهما الفريق الدولي في دفوعاته أمام الآراء المغايرة. وبالفعل استطاع الأب ديفو النجاح، لكن إلى حين، في إرباك الباحثين الآخرين في ذلك المجال عبر استخدامه الفعّال لسلاحيه الأثيرين، الأركيولوجيا والبليوغرافيا.

والأهم من هذا كله، حصوله على دعم باحث أميركي في مكانة أولبرايت[١٠]، الذي أعلن على الملأ فشل نظرية دريفر بالكامل، وعزا ذلك إلى تشكك الأخير في الأدلة الأركيولوجية والبليوغرافية، مضيفاً بلهجة ساخرة «لقد شاء حظ دريفر العاثر أن يناطح ألمع باحثي العصر، رونالد ديفو[١١]».

بعد تعليق كهذا من باحث يتمتع بمكانة مرموقة وشهرة واسعة مثل أولبرايت، انطلق الهجوم الشرس على العالمين البريطانيين من كافة الاتجاهات، ليصل إلى حد التسفيه والازدراء بما لا يليق بمكانة الرجلين العلمية. الغريب والمدهش في آن معاً، الصمت المطبق الذي أصاب الجميع وألجمهم، فلم يجرؤ أحد على دعمهما، فمن بمقدوره تحمل غضب الآلهة وعقابها، أو التعرض للإجماع الآخذ في الترسخ والتصلب! وانطلق قطيع الباحثين يسدد سهامه من دون تمييز أو لباقة، فآثر العالمان السلامة والابتعاد عن الحلبة، فالأمر لم يعد في نظرهما يستحق المتابعة، وتحمل كل ذلك الإسفاف، بعد أن انحطَّ البحث إلى ذلك الدرك.

خيّم جو ثقيل من الرهبة والحذر على الأوساط الأكاديمية، منذ أواخر الستينيات وحتى أواسط الثمانينيات، وبدا الجميع منصاعاً لإجماع الفريق الدولي، الذي خرج مزهواً فرحاً، بإطاحته عالمين متميزين وتجريح مصداقية ثالث قبلهما. وتبعثرت المعارضة ولاذ الجميع بالصمت، وران على الساحة العلمية هدوء قلق. مع ذلك، بقي تساؤل الباحثين عن سبب عودة الجماعة لتعمير موقعها بخطى متسارعة بعد مضي ربع قرن من وقوع الهزة الأرضية، من دون إجابة شافية. حتى صاحب النظرية، الأب ديفو، لم يستطيع الرد. وأخيراً جاء الباحث الأميركي روبرت إيزنمان، بإجابة تبدو منطقية

ومتسقة مع الظروف الموضوعية، حيث كشف أن تأخر الجماعة وإهمالها في تعمير موقعها لربع قرن يتزامن مع فترة حكم هيرودس الأكبر. فبمجرد وفاة الأخير سارعت الجماعة إلى موقعها لتعيد الترميم والتعمير مركّزة على تقوية الأبراج الدفاعية وبناء الاستحكامات، الأمر الذي يثبت في حد ذاته أن التدمير كان أمراً متعمداً، جاء بناء على أوامر هيرودس الأكبر. إجابة تولد عنها سؤال آخر مشروع عن السبب وراء أوامر هيرودس الأكبر بتدمير موقع جماعة مسالمة من المفترض، حسب رأي الفريق الدولي، أنه يكنّ لها تقديراً عميقاً وتجمعه بها علاقات ودية؟
أيضاً، لم يحر الأب ديفو، جواباً عن ذلك التساؤل!

مع كثرة الأسئلة والتساؤلات الحائرة، بدت الدفوع التي يلوذ بها الأب ديفو والفريق متكلفة ومفتعلة، حتى أن الأب ميليك، أشد مؤيديه، كتب يقول في عام ١٩٥٧:

«... تشير طبقة الرماد الكثيفة إلى حدوث حريق مدمر، من الأفضل عزوه إلى محاولة واعية هدفت إلى تدمير الموقع وإحراقه، فالرماد يدل على تدمير متعمد لمقر الجماعة في قمران»[١٢].

وجاء العثور على عملة مؤكسدة في بداية الحفريات، بمثابة نجدة من السماء للأب ديفو، الذي سارع من فوره إلى الإعلان بأنها تحمل العلامة المميزة للفيلق العاشر الروماني. انطلق الأب ديفو، يسبقه الحماس والزهو، يؤكد تدمير الفيلق الروماني العاشر لقمران في العام ٦٨م، مما يعني استحالة إيداع المخطوطات في كهوف قمران بعد هذا التاريخ. ومن ثم داومت نشرة الفريق الدولي، ريفيو بيليك، على تكرار أقوال الأب ديفو وتأكيدها طوال الأعوام الممتدة من ١٩٥٤ ـ ١٩٥٩، مما أضفى على أقواله وعملته المكتشفة

مصداقية لا تبارى. لكن سرعان ما تبين خطأ الأب ديفو في قراءة ما أورده المؤرخ يوسيفوس بشأن إخضاع الفيلق الروماني العاشر لأريحا في حزيران/ يونيو ٦٨م، التي تقع على بعد ثمانية أميال من قمران، فقد انكشف وقوعه في خطأين فاضحين:

الأول: من المؤكد أن يوسيفوس لم يجزم باستيلاء الفيلق العاشر الروماني على أريحا في عام ٦٨م. فقد برهن الباحث البريطاني روث على وجود ثلاثة فيالق رومانية في الجوار ليس بينها الفيلق العاشر لتمركزه بعيداً في الشمال لحماية مرتفعات وادي الأردن.

الثاني: برغم الأكسدة الشديدة للعملة المذكورة، فقد تبيّن بعد فحصها بدقة، أن لا علاقة لها بالفيلق العاشر أو أي فيلق روماني آخر، بل جاءت من عسقلان وتاريخها يرجع إلى عام ٧٢م أو ٧٣م!!

لم يجد الأب ديفو مفراً أمام أدلة دامغة كهذه سوى التراجع بهدوء، منوهاً عن خطأه في الهامش وليس في المتن!

كان موقف الأب ديفو من العملات غير منصف للغاية، يسارع بتسجيلها وتدوينها إذا جاءت في صالح نظريته ومتفقة مع توجهاته، والعكس صحيح: فعندما عُثر على عملة تعود إلى الفترة ما بين ١٣٨ ـ ١٦١م، لم يبال الأب ديفو، وتذرع بسقوطها من أحد المارة، مستبعداً تماماً احتمال حدوث ذلك في العملات التي اعتمد عليها في نظريته!

في الحقيقة، لقد شكلت العملات الدعامة الأولى لنظرية الفريق الدولي، استند إليها الأعضاء في تحديدهم لتأريخ الجماعة وهويتها وفترة امتداد وجودها. لم يحاول أحد، قبل الباحث الأميركي إيزنمان، فحص هذه الدعامة والعمل على تفنيدها. فالباحثان

البريطانيان، روث ودريفر، اعتمدا على مضمون اللفائف ومنطوقها، مما يسّر للفريق تشويش نتائجها، بارتكازه على الأدلة الخارجية فحسب، ولا سيما العملات.

كان على إيزنمان كشف غطاء الأدلة الخارجية وتفنيدها، فبدأ بتوزيع العملات، ليتوصل إلى أنها تعكس فترتين زمنيتين، بلغ نشاط جماعة قمران خلالهما ذروته.

بداية، تم العثور على ٤٥٠ قطعة برونزية في قمران، تغطي مرحلة زمنية تمتد من ١٣٥ق.م إلى ١٣٦م، وفق الجدول التالي:

قطعة واحدة	١٣٥ ـ ١٠٤	ق.م.
قطعة واحدة	١٠٤	ق.م.
١٤٣ قطعة	١٠٣ ـ ٧٦	ق.م.
قطعة واحدة	٧٦ ـ ٦٧	ق.م
خمس قطع	٦٧ ـ ٤٠	ق.م.
أربع قطع	٤٠ ـ ٣٧	ق.م.
عشر قطع	٣٧ ـ ٤	ق.م.
١٦ قطعة	٤ ق.م ـ ٦م	
٩١ قطعة	٦ ـ ٤١م	فترة مديري المال الرومانيين
٨٧ قطعة	٣٧ ـ ٤٤م	فترة حكم أجريبا الأول
قطعتان	٥٤ ـ ٦٨م	
٨٣	٦٧م	السنة الثانية للثورة
٥ قطع	٦٨م	السنة الثالثة للثورة
٦ قطع	مؤكسدة لدرجة يتعذر تحديدها	
١٣ قطعة	عملة رومانية	عملة رومانية

قطعة واحدة	٦ ـ ٧٩م	عملة رومانية
قطعتان	٧ ـ ٧٣م	
٤ قطع	٧٢ ـ ٨١م	
قطعة واحدة	٨٧م	عملة رومانية
٣	٩٨ ـ ١١٧م	عملة رومانية
٦	١٣٢ ـ ١٣٦م	ثورة سمعان بن كوخبا

يشير توزيع العملات إلى مرحلتين بلغت خلالهما جماعة قمران أوج نشاطها وفاعليتها، تمتد الأولى من ١٠٣ ـ ٧٦م.ق، والثانية من ٦ ـ ٦٧م. يبلغ نصيب المرحلة الأولى ١٤٣ قطعة، ويبلغ نصيب المرحلة الثانية ٢٥٤ قطعة. هذا التوزيع لا يتفق مع إجماع الفريق الدولي، الذي رأى أن «الكاهن الشرير» الذي تشير إليه اللفائف لا يعدو، يوناثان الذي عاش بين ١٦٠ ـ ١٤٢ق.م، أي نحو قرابة نصف قرن قبل التكدس الأول للعملات.

لقد تشبث الأب ديفو بقطعة عملة وحيدة، تعود إلى ١٣٥ ـ ١٠٤ق.م، ليعود بجماعة قمران إلى تأريخ مبكر، لإثبات صحة نظريته. هذا مع أن المنطق السليم يفضي إلى تكوين الجماعة في الفترة ما بين ١٠٣ ـ ٧٦ق.م، حيث تكدست ١٤٣ قطعة، أما القطعة الوحيدة التي اعتمد عليها الأب ديفو، فمن المحتمل أنها ظلت متداولة لعدة سنوات بعد ضربها[١٣].

أما اتخاذ الأب ديفو من اختفاء العملات اليهودية بعد عام ٦٨م، وظهور العملة الرومانية، دليلاً على تدمير الموقع عام ٦٨م، واحتلاله من قبل حامية رومانية، وبالتالي استحالة إيداع اللفائف في الكهوف بعد عام ٦٨م، فيدحضه ظهور عملات يهودية خاصة بثورة بن كوخبا في الفترة ما بين ١٣٢ ـ ١٣٦م!!

ثم ما علاقة تناثر العملات الرومانية هنا وهناك بوقت إيداع اللفائف؟ فتاريخ الإيداع وفقاً لإيزنمان يمكن إعادته بناء على المنطلق نفسه ومن دون تعسف يعذر إلى فترة بن كوخبا.

إن استناد الفريق الدولي إلى العملات الرومانية لتحديد تاريخ إيداع اللفائف، أمر يدعو للدهشة، فمن الطبيعي والمنطقي أن تصبح العملة الرومانية هي المتداولة رسمياً في البلاد بعد الاحتلال الروماني. والمفارقة هنا، أن علم الأركيولوجيا الذي اعتمد عليه الأب ديفو لإثبات صحة نظريته، يصب حقيقة في صالح إيداع اللفائف في الفترة الممتدة ما بين ٦٨م إلى ١٣٦م، فضلاً عن أن تدمير البنايات لا يعني تدمير الموقع بكامله، فالأدلة واضحة على إعادة تعمير الموقع في عجالة وبأسلوب عشوائي، كما أن قناة المياه التي تغذي حوض الاغتسال يختلف أسلوب عملها عن الأسلوب الروماني.

وأهم من هذا كله، قول العالِم البريطاني دريفر بأن التاريخ المدون لم يذكر شيئاً عن تدمير القوات الرومانية لقمران عام ٦٨م، ولا يقلل هذا من أهمية السمة العسكرية لبنايات قمران التي لا تخطئها العين، فهناك برج دفاعي بجدران سميكة، آتون ضخم، وكير حدادة بإمدادات مائية لتبريد الأدوات وصناعة الأسلحة، ويؤيد ذلك العثور على سهام في الخرائب. أتتفق كل هذه السمات القتالية والطبيعة المسالمة التي أسبغها الفريق على جماعة قمران؟!

قد يدفع البعض بعودة السهام إلى القوات الرومانية، ورغم أن ذلك الاحتمال وارد، فإن السمة العسكرية لبنايات قمران واضحة لكل ذي عينين، الأمر الذي دفع البروفسور نورمان غولب "Norman

"Golb" إلى الجزم بأن قمران موقع عسكري، أُحضرت إليه اللفائف من أورشليم، وأودعت في كهوفها بغرض حمايتها.

مرَّ الأب ديفو مرور الكرام على سمة الموقع العسكرية، مكتفياً بوصف الموقع دون المخاطرة بتحديد طبيعته، والغريب أنه استبعد أيضاً اعتبار قمران نوعاً من الأديرة، متحاشياً استعمال مصطلحات قد توحي بذلك، مثل حجرة النساخ "Scriptorium"، أو حجرة الطعام الجماعية "Refectory"، عند وصفه لبنايات معينة.. بينما الكاردينال دانيلو "Danielou" استقبل وجود هذه الحجرات بجزل واضح في كتابه عن مخطوطات البحر الميت، بقوله:

«يمكن اعتبار رهبنة جماعة قمران مصدراً للرهبنة في المسيحية»[١٤].

أخيراً، أخذ الماء الراكد في التحرك.. فقد وجد بعض الباحثين متنفساً لهم في الولايات المتحدة الأميركية، بمناسبة عقد مؤتمر في جامعة نيويورك عام ١٩٨٥ لبحث مسألة لفائف قمران، دان المشاركون فيه تباطؤ الفريق الدولي واحتكاره للفائف، متهمين أعضاءه بالتقاعس والانحياز للتقاليد الموروثة ومداهنة بعضهم البعض. ولفت لصحف الانتباه إلى حالة الإحباط والاستياء المتصاعدة لدى الباحثين البارزين بسبب الحظر المفروض على الوثائق. واتهمت الصحف أعضاء الفريق بالانحياز إلى جامعاتهم، بسماحهم لنخبة مختارة من الطلبة التابعين لهم بالاطلاع على اللفائف، والحؤول دون اقتراب ذوي الخبرة والمؤهلات الرفيعة، وناشدت الحكومة الإسرائيلية بالتدخل ونشر صور النصوص غير المنشورة.

مع ذلك، فشل المؤتمر في دفع المياه الآسنة، وتمَّ تجاهل توصياته

بالكامل، مما يدل على لا مبالاة العالم الأكاديمي في إطاره الواسع، غير أن المؤتمر نجح في حضّ البروفسور يوفال نعمان، رئيس قسم الفيزياء في جامعة تل أبيب ورئيسها لاحقاً، إلى إثارة مشكلة اللفائف في الكنيست واصفاً ما آل إليه الوضع بالفضيحة. انتبه الباحثون الإسرائيليون إلى وجود مشكلة، ربما لم يسمع بها معظمهم قبل مساءلة البروفسور نعمان في الكنيست. واضطرت دائرة الآثار الإسرائيلية أمام الإلحاح المتنامي على التحرك وحث الفريق الدولي بلطف شديد وأدب جم على الإسراع في العمل، رغم ما يعنيه طلبها من انتهاك لصفقة عام ١٩٦٧، التي تعهدت الحكومة الإسرائيلية بموجبها، باستمرار احتكار الفريق الدولي بإتمام النشر مع نهاية عام ١٩٩٣.

لم يتدخل عضو الكنيست نعمان من تلقاء نفسه وإنما بناء على طلب من الباحث الأميركي إيزنمان. فقد بدأ الأخير يقود حملة، على نحو لم يعهده الفريق الدولي من قبل، أحياناً، في السر وأخرى في العلن، لتحريك قضية اللفائف وتحريرها، حتى يتسنى نشرها. لقد تعلم إيزنمان الدرس جيداً ممن سبقه من العلماء، وقرر مواجهة الفريق الدولي بالسلاح نفسه، أي الأركيولوجيا والبليوغرافيا، ليدك الجدران التي يحتمي بها أعضاء الفريق.

بدأ إيزنمان حملته عام ١٩٨٣ بنشر كتاب في هولندا ركّز فيه على مجالي الأركيولوجيا والبليوغرافيا، ونجح في تفنيد حجج الفريق الواحدة تلو الأخرى، ملقياً الكرة، للمرة الأولى، في ملعب حلقته الضيقة من الباحثين متحدياً رؤيته المفروضة بالإجماع.

لم يأبه الفريق الدولي بإيزنمان أو بكتابه، وربما لم يقرأه أحد من أعضائه لمحدودية الطبعة وضآلة حجم القراء. مع ذلك، لم يفتّ

الوهن من عضد إيزنمان وواصل حملته حتى لا تذهب جهوده سدى، فسارع إلى إصدار كتابه الثاني في إيطاليا، مركز نفوذ مؤسسة الفاتيكان، حول شروح جماعة قمران على «سفر حبقوق»، حيث أشارت الجماعة في شروحاتها بإجلال بالغ إلى «المعلم البار»، في حين تناولت بازدراء واضح «الكاهن الشرير» و«الكذاب»، لأنهما معاً «كانا خائنين للعهد الجديد، لم يؤمنا بعهد الله وقاما بتدنيس اسمه المقدس»[١٥].

في العام نفسه، تمّ تعيين إيزنمان في المعهد الأميركي للدراسات الشرقية، بالقدس، ليبدأ العمل خلف الستار لتحرير مخطوطات البحر الميت. ووصلت مساعيه إلى حد رفع دعوى قضائية أمام المحاكم الإسرائيلية، للحظر الذي يفرضه الفريق الدولي على الوثائق، ومنعه وزميل له من الاطلاع عليها، رغم قيامها بطلب ذلك عبر الطرق الرسمية.

يبدو أن الفريق الدولي لم يقدّر إيزنمان حقّ قدره، فلم ينتبه الأعضاء لإمكانات الرجل وحجم مثابرته، ولهذا لم يعبأوا به كثيراً، إلى أن بدأ الرجل في إلقاء المحاضرات في عام ١٩٨٦ تحت عنوان «جماعة أورشليم وقمران»، ملقياً الضوء على الخلافات المتصلة بتأريخ الجماعة وتحديد هويتها، كاشفاً الغطاء عن قصور البراهين الأركيولوجية والبليوغرافية التي يعتمدها الفريق الدولي، وبدأ الشعور بالخطر المحدق في التسرب إلى أعضاء الفريق، فالرجل بات يشكل تحدياً حقيقياً ليس من السهل مراوغته أو تطويقه، خصوصاً عندما أخذ يثير التساؤلات حول الفريق الدولي ومؤهلات أعضائه العلمية وقدرتهم على معالجة موضوع على هذا القدر من الأهمية.

غادر إيزنمان القدس لقضاء عام دراسي (٨٦ ـ ١٩٨٧) في جامعة

أكسفورد، وفي جعبته نسختان لوثيقتين سريتين حصل عليهما بفضل اتصالاته الخاصة، إحداهما بقلم قائد لجماعة قمران، وتحتوي على عدد من القيم والوصايا وآداب السلوك التي تحكم الجماعة، وقد سبق لستروجنيل الاكتفاء بعرض هذه الوثيقة في أحد المؤتمرات من دون أن يقوم بنشرها[١٦]، بينما اشتملت الوثيقة الثانية على قائمة بكل نصوص جماعة قمران. كان لنشر الوثيقتين وقع صاعق، فلطالما أنكر الفريق الدولي وجود قائمة بالمواد المكتشفة، الأمر الذي أثبت على نحو قاطع وجود كمية كبيرة من المواد جرى طمسها، ولم يقم الفريق بنشرها.

كان الباحث الأميركي يعي جيداً ما ينبغي عليه فعله، فقام من دون تردد بتوزيع كل ما وصله من وثائق، من دون أية شروط مسبقة بقصد كسر احتكار الفريق الدولي للوثائق. فقد أدرك مبكراً أن العقبة الرئيسة، وربما المسؤولة عن ذلك الوضع المتردي، تكمن في حصار الباحثين للمخطوطات والتنافس الشديد بينهم للحفاظ على سريتها.

غني عن القول، مدى التدهور الذي لحق بعلاقة إيزنمان بالفريق، ولكن أحداً من أعضائه لم يستطع مهاجمته في العلن، رغم الفجوة الآخذة في الاتساع.

فقد عمل كلا الطرفين على المحافظة على سلوك أكاديمي وقور يتسم بالبرود. ولم يعدم الفريق، مع ذلك، وسيلة لغلق الأبواب أمام إيزنمان وشله عن العمل والكلام معاً، حين تعهد الأعضاء من جديد لمدير دائرة الآثار الإسرائيلية بنشر كل ما في حوزتهم من نصوص في عام ١٩٩٦ كحد أقصى. وافق مدير الدائرة على التعهد الجديد وأصرّ على المضي قدماً بالالتزام بالاتفاقية الجديدة، ولم تجد

محاولات إيزنمان نفعاً في إقناعه بالعدول عن قراره.

لجأ إيزنمان إلى المحكمة العليا في إسرائيل مطالباً بحق الباحثين في الاطلاع الحر على اللفائف، وبمراجعة كافة النتائج التي أقرها الفريق الدولي، والسماح بتعدد الترجمات والرؤى، وذلك لتبين ما قد أغفله من قرائن:

«فلا يمكننا التأكد من أن الأعضاء قد استنفدوا كل النتف المتصلة بوثائق بعينها، أو أنهم قد جمعوا النتف وفق تتابعها الصحيح، كما لا يمكننا التأكد بأن القوائم كاملة بالفعل، لم يضع الفريق أو يدمر أو يغفل منها شيئاً، بأسلوب ما أو لسبب ما.. ويتطلب التأكد من ذلك القيام بمراجعة شاملة بواسطة العمل الجماعي لمجموعة من الباحثين»(١٧).

توجه إيزنمان إلى الدوريات المتخصصة يمطرها بمطالبته بإطلاق سراح المخطوطات والسماح للباحثين بالاطلاع عليها ودراستها بموضوعية من دون تحيز مسبق. واضطر إلى الخروج في العلن في كل المحافل والمناسبات، لممارسة المزيد من الضغوط على ستروجنيل، الذي بات رئيساً للفريق الدولي. أصبحت مثابرة الباحث الأميركي وإصراره على إطلاق التصريحات مثار اهتمام الصحف الأميركية والبريطانية والإسرائيلية، فأخذت تستشهد بأقواله وتبرز انتقاداته التي تركزت في النقاط التالية:

- احتكار مخطوطات البحر الميت من دون وجه حق من قبل حلقة ضيقة من الباحثين ذوي المصالح المكتسبة والتوجه المنحاز.
- عدم نشر كل المواد المكتشفة، وتعمد إخفاء بعضها.
- عدم صحة ادعاء الفريق الدولي بالإفراج عن كل النصوص

التوراتية، فالنصوص الخاصة بطائفة متطرفة، حسب زعم الفريق، فضلاً عن نصوص جديدة لم يسبق للعالم الاطلاع عليها، تتعلق بالتاريخ والحياة اليومية في القرن الميلادي الأول، لا تزال في قبضته.

- استمرار الحظر على الباحثين المتخصصين ومنعهم من الاطلاع على المخطوطات رغم مرور أربعين عاماً على اكتشافها.
- ضرورة إخضاع كل المخطوطات للفحص بواسطة أسلوب «الكربون ١٤»، خصوصاً أن فحص بعض الخرق الكتانية أثبت أنها تعود إلى بداية المرحلة المسيحية[١٨].

استمر الوضع على حاله رغم كل هذه الضجة المثارة بكل ما شابها، أحياناً، من لبس وسوء فهم، مما دفع الباحث البريطاني المعروف فيليب دايفز Philip Davies، إلى القول في عام ١٩٨٨: «يجب اعتقال أي باحث أو أركيولوجي بصفته عدواً للعلم في حال وجد أو اكتشف نصاً وتغاضى عن إعلانه.. فليس لدينا حتى الآن رغم مرور أربعين عاماً، تقرير كامل ونهائي عن الآثار المكتشفة، أو نشرة كاملة لنصوص اللفائف».

حزمة براغيث

دوام الحال من المحال. بدأت كفة الميزان ترجح في اتجاه إيزنمان ومن حذا حذوه من الباحثين، حين أخذت صحيفة «نيويورك تايمز» تتناول الخلافات والنزاعات الدائرة حول اللفائف، وأسهبت في عرض وجهات نظر مختلف الفصائل المتعارضة. نشرت الصحيفة في تموز/ يوليو ١٩٨٩، مقالاً تحت عنوان «زهو الباحثين»، أشارت

فيه إلى استحواذ لأب الفرنسي ميليك على أكثر من خمسين نصاً، وعدم سماحه لأحد بالاقتراب منها. ويتابع المقال بأسلوب تشوبه السخرية بأن أعضاء الفريق يغزلون ببطء سلحفاة، ويماطلون في العمل على امتداد أربعين عاماً. وفيما العالم ينتظر متلهفاً، تنساب الرقائق الحساسة تحت الثرى ويتم طمسها تدريجياً. هذا برغم أهميتها المذهلة في إيضاح التاريخ المبكر للمسيحية.

بدأت كفة الميزان تميل أكثر فأكثر في اتجاه مداخلات إيزنمان ويتزايد معها اقتناع الرأي العام بضرورة كسر الحظر المفروض على اللفائف. وأخذ الارتياب في التصاعد تدريجياً، وبدأ عقد الباحثين ينتظم شيئاً فشيئاً بعد طول انفراط. وما لبثوا أن شرعوا في عقد المؤتمرات لحسابهم الخاص بمؤازرة كبار أساتذة الجامعات ومشاهير الكتّاب. وتعالت أصوات الجميع تطالب الحكومة الإسرائيلية بالتدخل الفوري وتقديم اللفائف غير المنشورة، أو صورها إلى جامعة أكسفورد حتى تتولى المهمة. وتكررت المطالب نفسها في مؤتمر عقد بجامعة كاليفورنيا الأميركية حضره كبار الباحثين وصدرت عنه توصية بإنشاء بنك للمعلومات خاص بمخطوطات البحر الميت.

نعم، لم تسفر هذه الحملات الصحافية والمؤتمرات عن حل عملي، غير أن الحصار اشتد على الفريق الدولي، وازدادت النقمة، لتنقله مضطراً وللمرة الأولى منذ إنشائه إلى موقع الدفاع. فقام بإصدار نص يتيم أبدى فيه موافقته على السماح للبعض بالاطلاع على صور اللفائف. وازداد الموقف سوءاً، حين بدأت بعض الدوريات والصحف في توجيه انتقادات حادة لحكومة إسرائيل لتركها الحبل على الغارب وسكوتها المريب عن ممارسات الفريق الدولي. لم يزج

إيزنمان بنفسه في هذه الانتقادات، ربما كي لا يفتح باباً من جهنم يصعب عليه إغلاقه، أو حفاظاً على الصلات التي نجح في إقامتها مع بعض الشخصيات الإسرائيلية العامة.

قامت الحكومة الإسرائيلية إزاء الحملات المكثفة بإنشاء لجنة في عام ١٩٨٩ لحلحلة الموقف، وخولتها الإشراف على نشر كل النصوص، والتأكد من قيام أعضاء الفريق بأداء واجبهم. هكذا بدا الأمر على الأقل في ظاهره، حين صرح مدير دائرة الآثار الإسرائيلي أمير دوري بإعداد خطة للمرة الأولى نصت على حق اللجنة في تحويل حصة أي عضو من اللفائف إلى باحث آخر في حال لم يلتزم إكمال العمل المنوط به في الفترة المحددة.

تلقى رئيس الفريق ستروجنيل تصريح دوري باستخفاف، وعلق عليه في صحيفة «الهيرالد تريبون» البريطانية بقوله:

«نحن لا ندير خطاً للسكك الحديدية».

ثم أعلن في مقابلة مع محطة تلفزيون إي. بي. سي. A.B.C، قائلاً بوضوح سافِر:

«لن أصاب بالقلق مطلقاً في حال تجاوزت الموعد النهائي بعام أو اثنين».

ثم مضى يصف ما يتعرض له من هجوم بالقول ساخراً:

«يبدو أننا نواجه حزمة براغيث».

أما زميله الأب ميليك فبقي ملتزماً المراوغة، واكتفى بالقول:

«سوف يرى العالم المخطوطات ريثما أفرغ من العمل الضروري»[١٩].

أمام هذا التحدي السافر قامت صحيفة «نيويورك تايمز» بدعوة كل

من يشاء من «البراغيث» للكتابة على صفحاتها. تدفقت المقالات والرسائل من كبار الباحثين، يهوداً ومسيحيين، كلها تطالب بالإفراج الفوري عن المخطوطات وصورها. وكثر الأخذ والرد وارتفعت الجلبة، مما ولّد شعوراً بالريبة والشكوك في الفريق الدولي ونواياه الحقيقية. وسرعان ما انضمت بعض الشخصيات العامة في إسرائيل إلى المعمعة خصوصاً عندما اتضح بقاء قسم كبير من النتف من دون تحديد هويته، ومن دون أن يعهد الفريق بدراسته إلى أحد.

لم يعد الأمر مجرد شائعات فحسب، والحملات الصحافية من ناحيتها لا تهدأ حتى تتفجر من جديد.

تسربت أنباء في أواسط تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٠ عن قيام الحكومة الإسرائيلية بتعيين الباحث إيمانويل توف محرراً مشاركاً في مشروع ترجمة ونشر المجموعة الكاملة لنصوص قمران. جاء التعيين على نحو مفاجىء، ومن دون استشارة رئيس الفريق الدولي، مما أنذر بوجود مشكلة حقيقية، وكان للخبر وقع الصاعقة على ستروجنيل الذي تحامل على مرضه الشديد، آنذاك، وانطلق يعارض القرار الإسرائيلي بشدة، ووصل به الأمر إلى حد القول لصحيفة «هآرتس» الإسرائيلية، حسبما أوردت صحيفتا «نيويورك تايمز» و«التايمز» اللندنية في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩١، بأن:

«اليهودية دين مرعب، عنصري، وبدائي.. ليس أكثر من هرطقة مسيحية، ونحن نتعامل مع الهرطقات بطرق مختلفة».

ثم استطرد مضيفاً، بأن ما يزعجه في اليهودية:

«وجود اليهود أنفسهم كجماعة».

وذكرت صحيفة «الإندبندنت» البريطانية، بدورها، أنه قال محذراً:

«إن الحل الوحيد لليهودية التحول الجماعي إلى المسيحية».

تصدرت أقوال ستروجنيل وتصريحاته الصحف في عواصم الغرب، التي قامت ولم تقعد إلاّ بطرد ستروجنيل، ذلك البروتستانتي المتحول إلى الكاثوليكية، من منصبه في رئاسة الفريق. وكان السبب المعلن تدهور حالته الصحية. الرجل الآن في بداية السبعينيات من العمر، يقبع وحيداً منبوذاً في شقة صغيرة بكامبردج، يعتريه الاكتئاب في أغلب الأحيان بعد أن تخلى عنه رفاقه في الفريق الدولي، وتركوه لقمة سائغة في مواجهة هجمة إعلامية شرسة. ولعله يتذكر في وحدته القاسية الآن ما ورد في رسالة بعث بها إليه رفيقه ومواطنه العالِم البريطاني أليغرو، يسأله فيها دعم موقفه في المطالبة بحق الرؤى المغايرة، التي جاء فيها قوله: «... لقد ظننت أنه من السهل التأثير على الرأي العام، بإمطارك الصحف برسائل بذيئة تعتبرها دراسة.. أيها الصبي الغرير ما زلت صغيراً وأمامك الكثير لتتعلمه».

لا يكاد الحديث يبدأ عن الفريق الدولي حتى تطفو المدرسة التوراتية الفرنسية في القدس إلى السطح، ليتمحور الحديث حولها بشكل تلقائي. فكثيراً ما كان أليغرو يشير في رسائله إلى الفريق الدولي بقوله «عصابة المدرسة التوراتية».

لماذا يتم الربط بينهما دائماً وكأنهما شيء واحد؟

ما شكل العلاقة التي تجمعهما معاً؟

وهل الفريق الدولي ملحق رسمياً بمعهد الدومنيكان الفرنسي للأركيولوجيا في القدس، المعروف بالمدرسة الفرنسية للدراسات التوراتية؟

لم تكن هيمنة المؤسسة الكاثوليكية، حسب وجهة نظر إيزنمان، محض صدفة. فالأب ديفو كان مهيمناً على الفريق الدولي منذ اليوم الأول لإنشائه، ومديراً للمدرسة التوراتية الفرنسية في الوقت نفسه، وتمتع بالوضع نفسه لاحقاً الأب ميليك، رفيق الأب ديفو ومحل ثقته. وادعى كلاهما، باعتراف ستروجنيل نفسه، الحق في الاطلاع أولاً على المخطوطات لحظة وصولها، ولهذا حصد الأب ميليك حصة الأسد من الوثائق الحساسة والمثيرة للجدل. فقد يسرت لهما إقامتهما الدائمة في القدس السيطرة المحكمة على الفريق، الذي يتكون أساساً من القساوسة التابعين لروما، وكلهم يعيشون معاً في نزل المدرسة التوراتية.

عملت المدرسة التوراتية الفرنسية منذ أيامها الأولى على التحول السريع إلى مؤسسة علمية متفوقة يتعذر منافستها. فأصدرت إلى جانب دوريتها الأصلية، ريفيو ببليك، دورية أخرى عام ١٩٥٨ تقتصر على مواد كهوف قمران وبعنوان ريفيو دي قمران Revue de Qumran، وللقائمين على النشر كامل الحرية في نشر أو عدم نشر ما يتراءى لهم من الدراسات والأبحاث. وقامت المدرسة بتأسيس مكتبة تضم كل ما يصدر عن اللفائف في جميع أنحاء العالم. وللحق، كان يؤتى بغالبية المخطوطات إلى المتحف الفلسطيني في القدس، الذي تحولت إحدى قاعاته إلى ورشة عمل. غير أن المدرسة التوراتية كانت تشكل مركز القيادة الفعلي والعصب المحرك للعمل برمته، فضلاً عن كونها مكاناً مناسباً لإخفاء بعض اللفائف السرية وغير المصنّفة.

هكذا نجحت المدرسة التوراتية الفرنسية في خلق أمر واقع، بغض النظر عن شرعيته، لتصبح مركزاً دولياً معترفاً به للأبحاث المتعلقة

بمخطوطات البحر الميت، وبؤرة للأبحاث الأكاديمية المحترمة، فموافقة المدرسة باتت ختماً لمصداقيتها، بدونه تتحطم مصداقية الباحث مهما بلغ شأنه.

كان من المفترض عند تكوين الفريق الدولي، من الناحية الرسمية، ألا يتسم بالطائفية الموالية، بل الحياد غير المتحيز. قدمت المدرسة التوراتية نفسها للعالم كواجهة كاثوليكية تلتزم بالموضوعية والحياد. فقد صرح الأب ديفو، ذات مرة، للكاتب الأميركي ويلسون بأنه لا يخشى على إيمانه من جراء الأبحاث التي يقوم بها. وهذا في رأي الكاتب بايجنت أمر غير مشكوك به بالطبع، غير أن المشكلة الحقيقية ليست الخشية على إيمان الأب ديفو، بل الخشية على موضوعية الأبحاث ومصداقيتها من إيمانه!

عمدت دورية الفريق الدولي إلى انتقاد إسرائيل حين بدأت حكومتها في التدخل، رغم أن الأخيرة ليست بمنأى عن دائرة الاتهام. فقد أبقت وضع الفريق على حاله، وأرخت له حبل المماطلة والتسويف، متفادية بذلك مواجهة الفريق الدولي ومن يقفون خلفه من قوى ومؤسسات دينية عالمية. فكان من الأيسر والأسلم القفز إلى الأمام والاكتفاء بإلقاء اللوم على أعضاء الفريق الدولي، واتهامهم بالغطرسة وتضخم الذات، تماشياً مع اتهامات صحيفة «نيويورك تايمز». ولعل الأوساط الأكاديمية أخذت هذه العوامل في الاعتبار عندما أخذت تعزف النغمة نفسها.

مع ذلك بقي السؤال حول حقيقة المسؤول الأول والنهائي عن الفريق الدولي معلقاً، أو بعبارة أدق: من هي الجهة المسؤولة عن محاسبة الفريق الدولي من الناحية النظرية؟

الفريق الدولي لم يعترف، من ناحيته، بأي سلطة سوى المدرسة التوراتية، ليتحول السؤال إلى محاولة للبحث عن ماهية الجهة المسؤولة التي تخضع لها المدرسة التوراتية؟

اعتبر جميع الباحثين المدرسة التوراتية مدرسة كاثوليكية فحسب، وسلموا بذلك من دون أن يدركوا مدى ارتباطها القديم المباشر، أو الرسمي، مع مؤسسة الفاتيكان. وعندما سئل البروفسور دايفز، من جامعة تشفيلد البريطانية، عن ذلك الأمر، اعترف بأن السؤال يبدو له محيّراً، وأضاف قائلاً: إنه حين يدقق النظر، يرى أن الانتقاد كان ينحرف دائماً بأسلوب مذهل ولطيف عن المدرسة التوراتية.
أما البروفسور غولب، من جامعة شيكاغو الأميركية ، فجاء رده على السؤال نفسه بالقول:
«كانت الناس تلمح دائماً وجود روابط بين المدرسة التوراتية والفاتيكان. فأحداث كثيرة تصب في صالح نظرية الروابط هذه».

لكن البروفسور غولب شأنه في ذلك شأن زملائه الباحثين لم يحاول التعمق في دراسة هذه الروابط على نحو دقيق، وبقي التساؤل معلقاً ولكن إلى حين.

الهوامش:

(١) تولى أوكتافيوس الحكم في الفترة ما بين ٣١ق.م. إلى ١٤م، أي ما يقرب من خمسين سنة، واستطاع أن يحقق الأمن والاسقرار، وقد قسم إدارة الأمبراطورية جميعها بينه وبين مجلس الشيوخ، وإن بقيت بعض المناطق، خاصة الممالك الشرقية، خاضعة لحكامها بما يشبه الاستقلال الاسمي، وأطلق عليها الممالك التابعة، مما هدّأ من المشاعر القومية وحال دون قيام حركات مناهضة لروما.

(٢) Cecil Roth, **Did Vespasion Capture Qumran?** Palestine

Exploration Quarterly July, Dec., 1959, P. 124.

(٣) Baigent and Leigh, P. 116.

(٤) الماسادا كلمة آرامية تعني القلعة، أقامها هيرودس الأكبر، واستولى عليها اليهود حسب المفهوم الشائع أثناء الثورة اليهودية بعد ذبح كل أفراد الحامية الرومانية، وقد حاصرتها القوات الرومانية ووعدتهم بالأمان في حال استسلامهم، واستمر الحصار لعدة سنوات قبل اقتحامها، مما دفع بالقائد اليهودي إلى إقناع أتباعه بالانتحار الجماعي بدلاً من الوقوع في الأسر، الذي أودى بحياة ٩٦٠ من الرجال والنساء والأطفال. وقد أثارت القصة شكوكاً لدى بعض المؤرخين من اليهود أنفسهم لتعذر الدليل التاريخي على سلامة الاكتشافات الأثرية التي تستند إليها القصة.

(٥) دراسة الكتابة والنقوش القديمة.

(٦) تعني «الكتيم Kittim» في الأصل اليونان والشعوب اللاتينية، غير أن المصطلح أصبح يطلق على أية قوات عسكرية مهيمنة آتية من الغرب. وقد ورد المصطلح في شروح «سفر حبقوق»، وأثار خلافاً واسعاً، فالبعض يرى أنهم السلوقيون، اليونان، في القرن الثاني ق.م. والبعض الآخر يراه متعلقاً بالغزو الروماني، في القرن الأول الميلادي، وهو الرأي الغالب حالياً لدى الباحثين الحاليين.

(٧) Godfrey Driver, **The Judaean Scrolls**, Oxford, 1965, P.211.

(٨) المصدر نفسه، ص ٢٢٨.

(٩) أكد خبير بريطاني في ترميم الأبنية المتضررة من الزلازل، عهدت إليه حكومة الأردن بترميم خرائب قمران قبل حرب ١٩٦٧، عدم وجود أدلة على تدمير بنايات قمران نتيجة لهزة أرضية، فالشرخ المذكور يعود إلى ثقل المياه في الحوض، نتيجة لخطأ في البناء أو الإصلاح.

(١٠) العالم الأميركي أولبرايت معروف بحصر اهتمامه في إثبات مصداقية مرويات «العهد القديم»، حيث تركزت دراساته على تعزيز مكانة اليهود في المشرق، وإظهار فضلهم على العالم حضارياً، على حساب الحضارات الشرقية القديمة في وادي الرافدين ومصر القديمة.

(١١) دريفر، المصدر نفسه، ص ١٢٥.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٢٣١.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٢٣٥.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٢٣٤.

(١٥) Robert Eisenman, **Maccabees, Zodokites, Christians and Qumran**, Leiden, 1983, P. 43.

(١٦) تعرف الوثيقة بـ MMT، ويرجح أنها رسالة موجهة من المعلم البار للجماعة إلى ملك ما وراء الفرات، تحتوي على تعاليم دينية وعدد من الوصايا والقيم للتعرف إلى الله إسوة بإبراهيم الخليل.

(١٧) Baigent and Leigh, P. 132.

(١٨) تمّ إخضاع بعض القطع المنتقاة لاختبار «الكربون ١٤»، تحت إشراف الفريق الدولي، وطعن بعض الباحثين في نتائج الاختبار، التي جاءت مؤيدة للفريق، لأن اختياره لم يكن نزيهاً، علاوة على نقاط ضعف هذا الأسلوب لأنه يوفر معطيات تقريبية، وحيز الخطأ يراوح بين مائة ومائة وخمسين عاماً، مع عدم استطاعته تحديد عمر المداد المستعمل في الكتابة.

(١٩) Silberman, P. 237.

الفصل السادس

ورطة التحديث

بادر نابليون بونابرت العالم الألماني فولني[1] Volney حين التقاه عام ١٨٠٨، بسؤاله صراحة عما أخذ يتردد همساً لدى النخب الفكرية الأوروبية عن حقيقة وجود السيد المسيح من الناحية التاريخية. وبهت العالم الألماني، فقد توقع أن يسأله القائد المظفر عن أمور السياسة والحرب، لكن يبدو أن هذه الأمور قد توارت بعيداً وبدت تافهة أمام حقيقة الوجود التاريخي لمؤسس المسيحية. فسؤال بونابرت يعكس في جوهره مدى انشغال الفكر الأوروبي، آنذاك، في تدبر هذه المسألة. فعلى مدى قرنين من الزمان دارت حرب فكرية ضروس، انصب خلالها نشاط العقل الأوروبي، خصوصاً الألماني، على نقد «الكتاب المقدس» وإثارة الشكوك في مصداقية رواته ودقتهم، إلى درجة اعتبر بعضهم حياة مؤسس المسيحية أشبه بأساطير كرشنا وأوزوريس ومثراس.

اشتعلت الشرارة الأولى على يد هرمان ريمارس، أستاذ اللغات الشرقية في جامعة هامبورغ، الذي ترك مخطوطة تقع في ألف

وأربعمائة صفحة عن حياة السيد المسيح، حرص على عدم نشرها أثناء حياته. وقد تمَّ نشر أجزاء من ذلك المخطوط في عام ١٧٦٨ بعد ست سنوات من وفاة صاحبها، أفادت بأن يسوع هو الشخصية الرئيسة والأخيرة، لجماعة يهودية متصوفة تؤمن بالبعث والحساب، مما يعني أن يسوع لم يفكر في إيجاد دين جديد، بل في تهيئة الناس لاستقبال دمار العالم الوشيك ويوم الحشر المرتقب، حين يحاسب اللّه الأرواح على ما قدمته من خير أو شر.

ثم جاء هيرودس في عام ١٧٩٦ ليشير إلى وجود فوارق لا يمكن التوفيق بينها، بين مسيح أناجيل متى ومرقص ولوقا وبين مسيح إنجيل يوحنا. كما صدر كتاب عن حياة السيد المسيح بقلم دافيد أستروس، يطالب فيه بإعادة كتابة حياة يسوع على نحو أكثر عقلانية. أثار كتاب أستروس عاصفة في التفكير الألماني راجت جيلاً من الزمان، وهاجم فردناند كريستيان بور في العام نفسه، رسائل القديس بولس، مدعياً بأنها مدسوسة، عدا رسائله إلى أهل غلاطية وكورنثوس وروما، فالأناجيل الأربعة حسب وجهة نظر كريستيان، لا تعدو سوى البقية الباقية من عدد أكثر بكثير، ولا يتعدى أقدم النسخ لهذه الأناجيل القرن الثالث الميلادي. ورجح كريستيان بور أن النسخ الأصلية تمت كتابتها ما بين ٦٠ ـ ١٢٠م، غير أنها تعرضت على مدى قرنين من الزمان إلى أخطاء في النقل، وربما تحريف متعمد يتفق والطائفة التي ينتمي إليها النسّاخ، ثم مضى يبرهن على أن كُتّاب القرن الأول قاموا بإسقاط نبوءات «العهد القديم» على السيد المسيح، لإثبات أنه المخلِّص المنتظر، فضلاً عن أن فكرة انتقال القديس بجسده وحياته إلى السماء كانت من الأفكار الشائعة المألوفة لدى اليهود، فقد رددوها عن موسى، أخنوع، إيليا، وأشعيا.

في مواجهة هذه النظريات والادعاءات كان لا بد من بذل جهود حثيثة لإثبات صحة الأسس التاريخية للدين المسيحي: فإنكار الوجود التاريخي للسيد المسيح، لم يخطر ببال حتى أشد المعارضين للمسيحية في ذلك الوقت. ولا يمكن أن يكون الأسلاف بلهاء إلى حد تصديق وابتلاع ما ابتكرته مجموعة صغيرة من الرجال السذج حول هذه الشخصية الجذابة، صاحبة المبادىء الرفيعة، التي أصبحت على مر العصور أروع ظاهرة في تاريخ الشعوب ولا سيما الغربية، وأعظمها فتنة لألبابهم[٢].

لقد وردت إشارة، غير مسيحية، إلى يسوع في كتاب «قدم اليهود» ليوسيفوس، ربما انطوت على أصل صحيح، لكنها حافلة بالمدح والثناء، ولا يتصور أن يأتي بها مؤرخ يهودي مداهن للرومان، فكلا الطرفين ناصب المسيحية أشد العداء، الأمر الذي دفع علماء المسيحية إلى رفض هذه الإشارة، والحكم بأنها مدسوسة على يوسيفوس.

ثمة إشارات أخرى إلى يسوع الناصري في «التلمود»، لكنها وردت في عهد متأخر جداً مما يجعلها مجرد أصداء للأفكار المسيحية. وقد يواجه البعض هذه الإشارات بالقول بأن كل المصادر التاريخية القديمة أشارت إلى المسيحيين وما لقوه من اضطهاد وتعذيب فحسب، وهذا في حد ذاته صحيح ولكنه يثبت وجود المسيحيين، وليس السيد المسيح نفسه.

استمر الجدل في الغرب على هذا النحو طوال قرنين من الزمان، وبدا أنه سوف ينتهي بإنكار الوجود التاريخي للسيد المسيح إنكاراً تاماً. وأخذ النقاش الدائر في الحلقات الفكرية المغلقة، بين العقل والوجدان، يشتد ويقوى ويتسرب إلى العلن.

يعبر الكاتب الأميركي أي. باول دايفز "A. Powell Davies" عما آل إليه الوضع بقوله:

«يسود اعتقاد شائع لدى العامة بأن «العهد الجديد» يقدم صورة متجانسة عن حياة يسوع وبدايات الكنيسة التي قام بتأسيسها. هذا الافتراض السائد ليس صحيحاً، فلا يوجد لدينا قصة متسقة ليسوع، والمتوفر لدينا لا يتعدى شظايا مدونة تذخر بالتعارض، مما يتعذر معه كتابة حياة يسوع بالمعنى الصحيح، لافتقار الباحثين إلى المعلومات. ولا تقل معرفة بدايات الكنيسة صعوبة، فهي الأخرى، تعج بالكثير من المشاكل الشائكة. هذا في حال قيام يسوع فعلاً بتأسيس الكنيسة، أو حتى كانت لديه النية لتأسيسها. فبعض الباحثين يرى أنه تعمد ترك جماعته في حالة سيولة، لتستطيع التكيف وفق الظروف الموضوعية[٣]».

لقد أدرك علماء اللاهوت منذ وقت طويل استحالة المعرفة التاريخية الدقيقة لموعد أو مكان ميلاد السيد المسيح، أكان في بيت لحم يهودا أم بيت لحم الواقعة في الجليل، هذا في حال التسليم بمولده في بيت لحم أصلاً. وتكرر المشكلة نفسها في التاريخ المقرر لمولده، في ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر، فهذا الموعد يوافق ميلاد مثراس. وعلماء اللاهوت باتوا يدركون الآن أن أساطير بارثيا القديمة[٤]، مصدر القصة المعروفة للمجوس القادمين من الشرق. وهكذا دواليك في كثير من التفاصيل، حتى أصبح معروفاً لدى العلماء الآن مدى تأثر مسيحية اليوم، خلال تطورها في القرون الأولى، بالوثنيات القديمة في منطقة البحر الأبيض.

ويصعب القول إن ما يتوفر من المعلومات ليس أكثر من تراث شبه تاريخي يؤكده اللاهوت ويضعه في مستوى التاريخ، فلم تذكر أي

مصادر تاريخية، على سبيل المثال وليس الحصر، وقوع مذبحة للمواليد، بخلاف إنجيل متى. وهذا لا يبرىء هيرودس الأكبر من ارتكاب المذابح، لكن من غير المنطقي أن يتجاهل المؤرخون مذبحة وحشية كهذه، خصوصاً يوسيفوس الذي أسهب في الحديث عن جرائم هيرودس، فكيف يمكن لمؤرخ مثله أن يتجاهل الإشارة إلى مذبحة مروعة بهذا الشكل؟!

هناك الكثير من الكتب المقدسة غير متضمنة في «العهد الجديد» رغم أنها دونت في فترة تدوين الأناجيل الرسمية المعترف بها. مثالاً على ذلك إنجيل بطرس (أبو كريفا)، الذي ذكر واقعة القيامة شأنه شأن بقية الأناجيل الرسمية، ولكنه بالغ بعض الشيء، الأمر الذي أدى إلى استثناء إنجيله من الكتب الدينية المعترف بها.

كان ذلك واقع الحال في الغرب، العلماء والباحثون في جانب يرفضون تأريخانية «العهد الجديد»، ورجال اللاهوت في الجانب الآخر يؤكدونها استناداً إلى التسليم الوجداني الكامل، رغم افتقارهم إلى وثائق أصيلة، أو إجابات منطقية شافية للأسئلة الكثيرة الحائرة.

أخيراً تمَّ العثور على مخطوطات البحر الميت التي تعود إلى ما يربو عن الألفي عام.. كان ذلك حدثاً عظيماً بالنسبة إلى الباحثين، بل لعله أهم اكتشافات القرن العشرين، لأنه قد يفتح مغاليق القرن الأول للميلاد. لكن سرعان ما تبدل الموقف، وبدأ خلاف وجدل من نوع جديد مغاير أثارته معطيات هذه المخطوطات.

لعل إنجيل يوحنا، على سبيل المثال أحد الأمثلة المبكرة لما فجّرته وثائق قمران من مشاكل يصعب القفز عليها. فهذا الإنجيل، على وجه الخصوص، كان يشكل منذ البداية، رغم كل محاولات

التوفيق، معضلة بالنسبة إلى الباحثين وعلماء اللاهوت على حد سواء، فالأناجيل الثلاثة الأولى، تكاد تعرض القصة نفسها. نعم، هناك اختلافات بينهم ولكنها تظل قابلة للتسوية إلى درجة مقبولة، غير أن إنجيل يوحنا حالة مختلفة تماماً لا يقبل التسوية، مما دفع الباحثين إلى القول، إذا كان القديس يوحنا على صواب فهذا يعني أن الثلاثة الآخرين على خطأ، والعكس صحيح.

أولاً: يسوع في إنجيل يوحنا يبدو معلماً من نوع فريد.

ثانياً: الحياة العامة ليسوع تأتي على نحو مطول في إنجيل يوحنا، فبدلاً من بضعة أشهر أو ربما عام في الأناجيل الثلاثة الأولى، تمتد حياته لدى يوحنا لقرابة الثلاث سنوات.

ثالثاً: منطقة يهودياً كانت لدى يوحنا الحيز الرئيس لعمل يسوع ونشاطه وليس الجليل.

رابعاً: منذ ظهوره الأول في إنجيل يوحنا، يبدو يسوع مخلصاً مهيباً، يسير وفق برنامج إلهي، فتراه مثلاً يورد وحده قصة إحياء أليعازر، فكيف يمكن للأناجيل الثلاثة الأخرى تجاهل واقعة بمثل هذا الحجم، وعلى هذا القدر من الأهمية!

خامساً: اختلاف الأحاديث المنسوبة إلى يسوع في الأسلوب والديباجة عنها في الأناجيل الثلاثة الأولى، فمثلاً قوله:

«أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً. كما أسمع أدين. ودينونتي عادلة. لأني لا أطلب مشيئتي بل مشيئة (الأب) الذي أرسلني» (٥/٢٩ ـ ٣٠).

وهناك أيضاً قوله:

«.. سلاماً ما أترك لكم. سلامي أعطيكم، ليس كما يعطى العالم أعطيكم أنا. لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب» (٢٧/١٤).

أسلوب مختلف تماماً، كما يراه بعض الباحثين، مثل ميللر بيراوس "Miller Burrows"، وهو أقرب إلى أسلوب «المعلم البار» للأسينيين، ذلك الكاهن الورع الذي تجرع الاستشهاد، منه إلى أسلوب الأناجيل الثلاثة الأولى، ولعل القديس يوحنا قد ضمن في إنجيله عقيدة هذا المعلم ولمحات من حياته.

كان الاعتقاد السائد أن إنجيل يوحنا قد وُضع في مرحلة متأخرة ما بين ٩٠ - ١١٠م، حين التقى الفكران اليهودي والهلينستي المتأثران، أيضاً، بالفكر الزرادشتي، لكن المفاجأة جاءت من قمران حين كشفت إحدى وثائقها أن إنجيل يوحنا قد كُتب في فلسطين قبل ذلك التاريخ بكثير، حيث تبدى اقتباس يوحنا لفقرة كاملة من وثيقة «قانون الجماعة» في قمران، حين يقول:

«كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان» (٣/١).

بينما تقول الوثيقة:

«من الله رب المعارف يأتي كل ما هو كائن وما سوف يكون» (٣/ ١٦).

ويجدر التنويه أن إنجيل يوحنا جاء باليونانية فيما الوثائق جاءت بالآرامية والعبرية، مما آثر في أسلوب الصياغة وطريقة التركيب.

السؤال الآن، إذا كان إنجيل يوحنا من تأليف أحد الأسينيين أو أية طائفة أخرى، فمن أين أتى بكل هذه الأحاديث والخطب المنسوبة إلى يسوع؟!

يتناول ميللر السؤال المحير بقوله:

«إن علاقة إنجيل يوحنا بمخطوطات البحر الميت لهي الأشد والأكثر وضوحاً عنها في أي جزء من العهد الجديد. فالتشابه بينهما في النمط الفكري والأسلوب، واضح إلى درجة مذهلة»(٥).

في الماضي لم يكن الباحثون يعرفون المصادر الفكرية للقديس يوحنا، مجرد تخمينات ولا شيء أكثر.. فإذا كان لاهوت وتراث جماعة قمران هما المصدر الحقيقي، فتلك مجرد عينة من المشاكل والتحديات التي تطرحها وثائق البحر الميت. المسألة لم تعد تنحصر، إذن، في هوية الجماعة الدينية أو الحقبة التاريخية التي أفرزتها.

طروادة و«العهد الجديد»

لم يكن يعتد بالأبحاث التاريخية والأركيولوجية حتى أواسط القرن التاسع عشر، بسبب افتقادها للأساليب والإجراءات العلمية المقبولة، ولا سيما أساليب التدريب المتجانسة. لهذا لم تشكل هذه الأبحاث علوماً تتصف بالموضوعية والمنهجية مثل بقية العلوم التطبيقية الأخرى. فقد انحصر الاهتمام بالقطع الأثرية والعاديات القديمة من باب التفاخر والمباهاة، عندما أخذ أثرياء أوروبا يجوبون العالم لاقتنائها في قصورهم وقلاعهم، إلى أن جاء العالِم الأميركي المولد، هنريش شلايمن (١٨٢٢ ـ ١٨٩٠) الذي كان مولعاً، إلى حد الهوس، بالإلياذة والأوديسا وعلى اقتناع تام باحتوائها نواة من الحقيقة الواقعية. بدأ شلايمن في تحقيق حلمه في العثور على طروادة، فذهب إلى اليونان في عام ١٨٦٨ بعد أن جمع ثروة من التجارة، ولا شيء يقود خطواته سوى شعر هوميروس، الذي يعود إلى نحو ستمائة عام قبل الميلاد، في محاولة للعثور على طريق الأسطول اليوناني، عبر أعمال الحفر والتنقيب.

نجح العالِم الأميركي الألماني المولد، وسط ذهول العالم ودهشته، في العثور على طروادة هوميروس عام ١٨٦٨، إضافة إلى تسع مدن أخرى أخرجها من تحت الأنقاض والركام، وبهذا أصبح شلايمن الأب الحقيقي والملك المتوج لعلم الأركيولوجيا الحديث. تصاعد الاهتمام إثر ذلك النجاح المذهل لإثبات مصداقية «الكتاب المقدس بعهديه: القديم والجديد»، مما جعل البحث عن إسرائيل القديمة وبداية المسيحية مشروعاً أوروبياً منذ البداية، رغم كل التذرع بالموضوعية والعقلانية. فكلها موضوعات تشكل البنية الرئيسية في كليات اللاهوت الغربية، ونتاجها يوجه حصراً إلى القرّاء الأوروبيين والأميركيين. فعندما لاحت بشائر نجاح العالِم الأميركي ونجاعة أساليبه، ذهب تشارلز ويلسون إلى القدس لإجراء مسح شامل للمدينة وإعداد خريطة دقيقة لها، وتمّ إنشاء صندوق الاكتشاف الفلسطيني، برئاسة الملكة فكتوريا شخصياً. وسارعت كل من ألمانيا وفرنسا إلى اللحاق بالركب.

كان الباحث الفرنسي إيرنست رينان أول من شد الرحال في عام ١٨٦٠، إلى سورية وفلسطين، وهو من كبار المهتمين بالأبحاث الأركيولوجية، وبرفقته باحث ألماني متخصص في الكتاب «المقدس» للبحث عن أصول التعاليم المسيحية. أسفرت الرحلة التي استمرت قرابة عامين، عن إصدار رينان لكتابه الشهير «حياة يسوع» الذي أثار ضجة كبيرة في الغرب لم يخفَ صداها إلى اليوم. اعتمد الباحث الفرنسي المنهج الموضوعي والنظرة النقدية الألمانية، ليطرح مشكلة الأناجيل على العالم الغربي، وقدم يسوع في كتابه كرجل لا يقارن، ولكنه يظل إنساناً، وليس إلهاً، يخضع لقوانين الطبيعة من موت وخلافه، غير أنه استطاع تقديم مبادىء

رفيعة سامية للإنسانية، يمكن وصفها بالعلمانية الإنسانية.

كان رينان من أعظم مفكري عصره، فقد تمكن من تحويل مسار الأبحاث التوراتية بقدر يتعذر إدراكه، ويعد كتابه «حياة يسوع» أحد أهم أسباب القلق والتوتر في تاريخ الفكر الأوروبي في القرن التاسع عشر، الأمر الذي رفع اسمه عالياً لدى النخب المثقفة، واضعاً إياه في مصاف العالم النفسي المعروف سيغموند فرويد. ظل رينان على امتداد الثلاثين سنة الباقية من حياته شوكة في خاصرة الكنيسة، لما أخذ يصدره من أبحاث وكتابات تتصل بأعمال الرسل وبولس والمسيحية الأولى، حيث عمل على وضعها ضمن سياق فكر وثقافة الأمبراطورية الرومانية المهيمنة على العالم آنذاك. لقد أطلق رينان المارد من المصباح ولم تستطع روما الإمساك به بعد لترويضه من جديد.

لم تكد روما تفيق من صدمة كتاب «حياة يسوع» حتى تلقت ضربات أخرى، لا تقل ضراوة، أولها صدور كتاب «أصل الأنواع» لتشارلز داروين عام ١٨٧١، الذي أتبعه بكتابه الثاني «أصل الإنسان» متحدياً روايات «العهد القديم» عن خلق الإنسان. والثانية ظهور اللا ـ أدرية بقيادة توماس هكسلي وهربرت سبنسر، وهما من أشهر علماء وفلاسفة عصرهما، دع عنك نيتشه، الذي اتهم بالتجديف لمناقشة الأخلاق المسيحية التقليدية وافتراضاتها الدينية. ثم ظهرت نظرية «الفن للفن» التي تلقاها الأوروبيون بترحاب شديد، خصوصاً النخب المثقفة، لتسحب البساط تدريجياً من سيطرة الفكر الديني التقليدي.

أدت هذه الضربات الفكرية المتصاعدة إلى أخرى على الصعيد السياسي جاءت أكثر إيلاماً، تمثلت بظهور الأمبراطورية الألمانية

الجديدة بعد انتصارها على فرنسا (١٨٧٠ - ١٨٧٢)، لتصبح قوة عظمى في أوروبا لا تدين بالولاء لروما. فالأمبراطورية الجديدة لوثرية، وليست كاثوليكية رومانية، وغدت عندها الكنيسة الألمانية تتبع وزارة الحرب. ثم تلتها، ضربة قاصمة أخرى في عام ١٨٧٠، حين قام غاريبالدي بتوحيد إيطاليا وإخضاع روما، وانتزاع الولايات البابوية وكل المناطق من الكنيسة.

اهتزت مكانة روما إثر تلقيها هذه الضربات الواحدة تلو الأخرى، من العلم والفلسفة تارة، ومن الفنون تارة أخرى، وأخيراً جاء تسيد القوى السياسية العلمانية لتنزوي الكنيسة في الظل، ويتهمش دورها كما لم يحدث لها، منذ حركة الإصلاح الديني اللوثرية قبل زهاء ثلاثة قرون ونصف القرن(٦).

العصمة هي الحل

كان على الكنيسة الرومانية الإسراع باتخاذ إجراءات دفاعية إزاء ما تتعرض له مكانتها من اهتزاز، فجدت في البحث عن دعم، أو بالأحرى عن قوى كاثوليكية تتحالف معها. أقدم مجمع الفاتيكان الأعلى في هذا الخضم المتلاطم، على اتخاذ قرار مفاجىء عن طريق التصويت، أثار دهشة الجميع، عندما قام البابا بيوس الرابع بإعلان وإقرار عصمة البابا على الملأ في ١٨ تموز/ يوليو ١٨٧٠(٧)!

استدعى هذا القرار إلى ذاكرة العالِم البريطاني ديفز، انعقاد مجمع نيقة عام ٣٢٥م، برئاسة الأمبراطور قسطنطين، واتخاذه قراره الشهير، عبر عملية تصويت شابها جدل عنيف، بألوهية المسيح، وقد رفض حينها القس المصري، الليبي الأصل، آريوس وعضوان آخران التوقيع على صيغة هذا القرار، فقد كان آريوس يؤمن بأن المسيح مخلوق لا يرقى إلى منزلة الأب، ولكنه مقدس بالاشتراك

معه. حكم المجمع على الثلاثة باللعنة والحرمان، وأمر الأمبراطور بنفيهم من البلاد وأصدر مرسوماً بإحراق جميع كتب آريوس وبإنزال عقوبة الإعدام بكل من يُخفي أحدها[٨].

استمر التحدي رغم إقرار «عصمة البابا»، فقد سارع السياسي الألماني الداهية ميترنخ إلى وصف صاحب القرار، بأنه «دافىء القلب، ضعيف العقل، تعوزه الفطرة السليمة»[٩].

كان على الكنيسة الرومانية الخروج من مأزق التحديات المحيطة بها ومواجهة المشككين بالسلاح نفسه، وذلك بتأسيس وإعداد كادرها الخاص من الباحثين المدققين، لمواجهة الخصوم والدفاع عن «الكتاب المقدس». من هنا بدأت الحركة الكاثوليكية الحديثة في روما التسلح بالأسلوب الألماني أسوة بخصومها، لرد كيد رينان وأمثاله من المدرسة النقدية الألمانية إلى نحورهم. ومن ثم تمَّ تدريب عدد من الباحثين في اللاهوت وفق أحدث أساليب المنهج النقدي، كي يصبحوا القوة الأكاديمية الضاربة للدفاع عن الحقيقة الحرفية «للكتاب المقدس» ليتصدوا لرينان ومن هم على شاكلته، ويردوهم على أعقابهم خائبين.

سرعان ما انقلب السحر على الساحر وجاءت النتيجة مخيبة للآمال، فما أن تسلح رجال الدين والقساوسة الشباب بالمناهج العلمية الحديثة حتى أغفلوا القضية الأصلية التي تمَّ تجنيدهم للذود عنها، بمجرد أن اكتشفوا من خلال النظرة النقدية الكثير من التناقض والتضارب والتنافر، بما يمس العقيدة الرومانية، وبدأوا عندها بدورهم، في المساءلة والتساؤل، وفي إلحاق مزيد من التخريب فيما يفترض أنهم جاؤوا لترسيخه والدفاع عنه.

يأتي في مقدمة هؤلاء الباحثين العصريين ألفرد ليوسي "Alfred Liosy" الذي أبدى دهشته علناً لما كشفته الدراسات الحديثة للتاريخ والأركيولوجيا، فعلق قائلاً:

«لقد بشَّر يسوع باقتراب الملكوت. ولكن ما أتى في الواقع كان الكنيسة».

ثم مضى يبرهن على أن الكثير من نقاط العقيدة الأساسية تمَّ بلورته على ضوء أحداث تاريخية معينة في أماكن وأوقات بعينها. مما يستحيل معه اعتبارها حقائق ثابتة، لكنها تظل في أحسن الأحوال مجرد رموز فحسب(١٠).

خرج الوحش هذه المرة من أحشاء روما، وكان عليها الإسراع بترويضه قبل فوات الأوان، فقام البابا ليو الثاني عشر قبل وفاته بقليل، في عام ١٩٠٣، بتكوين لجنة بابوية خاصة بـ «الكتاب المقدس»، تنحصر مهمتها في الإشراف ومراقبة الأبحاث والدراسات الكاثوليكية المتعلقة به. ثم قام خليفته بيوس الخامس في العام التالي بحظر كتب ليوسي، وبإصدار منشورين يعارضان كل الدراسات التي تتساءل عن أصول المسيحية وتاريخها المبكر. بناء على هذين المنشورين وما تضمناه من بنود، تمَّ طرد المعلمين الكاثوليك ذوي التوجهات العصرية من مواقعهم في المؤسسات التعليمية، رغم أنهم كانوا أكثر الفئات ثقافة ووعياً في الكنيسة الكاثوليكية.

أثار قرار الطرد ردة فعل سريعة وعنيفة. فقد قام كبار المفكرين والمثقفين والأدباء والشخصيات العامة بمساندة أولئك الباحثين، وشنوا انتقاداً لاذعاً على قرار طردهم. شملت المعارضة إيطاليا حيث تستقر مؤسسة الفاتيكان، وحمل لواءها عضو البرلمان

الإيطالي فرغازارو، وهو من أعظم الروائيين الإيطاليين ومن أشد المناصرين للكاثوليكية، فقام بنشر مقال عنيف جاء فيه:

«تزعم الكنيسة الكاثوليكية بأنها منبع الحقيقة، بينما تعارض اليوم البحث عن الحقيقة، عندما تصبح مؤسساتها، كتبها المقدسة، صيغ عقائدها، وما تدعيه من العصمة موضع الدراسة والبحث. إن هذا يعني بالنسبة إلينا أن الكنيسة لم تعد تؤمن بنفسها»(١١).

لم يتأخر الرد على فرغازارو لموقفه المعارض والمندد، فسرعان ما أُدرجت كتبه في سجل الممنوعات. وكثفت الكنيسة حملاتها ضد حركة التحديث التي أنشأتها وغذتها، لتصل إلى ذروتها بإصدار المجمع المقدس مرسوماً في عام ١٩٠٧ يشجب المحاولات الدراسية لبحث العقيدة المسيحية، بداية بسلطة البابا وانتهاء بالسياق التاريخي لنصوص «الكتاب المقدس». ألحقت الكنيسة الرومانية المرسوم بإعلان دمغت فيه الحداثة بالهرطقة، منهية بذلك رسمياً برنامجها التحديثي.

ارتفع عدد الكتب الممنوعة نتيجة للمرسوم، أضعافاً مضاعفة، وتمَّ فرض رقابة صارمة من قبل رجال الدين المسيحي على التعليم في المؤسسات التابعة للكنيسة الرومانية. وتكللت الجهود بإصدار مرسوم جديد يطالب جميع الكاثوليك العاملين في حقل التعليم بالتبرؤ من كل آثام الحداثة وخطاياها.

جاء إنشاء المدرسة الفرنسية للدراسات التوراتية، في القدس، في خضم نشاط الحركة الكاثوليكية لتحديث الدراسات التوراتية، بناء على ثقة القائمين على الحركة، آنذاك، بأن الأبحاث التاريخية والأركيولوجية سوف تُثبت المصداقية الحرفية للحقيقة المتضمنة في «الكتاب المقدس». قام أحد رهبان مؤسسة الدومينيكان تجسيداً

لهذه الثقة برحلة حج إلى القدس في عام ١٨٨٢، تمَّ إثرها اختيار موقع في شارع نابلس لبناء كنيسة ودير. وسارعت روما مرحبة بالمشروع واقترح البابا ليو الثالث عشر إنشاء معهد «للكتاب المقدس». وبالفعل نفذ الأب لاغرانغ اقتراح البابا، وتمَّ افتتاح المعهد في عام ١٨٩٢، وألحق به مقر لإقامة خمسة عشر باحثاً، ثم عمل على إصدار دورية «ريفيو بيليك» في العام نفسه.

عندما أُجهضت حركة التحديث، تعرض الأب لاغرانغ نفسه، أثناء وجوده في تولوز بفرنسا لعاصفة من الانتقاد والاتهام بالعصرية، رغم أنه كان من أوائل الباحثين العصريين الذين أفرزتهم حركة التحديث الكاثوليكية، وقد استطاع بالفعل تقديم دفوع منهجية على أعمال ألفريد ليوسي وغيره من مفكري الحداثة!

لحسن طالع الأب لاغرانغ أن البابا أدرك بنفسه إيمانه بعد أن اختبره وأيقن أن قلبه ما زال عامراً بحب الكنيسة، وبذلك استمر الأب لاغرانغ في منصبه مديراً للمدرسة التوراتية في القدس، غير أن الوضع أصبح مختلفاً، فقد غدا الأب لاغرانغ عضواً أو مستشاراً في «اللجنة البابوية» وتحولت دورية المدرسة، بالتالي، إلى لسان حال اللجنة البابوية الرسمية، وهكذا تحولت المدرسة التوراتية من أداة للتحديث إلى رأس حربة مسددة نحوه.

منذ أيام الفريق الدولي الأولى، انضم الأب سيكهان إلى حلقته، لدراسة اللفائف، وكان رئيس قسم الدراسات السامية واللغات المصرية القديمة في الجامعة الكاثوليكية بواشنطن، فضلاً عن عضويته في اللجنة البابوية «للكتاب المقدس». تمَّ تعيين الأب سيكهان مديراً للمعهد الأميركي للدراسات الشرقية في القدس، ليغدو أحد المناورين الأساسيين الذين كرسوا هيمنة المدرسة التوراتية

الفرنسية على مخطوطات البحر الميت، لا سيما أنه أحد القلائل الذين كان يسمح لهم بالإطلاع على جميع الوثائق، وهو صاحب وجهة النظر القائلة، بأن على الباحث في «الكتاب المقدس» الاهتداء بعقيدة الكنيسة والخضوع لسيادتها دائماً.

يعلق الكاتب بايجنت على مقولة الأب سيكهان بأنها تحض في جوهرها على إخضاع البحث، بغض النظر عما تكشفه اللفائف، وتكييفه مع تعاليم الكنيسة الكاثوليكية. أو بعبارة أكثر وضوحاً، تحث على تحرير المواد وتحويرها، وربما تحريفها، بما ينسجم والمعايير المطلوبة. ولا يملك الكاتب الأميركي سوى التساؤل: ماذا لو تعذر تكييف شيء ما تمّ اكتشافه؟!

تصريحات الأب سيكهان توحي بالإجابة على نحو واضح: كتم كل ما يصعب تحويره!! ويمضي الكاتب الأميركي معلقاً على تصريحات الأب سيكهان بأنها ليست سوى صدى لقرارات البابا بيوس الثاني عشر(١٢).

سنون طويلة مضت من دون أن يدرك الباحثون المستقلون ذلك التفويض الإلهي الذي فرضته المدرسة التوراتية نيابة عن الفاتيكان على دراسة المخطوطات. فقد بدت المدرسة في الظاهر، مؤسسة محايدة تكرس جهودها لجمع وترجمة مخطوطات قمران وشرحها، وليس العمل على كبحها وتحويلها إلى آلة دعاية للكنيسة الرومانية، أو لفرض الحظر على الباحثين المستقلين ومنعهم من الاطلاع عليها. مثال على ذلك، البروفسور نورمان غولب، من جامعة شيكاغو، الذي أمضى سنوات في إعداد أطروحة عن قمران، وذهب إلى القدس يطلب الاطلاع رسمياً على الوثائق

للتحقق من تأريخها.. ليفاجأ بالأب ديفو يخبره ببراءة شديدة، بأن الأمر يرجع للأب ميليك، فهو وحده المسؤول عن التحرير!
هكذا جاء رد الأب ديفو وهو يعلم تمام العلم أن الأب ميليك لن يسمح لأحد برؤيتها.

اضطر غولب في نهاية المطاف إلى وضع مشروعه جانباً، بدلاً من الدخول في متاهة لن تفضي إلى شيء، وعلق بقوله، لدي كل الأسباب الوجيهة للشك في التأريخ الذي وضعه عضو الفريق كروس استناداً إلى البليوغرافيا[١٣].

لم تشفع مكانة البروفسور غولب الرفيعة له بالاطلاع على اللفائف، وهو من هو علماً وخبرة، في الوقت الذي كان يُسمح فيه للباحثين المبتدئين بالاطلاع على المخطوطات لمجرد أنهم تابعون للمدرسة الفرنسية للتوراة، بغض النظر عن أعمارهم وخبرتهم. وقد برر أحد هؤلاء الباحثين الشباب قرار الحظر بقوله وهو يهز كتفيه ترفعاً، إن الغالبية العظمى من الناس، بمن فيهم أساتذة الجامعات ليسوا مؤهلين للحكم بكفاءة على القرارات الصعبة!!

المفتش العام

تضم اللجنة البابوية «للكتاب المقدس» حوالى اثني عشر كاردينالاً يتم تعيينهم من قبل البابا، إضافة إلى عدد من المستشارين بصفتهم خبراء في مجالي الدراسة والبحث وفقاً للموسوعة الكاثوليكية الحديثة. يتركز عمل اللجنة الرسمي في النضال بكل الوسائل الممكنة لحماية كلمات الرب، ليس من الخطأ فحسب، بل أيضاً من الآراء المتسرعة. ولذلك فعلى اللجنة التأكد من عمل الباحثين لحماية سلطة «الكتاب المقدس» وإقرار التفاسير الصحيحة.

والأب لاغرانغ، كما سبق ذكره، مؤسس المدرسة الفرنسية للدراسات التوراتية وأحد الأعضاء الأوائل في اللجنة البابوية. وقد ظلت دورية المدرسة، الريفيو بيليك، تابعة أيضاً للجنة حتى ١٩٠٨، وليس بالمستبعد نظراً لهذا الاندماج الوثيق بين المؤسستين، أن تصبح المدرسة جزءاً من آلية الدعاية للجنة البابوية لنشر العقيدة الكاثوليكية تحت غطاء البحث التأريخي والأركيولوجي، فضلاً عن تثبيت ولاء الأبحاث والدراسات لهذه المعتقدات.

على عكس ما يعتقده الكثيرون، لم يسفر انعقاد مجمع الفاتيكان عن تغييرات تذكر في النصف الثاني من القرن العشرين لا سيما في الستينيات، فالمدرسة التوراتية الفرنسية ما زالت تحتفظ كسابق عهدها بعلاقات وثيقة باللجنة البابوية، ولا تزال المراتب الوظيفية في المدرسة تخضع للجنة، التي تتولى تعيين الخريجين في المعاهد والمؤسسات الكاثوليكية، وترشيح المشاركين في الحلقات الدراسية والندوات، وأخيراً وليس آخراً، تقرير حجم ما ينشر من الوثائق حسب رؤية بعض الأعضاء من المستشارين التسعة عشر التابعين للجنة البابوية.

ينسحب الوضع نفسه على مدير المدرسة التوراتية، الأب جين لوك فسكو، Jean Luc Vesco، الذي خلف الراحل الأب ديفو، وأيضاً على جوسيه لوزو José Lozo، أحد محرري دورية المدرسة الرئيسيين، وعلى جوزيف فتزماير Joseph Fitzmyer، الذي قام بتصنيف الفهرس الرسمي لكثير من مخطوطات البحر الميت.

ينتقل بايجنت إلى التدقيق في خلفية الأب ديفو للاستدلال على أسباب تمتعه بذلك النفوذ القوي، ليجد أن أسمه ظهر لأول مرة عام ١٩٥٦ في قائمة مستشاري اللجنة البابوية، مما يعني أن تعيينه

قد تمّ في العام السابق، أي عام ١٩٥٥، واستمر مستشاراً حتى وفاته عام ١٩٧١.

ويعدّ عام ١٩٥٦، على وجه الخصوص، عاماً مثيراً بحق فيما يتعلق بلفائف قمران، فقد شهد فحص وثائق الكهف رقم ٤ وبيعها للفاتيكان، الذي سارع بتقديم الأموال اللازمة لشراء عدد من القطع المهمة في كانون الأول/ ديسمبر من العام نفسه. كما شهد ذلك العام فك اللفافة النحاسية، وبداية الخروج المثير للعالم البريطاني إليغرو إلى العلن، وحديثه عن المحتويات التي تتضمنها الوثائق. مما لفت انتباه المؤسسة الكاثوليكية إلى المشاكل المحدقة بها. فقد أدرك الفاتيكان حينها، وللمرة الأولى، نوعية الأخطار التي ستواجهها المؤسسة في حال ظهور تلك المواد في العلن. وباتت مؤسسة الكهنوت تشعر بضرورة تكوين سلطة مرجعية ما، تسيطر من خلالها على المخطوطات، وعلى ما قد تأتي به الأبحاث من نتائج يصعب تطويقها.

هنا يكمن المغزى، في عضوية جميع مديري المدرسة الفرنسية للدراسات التوراتية منذ عام ١٩٥٦، في اللجنة البابوية «للكتاب المقدس». فحتى منتصف التسعينيات كانت اللجنة تقوم بالإشراف على كل الأبحاث المتعلقة بالكتاب المقدس وبمراقبتها، وهي ما تزال مواظبة على إصدار مراسيمها الرسمية لتحديد الطريقة المثلى لتلقين الكتاب المقدس، وفقاً لإعلانها عام ١٩٠٧، الذي يفيد بأن موسى مؤلف الأسفار الخمسة الأولى في «العهد القديم»، الذي أعقبته بمرسوم جديد عام ١٩٠٩ يؤكد الدقة الحرفية للفصول الثلاثة الأولى من سفر التكوين!!

في ٢١ نيسان/أبريل ١٩٦٤، أصدرت اللجنة البابوية مرسوماً جديداً يخولها وحدها الهيمنة على الدراسات التوراتية عامة، وعلى الأبحاث المتعلقة بالحقيقة التاريخية للأناجيل خاصة. ينص المرسوم بوضوح لا لبس فيه على «ضرورة إبداء الشارح، في كل الأحوال، لروح الطاعة لسلطة تعاليم الكنيسة». ثم يمضي إلى أبعد من ذلك ليحث الباحثين التابعين لمؤسسات «الكتاب المقدس» على عدم انتهاك حرمة القوانين الصادرة عن اللجنة البابوية. وتجدر الإشارة إلى أن المرسوم ينسحب بطبيعة الحال على المدرسة التوراتية الفرنسية في القدس، الأمر الذي يفرض على الباحثين ضمنياً الالتزام بمذهب اللجنة في كتاباتهم، وفي ما يقومون بتدريسه، أياً كانت النتائج التي تقودهم إليها الأبحاث.

ترأس الكاردينال جوزيف راتزنجر اللجنة البابوية، وهو في الوقت نفسه رئيس مجمع عقيدة الإيمان، الذي يطلق عليه في الغرب «مجلس الشيوخ الروماني»، وهو قسم حديث العهد غير معروف للعامة، ويعتبر أقوى أقسام الفاتيكان، تمّ إنشاؤه في عام ١٩٦٥ وترجع أصوله إلى القرن الثالث عشر الميلادي، لكنه كان يُعرف رسمياً في عام ١٥٤٢ بالمكتب المقدس، أما قبل ذلك فكان يُعرف بمحكمة التفتيش المقدسة. ويعد الكاردينال الذي يترأس المجمع عادة ولي عهد الكرسي البابوي، ويلتحق بالمجمع قضاه يترأسهم مستشار، يعاونه مفوض وراهبان من الدومينيكان، ولهؤلاء جميعاً الحق في إجراء التحريات الخاصة، ومراقبة رجال الدين من أجل الحفاظ على وحدة المذهب، وتتخذ نشاطاتهم طابع السرية التامة.

قام البابا بولس السادس في عام ١٩٧١ بدمج اللجنة البابوية والمجمع، مع احتفاظ كل منهما باسمه الخاص، وجاء القرار في

الحقيقة معبّراً عن الواقع الفعلي، فأعمال الجهتين متداخلة في وجوه كثيرة، بما في ذلك العضوية.

يتسم أداء لجنة الكرادلة بالصرامة والحزم الشديدين، حيث يسود الاعتقاد بأن القمع هو السبيل الوحيد للحفاظ على الكنيسة ووحدة المذهب، ويعتبر كل من يخالف ذلك التوجه، أعمى ومضللاً، وقد دفع كثير من الباحثين اللامعين ثمناً باهظاً نتيجة لذلك التشدد، فقد تمّ إحباط بعضهم وطرد البعض الآخر، إثر تعرضه لعقوبة الحرمان.

على سبيل المثال وليس الحصر، اتهم المجمع الأب إدوارد Edward Shillebeek، في جامعة نجيمن بهولندا، بالهرطقة، لقيامه ببحث أصول بعض العقائد. وتمّ استدعاؤه للمحاكمة أمام المجمع لنشره كتاباً ناقش فيه موقف الكنيسة من الزواج، أبدى فيه تعاطفه مع ترسيم المرأة. والأهم من هذا وذاك، مطالبته الكنيسة بمسايرة العصر ومراعاة حاجات المؤمنين بدلاً من التمسك بالقوانين القاسية. استطاع الأب سكيلبك تخطي المحاكمة ولكنه ظل تحت الرقابة المشددة.

ما تعرض له عالِم اللاهوت السويسري، هانز كيونج، كان أكثر إيلاماً، فقد خضع للمحاكمة لمناقشته مسألة عصمة البابا في أحد كتبه، الذي جاء فيه قوله:

«لا معصوم سوى الله».

ثم مضى يوضح الفرق بين اللاهوت والتأريخ متهماً اللاهوت باستعراض قوته وفرض هيمنته على التاريخ!

عند انتخاب البابا جون بول الثاني، انتقد العالِم السويسري توجهه

الصارم، وكتب متسائلاً: «هل يسمح عالِم اللاهوت الكاثوليكي بتوجيه أسئلة محرجة؟

«هل جون بول الثاني متحرر بالفعل من عبادة الشخصية التي سكنت البابوات السابقين»؟

ثم ختم مقاله متمنياً ألا يقتصر اهتمام البابا على المذهب، الذي عادة ما يأتي على حساب رسالة الحرية التي جاء بها السيد المسيح(١٤).

لم يتأخر الرد على تساؤلات العالِم السويسري، فسرعان ما تمَّ فصله عن منصبه كرئيس لقسم اللاهوت في جامعة نجيمن. إضافة إلى وصمه بغير المؤهل لتدريس المذهب الكاثوليكي، وبأنه لم يعد من رجال اللاهوت، وفُرض عليه الحظر في الكتابة والنشر. ولم يجد كيونغ أمامه من سبيل سوى القول:

«لقد أدانني البابا لعدم تقبله نظريتي، دون أن يقرأ كتاباً واحداً من كتبي، فقد كان يرفض دائماً مقابلتي. فروما في الحقيقة لا تقبل الحوار، بل الخضوع فحسب».

منذ ستينيات هذا القرن، ورئيس مجمع الكرادلة راتزنجر معروف بانتقاداته الحادة للتغييرات التي لحقت بالكنيسة، فتعاليمها قد لطختها التساؤلات ومحاولات التشكيك، والأخطر، من وجهة نظره، اضطرارها لمجاراة العصر مما أثر سلباً في هيبتها. لم يجانب الكاردينال الصواب في رأيه هذا، وإن تغافل عن التعمق في الأسباب التي أودت تدريجياً بهيبة الكنيسة الكاثوليكية. فقد فاته ذكر أنها ولدت أصلاً من رحم سياسة الأمبراطورية الرومانية، حين وقع خيار الأمبراطور قسطنطين، في مطلع القرن الرابع، على تبني العقيدة المسيحية واحتواء أتباعها، بعد فشل الخيار القمعي على

مدار القرون الثلاثة الأولى. وبهذا أصبحت المسيحية الدين الرسمي للأمبراطورية، وغدت الكنيسة تحت رعاية الدولة وفي حمايتها، وكان عليها أن تدفع الثمن مقابل هذا التزاوج بينها وبين الدولة، عبر التوصل إلى نوع من الوفاق الديني، الذي جاء على حساب الروحانية السامية ومبادىء العدالة وحرية الإنسان التي جاء بها السيد المسيح. وبعد أن كان الأمبراطور مؤلهاً، أصبح خليفة الله في أرضه، نائباً عن المسيح في حكم رعيته، وأطلق قسطنطين على نفسه «رجل الله» و«مبعوث العناية الإلهية» ورفعه شيخ مؤرخي الكنيسة يوسابيوس إلى مصاف الرسل، جاعلاً منه الحواري الثالث عشر للسيد المسيح.

مهد قسطنطين بذلك الخيار بداية القيصرية البابوية، التي عمل خلفاؤه الأباطرة على تعميق جذورها حتى أصبحت تمثل، عند بداية القرن الثامن الميلادي، سمة بارزة من أهم سمات الحكم الروماني. اللافت في هذا الصدد، أن المسيحية لم تقض على الوثنية، بل تبنتها ليعود «العقل اليوناني المختصر إلى الحياة بصورة جديدة في لاهوت الكنيسة وطقوسها»[١٥].

وظل الأباطرة، نتيجة ذلك، يحملون اللقب الوثني «الكاهن الأعظم» باعتبار الأمبراطور الرئيس الديني الأعلى. وهذا بدوره يفسر جنوح الكنيسة الكاثوليكية إلى النزعة القانونية الجامدة حفاظاً على البنية الاجتماعية القائمة. من هذا المنطلق، جاء تحريض البابا أوريان الثاني، في القرن الحادي عشر للميلاد، على الحروب الصليبية تعبيراً عن دوره السياسي في آلية نظم الحكم الأوروبية القائمة.

وبالرغم من الضربات الموجعة التي لحقت بالكنيسة الكاثوليكية،

منذ القرن السادس عشر، لا سيما مع شيوع حركة الإصلاح الديني وظهور الكنائس البروتستانتية ـ اللوثرية ـ وانتشارها، ظلت مؤسسة الفاتيكان حريصة على التجسد السياسي في الساحة الدولية، مما جعلها عرضة للضغوط والمساومة وربما الابتزاز من القوى السياسية الكبرى، للوصول إلى قواسم مشتركة. ولا شك تندرج في هذا الإطار وثيقة تبرئة اليهود من دم السيد المسيح التي أصدرها الفاتيكان عام ١٩٦٥، والتي كان لها وقع الصاعقة على الكنيسة الشرقية[١٦].

جاءت الوثيقة نتيجة لنجاح الحركة الصهيونية في إثارة الشكوك حول البابا والمؤسسة التي يترأسها، ويكفي أن يحاسب البابا، الذي تنظر إليه الكنيسة الكاثوليكية على أنه معصوم من الخطأ!! كان لصدور وثيقة التبرئة هذه أثر ما بعده أثر في انتقاص ما بقي من هيبة المؤسسة الكاثوليكية، إثر قيامها بتعديل العقيدة التي تمتد جذورها إلى أيام المسيحية الأولى، في ما يتعلق بمسؤولية اليهود عن «قتل الرب».

هذا التردي، الناتج من دخول الفاتيكان العلني في خضم السياسة، وما يرافقها عادة من مساومة وابتزاز ومصالح مشتركة أدى إلى قدر من التسيب على مستوى العقيدة، فأصدر مجمع الكرادلة مسودة لوثيقة جديدة تحتوي على خلاصة مذهب الكنيسة الكاثوليكية، دان فيه «الطلاق والشذوذ الجنسي والعادة السرية والعلاقات الجنسية خارج إطار الزواج».. وتلك إدانة لا ترضى عنها كما هو معروف أعداد غفيرة في المجتمعات الغربية.

مضت المسودة خطوة أخرى إلى الأمام بصدد ترسيخ السلطة العالمية للكنيسة الكاثوليكية، فبعد إقرارها بمولد المسيح من السيدة

مريم العذراء وبعصمة البابا، أكدت أن الكنيسة وحدها المؤتمنة على شرح كلمات الرب.

سارع المجمع إلى إصدار وثيقة ثانية، في العام نفسه، موجهة على نحو خاص لرجال اللاهوت التابعين للمؤسسة الكاثوليكية، يوضح فيها واجبات رجال الدين والتزاماتهم، مؤكداً أن ليس لديهم الحق في معارضة تعاليم الكنيسة أو الخروج عليها «فالاستسلام إلى إغراء المعارضة، يدفع إلى الإلحاد بالروح القدس»، وأضافت الوثيقة أن الإنسان حر في تقبل تعاليم الكنيسة أو رفضها، ولكنه في حال تقبله تعاليمها، عليه ألا يجادل في هذه التعاليم أو يرفضها، فالحرية تتجلى في الخضوع(١٧).

تلك الوثيقة كانت آخر ما حررته الكنيسة الكاثوليكية في روما، من تعاليم إلى أتباعها. لكن ماذا عن أتباع الطوائف الأخرى؟!

سؤال أثاره الباحثون عند ظهور لفائف قمران وما فجرته من معطيات وخلافات، فمخطوطات البحر الميت ليست مواد دينية، ولكنها وثائق تاريخية وأركيولوجية على درجة بالغة الأهمية، تخص الإنسانية جمعاء، وليس الكنيسة الكاثوليكية وحدها. ولعلها، وهذا هو الأهم، تلقي الضوء على أحداث القرن الأول الميلادي الحافلة بالغموض.

يمضي الباحثون في تساؤلاتهم:

هل يمكن الثقة بالمدرسة الفرنسية للدراسات التوراتية، مع ما يصدره مجمع الكرادلة من تعاليم وإرشادات بين حين وآخر، حتى لو تمّ تحرير اللفائف من قبضتها بعد كل هذه السنين؟!

الباحثون مصرّون على حقهم في التفكير الجدي بمدى التزام المدرسة الفرنسية للدراسات التوراتية بالموضوعية الصرفة، طالما

ظلت اللجنة البابوية ومجمع الكرادلة تشكلان مرجعيتها العليا الأولى والأخيرة!

وأخيراً، أيمكن لمعاهد البحث العلمي المحترمة العمل في ظل التوتر والانقسام المحتمل الذي يصل أحياناً إلى حد العداء المتبادل؟!

الشك يظل قائماً، يحوم حول المدى الذي قد تذهب إليه المدرسة التوراتية بالفعل، إذا تمّ لها العثور على مواد في وثائق قمران قد تبدو غير ملائمة للعقيدة الكاثوليكية!

التساؤلات كثيرة حائرة تنتظر من يميط عنها اللثام.

الهوامش:

(١) صاحب كتاب خرائب الأمبراطورية، الذي ظهر عام ١٧٩١، ويتضمن الجهر بالشك المتصاعد لدى النخب الفكرية الأوروبية، لا سيما الألمانية، بأن السيد المسيح قد لا يكون شخصية حقيقية على الإطلاق.

(٢) ول ديورانت، **قصة الحضارة**، الجزء الثالث من المجلد الثالث، **قيصر والمسيح**، ترجمة محمد بدران، الإدارة الثقافية، جامعة الدول العربية، ١٩٥٥، ص ٢٠٣ - ٢٤٠.

(٣) Powell, P. 83.

(٤) بارثيا الاسم القديم لقطر يقع جنوب شرقي بحر قزوين ويعادل الآن القسم الشمالي من مقاطعة خراسان الإيرانية.

(٥) المصدر نفسه، ص ١٠٨

(٦) جاءت الحركة العلمانية الأوروبية ضمن ظروف القارة الموضوعية الخاصة، وعملت في جوهرها على فصل المؤسسة الدينية، الكنيسة، عن الدولة، أي عدم تدخل الكنيسة في سياسة الدولة وليس إلغاء الدين، فحرية العقيدة مكفولة للجميع.

(٧) Baigent and Leigh, P. 188.

(٨) ول ديورانت، الجزء الثالث من المجلد الثالث، صفحة ٣٩٤.

(٩) Baigent and Leigh, P.170.

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٧١.

(١١) المصدر نفسه، ص ١١٢.

(١٢) المصدر نفسه، ص ١٧٨.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٢٣٨.

(١٤) المصدر نفسه، ص ١٨١ - ١٩٦.

(١٥) ج. م. هسي، **العالم البيزنطي**، ترجمة وتقديم د. رأفت عبد الحميد (دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٤)، ص ٣٠.

(١٦) تعرض الفاتيكان لحملة شعواء قادتها الحركة الصهيونية بدعم من الكنائس البروتستانتية الأميركية خاصة، إثر اتهامها البابا بيوس الثاني عشر بالتواطؤ مع النازية والسكوت عن المذابح التي تعرض لها اليهود في الحرب العالمية الثانية، وقد نجحت الصهيونية في إثارة هذه العقدة وابتزاز الفاتيكان، خصوصاً أن بعض الكرادلة لم يوافقوا البابا حينها على سكوته. فقد رفض البابا إدانة العنصرية النازية، في العلن، لاعتباره أن ألمانيا النازية تشكل حاجزاً ضرورياً يفصل بين الشيوعية السوفياتية والغرب المسيحي، فضلاً عن خشيته من الانتقام النازي.

(١٧) Baigent and Leigh, P. 191.

الفصل السابع

البحث ما زال جارياً

منذ حوالى القرن وأعمال الحفر والتنقيب تطال كل أرض فلسطين ومحيطها الجغرافي، دون طائل يذكر، بحثاً عن أصول الإسرائيليين القدماء ومملكتهم الموحدة. ورغم الجهود المكثفة، لم يحصد الباحثون حتى اليوم سوى الفشل الذريع في العثور على أي أثر يصدق مرويات «العهد القديم» عن التاريخ الغابر. المثير حقاً، أن ما حملته معطيات الأركيولوجيا جاء مخيباً للآمال، يحمل أخباراً سيئة لمؤرخي التوراة لم تكن في حسابهم، دفعت أخيراً الباحث الأميركي ليمك ن. ب. Lemch N.P.، إلى التعليق يائساً «إن الهوة كبيرة بين النص الثابت والأحداث، بما يكفي لعدم تقبلنا التراث ـ «العهدم القديم» ـ مصدراً أولياً لإعادة بناء الماضي.

مع ذلك، لم يتوقف البحث، فالبعض لا يزال مصراً على إثبات مصداقية مرويات «العهد القديم» مهما كلف الأمر!

رغم هذا العناد وتلك المكابرة، بدأت الدراسات المتعلقة بتأريخ التوراة وتتبع مروياتها في فلسطين تشهد على استحياء منذ أواخر

السبعينيات تراجعاً حذراً، عما سبق ترسيخه في أذهان الغربيين والعالم بالتبعية من توفيقات وتلفيقات على امتداد القرن العشرين. فقد بدأت الأبحاث الحديثة أخيراً تأخذ اتجاهاً جديداً، بعد أن أدت التلفيقات «الموضوعية» دورها في تجسيد المشروع الصهيوني على أرض فلسطين، وعملت كل ما يسعها لإضفاء ما يلزم من شرعية على قيام دولة إسرائيل المعاصرة في قلب المنطقة العربية.

كانت البداية في أواخر القرن الماضي، حين سعى الباحثون، من جانبي المحيط الأطلسي، في البحث الدؤوب، من دون كلل، عن أصول الإسرائيليين القدماء ومملكتهم الموحدة، ومحاولة وضعها في سياق تاريخ الشرق الأدنى القديم في مرحلته الانتقالية، من العصر البرونزي إلى العصر الحديدي. بعبارة أخرى، تركزت جهود الباحثين على إيجاد مجال في تاريخ الشرق القديم يسمح لمرويات «العهد القديم» بالحلول فيه والهيمنة عليه.

تمخضت المحاولات المكثفة عن تصور جاء به الباحث الأميركي المعروف وليم أولبرايت، مفاده أن وجود إسرائيل المهيمن على فلسطين حدث حوالى ١٢٠٠ ق.م. انتشرت مقولة أولبرايت كالنار في الهشيم، وتقبلها الغرب على الفور وكأنها وحي يُوحى من دون فحص أو مراجعة. إثر تفشي تصورات أولبرايت، اشتدت عمليات البحث والتنقيب تنبش أرض فلسطين وجوارها الجغرافي كلما واتتها الفرص والنتيجة واحدة دائماً لم تتغير، لا شيء يشير في السجل الأركيولوجي إلى وجود كيان سياسي يدعى إسرائيل، في الفترة الواقعة ما بين أواخر القرن الثالث عشر والقرن العاشر قبل الميلاد!! الأمر الذي علّق عليه الباحث ليمك صراحة بقوله:

«أهم واجباتنا الآن الاعتراف بجهلنا».

لم يتورع ليمك عن طرح صورة ساخرة عما يجري عادة في دوائر الأبحاث التاريخية جاء فيها:

«إن المحصلة واحدة لم تتغير، رواية تظهر عن تاريخ إسرائيل قبل المملكة الموحدة سرعان ما يتم تعديلها إثر ظهور معطيات أركيولوجية جديدة، أو رؤى اجتماعية مغايرة لمسرح الأحداث لقد تطلب الأمر من الناحية العملية ضرورة خلق تصور ما لتاريخ إسرائيل القديم، ما يلبث أن يتم التراجع عنه بعد نقاش مضنٍ، يفند التصور السابق المطروح مبرهناً على استحالته في ضوء المعلومات المستجدة»[١].

يشارك عدد متزايد من الباحثين ليمك في ملاحظاته تلك، فالمكابرة العنيدة على مواصلة تقييم إسرائيل كظاهرة سياسية قديمة وفقاً لمرويات «العهد القديم» لم تفض إلى شيء، كما أن تصيد الأركيولوجيين لأي دليل يثبت وجود إسرائيل، لمجرد تغير بسيط في شكل الجرار أو في أسلوب البناء، لم يعد يجدي نفعاً، بل إنه أدى إلى تشوش تاريخ الشرق الأدنى وخلط أوراقه ببعضها البعض. ولهذا يطالب ليمك، لتجاوز هذه المشكلة المزمنة، إقصاء التراث الاستيطاني للتوراة، والاكتفاء باعتباره مجرد تصور لماض بعيد، تشكل في أواخر عهد المملكة الموحدة وربما بعد السبي البابلي، لأن «الأركيولوجيا والنص لا يمكن إخضاعهما لصيغة واحدة».. ومن ثم الانطلاق بمعزل عن «العهد القديم» إلى دراسة موضوعية شاملة لتاريخ فلسطين بكافة نواحيه الاجتماعية، الاقتصادية، الثقافية والسياسية، بعد تعمد إغفاله طوال القرن الحالي.

لا تخلو مطالبة ليمك والكثيرين غيره من الإشارة ضمناً إلى الإحباط العام الذي أصاب الباحثين من العثور في فلسطين على

إسرائيل القديمة، كما تعكس أيضاً ضيقهم من اللف والدوران في حلقة مفرغة، الأمر الذي يعني في جوهره أن كل ما صدر من دراسات توفيقية أو تلفيقية، بغرض تصديق مرويات التوراة، ليس سوى محض خيال تزامنت خصوبته مع ظهور الصهيونية في الغرب، في أواخر القرن التاسع عشر، مع بداية مساعيها الحثيثة لإنشاء دولتها القومية في فلسطين.

كان على باحثي الغرب منذ بداية القرن العشرين العثور على أصول الإسرائيليين القدماء، وتحديد موقع مملكتهم الموحدة. فالحضارة الغربية من وجهة نظرهم تدين بأسرها لإسرائيل القديمة، التي كان لها فضل السبق في تقديم النموذج الأول للدولة القومية، التي تعد قمة التطور السياسي. وقد أمكن لها تحقيق ذلك السبق بفضل نوعية متميزة من البشر، امتلكت الذكاء والإرادة لبلوغ تلك المرحلة المتطورة النهائية في ذلك الزمن السحيق! يقول الباحث دوثون م. Dothen M.، في هذا الصدد:

«إن الإسرائيليين المجموعة الإثنية الوحيدة التي نجحت في تكوين دولة على هذه الأرض، من دون أن تكون تابعة لأمبراطورية عظمى، أو منتمية إلى مزيج من الدول ـ المدن، ذلك النمط الذي ساد الفترة الكنعانية، فإسرائيل القديمة تمثل ذروة التطور السياسي والحضاري الذي حلَّ محل البدائية»[٢].

يأتي هذا القول، في وقت اعترف فيه معظم الأركيولوجيين بأن الثقافة «الكنعانية» كانت الأكثر تقدماً بما لا يقارن. لكنه الفكر القومي المهيمن على العقل الأوروبي منذ القرن الثامن عشر، الذي أصبح عبر تطوره في القرنين اللاحقين، القوة السياسية الأساسية في تشكيل المجتمعات الغربية، والمعيار الذي اعتمده الباحثون لخلق

صورة خاصة للإسرائيليين القدماء، تميزهم عن بقية شعوب الشرق القديم، وتضفي الشرعية على إقامة دولة إسرائيل الحالية، لتساندها في ادعائها بامتلاك الماضي البعيد وحقها التاريخي في استعادته! تحقيقاً لهذا الهدف، انهمك الباحثون ومؤرخو «العهد القديم» في الغرب، في دراسة ظهور الإسرائيليين القدماء على مسرح الأحداث البعيدة، ومحاولة وضعهم في سياقها الزمني، فتلك المرحلة حسب رأي غالبيتهم، تشكل اللحظة الفاصلة في تاريخ إسرائيل والعالم في آن معاً!

هذا التوجه الجغرافي/ التاريخي في البحث، يمثل في جوهره تراجعاً عن الدراسات النقدية التأريخية «للعهد القديم»، التي ابتدرها غي ويلهاوزن منذ حوالى القرن عبر فرضيته المعروفة بـ «الفرضية الوثائقية». فقد خرج ويلهاوزن بعد عقدين من الدراسة والبحث، بنتيجة مؤداها، أن تشكيل الأسفار الخمسة الأولى في «العهد القديم» تمّ من أربعة مصادر مستقلة، وأن تاريخها يرجع إلى الفترة ما بين العهد الملكي القديم وعصور ما بعد النفي، الأمر الذي يعني في مجمله أن الأسفار الخمسة الأولى ليست سوى وثائق أدبية تعكس معرفة مؤلفيها وعالمهم، مما يبطل الاعتماد عليها تاريخياً في المراحل السابقة لتأريخ الدولة الموحدة[٣].

على الرغم من اتجاه ويلهاوزن الحاسم نحو التأريخية الموضوعية، لإعادة بناء تاريخ الديانة اليهودية، إلاّ أن فرضياته لم تكن جذرية بالقدر الكافي. فقد ترافقت أعمال ويلهاوزن مع مرحلة تكوين الدولة الألمانية الحديثة، مما يعني أنه عايش مراحل تأسيسها والتيارات الفكرية المواكبة لها، الأمر الذي أثّر بعمق في نظرته وفي مفهوم مدرسة التأريخ الجغرسياسي لفكر الدولة في ألمانيا، على حد

سواء. انعكس هذا المفهوم، بدوره، حسب رأي سيمند ر. Semend, R.، على دراسة إسرائيل القديمة وكيفية تكوينها حتى يومنا هذا. فقد اتجه الباحثون إلى إسقاط مفهوم الدولة القومية الحديثة على الإسرائيليين القدماء، لتعزيز فكرة نشوء وتطور دولة إسرائيل المعاصرة. أسهمت هذه العوامل مجتمعة، حسب قول كيث ويتلام Keith W. Whitelam، وفي مقدمها العامل الديني، في دراسة تاريخ الإسرائيليين القدماء عبر أساليب معقدة وصيغ وهمية، وعرقلت ولا تزال محاولات دراسة تاريخ فلسطين القديم بصورة موضوعية ومستقلة(٤).

أدى نفي ويلهاوزن لتأريخ مرويات الأسفار الخمسة، التي تحتوي على قصص الخلق والآباء الجوالين وتعاليم موسى، إلى إثارة خلافات حادة حول مقولته التأريخية، قلما خلت منها الأبحاث والدراسات اللاحقة. وشهدت عشرينيات القرن العشرين، بدعم من التيار المحافظ، عودة إلى العقلية اللاهوتية الضيقة قادت إلى تحول كتابة تاريخ إسرائيل القديم من موقع النظرة النقدية لمرويات «العهد القديم» إلى الركون التام لمصداقيتها واعتبارها مصدراً تأريخياً أولياً لا يشق له غبار لدراسة تاريخ إسرائيل القديم(٥).

بدأت منذ ذلك الحين، وعلى امتداد عقود القرن الحالي، عملية طويلة معقدة للتوفيق والتلفيق عبر القراءة الخاطئة للنقوش والتطويع التعسفي لمعطيات الأركيولوجيا المتدفقة في الشرق القديم، تعزيزاً لإعادة بناء دولة إسرائيل المعاصرة. ولهذا شملت المؤسسات الدينية العالمية وكليات اللاهوت والتاريخ في الغرب تلك الجهود برعايتها الفائقة، وبذلت الغالي والنفيس في سبيل نشر هذا التوجه التوفيقي على صعيد العالم، الأمر الذي كان له أعمق الأثر على الباحثين في

مجالي «العهد القديم» وتاريخ إسرائيل، إلى درجة أصبح الإفلات من قبضتها أمراً متعذراً لا تحمد عقباه.

كانت الأرض في الحقيقة ممهدة منذ القرن السادس عشر لتقبل هذا التوجه، حيث تضافرت جهود النهضة الأوروبية مع حركة الإصلاح الديني لتسفر عن ظهور المسيحية اليهودية، أو ما يعرف الآن بالأصولية المسيحية. فقد وضع المذهب البروتستانتي، نتاج حركة الإصلاح، حجر الأساس لهذا التوجه، حين تسلح منذ ظهوره بفكرة العودة إلى الأصول، أي إلى النصوص المقدسة، داعياً المؤمنين للرجوع إلى الكتاب المقدس «العهد القديم» باعتباره مصدر المسيحية ومنبعها الأول. وبينما كان المذهب الكاثوليكي التقليدي، حتى عصر الإصلاح، يأخذ بالتفسيرات المجازية، عمدت البروتستانتية إلى فهم النصوص بمدلولاتها البسيطة الواضحة باعتبارها «العهد القديم» معصوماً من الخطأ.. لتصبح سلطته بالتالي فوق سلطة البابا والكنيسة، إبان محاولتها التحرر من الهيمنة البابوية[٦].

قصارى القول، أصبح الكتاب المقدس يمثل السلطة العليا للإيمان والسلوك معاً، وصارت قصص التوراة واللغة العبرية جزءاً من الثقافة الأوروبية الحديثة. وغدت فلسطين، نتيجة شغف الجماهير البروتستانتية بمرويات التوراة، على صغر مساحتها وضآلة ثرواتها الطبيعية، بؤرة اهتمام الغرب بدعوى الدراسة الموضوعية، تماشياً مع الاعتقاد بأنها كانت مسرح أحداث تلك اللحظة الفاصلة في تاريخ الغرب. وهكذا هيمنت الادعاءات الدينية بضرورة فهم جغرافية فلسطين وتاريخها القديم لتعلقهما بنصوص «العهد القديم»، وأصبحت هذه المزاعم بالتالي صاحبة الكلمة الفصل في تحديد

التخوم والمواقع، اتباعاً لخطوات أسباط إسرائيل الاثني عشر. واشتد البحث للعثور على أصول الدولة القومية الأولى، والتعرف إلى رجالها العظام وثقافتها، لأنها بمثابة النواة الأولى لحضارة الغرب!

تزعم هذا التوجه ورسَّمه العالِم الأميركي أولبرايت عبر مقولته «يمكن توضيح تاريخ فلسطين وجغرافيتها من خلال البحث الأركيولوجي، لكن ذلك لا يمكنه تفسير المعجزة الأساسية في إيمان إسرائيل، الذي يبقى عاملاً متفرداً في تاريخ العالم... لكن بإمكان الأركيولوجيا المساعدة على عقلنة المعجزة وجعلها مقبولة لدى الإنسان الفطن، الذي تقتصر رؤيته للعالِم على الناحية المادية». ويستطرد أولبرايت موضحاً سبب حماسته الشديدة لأعمال الحفر في فلسطين بقوله:

«... إن معظم «العهد القديم» نتاج أرض فلسطين والكتّاب الإسرائيليين، وهي أيضاً مهد الأحداث التي شكلت «العهد الجديد» اليوناني، التي أخذت مجراها في البقعة المقدسة نفسها»[٧].

ما لبثت مقولات أولبرايت أن شقت طريقها إلى أعمال الباحثين، كل يسعى للبرهنة عليها. يقول نوث م. Noth, M.، مردداً آراء أستاذه:

«كان التاريخ دائماً حقيقياً وأصيلاً، متكيفاً مع طبيعة الأرض التي شهدت أحداثه، ولهذا تعد معرفة جغرافية فلسطين أحد المتطلبات الأساسية للوصول إلى فهم ملائم لتاريخ إسرائيل»[٨].

ويلتقط راني أر Rainey R. منه الخيط في عام ١٩٨٨، ليكرر التوجه نفسه بلهجة أكثر وضوحاً، بقوله:

«تكمن جذور الأبحاث الغزيرة الجارية اليوم على أرض التوراة، في

الاهتمام التاريخي والديني الموروث في التراث اليهودي/ المسيحي»[٩].

هذا غيض من فيض لما ألقاه اللاهوت من ظلال كثيفة على دراسة التاريخ، بكل ما يتضمنه ذلك من مؤشرات سياسية وثقافية، بالرغم من ادعاء القائمين عليها بالموضوعية المجردة. وهكذا اتسمت جهود الباحثين المكثفة في الغرب بالذاتية المحضة، إبان محاولاتهم الحثيثة للعثور على أصول الإسرائيليين القدماء وبقايا المملكة الموحدة، والهيكل الثاني، بما يتفق ومرويات «العهد القديم» والأهداف السياسية المعاصرة.

يأتي ألبرخت آلت. .Alt, A، في ألمانيا ووبليم أولبرايت في الولايات المتحدة الأميركية، في مقدمة هؤلاء الباحثين، فقد استطاعا معاً التجذر بعمق في مسار الدراسات التوراتية وتاريخ إسرائيل لفترة تربو على نصف قرن. واكتسبا نفوذاً واسعاً في الأوساط العلمية، جعل تحديهما مسألة مستعصية غير مأمونة الجانب، قد تقيم الدنيا ولا تقعدها، وتفضي إلى اتهام صاحبها بالجهل واللاعقلانية. انطلق الباحثان من أرضية الأصول التاريخية لمرويات التوراة، والاقتناع الكامل بإمكانية الاستدلال على أحداثها الأصلية من الناحية النظرية، بواسطة المرويات القديمة نفسها. وكان الهدف المتوخى إعادة تشكيل تاريخ إسرائيل القديم بناء على الفهم النقدي، والتوفيق بين دراسات التوراة ومعطيات الأركيولوجيا، ولهذا احتل التاريخ الشفهي القديم للنص التوراتي، أي مرحلة الآباء الجوالين[١٠] والخروج، أهمية بالغة عبر جهودهما في إعادة بناء تاريخ إسرائيل قبل عصر المملكة الموحدة.

أسست أعمال الباحث الألماني آلت، التي نشرت عام ١٩٣٠،

برنامج عمل استشرافي أثّر بعمق في أجيال الباحثين اللاحقة، باعتباره يطرح الصياغة الكلاسيكية المثلى لنشوء إسرائيل القديمة في فلسطين، وقد استعان آلت بالنقوش المسمارية والمصرية القديمة للتغلب على عجز التوراة العبرانية عن تقديم بداية استيطان الإسرائيليين القدماء في فلسطين. مضى آلت يفحص الظروف السابقة واللاحقة للاستيطان الإسرائيلي لمعرفة مدى تأثيرها على تاريخ فلسطين، مرتكزاً على سلبية الدور الذي لعبته الدول ـ المدن الصغيرة المتناثرة على الساحل الفلسطيني، في تحديد ومعرفة الجغرافية السياسية للبلاد. فقد كان لفراعنة مصر نفوذ واسع من خلال شيوخ هذه المدن ـ الدول، مما أدى إلى تشرذم فلسطين إلى نظام من الدول ـ المدن الصغيرة على امتداد الساحل، بحيث لا يتعدى نفوذ الواحدة منها مدينتها والقرى المحيطة بها. وقد فشلت هذه الدول ـ المدن في الاندماج في وحدة واحدة، رغم انهيار الأمبراطوريتين المصرية والآشورية، وما أعقبه من اضطراب وفوضى شاملة، فيما نجحت القبائل الإسرائيلية المتفوقة التي تسللت من الجنوب القاحل إلى المرتفعات الداخلية في فلسطين المحاذية للأراضي الزراعية الكثيفة السكان، في التطور نحو الاندماج بسبب تميزها الثقافي.

عمد آلت لتحديد ذلك التفوق، إلى افتراض تناقض إسرائيل/ كنعان، كي يبني تحليلاً يعتمد على المظاهر الإسرائيلية لمرويات التوراة، مثل إله الآباء والأحكام الشرعية الحاسمة في «العهد القديم» المتمثلة في الوصايا العشر، وبين التقاليد المشتركة لإسرائيل وشعوب الشرق القديم، مثل عبادة بعل وقوانين الزراعة، معتبراً إياها كنعانية الأصل. طرح آلت انطلاقاً من هذا التحليل فرضية وجود تناقض حاد بين الكنعانية والإسرائيلية.

فإسرائيل كانت قبل تسللها السلمي واستيطانها المناطق المرتفعة ذات ثقافة بدوية تقوم على الرعي وعلى نظام حيوي ليبرالي في بنيته الداخلية، ينطوي على بعض الفاعلية البدائية للطبيعة القومية، في حين كان نظام الدول ـ المدن «الكنعاني» يقوم على الزراعة والملكية وتعدد الآلهة(١١).

لم يخبرنا آلت عن ماهية الفاعلية البدائية الدالة على الطبيعة القومية، بل انتقل مباشرة إلى نتيجة مؤداها، أن استمرار القبائل الإسرائيلية في بلد متحضر جعل تطورها نحو الفاعلية القومية أمراً حتمياً. وهذا تحليل يتناقض في حد ذاته مع الدراسات الحديثة، التي ترى أن العبور إلى عتبة القومية ليس أمراً حتمياً. ولكن معظم باحثي الغرب يجدون تطور الإسرائيليين في الزمن البعيد نحو الدولة القومية أمراً حتمياً حسبما رأى آلت.

اتجه آلت انطلاقاً من فرضية التناقض هذه، إلى تقسيم فلسطين من الناحية الجيو/ سياسية، إلى الأراضي الساحلية المنخفضة والمرتفعات الجبلية في الداخل، التي استوطنها الإسرائيليون الأوائل وطوروا بها ثقافتهم المتقدمة، ليقرر أن «وجود وحدة سياسية متميزة في الجبال شمال أورشليم أمر لا تخطئه العين»، الأمر الذي يدل على تفوقهم. أما الفلسطينيون القادمون من بحر إيجه، فيكمن خطؤهم بالاختلاط بسكان الساحل «الكنعانيين»، وتبني نظامهم السياسي، الدول ـ المدن، مما تسبب بفشلهم في تطوير شكل جديد للحياة السياسية.

يُعتبر إدراك إسرائيل لتميزها من وجهة نظر آلت لحظة فاصلة، في تاريخ إسرائيل والمنطقة، قادت للمرة الأولى إلى تطور الشعور القومي، وظهور الدولة الموحدة التي اكتسحت غرب فلسطين

وشمال شرق الأردن ودمرت نظام الدول ـ المدن، الذي ساد لفترة طويلة، لتصبح المملكة، في وقت قصير نسبياً، قوة عبر إقليمية وصاحبة نفوذ واسع في عهدي داود وسليمان، بدرجة لم تتوفر للمنطقة من قبل. «فقد تمَّ دمج كل فلسطين في نظام معقد من المناطق التابعة يرتكز على الرجال العظام»(١٢).

وهكذا تقرر وصول المنطقة إلى ذروة التطور السياسي والحضاري بظهور إسرائيل الذي تمثل في دولة إثنية قومية، تتمتع بهوية أيديولوجية ودينية منفصلة وبكيان مستقل!

ثم طرح آلت فرضية جديدة مفادها، أن التغيير السياسي يتحقق بالتدخل الخارجي فحسب، مسقطاً من اعتباره العوامل الداخلية الموروثة في تاريخ المنطقة، ليصل في النهاية إلى أن الإسرائيليين القدماء امتلكوا وحدهم الحافز لتطوير نمط سياسي جديد ومغاير. لم يجانب الباحث البريطاني ويتلام الصواب حين لاحظ بدقة تزامن أعمال آلت وأبحاثه مع بداية المشروع الصهيوني ليشكل بذلك مسلمات تقبلها ساسة الغرب، خصوصاً البريطانيين، تقضي بعدم قدرة الفلسطينيين العرب على بناء نمط جديد لحياتهم السياسية، وبأن المهاجرين اليهود هم القادرون وحدهم على ملء الفراغ السياسي الناجم عن انتهاء الانتداب البريطاني في فلسطين(١٣).

ينتقد مندنهال جي. إي. Mendenhall, G. E، بدوره، فكرة الدولة الإسرائيلية المتفردة، مشيراً إلى أن مملكة داود وسليمان كانت مزيجاً مركباً من التراث الثقافي لكل من كنعان وشمال شرق الأردن والأناضول وملامح قليلة من مصر، إضافة إلى حدوث

تراجع عن تعاليم موسى في أقل من جيلين، سعياً من أتباعه لاحتكار السلطة السياسية. وهذا أمر دانه أنبياء التوراة العبرية وانتقدوه بألسنة حادة، فالبيروقراطية التي ورثها داود لم تكن «جذورها في أرض إسرائيل القديمة»، بل في الأنظمة المقفرة للكنعانيين في العصر البرونزي(١٤).

يأتي قول مندنهال هذا رغم اعتراف المؤرخين المنصفين بأن هؤلاء الكنعانيين «المقفرين» أمدوا مملكة داود بالنخبة المفكرة والمتعلمة التي أدارت دفة الدولة بجدارة، لكن مندنهال يرى رغم ذلك، أنهم أفسدوا المملكة الإسرائيلية بآلهتهم المتعددة وفسادهم الإداري!!

رفض العالم الأميركي توماس ل. طومبسون Thompson, T. L.، فرضية آلت، القائلة بالتناقض الحاد بين الكنعانية والإسرائيلية، ولتقسيمه البلاد إلى سهل ساحلي ومرتفعات داخلية، ومضى يفند فرضية آلت بدقة:

«فكلا التعبيرين مستمد من السجلات التوراتية والتاريخية، ولكل منهما معان مختلفة.. إن استخدام تعبير «إسرائيلي» لوصف المرتفعات الوسطى أمر مضلل، لأنه لا يلائم أي منطقة في فلسطين قبل العصر الحديدي الثاني. ولا يمكن لأحد تأكيد وجود إسرائيل التوراة بالاستناد إلى لوحة مرنفتاح وحدها، لقد أساء معظم العاملين في الأركيولوجيا ودراسات الشرق القديم استعمال اصطلاح «كنعاني»، إنه مجرد اسم قبلي، فحسب، تعود أصوله إلى مرويات العهد القديم، خلال مرحلة ما بعد النفي، بهدف محاربة عبادة بعل. فإطلاق مصطلح «كنعاني» على ثقافة الدول ـ المدن في السهول والوديان الرئيسة، أمر مثير أيضاً للاعتراض، ليس لأنه تعسفي في تحديداته فحسب، بل أيضاً لافتراضه وجود وحدة إثنية

ـ سياسية ومادية، لا تتوافق مع أي حقيقة نعرفها. وإذا كان التمييز بين كنعاني وإسرائيلي غير ممكن عندما نتحدث عن التقاليد الثقافية المختلفة في العصر الحديدي الأول، فهل لدينا بالفعل أسس كافية لاعتبار هذه الفترة متميزة لظهور إسرائيل؟!

«وهل تتعلق مسألة أصول إسرائيل بحوادث الانتقال من العصر البرونزي الأخير إلى العصر الحديدي الأول، أم أن ذلك الانتقال عامل من عوامل عدة، تتعلق بالتاريخ القديم لشعب شكل بعض أحفاده في وقت لاحق، جزءاً من إسرائيل[١٥]»؟

وفق الروايات التاريخية المعتمدة على مرويات التوراة، أسس شاؤول «المملكة الوحدة» حوالى ١٠٢٠ق.م، التي استمرت خلال حكم داود وابنه سليمان، وتطورت إلى ما يمكن وصفه «بالعصر الذهبي». وبالنظر لتناسق صورة نواة الاستيطان الثابتة، وتوافقها مع استيطان لم يصل ذروته حتى مضي مدة من العصر الحديدي الثاني، فيحسن للمرء أن يرى أن مملكة إسرائيل لم تكن قد وجدت بعد. بالإضافة إلى ذلك، هناك القليل مما يمكن اعتباره أساساً لتأكيد وجود دولة يهودا في الجنوب، فلم يكن سكان يهودا مستقرين بشكل كافٍ يسمح لهم بإقامة وحدة سياسية إقليمية شاملة[١٦].

إن المفاهيم التوراتية من وجهة نظر طومبسون «مفاهيم أدبية يمكن ملاحظتها في الأسلوب القصصي للعهد القديم. ولهذا السبب، فالتعامل هنا ليس مع ديانات وقوانين، بل مع نماذج أدبية قد تعكس أو لا تعكس آلهة وقوانين في عالم الحقيقة. فالتاريخ يقوم على الأبحاث ويتعلق بالطبيعة وليس بما وراء الطبيعة، والبيّنات الخارجية ليست ترفاً وحسب، بل ضرورة لا يمكن بدونها كتابة تاريخ إسرائيل»[١٧].

الاستيطان عبر الغزو والإخضاع

تولى وليم أولبرايت على الجانب المواجه للمحيط الأطلسي تقديم بناء مختلف لظهور الإسرائيليين في فلسطين، متتبعاً روايات التوراة خطوة خطوة في حديثها عن الغزو وإخضاع الكنعانيين. فقد ركز أولبرايت على معطيات الأركيولوجيا، يقرؤها كيف يشاء وفق رؤية مسبقة، مع الاستعانة الحرفية بالعهد القديم، وذلك لدعم روايتها في قيادة يشوع لحملة عسكرية غزت فلسطين وأخضعتها بعد تدمير عدد من المراكز المدنية الكنعانية. كان لدراسة أولبرايت، ولا يزال، أثر عميق أيضاً على الطلبة والباحثين، الذين يحتل معظمهم الآن مراكز مرموقة في الجامعات ومعاهد البحث الأميركية، مما يعرقل انطلاق الباحثين الجدد إلى آفاق أرحب وأغوار أعمق.

نشر أولبرايت تصوره لتاريخ إسرائيل القديم عام ١٩٤٠، وأعيدت طباعته ثلاث مرات. وقد تضمنت طبعته، الصادرة عام ١٩٥٧، فقرة مثيرة للانتباه توضح صراحة أن طباعة الكتاب قد تمت بالتعاون مع دار أنكور للنشر ومنظمة الكتاب المقدس. وهي منظمة تكرس جهودها لدراسة ونشر الأبحاث والدراسات المتعلقة «بالعهد القديم»، ثم تعمل على توزيعها على المراكز المتخصصة والعامة، إمعاناً في ترسيخ هذه المفاهيم والتصورات في المجتمع الأميركي خاصة. وقد حملت الطبعة الأخيرة تصريحاً لأولبرايت يؤكد فيه، أن العمل ليس بحاجة إلى مراجعة نتائجه بصدد تاريخ إسرائيل، رغم تدفق الاكتشافات الأركيولوجية منذ عام ١٩٤٠، بل على العكس تماماً، فقد زادته اقتناعاً بسلامة تصوره[١٨]!!

تتضح كتابات أولبرايت بالعنصرية المكشوفة، وتفيض بالتعصب والغطرسة، فالعالم بالنسبة إليه يُصنف وفقاً للنشاط الفكري

الإنساني الذي وصل ذروته بفضل الديانات اليهودية. وتقوم فلسفة أولبرايت التاريخية على فكرة التطور العضوي، حيث يعبر الذكاء والإرادة عن نفسيهما في التاريخ والطبيعة معاً. لذلك فمن الطبيعي أن تحل إسرائيل الأرقى محل السكان الأصليين. ولا يجد أولبرايت أية غضاضة في وقوع المذابح وحملات الإبادة: «فمن حسن طالع التوحيد ومستقبله أن الغزاة الإسرائيليين كانوا غلاظاً أجلافاً وأصحاب إرادة لا ترحم ليحلوا محل الكنعانيين الوثنيين، عبدة الخصوبة، ليعيدوا إلى الحياة صفاءها عبر ممارستهم البسيطة للرعي، وبواسطة التزامهم بتعاليم موسى.. ليمهدوا بذلك الطريق للرومان العظام كي يسحقوا هؤلاء الكنعانيين الأفارقة أو القرطاجيين، كما يُسمون أنفسهم، فالرومان بقوانينهم الصارمة ووثنيتهم المهذبة يذكروننا من عدة أوجه بإسرائيل الأولى»[١٩].

هكذا وصلت العنصرية بأولبرايت إلى حد استساغته هلاك السكان الأصليين البدائيين وإبادتهم، لصالح الغزاة الأكثر رقياً وتقدماً. ويحاول التخفيف من وطأة موقفه وغلاظته بضرب الأمثلة بما فعله الأوروبيون في الأميركيتين وأوستراليا:

«إنه أمر يدعو للأسف ولكنه يظل حتمياً.. فالتقدم الروحي لا يمكن إنجازه إلاّ من خلال النكبات والآلام، فبعد التطهير العميق المواكب للثورات العظيمة، يمكن الوصول إلى مستوى جديد لأن الأنظمة الاجتماعية المختلفة والرؤى الروحية الأعمق، تأتي عبر الألم الذهني والمادي المترامن مع إزاحة القديم وولادة الجديد».

بعبارة أوضح، يغلف أولبرايت مفاهيمه العنصرية المتطرفة بدعاوى التقدم، الذي لا يتأتى من وجهة نظره، إلاّ بفضل القوى الاستعمارية، حتى لو وصل الأمر إلى حدّ الإبادة.

وجد الباحث الأميركي ضالته في تصوره لتاريخ إسرائيل القديم، في الربط المباشر بين مراكز مدنية مدمرة، في نهاية العصر البرونزي، وبين غزو القبائل الإسرائيلية واستيطانها المرتفعات الداخلية في فلسطين، لمجرد اختلاف طفيف في شكل الجرار والمباني! وجاءت رؤيته تصديقاً حرفياً لسفر يوشع في غزو فلسطين والاستيلاء عليها بالضربة القاضية الأولى. للمفارقة، إن المعطيات الأركيولوجية الحديثة تناقض تماماً ما ابتدعه أولبرايت لإسرائيل القديمة، فالجرار والمباني التي استند إليها في تصوره منتشرة في كافة أرجاء البلاد، فضلاً عن فشل الحفريات الكبرى في البرهنة على تدمير الإسرائيليين لمدن كنعانية في مواقع عاي وأريحا، فالأولى لم يُستدل أصلاً على موقعها في فلسطين، والثانية لم يعثر بها على أي أثر يعود إلى تلك الفترة، إضافة إلى أن المدينة كانت قد أُخليت من بداية القرن ١٥ق.م إلى حوالى القرن ١١ق.م، مما يضعف حجج أولبرايت تماماً[٢٠].

تناول مندنهال، تلميذ أولبرايت، الكثير من فرضيات أُستاذه وفرضيات الباحث الألماني آلت وقام بتقويضها، استناداً إلى أن الباحثين المرموقين اخترعا إسرائيل قديمة، قياساً على إسرائيل الحالية، بافتراضهما معاً أن تغييرات الماضي البعيد يمكن تفسيرها على ضوء الهجرات الإثنية الأخرى، رغم أن الفكر القومي والعنصري لم يكن موجوداً أو فاعلاً في الماضي لأسباب عملية وموضوعية. فالذي حدث، في رأي مندنهال، لا يعدو ثورة خلاصية ضد نظام الدول ـ المدن الكنعاني بقيادة العنصر الخارجي، أي الإسرائيليين[٢١].

هذا تغير ملحوظ في منحى الدراسات التاريخية، وإن ليس جذرياً

بعد بالقدر الكافي، فما زال الإسرائيليون يشكلون العامل الأساسي في اتجاه التقدم.

قام طومبسون أخيراً بهدم فرضيات أولبرايت من أساسها، لاستنادها إلى اعتقاد مسبق بأن التوراة سرد تاريخي للماضي، وبالتالي تعمد الباحث الأميركي إيجاد مكان لموضعة أحداثها في سياق الشرق القديم. فالمرويات التاريخية في العهد القديم، ليست من وجهة نظر طومبسون، سوى شظايا ذكريات مكتوبة أو شفهية، تعكس بقايا دور خيالي غير مترابط مع الماضي. ثم يمضي طومبسون مبرهناً على أن العائدين من السبي «لم يكونوا إسرائيليين، فقد قام أشعيا بتقديم قورش بوصفه «مسيح يهوه» ومعيد الشعب التقليدي إلى الأرض...». فالتعامل هنا، كما يدلل طومبسون، ليس مع إعادة منفيين إلى موطنهم، بل مع إعادة ديانة قديمة منسية أو إعادة بناء معبد. ويثبت طومبسون أن وضع سكان فلسطين الأصليين كان يتسم دائماً بالجمع بين الزراعة والرعي والاستقرار في الوديان الرئيسية، والاعتماد على البداوة الرعوية في مناطق السهول، مثل مرتفعات النقب الأوسط. فقد شهدت المرحلة ٣٥٠٠ ـ ٢٣٥٠ق.م تقدماً زراعياً ونمواً سكانياً ملحوظاً، نتيجة لحقبة ماطرة أعقبها جفاف حاد امتد في الفترة ما بين ٢٣٥٠ ـ ١٩٥٠ق.م أدى إلى اضطراب النمط الزراعي وانخفاض حاد في عدد السكان وانتشارهم في مناطق السهول في شرق الأردن والنقب الأوسط، فذلك كان السبب الحقيقي في الدمار المفاجىء لمدن وقرى العصر البرونزي القديم، وليس غزو قبائل إسرائيلية بدوية.

أما بالنسبة إلى مملكة شاؤول وداود فذلك أمر، كما يبرهن

طومبسون، غير ثابت، بل يختصر المسار التاريخي ويتسم بالخيالية المفرطة، شأن التأكيدات السابقة بأن تاريخ إسرائيل يبدأ بفترة الآباء الجوالين. فالمراجعة الحديثة لرسائل تل العمارنة تشير إلى «أناس فقدوا وضعهم المعتاد وعاشوا مشردين، مرتزقة وعمالة مأجورة ولصوصاً، ولم يكونوا فلاحين أو رعاة، كما أنهم ليسوا بدواً أو مستقرين».

أما القول بأنهم قبائل فرت من القمع الأمبريالي المصري إلى المناطق الجبلية، ليشكلوا نواة إسرائيل، فقول يفتقر إلى البيّنات التاريخية، بل العكس هو الصحيح. فالوجود المصري ساعد على استقرار الكثير من المدن في الوديان الوسطى والسهل الساحلي، خلال الاضطراب الذي ساد في أواخر العصر البرونزي، فضلاً عن أن بيانات رسائل تل العمارنة جاءت في وقت يسبق كثيراً أي انهيار ملحوظ في مدن العصر البرونزي، كما أنها أتت قبل قرون من انحسار النفوذ المصري في فلسطين(٢٢).

المدهش حقاً، في ذلك الكم الهائل من الدراسات والأبحاث، أنها لم تأخذ في اعتبارها المتطلبات الذاتية لبناء قوة عبر إقليمية. فوفقاً لدراسة بول كينيدي Kennedy, P.، هناك علاقة مباشرة ووثيقة بين الثروة والقوة. فالهيمنة تكون دائماً إلى جانب القوى صاحبة القاعدة الإنتاجية المزدهرة والموقع الاستراتيجي المتميز. وفلسطين كانت دائماً ذات قاعدة اقتصادية زراعية محدودة تعتمد على بلاد الرافدين ومصر القديمة، ناهيك عن العامل الديموغرافي الذي يصب في صالح الحضارتين النهريتين، فتلك سمات ذاتية قاصرة عاجزة عن إقامة قوة عبر إقليمية في فلسطين. ويعجب الباحث البريطاني ويتلام، بدوره، لإغفال مؤرخي التوراة وتجاهلهم لهذين العاملين

البالغي الأهمية في محاولاتهم إظهار «المملكة الموحدة» في فلسطين كقوة عبر ـ إقليمية في سياق تاريخ الشرق القديم. أما التذرع بأن «العهد القديم» أول وثيقة تاريخية مدوّنة، وما قبلها يدخل في مرحلة ما قبل التاريخ، فقول لا يعتد به، إذ ليس هناك مرحلة تاريخية وأخرى ما قبل التاريخ، بل هو تاريخ متصل يتطلب قراءة مختلفة تنسجم ومعطيات الأركيولوجيا[٢٣].

مع ذلك، بقيت تصورات الدراسات التوراتية ثابتة حتى أواخر السبعينيات، فالدراسات التوراتية وفقاً لفيليب دايفز Philip Davies، «مجرد إعادة لصياغة التفسير التقليدي اليهودي لقصص التوراة، مع تغليفها بقشرة برّاقة من العقلانية. ولا تعدو انعكاساً للتجربة المعاصرة فحسب».. ويمضي الباحث البريطاني متعجباً من السماح لبقعة جد صغيرة كهذه بالهيمنة على دراسات الشرق القديم، ويطالب بدراسة «يهودا» و«السامرة» كجزء من تاريخ فلسطين، فإسرائيل القديمة، وفقاً للباحث الأميركي طومبسون، ليست سوى «صرح ذهني بُني على قراءة خاطئة متحيزة للتراث التوراتي، ومنفصلة تماماً عن الحقيقة التاريخية»[٢٤].

حمل باحث أميركي آخر، جاريبني جي. Garbine, G.، على تصورات مؤرخي «العهد القديم» بالقول، إن إخراج الشرق القديم وحضارته من غياهب النسيان، يكشف الجذور البعيدة للحضارة الغربية.. فقبل باريس وروما وأثينا وأورشليم كانت هناك بابل وأراك، غير أن غاربيني يعتبر إسرائيل القديمة حلقة الوصل، بين حضارات الشرق القديم وأوروبا[٢٥].

لم يطاول الانهيار دراسات مرحلة ما قبل المملكة المتحدة فحسب، بل امتد إلى الإجماع الشائع حول ظهورها إتباعاً لمرويات العهد

القديم. فقد تزايدت المطالبة بدراسة تاريخ فلسطين بمعزل عن التوراة، بسبب انعدام الأدلة الأركيولوجية المؤيدة لوجود قوة عبر إقليمية في فلسطين. الأمر الذي دفع إي ليش Leach, E، إلى الإشارة بأن التوراة العبرية نص مقدس، وليست مصدراً تاريخياً يعكس بالضرورة حقيقة الماضي:

«إنني شخصياً أجدها غير قابلة للتصديق، فلا يوجد دليل أركيولوجي واحد يثبت وجود هؤلاء الأبطال، أو يبرهن على أي حدث ارتبط بهم، ولولا قدسية النص لرفضت تأريخها بالكامل»[٢٦].

باحث آخر كين كينيون .Kenyon, K، أدلى برأيه معلقاً:

«عاشت المملكة المتحدة ثلاثة أرباع قرن، وكانت تلك هي المرة الوحيدة التي حظي بها اليهود بقوة سياسية ذات شأن في غرب آسيا، قامت بتدوين أمجادها في العهد القديم، مما أثر بعمق على الفكر والطرح اليهوديين، ولكن الأدلة الأركيولوجية لهذه الفترة هزيلة للغاية»[٢٧].

يحمل طومبسون أيضاً، بدوره، أخباراً سيئة لمؤرخي التوراة الذين لم يستطيعوا إثبات التواصل بين المجموعة المسماة «إسرائيل» وبين مجموعة السكان شبه الإثنية في دولة السامرة في القرن التاسع ق.م، المعروفة بإسرائيل، فيضيف متحدياً:

«لا يبدو غريباً، أن التقرير المصري عن حملة شيشنق، في أواخر القرن التاسع ق.م، لا يعكس أو يذكر شيئاً عن المدن وطرق التجارة في فلسطين. فلا يهودا أو إسرائيل أو أورشليم، استرعت اهتمام شيشنق في محاولاته لإخضاع فلسطين. فأورشليم لم تكن تعدو، آنذاك، قرية جبلية صغيرة. إن المعلومات المتوافرة، في تلك

الحقبة «لا تؤيد وجود إسرائيل أو يهودا في ذلك التاريخ المبكر. فأورشليم لم تصبح عاصمة إقليمية سوى في الحقبة الفارسية»[٢٨].

مع ذلك، فالبحث عن إسرائيل «العهد القديم» والمملكة الموحدة لا يزال جارياً على أشده، رغم عدم توافر أي أثر مادي تاريخي يؤكد أن فلسطين كانت مسرحاً لأحداث التوراة!

أين البداية؟

من الأمور المتفق عليها أن كتابة أسفار ما يعرف «بالعهد القديم» قد تمت في الفترة ما بين القرن السابع إلى القرن الثالث قبل الميلاد، حين قام بجمعها وتدوينها عدد من الأحبار والكتبة عبر فترات متقطعة وفي مناطق متفرقة. وقد دُون معظمها أثناء النفي البابلي، ولم تسلم من التنقيح والتغيير على امتداد الفترات اللاحقة. بينما اكتسبت الشرائع اليهودية بمجملها صيغتها النهائية، في أوائل القرن السادس الميلادي.

غير أن أصول هذه الكتابات مفقود وما يوجد حالياً مجرد نسخ. ولا تزال تساؤلات العلامة ول ديورانت حول كيفية كتابة أسفار «العهد القديم»، متى وأين، حائرة تنتظر إجابة موضوعية دقيقة، على الرغم من الخمسين ألف مجلد التي صدرت بصدد هذه التساؤلات. ولا يختلف الباحثون أيضاً على وجود اختلافات كثيرة في نسخ «العهد القديم» بفعل الزمن، الأمر الذي استوجب إيجاد نص قياسي تم إنجازه في الفترة الواقعة ما بين القرنين السابع والثامن الميلاديين، اعتماداً على النسخة السبعينية[٢٩]. غير أن النص الأصلي لهذه الترجمة مفقود أيضاً، ولهذا يمكن القول، بأن إسقاط جغرافية التوراة على التاريخ القديم، رغم عدم مراعاتها لتسلسل الأحداث الزمني، أدى إلى التخبط والعشوائية في دراسة حقبة

تاريخية شاع فيها تغيير الأسماء الجغرافية والقبلية على مدى قرون طويلة.

تجدر الإشارة هنا، إلى النقطة التي أثارها الباحث العربي فرج الله صالح ديب، بأن اليونان لم يذكروا قط مصطلح «كنعان»، بدءاً بهوميروس وانتهاءً بالمؤرخ هيرودتس ٤٧٤ق.م، الذي طاف المنطقة وتحدث عن فلسطين وصور ـ تير ـ والفينيقيين ومصر وجزر اليونان والفرس، دون أن يأتي على ذكر «كنعان» أو «الكنعانيين»! ويضيف الباحث، نقلاً عن ساباتيو موسكاتي، أن لفظي عبران وكنعان ليسا سوى لفظين وصفيين، يدلان على أسلوبين مختلفين للعيش، فالعابر هو البدوي الجوال فيما الكانع المزارع المستقر.. وهذا لا يمنع وجود عشائر تحمل اسميهما. فالمصطلحان «عبران وكنعان» يدلان على تناقض في أسلوب الحياة، يتصل بالجغرافيا وصراعهما، تماماً مثل صراع بدوي/ حضري، قحطان/ عدنان، وأعرابي/ نبطي[٣٠].

تشهد الدراسات التاريخية في الغرب الآن توجهاً مغايراً على نحو تدريجي. فقد بدأت تعتبر الآباء الجوالين ـ إبراهيم، إسحق، يعقوب وأبناءه الاثني عشر ـ شخصيات حقيقة استناداً إلى المعطيات الأركيولوجية الحديثة، بعد أن ساد اعتبارهم طويلاً شخوصاً أسطورية[٣١]. وبات من المؤكد أنهم لم يكونوا يعبدون «يهوه» إله اليهود، بل الله العلي، كما كانوا يتحدثون لغة الجزيرة الأم، العربية القديمة، قبل تفرعها إلى لهجات عديدة مما يعد تراجعاً عن الانطباع الذي تعكسه القراءة السطحية لـ«العهد القديم» التي استقت الكثير من رواياتها من الحضارة البابلية، كما استمدت الكثير من شرائعها من شريعة حمورابي الشهيرة. ناهيك عن الأساطير والقصص التي

تعود إلى أصول سومرية وآشورية ومصرية. فالغرب لم يعد يتجاهل الدين الكبير الذي يدين به الإسرائيليون للفينيقيين في فلسطين، الذين كانوا أكثر تقدماً وأرفع حضارة على الصعد الثقافية والصناعية، حتى إن الكتابة العبرية قد تطورت عن الكتابة الفينيقية.

الطريق إلى قمران

لم تكن جماعة قمران، بطبيعة الحال، في نهاية الألفية الأولى قبل الميلاد، على دراية بالمعلومات الحديثة المتوافرة حالياً، لذلك يتطلب فهم الجماعة وتفهُّم ما خلفته من شروحات على أسفار «العهد القديم» فضلاً عن كتاباتها الخاصة، عرضاً موجزاً للظروف الموضوعية التي أحاطت بنشأتها. كما يتوجب أيضاً رؤيتها بناء على رؤيتها الذاتية.

بداية لقد تجاهل المؤرخون القدامى الحديث بشكل مفصل عن جماعة قمران، واكتفوا بالإشارة إليها كمجموعة هامشية ليست لها أهمية تذكر، رغم الظروف الاجتماعية والسياسية المعقدة السائدة في ذلك الوقت. وجاءت أخيراً لفائف قمران لتكشف رؤية الجماعة لنفسها في خضم أحداث تلك المرحلة على نحو مخالف تماماً، فالتاريخ كما هو معروف يكتبه عادة المنتصرون.

استناداً إلى وثائق قمران، فالجماعة تعتقد بأنها المركز المحوري للعالم، والنخبة الدينية الوحيدة المؤهلة للقيام بدور طليعي في مجريات الأحداث التي ستغير التاريخ بعمق، إيذاناً بميلاد عهد جديد بعد أن وصل نظام العالم إلى نهايته. فاليهود، شعب الله المختار المرتبط بالعهد، لم يعودوا في غالبيتهم مخلصين لبنود ذلك العهد. بل هم أشبعوه انتهاكاً وخرقاً. لذلك فعلى جماعة قمران وحدها «تمهد الطريق في البرية»، لقدوم العالِم الجديد، عبر أبنائها

«أبناء النور» الذين سيواجهون «أبناء الظلام»، فالجماعة هي الفرقة الوحيدة القادرة على فهم الشرائع ووصايا الأنبياء والكتابات الدينية على نحو دقيق، إلى جانب التعليق على الأحداث الجارية واستشراف المستقبل، يساعدها في ذلك مكتبتها العامرة بنسخ التوراة، فضلاً عن كتاباتها المعبرة عن رؤيتها الخاصة لما يدور من أحداث.

تميّزت قرون ما بعد السبي البابلي بسلطة الكهنة، فقد تحددت خلال الحقبة الفارسية وظيفة الكهنوت وسُنت لها الشرائع، وترسخت السلطة الدينية في قبضة كهنة الهيكل في أورشليم. ومن المتعذر تحديد أصول الكهنة، حيث يفترض أنهم اللاويون الذين ترجع أصولهم إلى هارون، كاهن يهوه، فهؤلاء وحدهم العارفون بأسرار الطقوس، وقد تطوروا بمرور الوقت إلى طبقة دينية ترأس الاحتفالات الدينية مقابل مردود مادي.

أياً كانت أصول الكهنة، فقد كان المطلب في مرحلة ما بعد السبي حصر الكهانة في سبط لاوي، أي سلالة هارون، أو ربما وفقاً لحزقيال، في سلالة صادوق الذي رشّمه سليمان رئيساً لكهنة الهيكل. والحقيقة أن مسألة العلاقة بين الكهنة وأصولهم كانت ولا تزال غامضة ومحل خلاف. ولجماعة قمران رؤيتها الخاصة المعارضة لكهنة أورشليم.

لم يكن الإسرائيليون القدماء حسب «العهد القديم» يتبعون التوحيد بالمعنى المطلق، بل عبدوا آلهة متعددة، خصوصاً آلهة الخصوبة والنماء، كما انخرطوا في طقوس العربدة الجنسية في بساتين عشتروت. غير أنهم اعتبروا يهوه «الإله الغيور»، «إله الجند» إلهاً خاصاً بهم وحدهم. فقد تميز تاريخ الإسرائيليين، وفقاً لمرويات

«العهد القديم» بالصراع بين الوثنية والتوحيد طوال سبعمائة عام حتى الزمن البابلي. ومن الواضح أنهم كانوا في حالة سيولة لحوالى القرن، يخضعون لشيوخ محليين، يُعرفون بالقضاة، يأخذ كل منهم على عاتقه قيادة جماعته في مواجهة الخصوم. ثم تبين الإسرائيليون مع الوقت عدم كفاءة ذلك الأسلوب، وتطلعوا إلى تشكيل دفاع موحد أكثر استمرارية وأشد مناعة. ويضيف «العهد القديم» أنهم طلبوا من آخر قضاتهم، صموئيل، تعيين ملك لهم أسوة بالممالك المجاورة، فاختار لهم شاؤول. وبدأوا يُضفون عليه القداسة، ويهللون له ملوحين بـ «مسيح يهوه». ثم خلفه داود المحبوب، الأعظم شهرة، وتبعه سليمان الحكيم، الذي تفادى الحروب بالزواج من بنات الحكّام المجاورين. وهو الذي قام ببناء هيكل ليهوه، جاء أقرب إلى مذبح ملكي. لكن البذخ والإسراف في بلاط سليمان ترك أثراً سلبياً ووضعا البلاد على شفا جرف من العصيان والتمرد قرب وفاته. وسرعان ما انقسمت المملكة بالفعل بعد وفاته إلى يهودا في الجنوب وإسرائيل في الشمال، وتميزت الفترة اللاحقة بالاضطراب والاقتتال الداخلي.

الوضع في القرن الأخير من الحقبة الفارسية لا يزال غير معروف، لكن المؤكد أن الاضطراب كان سائداً في طول البلاد وعرضها، نتيجة للصراع الطويل بين فارس ومصر، إلى حد دفع أعداداً كبيرة من اليهود إلى الهجرة إلى أقصى جنوب مصر، في جزيرة الفيلة، حيث قام هؤلاء ببناء معبد ليهوه، دمره الكهنة المصريون عام ٤١٠ق.م. واستمرت فلسطين مسرحاً لصراع عنيف مع حلول العهد الإغريقي (١٣٢ - ٦٤ق.م)، تارة يأخذها البطالسة في مصر، وأخرى السلوقيون في سورية[٣٢].

في عهد أنطيوخس الثالث استردت البلاد بعض عافيتها، ومُنحت منطقة يهودا حكماً ذاتياً كهنوتياً. وما لبث الوضع أن تردى في عهد أنطيوخس الرابع، الذي قام بتدمير الهيكل ونهب خزائنه، محولاً إياه إلى عبادة زيوس بمساعدة اثنين من الكهنة المرتدين، وأمر بتقديم الخنازير إلى المذبح، وإنزال عقوبة الإعدام بكل من يحترم شعيرة السبت.

قصارى القول، تحولت أورشليم إلى مدينة يونانية.

أدى اشتداد القمع الديني إلى ثورة المكابيين - الحشمونيين - ونجح هؤلاء في السيطرة على أورشليم، حيث نصّب يوناثان نفسه كاهناً أكبر، متولياً بذلك السلطتين الدينية والزمنية. أعقبه شقيقه سمعان الذي قضى صريعاً، فخلفه ابنه يوحنا هيركانس (١٣٥ - ١٠٦ق.م)، الذي شهد عصره فتوراً للحماسة الدينية. وتسلم الصدوقيون الكهانة وتركز اهتمامهم على متاع الدنيا. ثم تولى ألكسندر يوناثان، الذي قام بصلب ثمانمائة رجل من خصومه، واستبدلت أرملته حين وفاتها الفريسيين بالصدوقيين خلافاً لسياسة زوجها الراحل. حاول ابنها الأصغر أرسطو بولس، خلع شقيقه الأكبر هيركانس، فلجأ أصدقاء الأخير إلى ممثل روما طلباً للمساعدة، فالرومان حينها كانوا القوة المهيمنة على العالم، ولكنهم دعموا الشقيق الأصغر، ثم ما لبثوا أن خلعوه ونّصبوا هيركانس مكانه من دون أن يسمحوا له بممارسة الحكم كملك. استمر التخبط والاضطراب حتى دخل القائد الروماني بومبي أورشليم عام ٦٣ق.م. وسط هذا الخضم المتلاطم من التآمر والصراع على السلطة والاستعانة بالقوى الخارجية، خرجت جماعة قمران إلى حيز الوجود، لمواجهة الفساد المتفشي والانحراف الذي انغمس فيه

الجميع، حكّاماً وكهنة سواء بسواء، سعياً وراء المناصب وما تجلبه عادة من الخيرات، مندون أن يعبأوا بتعاليم الدين وشرائعه، إلى حد الاستعانة بالقوى الأجنبية إذا اقتضت الضرورة.

تدبرت جماعة قمران روايات الآباء واعتبرت الأسلاف أبطالاً، اختارهم اللّه لإنجاب شعب العهد، غير أن لديها رؤيتها الخاصة للنصوص الدينية، وشروحاً تغاير ما يرتئيه كهنة الهيكل في أورشليم. فقد احتلت الوصايا العشر وشريعة موسى المكانة الأكبر قداسة لديها، فأضفت أهمية كبيرة على هارون شقيق موسى، باعتباره كاهن يهوه. وتوقعت الجماعة ظهور مخلِّصين اثنين، أحدهما من نسل داود، سوف يقضي على الشر وينشر العدل في الأرض. وهكذا احتل داود الحبيب موقعاً أثيراً لديها، فهو الذي تحقق على يديه العصر الذهبي لإسرائيل، فضلاً عن الصفات الأخرى التي تحلى بها، فهو البطل والشاعر المقرَّب من يهوه الذي غفر له كل أخطائه، ولذلك لقبته الجماعة بـ «مسيح اللّه».

التزمت الجماعة بشريعة موسى على نحو صارم، كما اهتمت بالأنبياء والنبوءات، ربما كردة فعل لفساد كهنة الهيكل وانحرافهم، كما أضفت أهمية خاصة على إيليا الذي كان نذيراً ومبشراً بقدوم الأنبياء في نهاية الربع الأول من القرن التاسع قبل الميلاد. ولعل اهتمام جماعة قمران بإيليا يرجع إلى تشابه الظروف الموضوعية في كلتا المرحلتين، حيث اتخذ أخاب حاكم المملكة الشمالية، آنذاك، إيزابيل ابنة ملك صيدا زوجة له، فأدخلت عبادة بعل، ونصبت له مذبحاً في السامرة. ولم يعترض الإسرائيليون، حينها، فقد بدا الأمر مألوفاً لديهم.. وانخرطوا في عبادته حتى العظم إلى أن جاءهم القحط فتذكروا يهوه إله الجند.. وخرج إيليا يدعوهم إلى نبذ عبادة

بعل، ونجح في ذبح أربعمائة وخمسين كاهناً لـ «بعل» ووضع نهاية سريعة لإيزابيل.

تبدت للشعب هنا، وللمرة الأولى، حقوق يهوه باعتباره الإله الوحيد الجدير بالعبادة، وتجدر الإشارة إلى أن كتابة «العهد القديم»، بما فيها أسفار موسى الخمسة، قد بدأت بعد إيليا بقرون طويلة، من دون مراعاة لترتيب الأحداث الزمني، ناهيك عن الإسقاطات المضافة، فتلك سمة عامة في الكتابات الدينية القديمة بما في ذلك «العهد القديم». لهذا، يمكن إدراك سبب إعجاب جماعة قمران بإيليا، فقد عزوا إليه إحياء صبي ميت، وزعموا أنه رُفع إلى السماء «بعجلة من نار... فطلع إيليا إلى السماء بالعاصفة.. ورفع أليشع رداء إيليا الذي وقع منه»[٣٣].

وعجلة النار هذه علامة محببة إلى يهوه، ففي أوقات الكرب تتصاعد عادة توقعات الخلاص. وبات القوم يعتقدون بعودة إيليا إلى الأرض ليمهد الطريق لقدوم المسيح. نبوءة اعتقد يوحنا المعمدان فيما بعد أنها تتجسد بيسوع الذي اعتقد هو الآخر، بدوره، بانطباقها على يوحنا، وفقاً لما أوردته الأناجيل.

كانت المنطقة، في ذلك العهد، تغص بمذابح لآلهة متعددة إلى جانب يهوه، انكب الإسرائيليون على عبادتها حتى القرن الثامن قبل الميلاد. الأمر الذي أدانه الأنبياء، وأخذوا يدعون إلى عبادة إله الخلق جميعاً واتباع تعاليمه، والعمل على نشر الرحمة والعدل، منذرين بأن عصيان أوامره يجلب استياءه ويستوجب عقابه. خاطب الأنبياء الجميع ولم يقصروا دعوتهم على الإسرائيليين.

أسفرت دعوة الأنبياء هذه عن ظهور معضلتين كان لهما أعمق الأثر لدى جماعة قمران في نهاية الألفية الأولى قبل الميلاد: الأولى

تتصل بـ يهوه وسبب تخليه عن شعبه المختار، الذي بات يلقى العناء على أيدي جيرانه الأقوياء، وترتبط المعضلة الثانية بالأولى، وتتمحور في علاقة إله إسرائيل ببقية بني الإنسان ولا سيما الأبرار منهم، فإذا كان رب الخلق جميعاً، فما هو الاتجاه المتوجب على الشعب المختار اتخاذه إزاءهم؟!

أجاب الأنبياء على المعضلة الأولى بأن معاناة الشعب المختار ترجع إلى آثامه وارتداده، إلى درجة انخرط فيها كهنة الهيكل في أورشليم والسامرة في تلك الموبقات، فهم أيضاً لم يسلموا منها، حيث انصبّ اهتمامهم على الثراء والأبهة دون مبالاة بتعاليم الدين ونشر العدل بين الناس. أدان الأنبياء الكهنة والحكّام معاً محذرين من العواقب الوخيمة. فهذا عاموس ينذر القوم، في القرن الثامن قبل الميلاد بقوله:

«إني أكره أعيادكم، إني أزدريها وإن قربتم لي محروقات وهداياكم فلن أرتضي..»(٣٤).

ويكرر ميخا بعد قرن هذه الإدانة نفسها حين يقول:

«اسمعوا هذا يا رؤساء بيت يعقوب وقضاة بيت إسرائيل الذين يكرهون الحق، ويعوجون كل مستقيم، الذين يبنون صهيون بالدماء، وأورشليم بالظلم، إن رؤساءها يقضون بالرشوة وكهنتها يعملون بالأجرة..»(٣٥).

أما بالنسبة إلى المعضلة الثانية فقال الأنبياء، إن يهوه إله الشعوب الأخرى، وعلى إسرائيل حمل الرسالة إليهم. مضى الأنبياء انطلاقاً من هذا الفهم يخاطبون الشعوب الأخرى، إضافة إلى الإسرائيليين، بقولهم:

«قد بيّن لك أيها الإنسان ما الطيب وما يطلبه الرب منك، إلاّ أن

تصنع بالحق وتحب الرحمة وأن تتضع (تتواضع) في سلوكك مع إلهك»[٣٦].

ذهبت تحذيرات الأنبياء أدراج الرياح، ووقع ما كانوا ينذرون به. سقطت عاصمة المملكة الشمالية[٣٧] في يد الآشوريين، وتغيرت الطبيعة السكانية نتيجة سياسة التهجير وخلط الشعوب التي اتبعها كل من البابليين والفرس على نطاق واسع. ولم يعد هناك ذكر للأنبياء[٣٨].

استطاعت المملكة الجنوبية تخطي الغزو الآشوري، وبقيت متأرجحة بين مصر وبابل، بفضل دبلوماسية ناجحة ساهم في وضعها الأنبياء، غير أنها سقطت عام ٥٨٦ق.م، في يد البابليين، بعد أن رفض ملكها حزقيال اتباع نصيحة أرميا بعدم الركون إلى الدعم المصري والثقة به، داعياً إلى الانصياع إلى بابل ودفع الجزية. مع دخول قورش، أمبراطور فارس، إلى بابل عام ٥٣٨ق.م، بدأت الحقبة الفارسية، وبدأ معها مصطلح اليهود في الظهور نسبة إلى المرتفعات الجنوبية، التي صارت حينها تدعى يهودا. فقد سمحت فارس، وفقاً لمرويات التوراة، بعودة من أراد العودة من بابل مع إتاحة قدر من الحكم الذاتي لهم تحت السيادة الفارسية. شهدت تلك المرحلة تجاهل دعوات الأنبياء والانغلاق على الذات والانهماك في بناء الهيكل وعبادة يهوه، مع التشديد على الخصوصية اليهودية والسير قدماً نحو ثيوقراطية كهنوتية. وعاد الالتزام الصارم بشعيرة السبت وتحريم الزواج المختلط.

وهكذا، تميزت القرون اللاحقة بالحرفية والجمود، وتزايدت سيطرة طبقة الكهنة واشتد الصراع والتنافس بينهم من أجل الوصول إلى مراتب النفوذ. ووصل الأمر بهم إلى حد عقد تحالفات مع الحكام

المحليين والقوى الأجنبية، اليونانية والرومانية، التي سيطرت على البلاد بالتتابع، حرصاً منهم على استمرار مصالحهم الخاصة وتدعيماً لها.

أفرزت تلك الحقبة، قرب نهاية الألفية الأولى قبل الميلاد، بما حفلت به من فساد وانحراف، طبقة الكهنة الفريسيين في هيكل أورشليم من ناحية، وجماعة قمران المناهضة في منطقة البحر الميت من ناحية أخرى، ليبدأ صراع من نوع جديد وعلى أرضية مختلفة. صراع ظل مجهولاً، حتى تدفقت كهوف قمران بوثائقها، بعد قرابة ألفي عام، مطالبة بفتح صفحات الماضي وإعادة النظر فيما سطّره المؤرخون واستقر عليه المفهوم الشائع.

الهوامش:

(١) Keith W. Whitelam. (The Invention of Ancient Israel, the Silencing Palestinian History, Routladge, London, 1996). P.114.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩.

(٣) توماس ل. طومبسون، **التاريخ القديم الإسرائيلي**، ترجمة صالح علي سرداح (دار نيسان للنشر والتوزيع، بيروت عام ١٩٩٥)، ص ٣٠.

(٤) W. Whitelam, P. 21.

(٥) طومبسون، ص ٣٠.

(٦) جورجي كنعان، **الأصولية المسيحية في نصف الكرة الغربي**، (نيسان للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٥)، ص ١٥ ـ ٢٠.

(٧) W. Whitelam, P.45.

(٨) المصدر نفسه، ص ٤٣.

(٩) المصدر نفسه، ص ٥١.

(١٠) الآباء الروحانيون «للعبرانيين» خصوصاً المجموعة المكونة من إبراهيم وإسحق ويعقوب وأبنائه الاثني عشر، وجدير بالذكر أن مفردتي عبري وعبراني لم تكونا مستعملتين

حتى القرن الخامس عشر للميلاد للدلالة على اليهود في روسيا، فهي صياغة متأخرة من قبل حاخامات فلسطين.

(١١) طومبسون، ص ٥٤.

(١٢) W. Whitelam, P. 135.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٧٠.

(١٤) المصدر نفسه، ص ١٥٤.

(١٥) طومبسون، ص ٧١.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٢٠١.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٢٠.

(١٨) W. Whitelam, P. 80.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٨٨.

(٢٠) فرج الله صالح ديب، كذبة السامية وحقيقة الفينيقية (دار نوفل، بيروت، ١٩٩٨)، ص ٢٤.

(٢١) W. Whitelam, P. 118.

(٢٢) طومبسون، ص ١٤٦.

(٢٣) W. Whitelam, P. 169-127.

(٢٤) المصدر نفسه، ص ٢٢٤.

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٥٩.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ١٦٢.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ١٦٥.

(٢٨) طومبسون، ص ١٦١.

(٢٩) الترجمة اليونانية للتوراة العبرية، تمت في الإسكندرية حوالى ٢٥٠ق.م، وقام بإعدادها إثنان وسبعون عالماً، ولهذا عرفت بالسبعينية.

(٣٠) ديب، ص ٣٠.

(٣١) Powell, P. 106. أُكتشف لوح في خرائب بابل يحمل اسم أبراهام أو أبراما ويشير إلى أنه دفع الضرائب المستحقة عليه، وهذا يوضح أقله أن الاسم كان معروفاً في عهد إبراهيم. أنظر **الأحجار تتكلم**، جون آلدر، ترجمة د. عزت زكي صاري، دار التأليف والنشر، الكنيسة الأسقفية بالقاهرة.

(٣٢) بعد هزيمة الفرس، دخل الإسكندر الأكبر أورشليم عام ٣٣٣ق.م. ومنح يهودا حكماً

ذاتياً وأنشأ مدينة الإسكندرية في مصر تخليداً لاسمه، وقد أقامت بها جالية يهودية كبيرة. بعد وفاة الإسكندر عام ٣٢٣ق.م. اقتسم قادته العسكريون الأمبراطورية، البطالسة في مصر، والسلوقيون في سورية، وبقيت يهودا ساحة حرب بينهما. نجح بطليموس الأول في عام ٣٠١ق.م. في الاستيلاء على فلسطين، ومع انحلال البطالسة أصبحت يهودا محمية رومانية عام ١٩٨ق.م. ثم ولاية رومانية عام ٣٠ق.م.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٩٢.

(٣٤) عاموس (٥/٢١ ـ ٢٥).

(٣٥) ميخا (٣/٩ ـ ١٣).

(٣٦) Powell, P. 85.

(٣٧) إن تسمية المملكة الشمالية بإسرائيل من ابتداع كتبة التوراة في وقت متأخر، فمصطلح إسرائيل أو بني إسرائيل لم يرد في الكتابات الآشورية، برغم الحروب المتواصلة للآشوريين، وما سمي في التوراة «بمملكة إسرائيل» سماها الآشوريون «بيت عمري» في ألواحهم على كثرتها.

(٣٨) لم يكن ما يعرف بالسبي البابلي سياسة تهجير عقابية، فقد كان الآشوريون والبابليون والفرس لاحقاً، يحمون المهجرين ويمنحونهم أرضاً ودعماً حتى في مواجهة السكان المحليين، بهدف الاستقطاب الجماعي للشعوب وإيجاد مواطنة أمبراطورية مخلصة، وقد نجحوا في تحقيق أهدافهم إلى حد كبير (طومبسون، ص ٨٧ ـ ٢٩٢).

الفصل الثامن

أسينيون أم نصارى؟!

من هم أولئك الغامضون الذين لاذوا بقمران وأودعوا في كهوفها المتناثرة نصوصهم المقدسة ورؤاهم الخاصة لما عايشوه وخبروه من أحداث؟!

ابتلعهم التاريخ وأسدل الستار على ما خلفوه من شروح دينية وتعليقات لما يربو على الألفي عام.. وإذا بنصوصهم تتدفق بغتة في أربعينيات هذا القرن، لتفاجىء العالم وتحيره، مفجرة خلافات جذرية، لم تخفت أصداؤها بعد.

هل هم الأسينيون حقاً؟ أم فرقة تفرعت عنهم؟ وما الذي يعنيه ذلك المصطلح؟

يعتمد المفهوم التقليدي الشائع عن طائفة الأسينيين على كتابات المؤرخين القدامى، أمثال فيلو الإسكندري Philo، بليني الأكبر Pliny the Elder، ويوسيفوس. ورغم ما بين هؤلاء الثلاثة من تعارض واختلافات، فإنهم أجمعوا على أن الأسينيين لا يحفلون بالمال وبمتع الحياة الدنيا، يتخلون طواعية عن أموالهم وأملاكهم الخاصة لصالح الجماعة، التي يتم اختيار قادتها عن طريق

الانتخاب، وهم يعيشون في مجموعات منعزلة، يحافظون على مسافة بينهم وبين الغير، وتنتشر مجموعاتهم في كل أنحاء فلسطين.

كان فيلو في الغالب على صلة ما بالأسينيين، فقد قام وهو شاب بزيارة يهودا، وذكر أن عددهم يقارب الأربعة آلاف، يعملون في الزراعة والبناء، ويعارضون الرق بشدة ويلتزمون بشعيرة السبت، ولا يقدمون الأضاحي الحيوانية، مما يعني إقصاءهم عن الهيكل. لكنهم يلتقون في معابدهم الخاصة حيث يجلسون في صفوف حسب مراتبهم، ليقرأ عليهم أحد المتعلمين النصوص الدينية ويقوم بشرحها. لا يقربون النساء، ولهذا لا يوجد لديهم أطفال. تجمعهم عقيدة مشتركة ويؤدون طقوساً دينية واحدة، أبرزها الولائم الجماعية. والالتحاق بالجماعة يتم بمحض الإرادة بغض النظر عن العرق، ويشتهر الأعضاء بالدماثة والدعة، حتى أن أعتى الطغاة كانوا يقدرونهم لورعهم وتقواهم. وتنطوي تعاليم الجماعة على حب الله والفضيلة والإنسان. وبرغم الإشارات الدالة على نسك الجماعة وزهدها، لم يذكر فيلو أنها طائفة رهبانية.

يعارض فيلو ما أورده بليني بشأن الأسينيين، ويصف الجماعة بأنها منزوية ناسكة تعيش في البرية بين واحات النخيل على شاطىء البحر الميت الغربي، على بعد عشرين ميلاً شمال عين جدي. فإذا كانت قمران موطن الجماعة، فكيف يتفق هذا وقول فيلو بأنها حركة واسعة الانتشار في القرى والمدن؟!

أما يوسيفوس فيقدم الأسينيين وأسلوب حياتهم على نحو يشابه نظام الأديرة أو أتباع طريقة فكرية غامضة. فالعضو المرشح يخضع

إلى الإعداد والتدريب لفترة ثلاث سنوات، يلتحق بعدها عضواً رسمياً في الجماعة. يبدأ الأعضاء يومهم بالصلاة قبل بزوغ الفجر، ثم يتوجهون للعمل لخمس ساعات متصلة، يؤدون بعدها شعيرة الاغتسال والتطهر، ويرتدون ثياباً بيضاء نظيفة استعداداً لتناول وجبة جماعية بسيطة في قاعة كبيرة. وعلى عكس المفهوم الشائع، فالأسينيون ليسوا نباتيين، إذ أثبتت الحفريات بأنهم كانوا يتناولون اللحوم، ووفقاً ليوسيفوس فجميع أعضاء الجماعة، متمكنون من أسفار «العهد القديم» وتعاليم الأنبياء، ويتكهنون بأحداث المستقبل بواسطة الاستعانة بنصوص مقدسة تتصل بشعائر الطهارة. والجماعة تؤمن بخلود الروح، التي تتحرر من قيود الجسد بحلول الموت لتحلق مبتهجة في الأعالي. كما يعقد يوسيفوس مقارنة بين تعاليمهم وتعاليم اليونان ليخرج بنتيجة مؤداها تشابه عقائد الجماعة بمبادىء فيثاغورث[١].

يشير يوسيفوس أيضاً إلى التزام الأعضاء الدقيق بشريعة موسى، واعتبارهم التجديف في شأنه إثماً عظيماً. ويصور الأسينيين على أنهم مسالمون تجمعهم علاقات طيبة بالسلطة الحاكمة، إلى حد تمتعهم بمعاملة خاصة من قبل هيرودس الأكبر، الذي دأب على تقديرهم وإنزالهم منزلة رفيعة وصلت إلى حد إعفائهم من أداء قسم الولاء، لكن المؤرخ ما يلبث أن يناقض ما سبق له قوله، ولعلها كانت زلة لسان، حين أردف مضيفاً في فقرة لاحقة:

«إنهم لا يهابون الخطر، يقهرون الألم بإرادة صلبة مستبشرة، يواجهون الموت بشرف ويفضلونه على حياة يعوزها الهدف. فقد تعرضت أرواحهم للاختبار، في حده الأقصى، أثناء حروبهم مع الرومان، الذين شجّوا أجسادهم، وأحرقوهم وأخضعوهم لكل

صنوف الأذى كي يجدفوا على موسى، صاحب الشريعة أو يُقبلوا على تناول الطعام المحرم»[٢].

بإشارة واحدة موجزة، نسف يوسيفوس كل ما سبق له قوله، ليصبح الأسينيون مدافعين أشداء لا يهابون الموت في مواجهة الخطوب. وبالرغم من ذلك التناقض الواضح، أخذ الباحثون رواية يوسيفوس على علاتها دون تمحيص، لتشكل المفهوم الشائع حول الجماعة، الذي استمر لأكثر من ألفي عام، من دون التفاف أو مراعاة لإشارته الموجزة المهمة هذه.

جاء عصر النهضة ليشهد، كما هو معروف، تشجيعاً على حرية الفكر، طاولت دراسة التراث المسيحي وتناولته بموضوعية وأفق رحب. كتب فردريك العظيم في عام ١٧٧٠، بأن «يسوع كان أسينياً متشبعاً بأخلاق الأسينيين»، وقد حققت رؤيته هذه انتشاراً واسعاً خلال النصف الثاني من القرن اللاحق. ثم قام أرنست رينان في عام ١٨٦٣ بنشر كتابه المعروف «حياة يسوع» الذي جاء فيه أن المسيحية هي الأسينية، وقد خلفتها على نطاق كبير.

في خضم انتعاش الفكر الروحاني، في نهاية القرن التاسع عشر، تمّ الربط بين الأسينية والمسيحية، وانتشرت السفسطة من خلال تعاليم هـ .بي بلافاتسكي[٣] الذي سلم بأن يسوع مجوسي بارع، مزج بين عناصر الأسينية والتراث الغنوصي[٤]، ثم قامت إحدى تلميذاته، أفا كنغز فورد، بتطوير فكرة المسيحية الرومانية، لتقدم يسوع غنوصياً صانعاً للمعجزات، عاش مع الأسينيين قبل بعثته وتدرب على أيديهم. ذاعت هذه الأفكار وانتشرت من خلال الكتابات الغربية في القارة الأوروبية، وبدأ الجو الأسطوري يحيط بالأسينيين ليضفي عليهم مهارات طبية خاصة، رفعتهم إلى مستوى

فن التطبيب الإغريقي. ووصل الأمر إلى ذروته بصدور كتاب في ألمانيا في نهاية القرن التاسع عشر عن واقعة الصلب، سرعان ما ظهرت له ترجمة باللغة الإنكليزية عام ١٩٠٧، وقد استند الكاتب الألماني إلى نص قديم وضعه كاتب أسيني، ادعى فيه أن يسوع ابن للسيدة مريم ولمعلم أسيني، لم يحدد اسمه، مما أتاح له تعلم أسرار الأسينيين الطبية وإتقانها، الأمر الذي مكّنه من اجتياز محنة الصلب ومعاودة الظهور أمام أتباعه مجدداً!!

ما لبث أن اعتمد الكاتب البريطاني جورج مور George Moore، على ذلك العمل لينشر كتاباً عن المسيحية لسائر المتحدثين بالإنكليزية في العالم، مصوراً يسوع بالمتأثر بالفكر الأسيني، الذي يرجع إليه الفضل في تخطي محنة الصلب والبقاء حياً. غير أنه اعتزل الحياة العامة وعاش بعيداً مع جماعة أسينية تقيم في جوار قمران، حيث قام شاؤول ـ بولس ـ بزيارته بعد عدة سنوات، ثم غادر فلسطين لينشر روايات أسطورية غريبة حول يسوع، رافعاً إياه إلى مصاف الآلهة(٥).

ذاعت هذه المفاهيم والرؤى بفضل ما ذكره المؤرخون القدامى، فيلو، بليني، ويوسيفوس، عن الأسينيين وجعلت من أصحابها، في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العشرين، كُتاباً ذوي اتجاهات روحانية، لما أضفوه على الجماعة من صبغة أسطورية ملأت عقول القراء بمعلومات مغلوطة عن الأسينيين، بقيت آثارها عالقة في أذهان المعاصرين بمن فيهم النقاد المتمرسون.

ما إن ظهرت لفائف البحر الميت حتى سارع هؤلاء الباحثون وأسقطوا عليها ذلك المفهوم الشائع عن الأسينيين، حين بدت لهم المخطوطات للوهلة الأولى متفقة مع ما استقر في أذهانهم عن تلك

الطائفة. ولهذا كان من الطبيعي وقتها نسبتها إلى الأسينيين، فالبروفسور سوكنيك على سبيل المثال قال بمجرد أن وقعت عيناه على اللفائف بأنها تحمل سمات الأسينيين، وسرعان ما بادر الأب ديفو إلى تأييده، ومن ثم تم ربط جماعة قمران بطائفة الأسينيين استناداً إلى ما أورده بليني ولم يتردد البروفسور كروس، هو الآخر، في موافقتهما الرأي. وكالعادة سارع بعض الكتّاب العرب يرددون ما قاله هؤلاء وأولئك، وإن أضافوا في عجالة بأن الأسينيين هم في الحقيقة العيسويون أتباع عيسى، ولكن أبدلت الألف بالعين بسبب افتقار اللغة اليونانية إلى صوت حرف العين، من دون أن يدركوا أن ذلك يعني بالضرورة إرجاع ميلاد يسوع المسيح إلى الوراء بأكثر من مائة وخمسين عاماً[٦]!!

هكذا استقر الاقتناع العام، بأن مخطوطات البحر الميت تعود حصراً إلى طائفة الأسينيين، تلك الطائفة المعروفة بالنسك وبتوجهاتها السلمية وعزوفها عن النساء وعن الحياة العامة بمختلف نواحيها، خصوصاً ناحيتها السياسية. ومن ثم أجمع الفريق الدولي على لجوء الجماعة حوالى عام ١٣٤ق.م إلى قمران، وقام بتحديد تاريخ الجماعة وهويتها وأعادها بسهولة ويسر إلى مرحلة ما قبل المسيحية، من دون معارضة تذكر. واتخذ قراراً بالإجماع أن الجماعة ظهرت وازدهرت حتى أهلكتها هزة أرضية وحريق كبير وقعا في عام ٣١ق.م، فهجرت الجماعة مقرها في قمران في عهد هيرودس الأكبر (٣٧ ـ ٤ق.م)، لتعود إليه ثانية في عهد خلفائه وتعيد تعمير خرائب قمران وأبنيتها.

عاشت الجماعة في قمران، حسبما أجمع الفريق، تنعم بالأمن والدعة بفضل عزلتها وحيادها السياسي.. حتى قضى عليها

الرومان عام ٦٨م، خلال اجتياحهم البلاد وتدميرهم أورشليم عام ٧٠م، واحتلت حامية رومانية الموقع حتى نهاية القرن الميلادي الأول. لكن ذلك لم يحل دون لجوء مجموعة من العصاة المتمردين إلى الموقع حين اشتعلت فلسطين بالثورة مجدداً، في الفترة ما بين عامي ١٣٢ - ١٣٥م(٧).

سيناريو رآه البعض منسجماً مع المفهوم الشائع، قام الفريق الدولي بإقراره وتدعيمه، مجهضاً بذلك مخطوطات البحر الميت من أية احتمالات مغايرة وجديدة، بما يضمن له استقرار اللاهوت الرسمي واستتبابه، ولتذهب دلالات اللفائف ومغازيها أدراج الرياح. ولا بأس من بقاء أحداث القرن الميلادي الأول مغيبة في عتمة الغموض.

قمران تتحدث عن نفسها

يتطلب التعرف إلى جماعة قمران ومعتقداتها فحصاً دقيقاً للنصوص التي خلفتها وراءها، بغض النظر عن تصورات المؤرخين القدامى، التي طالما أحدثت تشوهاً وإدراكاً، انعكسا بوضوح في أعمال الكتّاب الغربيين، في القرنين التاسع عشر والعشرين.

تعكس وثيقتا «دمشق» Damascus Document، و«قانون الجماعة» The Rule of the community شروط الانضمام إلى الجماعة وقواعد السلوك التي يتوجب على الأعضاء الالتزام بها. وقد نوهت الوثيقتان بمرجع ثالث، لم يُعثر عليه بعد، يدعى كتاب التأمل، استعمله قادة الجماعة لتعليم الأعضاء الجدد، ويعتقد الباحثون باحتواء الوثيقتين المذكورتين على فقرات من ذلك المرجع.

تُعرّف الجماعة نفسها، أساساً، بأصحاب «العهد الجديد»، وإن استخدمت تعريفات أخرى مثل المجمع، الفرقة، الجمعية، والجماعة.

وينطوي المصطلح الأخير باللغة العبرية Yahed على مفهوم الوحدة، الذي تستند إليه الجماعة في جوهرها، كما يشير ظرفياً إلى معنى المشاركة، حيث يتقاسم الأعضاء كل ضرورات الحياة الروحانية والمادية على حد سواء، وعليهم جميعاً الالتزام بالصدق، بالتواضع النبيل، بالحب الصادق، وبتقدير الواحد منهم للآخر في المجلس المقدس «فلا مكان للأنانية البغيضة في تجمع كهذا». يتناول الأعضاء وجباتهم معاً، ثم ينشدون بعدها ترانيم الشكر لله. وحين يصبح المرء عضواً كامل العضوية، يتنازل عن ممتلكاته المادية للجماعة، ويكتفي في المقابل بما يقيم الأود. ولا يعني هذا أن الجماعة كانت تشكل مجتمعاً مشاعاً، وأن جميع الأعضاء متساوون في الدرجة، فالمراتب الدينية، التي كثيراً ما تشير إليها النصوص، تحكم سلوك الأعضاء وتضبطه. فنظام الجلوس والتخاطب في الاجتماعات العامة، وفي كافة نشاطاتها، يتوقف على الرتبة الدينية للعضو حيث يتمتع الكاهن بالأسبقية دائماً.

مع ذلك يخيم على الجميع شعور خاص بالانتماء إلى كتلة كهنوتية واحدة، يمتلك فيها المعلم البار، مؤسس الجماعة على الأرجح، الكلمة الفصل في القضايا الحيوية المتعلقة بالجماعة، وتنقسم الجماعة بدورها إلى مجموعات أصغر فأصغر حتى عشرة أعضاء، ويرأس الجميع رئيسان أساسيان، الكاهن المفتش والمراقب العام. يتولى الأول مسؤولية الشؤون الدينية واختبار المرشحين الجدد لعضوية الجماعة، فيما يشرف الثاني على توزيع العمل والنواحي المالية للجماعة، ولكل معسكر أو موقع مراقبه الخاص الذي يتولى المسؤوليتين معاً. هذا المزج اللافت للنظر للواجبين الديني والإداري، ليس بعيداً عن التجمع المسيحي الأول.

أكثر ما يبعث على الدهشة، أسلوب عقد الجماعة لاجتماعاتها العامة، المنوط بالمراقب العام، فالعضو يتخذ مكانه حسب مرتبته الدينية، الكهنة يجلسون أولاً، يليهم الشيوخ ثم بقية الأعضاء، كل وفقاً لمرتبته. وفي حال اتخاذ قرار ما يتصل بالكثيرين، أي أغلبية الأعضاء، يعرض القرار على مجلس الجماعة ويستمزج رأي بعضهم، فيدلي كل منهم برأيه دون مقاطعة من أحد، ويحظر عليه قول ما يزعج «الكثيرين». وإذا أراد عضو ما الحديث، وهو ليس في وضع المساءلة، فما عليه سوى رفع قدمه والقول، «الذي ما أقوله للكثيرين»[^8].

كل ما ينتهك هذا النظام يتعرض لعقوبة صارمة، فهناك على ما يبدو هيئة تنفيذية من اثني عشر عضواً وثلاثة كهنة، ولا يعرف بدقة ما إذا كان أولئك الكهنة الثلاثة ضمن تشكيل الاثني عشر أو إضافة له. هناك أيضاً هيئة محلفين من القضاة، تتكون من اثني عشر عضواً، وفقاً لمخطوطة أو عشرة حسب وثيقة دمشق، تتشكل من أربعة كهنة وستة أعضاء عاديين، وجميعهم ضليع في «كتاب التأمل» وشريعة موسى، ويشترط ألا تقل سن العضو عن خمسة وعشرين عاماً وألا تتجاوز الستين.

ينص قانون العقوبات الوارد في وثيقة «قانون الجماعة» على إقصاء العضو المذنب عن «الأكثرية الطاهرة»، مما يعني حرمانه المؤقت أو الدائم من العضوية الكاملة، وتُخفض مرتبته إلى مجرد مرشح للعضوية تحت المراقبة. أما العقوبة فتعني الحرمان من حصته في الطعام، وتلك عقوبة لو تعلمون شديدة القسوة في جماعة يعيش أعضاؤها على حد الكفاف.

إليكم بعض الأمثلة من قانون العقوبات:

- الإقصاء لثلاثين يوماً عقاباً للضحك الأحمق ومثلها للبصق أثناء اجتماع الكثيرين.
- الإقصاء لمدة عام للافتراء على زميل، والإقصاء النهائي إذا افترى أحد على الكثيرين.
- التجرد بغير ضرورة يعرض مرتكبيه للإقصاء مدة ستة أشهر.

بمجرد وصول المرشح للعضوية، يُسلم ثوباً أبيض ويحظر عليه التشبه بالنساء في الملبس، اتباعاً لشريعة التوراة، وذلك حرصاً على عدم الانحراف والتشوش الجنسي. غير أن قانون جماعة قمران لا يمانع في استعمال أردية خارجية معينة لكلا الجنسين، وفي هذا انتهاك لأوامر التوراة. فإحدى الوثائق، التي وجدت في مجموعة مخطوطات الكهف رقم ٤؛ تنص بوضوح على أن «ليس للمرأة وضع كساء رجل، يمكن لكل [...] التدثر بالرداء الخارجي للمرأة، ويحظر على الرجل ارتداء قمصانها الداخلية».. ويُعطى كل عضو معولاً صغيراً خاصاً به، يستعمله في حفر حفرة صغيرة في العراء، يقوم بردمها فور فروغه من قضاء حاجته، وقد تمّ العثور على أحد هذه المعاول في أحد الكهوف.

توضح الوثائق أن الجماعة كانت منتشرة على تخوم المدن والقرى في أنحاء فلسطين، ولهذا لم يكن العضو المضطر إلى السفر بحاجة لحمل مؤنته، حيث يتوافر له المأكل والمأوى أينما حلّ لدى الجماعات المتناثرة في طول البلاد وعرضها. ويعكس إنجيل متى الأسلوب نفسه، الذي اعتمده يسوع في ابتعاث أتباعه إلى الأنحاء المختلفة، مؤكداً لهم حصولهم على حسن الضيافة «...، اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة... لا تقتنوا ذهباً ولا فضة

ولا نحاساً في مناطقكم، ولا مدداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا، لأن الفاعل مستحق طعامه» (متى ١٠/٦ ـ ١٠).

وتنص مبادىء أصحاب العهد في قمران على ضرورة مساعدة أعضاء الجماعة لرفاقهم من عابري السبيل «..إذا كان الرجل يقوم بطحن الحنطة أو عصر النبيذ وجاءه معدم من إسرائيل، فله أن يأكل ويجمع لنفسه».

طقوس العضوية «حتى يُقبَلوا في عهد التقوى»[٩]

يتوجب على المرشح للالتحاق بالجماعة المرور بثلاث مراحل، تمتد أولها لفترة غير محددة، يتم للمرشح خلالها التعرف إلى روح الجماعة وممارستها، ثم يبحث «الكثيرون» حالة المرشح، بعد اجتيازه امتحان الكاهن المفتش الخاص بدوافعه ومظهره العام، فإذا وجدوه صالحاً يتم قبوله رسمياً، وبالتالي يتم انتقاله إلى المرحلة الثانية. يرتقي العضو في هذه المرحلة إلى حزب الجماعة، من دون أن يسمح له بلمس طهارة «الكثيرين»، أي الاقتراب من كاملي العضوية. ثم تُعقد الجماعة بعد مضي عام، جلسة عامة، لبحث أهلية المرشح للترفع إلى المرحلة الثالثة والأخيرة، التي تستمر أيضاً لمدة عام يبقى المرشح خلالها ممنوعاً من المشاركة في وليمة الخلاص Messianic Banquet، رغم دخوله في وسط طهارة «الكثيرين»، أي الأكثرية الطاهرة. مع إكمال المرشح لهذه المرحلة الأخيرة، تحكم الجماعة بأهليته كي يصبح عضواً كامل العضوية، ويتم إدراجه في صفوف الجماعة، وتحدد مرتبته بين رفاقه، ويتأتى له عندها المشاركة في اتخاذ القرارات، وتنتقل ثروته تلقائياً إلى الصندوق العام للجماعة، ويدخل في العهد أمام الرب «ليعمل وفق أوامره وليبقى مستمراً في اتباعه، في الهلع والخوف والمحن، التي قد تواجهه إبان

سيادة الشيطان»، ويقوم الكهنة أثناء احتفال الترسيم بمنح بركتهم وشكر الله، فيما تردد الجماعة «آمين.. آمين»، ثم يتقدم الداخلون في العهد للاعتراف بقولهم:

«لقد كنا ضالين [...]

واقترفنا الشر

وقد كنا وآباءنا من قبل نسير [...] الحق ..».

هنا يبارك الكهنة، رجال الله، الذين يسلكون طريق الكمال بالقول:

«ليبارككم الله بكل خير

ويحفظكم من كل شر

ويضيء قلوبكم بذكاء الحياة

ويمنحكم الحكمة الخالدة

وليرفع نحوكم وجه رحمته

ويهبكم سلاماً أبدياً»[١٠].

ثم يبدأ اللاويون بصب اللعنات على حزب الشيطان ورجاله، ويحكمون عليهم بالهلاك وبالنار الأبدية، ويتوعدون الداخلين في العهد المقدس، في حال إخلال أحدهم بمبادىء العهد أو انتهاكها.

يُعد أداء شعيرة العماد الشرط الأول للحصول على العضوية الكاملة في الجماعة، ولم يستدل بعد على نحو دقيق ما إذا كانت الشعيرة تؤدى في الأحواض الكبيرة المقامة في قمران، أم في المياه الجارية لنهر الأردن القريبة من الموقع، أو في مياه نبع «عين الفشخة» الأكثر قرباً، وذلك امتثالاً للوصايا الواردة في وثيقة دمشق «على المرء الاغتسال بمياه تغمره بالكامل»، ولم يتفق الباحثون بعد حول علاقة

الاغتسال بشعيرة العماد الحالية، بالرغم من أن بعض مقاطع المخطوطات تتحدث عن بركة هذه الشعيرة. أما الآثمون فيحظر عليهم لمس ماء الاغتسال، كي لا تُدنس وتُفسد طهارة الرجال المقدسين، فالكمال يتأتى لأخذ العهد، عبر انعزاله وإعراضه عن عالم الدنس، وإلاّ فإنه يخاطر بالدخول إلى عالم الشيطان، مما يعرضه لخسارة معركته المستمرة في مواجهة قوى الشر.

كيف يبدأ القمرانيون يومهم؟

استناداً إلى المخطوطات، يبدأ الأعضاء يومهم بالصلاة قبيل بزوغ الفجر، ثم ينطلق كل إلى عمله لخمس ساعات متصلة. فريق يعمل في تنظيف الغرف والمطابخ والأرضيات، وثان في إعداد الطفلة لصنع الجرار الفخارية، وثالث يقوم بإعداد الطعام للوليمة الجماعية. وينخرط فريق رابع في ترميم المباني وملء الأحواض بالماء، وآخر يقوم برعي الأغنام أو الزراعة لتأمين الطعام. وهناك من ينكبّ على نسخ النصوص المقدسة وكتابة اللفائف الثمينة. وآخرون يقومون بإعداد المواد والجلود اللازمة للكتابة، أما النساء فيعملن في غزل الثياب والقطع اللازمة لحفظ اللفائف. وبالطبع هناك فريق يقوم على دراسة شريعة موسى واستنباط الشروحات، فهؤلاء هم بيت القصيد وعماد الجماعة ومرشدوها. وهكذا ينهمك الجميع في العمل وهم يرددون معاً ترانيم الشكر.

في الليل، ينام البعض في الكهوف والمغاور المحيطة، أو في الخيام والأكواخ، ويتولى البعض الآخر الحراسة والمراقبة في البرج الملحق بالمباني، فيما يتأمل آخرون السماء لمراقبة حركة القمر والنجوم. وقد خلفت الجماعة أعمالاً في الفلك لاعتقادها بتأثير حركة النجوم على حياة الإنسان. وتمّ العثور في الحفريات على مخطوط في حالة

سيئة، يستشف منه الحديث عن مولد غلام تحت برج معين، يمتلك ميراثاً روحياً مميزاً على نحو مباشر، وينتمي إلى «بيت النور» ليصبح «أمير النور». وذلك أحد الألقاب التي تخلعها الوثائق على المخلص، مما يدل على انهماك فلكيي الجماعة في مراقبة تزامن حركة الكواكب في السماء، للاستدلال على مولد «أمير النور» المرتقب، الأمر الذي اعتبره العالم البريطاني المشاكس أليغرو، مصدراً غير مستبعد لبيت لحم ورواية متى عن المجوس القادمين من الشرق(١١).

تحفل لفائف قمران بتحذيرات مريرة، رددها لاحقاً يوحنا المعمدان ويسوع المسيح، اقتبس معلق جماعة قمران، أو معلمها، فقراتها من سفر ناحوم، جاء فيها «ويل لمدينة الدماء. كلها ملآنة كذباً وخطفاً وكثرة جرحى ووفرة قتلى ولا نهاية للجثث. يعثرون بجثثهم.. من أجل زنى الزانية الحسنة الجمال صاحبة السحر...» ناحوم (٣/١ - ٤).

ويشرح المعلق النص بقوله:

«هذه مدينة أفرايم، أولئك الذين يسعون وراء الأشياء الناعمة (الرفاهية) في الأيام الأخيرة، الذين يسيرون في الكذب والزيف... تفسير ذلك يتعلق بالذين يضللون أفرايم وعدداً كبيراً من الملوك والأمراء والكهنة والعامة، بتعاليمهم الزائفة وألسنتهم الكاذبة وشفاههم المخادعة. سوف تهلك مدن وعشائر بكاملها، بسبب مجلسهم، وسيسقط نبلاء وملوك نتيجة ألسنتهم»(١٢).

تطفح اللفائف أيضاً بانتقاد لاذع للكاهن الأكبر ورئاسته الزائفة، لأنه يبجل القرابين المقدمة من الأجانب للهيكل، كما تعكس اللفائف اختلافات في نواحي العبادة بين جماعة قمران ومؤسسة الكهنوت في أورشليم، فالجماعة تتبع تقييماً مغايراً لذلك المتبع في

الهيكل، معتقدة بأن الشعائر التي تقام في أورشليم تقع في الأيام الخطأ، مما يبطل فاعليتها. فالسنة من وجهة نظر جماعة قمران تتكون من اثني عشر شهراً، كل يشتمل على ثلاثين يوماً، مع إضافة يوم في كل موسم، ما يجعل المجمع ٣٦٤ يوماً، أي ٥٢ أسبوعاً. حسب هذا التقويم، تتكرر الاحتفالات الدينية وإقامة الشعائر في اليوم نفسه من كل أسبوع في السنة، كما تأمر «ألواح السماء»، ودون ذلك يسير الإنسان في الضلالة والغيّ ولا يدخل في زمرة الصالحين.

من المحتمل أن الجماعة كانت تصلح الخطأ الناجم عن ذلك التقويم، بزيادة فترة زمنية فاصلة في نهاية كل ٤٩ عاماً، للحاق بالنظام الشمسي، فجماعة قمران والطوائف اليهودية المحافظة تعتبر التقويم القمري مفسدة للشعائر وإبطالاً لفاعليتها. جدير بالملاحظة بصدد مسألة التقويم هذه، ما تشير إليه المخطوطات من تعمد «الكاهن الشرير» الهجوم على جماعة قمران في منفاهم يوم عيد الغفران حسب تقويم الجماعة، أي يوم الجمعة، حين اختار «الكاهن النذل» هذه المناسبة كي يشن الهجوم، لمعرفته أن ضحاياه سوف يكونون مشلولي الحركة وفقاً للشعيرة الدينية، مما يدل على أن عيد الغفران بالنسبة إلى الكاهن وأتباعه في أورشليم لا يتفق ويوم احتفال الجماعة. والغريب في مسألة التقويم المتبع لديها، أن يوم السبت لن يكون اليوم السابع بل الرابع، ليصبح يوم الأربعاء، بالتالي، يوم خلق النور. ولهذا فمن غير المحتمل التحدث عن «النهار والليل» قبل ذلك اليوم.

تحتل شعيرة الوليمة المقدسة بؤرة العبادة لدى جماعة قمران، بما لا يقل أهمية عنها في الكنيسة المسيحية، فتلك حسبما تشير اللفائف،

وليمة الخلاص بالنسبة إلى الجماعة، ويؤمها «المخلصون والكاهن الأكبر والمخلص من نسل داود والكهنة والشيوخ وجماعة المصلين».
ويبدو أو الوليمة الجماعية كانت تجري على نحو متكرر، بحيث تبدو مراناً للوليمة المقدسة، التي تضم عادة عدداً أقل من المشاركين، وقد كشفت الحفريات عن خندق، بجوار مباني الجماعة، يحتوي على حوالى خمسين جرة داخلها عظام، عالق بها بقايا من لحم الضأن والماعز إضافة إلى عجل، والأغلب في رأي الفريق الدولي أنها بقايا الوجبات اليومية، لكمية العظام الهائلة الموجودة به، غير أنه من الصعب تصور أن جماعة ناسكة كهذه لديها من رفاهية العيش ما يسمح لها بتناول اللحوم يومياً.
يتساءل بعض الباحثين، هل لهذه الولائم المقدسة علاقة بأعياد الفصح؟!
أيضاً، سؤال لا يزال ينتظر الإجابة.

قمران والنساء

على عكس المفهوم الشائع بعزوف أعضاء الجماعة عن الزواج، لم يغفل «قانون الجماعة» الاهتمام بشؤون النساء والأطفال. فحين يحضرن يتم تجميعهن وأطفالهن معاً، كي يتلقين مبادىء الجماعة. فوثيقة «قانون الجماعة» تطرح كيفية تنشئة الأولاد الذكور، وتنص على عدم السماح للغلام باتخاذ زوجة قبل بلوغه العشرين من العمر، حتى يستطيع التمييز بين الخير والشر وتحمل المسؤوليات الملقاة على عاتقه. كما يسمح للمرأة، بموجب القانون، بالشهادة ضد زوجها، بل أيضاً بالمشاركة في عملية اتخاذ القرار، وقد تمّ التثبت من وجود النساء في الجماعة بالعثور على هياكل لنساء وأطفال في الجبانة الملحقة بالموقع. أكثر من ذلك، تُعنى «وثيقة

دمشق» في بعض بنودها بشؤون الأسرة والأيتام والنساء غير المتزوجات اللائي يحتجن إلى المساعدة.

موقف الجماعة من مسألة الطلاق يشابه ما يعزى إلى يسوع، فيما يعرف بموعظة الجبل، «وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق، وأما أنا فأقول لكم إن من طلق امرأته إلاّ لعلة الزنى يجعلها تزني، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزني» (متى ٥/٣٢ - ٣٣). تدين «وثيقة دمشق»، أيضاً، الجمع بين امرأتين في آن معاً، وتعتمد في إدانتها هذه، مثل يسوع، على سفر التكوين «ذكراً وأنثى خلقهم» (١/ ٣٨)، في حين يقول مرقس في هذا الصدد، «ذكراً وأنثى خلقهما الله» (١٠/٧). تعكس مخطوطات قمران، استناداً إلى شريعة التوراة، موقفاً مماثلاً لموقف يسوع من الزنا ونظرة الاشتهاء «إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبه» (متى ٥/٢٨). تتحدث وثائق قمران، بدورها، أيضاً عن اشتهاء العين وقسوة القلب الخاطىء، الأمر الذي اشتدت له دهشة الباحثين، ودفعت بعضهم إلى الربط بين ما حملته اللفائف من وصايا وبين أقوال يسوع المسيح.

لم يكن رأي الجماعة فيما يبدو إيجابياً في المرأة، فجميعهن مشاريع محتملة للغواية، يتربصن للإيقاع بالرجال في الجحيم. تحذر إحدى مخطوطات الكهف رقم ٤ من البغي وأحابيلها على النحو التالي:

«باطل عابث حديث البغي

تشحذ كلماتها دائماً

تمهيداً لخداعها

....

آثام كثيرة تتخلل ثنايا تنورتها

غلالاتها في ظلمة فجر كاذب

... ...

أبوابها أبواب الموت

من يخطر إلى عتبة مسكنها

ينقلب إلى قاع الجحيم

... ...

تدفع المميزين إلى انتهاك الناموس

وتحرف خطواتهم بعيداً إلى مسالك الجحيم»[١٣].

ربما دفعت هذه النظرة المعادية للمرأة ببعض رجال الجماعة إلى مقت النساء والعزوف عن الزواج، استناداً إلى ما ادعاه «العهد القديم» من غواية المرأة لآدم، وما انتهى إليه أمره بالطرد من جنة عدن. وقد انغرس هذا الادعاء في الوجدان الجمعي منذ زمن سحيق، ولم يسلم من أثره التراث الشعبي في منطقة الشرق الأدنى ومحيطها الجغرافي.

استناداً إلى يوسيفوس والمؤرخين القدامى، جاء رأي أليغرو في تعريف جماعة قمران بالأسينيين موافقاً للفريق الدولي، غير أنه شأن غالبية الباحثين يرى إمكانية تعريف الجماعة بأحد أفرع حركة الأسينيين لعزوف فريق منهم عن الزواج، من باب اتقاء ما تجره النساء من فسق وفساد، وذلك لاقتناعهم بعبثية الثقة بالنساء، فالمرأة بالنسبة إلى الأسينيين، حسبما أورد فيلو، أنانية غيورة ماهرة في صرف زوجها عن جادة الطريق، بسبب سحرها الذي لا يخبو. ما وزاد في دهشة الباحثين، قيام جماعة قمران بتعديل بعض شرائع التوراة بما يتفق ورؤيتها، ففي حين ينص سفر الخروج (٢٠/١٦ -

١٧) على زواج الرجل من فتاة قام بإغوائها، مع دفع مهر ملائم لوالدها، ويحظر عليه طلاقها، تنص وثائق قمران على قيام المذنب بدفع مائتي شيقل على سبيل الغرامة مع طرده خارج الجماعة.

لنلق نظرة على نص آخر في الوثيقة

في حال أُتهم رجل بإغواء بكر من إسرائيل إذا أخذها [...] عليه التصريح بذلك، وسيقومون - الجهات المختصة - بالتحقق من استقامة الفتاة، إذا كان الرجل صادقاً تلقى الفتاة عقوبة الموت، لكن إذا أخذها [...] وقهرها، يُغرم ويُطرد من الجماعة طوال حياته[١٤].

بدت الفراغات في بقايا النص محيرة للباحثين، وعلى الأرجح أن الفراغ الأول يفيد موافقة الفتاة، ولذلك تواجه عقوبة الموت. أما الفراغ الثاني فيفيد على ما يبدو، بأخذها عنوة، أي اغتصابها، وهنا قد يبدو الطرد من الجماعة عقاباً هيناً مقارنة بعقوبة الموت المنصوص عليها في التوراة، في حال لم تغوِه الفتاة (سفر التثنية ٢٢/٢٥)، يرى أليغرو اعتماداً على يوسيفوس، أن عقوبة الطرد تعادل الموت في جماعة يحظر على أعضائها إطعام الغرباء، فلن يبقى أمام المبعد سوى الحشائش يقتات بها، أي مواجهة الموت جوعاً.

يبدو موقف أليغرو غريباً ويجانبه الصواب، فالموت جوعاً لا يبدو منطقياً أو محتماً، لأن الجماعة، سواء كانت فرعاً لطائفة الأسينيين أم لم تكن، ليست مسيطرة على كامل فلسطين بحيث تفرض قوانينها على القاصي والداني، مما يتيح للمبعد المطرود مغادرة مقر الجماعة والذهاب للعيش في مكان آخر، فهذا أمر متيسر وأقرب إلى المنطق.

البحث عن أصل المصطلح

بعيداً عن المسألة الجغرافية، يرى بعض باحثي الغرب أن الأفكار

المسبقة والهوى الشخصي هيمنا طويلاً على الأبحاث المتصلة بوثائق قمران. قد يعود السبب في ذلك، إلى العداء الكامن لدى بعضهم للأسرة المكابية، ومن ثم الرغبة في الحط من شأنها، مما دفعهم سواء بوعي أو بدونه، إلى العمل حثيثاً لإبعاد المخطوطات عن السنين الأولى لنشأة المسيحية في فلسطين.

اعتمد الأب ديفو في تأريخه للفائف على فقرة أوردها بليني، رغم انطوائها على تناقض بيّن، حيث يشير المؤرخ إلى موقع ما بعد تدمير الرومان لأورشليم وعين جدي، وهذا لا غبار عليه من الناحية التاريخية، غير أن بليني يضيف قائلاً عن جماعة الأسينيين في الوقت نفسه، بأنها وفّرت ملاذاً آمناً لكثير من اللاجئين، مما يدل على سلامة الجماعة وموقعها في ذلك الوقت. وبرغم ذلك التناقض الواضح، أصرَّ الأب ديفو على تدمير قمران شأنها شأن أورشليم وعين جدي أثناء ثورة ٦٦ ـ ٧٣م. لهذا فقمران ليست هي المعنية بإشارة بليني على الأرجح، فضلاً عن أن الجماعة التي وصفها المؤرخ لا تتضمن نساء، بينما عُثر على هياكل بعضهن في قبور قمران.

مع ذلك، يظل الاحتمال قائماً بأن يكون القاطنون في قمران من طائفة الأسينيين، لكنهم قطعاً ليسوا الجماعة عينها التي أشار إليها بليني، بل جماعة أخرى. فمخطوطات قمران تكشف جلياً مدى ضحالة معلومات بليني.

من الأفضل بداية التعرف إلى مصطلح الأسينيين، والكشف عن التناقض في روايات المؤرخين الكلاسيكيين الثلاثة، علّ ذلك يقود إلى الفهم الصحيح ولو بصورة نسبية.

إن مصطلح أسين Essene مصطلح يوناني، أورده المؤرخون

الكلاسيكيون الثلاثة، يوسيفوس وفيلو وبليني، وقد جاء كالتالي Essaioi أو Essenoi فإذا كانت جماعة قمران من الأسينيين فعلاً، فهذا يعني استخدامها ترجمة يونانية لكلمة آرامية أو عبرية لتعريف نفسها! إضافة إلى أن كتابات المؤرخين الكلاسيكيين الثلاثة جاءت غير متجانسة بل مناقضة لمضمون حياة الجماعة وفكرها، كما تكشفه الأدلة الخارجية والداخلية معاً. أي الأدلة الأركيولوجية ومنطوق النصوص نفسها، التي يمكن إيجازها على النحو التالي:

* يعترف يوسيفوس بوجود نظام آخر للأسينيين المتزوجين، عند إشارته إلى أن ذلك مجرد استثناء غير سوي، ثم يكرر المؤرخ بشكل عام أقوال زميليه فيلو وبليني بأنهم كانوا عزّاباً. وهذا يناقضه وجود قبور تضم رفات نساء وأطفال، كشفت عنها حفريات قمران، ناهيك عما تضمنه «قانون الجماعة» من قوانين الزواج وتنشئة الأطفال.

* لم يذكر أحد من المؤرخين الثلاثة شيئاً عن انفراد الأسينيين باتباع التقويم الشمسي خلافاً للقمري المتبع عند اليهود، وهذه خاصية فارقة لا بد من أن تلفت انتباه المؤرخين الثلاثة أو أحدهم على الأقل، لو أن جماعة قمران كانت أسينية بالفعل.

* وفقاً لما أورده فيلو، فالأسينيون يختلفون عن بقية الطوائف اليهودية القديمة لامتناعهم عن تقديم الأضاحي الحيوانية. لكن وثيقة الهيكل تحتوي على تعليمات محددة بكيفية أداء تلك الشعيرة، فضلاً عن وضع عظام الحيوانات وترتيبها بعناية فائقة في جرار حيث تمّ دفنها تحت قشرة رقيقة من الأرض. الأب ديفو، من ناحيته، يعتقد أن هذه العظام بقايا

لوجبات الجماعة، وهذا ربما يشكل جزءاً من الحقيقة، ولكنه أيضاً لا ينفي كونها بقايا القرابين الدينية إتباعاً لتعاليم «وثيقة الهيكل».

* رغم استخدام المؤرخين الثلاثة لمصطلح «الأسينيين» للإشارة إلى فرقة يهودية مهمة بجانب الفريسيين والصدوقيين، لم يرد هذا المصطلح على الإطلاق في أي من وثائق البحر الميت.

* يشير يوسيفوس إلى أن الأسينيين كانوا على علاقة ودية مع هيرودس الأكبر، بينما تعكس كتابات قمران عداء شديداً ذا طبيعة قتالية تجاه السلطات الأجنبية الحاكمة، وتجاه هيرودس وأسرته بوجه خاص. وهناك احتمال وارد بمغادرة الجماعة عدة سنين لقمران، نتيجة لاضطهاد هيرودس واستبداده على وجه التحديد.

* دمغ المؤرخون الكلاسيكيون الثلاثة الأسينيين بالسلبية والمسالمة؛ ففيلو يؤكد بشكل خاص على عدم اكتراثهم بالأسلحة والدروع، فيما يعقد يوسيفوس مقارنة يميز خلالها بين «الأسينيين» و«الغيورين على التوراة» ذوي التوجهات القتالية العنيفة، غير أن خرائب قمران تكشف بوضوح عن برج دفاعي ذي صبغة عسكرية وكير للحدادة، إضافة إلى أدبيات الجماعة ذات السمة القتالية المتطرفة، وفي مقدمها «لفافة الحرب»، وهذا يناقض تماماً أقوال يوسيفوس عن سلبية الأسينيين، فقد برهن كل من العالمين، روث ودريفر، على الطبيعة الحربية لقمران من مضمون وثائقها، الأمر الذي أزعج الأب ديفو وفريقه الدولي[١٥].

جاءت كتابات جماعة قمران في معظمها مزيجاً من اللغتين العبرية

والآرامية وليس باليونانية، وحتى وقت قريب لم يُحدد الأصل اللغوي للفظة الأسينيين ومعناها. فالمؤرخون الثلاثة بدوا غامضين في حديثهم عن منشأ المفردة ومصدرها.

يقول فيلو على سبيل المثال، بأن المصطلح مشتق من الكلمة اليونانية "Oseeos" وتعني المقدس، وعليه فالأسينيون هم «المقدسون» Osseotes. جاء جيزا فيرمس، من جامعة أكسفورد، حديثاً بنظرية اكتسبت مصداقية لدى الباحثين، مفادها أن المصطلح مشتق من الآرامية "Assayya"، وهي تعني الشافيين. ودعمت بعض الجهات هذه النظرية بربطها بين الأسينيين وممارسة الطب، شأن الجماعة اليهودية الناسكة التي عُرفت بالمعالجين في الإسكندرية.

رغم ذلك، بقيت المشكلة من دون حل، حيث لم ترد المفردة على الإطلاق في أي من مخطوطات قمران، كما لا توجد أية إشارة تفيد ممارسة الجماعة وتفوقها في الأنشطة العلاجية، الأمر الذي يجعل نظرية فيرمس مجرد تخمين فحسب، ليس هنا ما يحتم الاقتصار عليها في حال وجود خيارات أخرى.

أخيراً، قدم الباحث الأميركي إيزنمان وجهة نظر أخرى تبدو أكثر احتمالاً، خصوصاً أن الوثائق لم تُعرّف أعضاءها ولم تشر إليهم بالأسينيين أو الشافيين، لكنها عبرت عن ذاتها بعدد من المصطلحات الآرامية والعبرية، مما يدل على أنها لم تتبنّ اسماً واحداً محدداً.. غير أن الجماعة لديها تصور مميز عن نفسها، عكسته معانٍ ودلالات متنوعة، استقرت بشكل أساسي ومحدد على «العهد» الذي يتطلب القسم على الطاعة والولاء الكامل والداعم لشريعة موسى، ولهذا يشير مؤلفو المخطوطات إلى أمنهم وجماعتهم بـ «المحافظين على العهد»، ويستخدمون مرادفات للعهد

والشريعة تشير إلى «الطريق»، ولذلك فهم يطلقون على أنفسهم أحياناً «الكامل في الطريق» أو «الطريق إلى الشريعة». وكثيراً ما تشير الجماعة إلى «العمل»، والعامل باللغة العبرية "Ma'asim"، ماسيم، وكلها مصطلحات تنطوي على رموز وإيحاءات تتخلل الوثائق جميعها، لتعبر عن الجماعة ورؤاها العقائدية.

يعود إيزنمان في تتبعه للمصطلح وتحليله إلى شروح الجماعة على «سفر حبقوق»، حيث وجد تهجية بالغة الأهمية: عوسى ها توراه Osei ha Torah، ومعناها العاملون بالشريعة، الأمر الذي يرجح أن المصدر لكلمة أسين هو Essene، وجمعها Osim وتُنطق Oseem، أي العاملون.

وقد تحدث المؤرخ المسيحي أبيفانيوس Epiphanius عن طائفة هرطقية، كانت تشغل يوماً ما منطقة حول البحر الميت، تُعرف بـ "Ossenes"، مما يستنتج معه، بأن الأسينيين هم الأوسينز Ossenes، الذين عناهم المؤرخ القديم أبيفانيوس، وبأن «هؤلاء وجماعة قمران شيء واحد»[١٦].

بذلك يمكن اعتبار الأسينيين مؤلفي اللفائف، ولكن ليس بالمعنى والوصف اللذين أوردهما المؤرخون الكلاسيكيون الثلاثة، واللذين اتبعهما الباحثون المعاصرون دون فحص أو تمحيص. فقد ثبت أن روايات المؤرخين القدامى محدودة للغاية، أعاقت الباحثين العصريين عن التوصل إلى الروابط الضرورية، وربما كان ذلك مقصوداً في بعض الحالات، فالمشكلة التي واجهت الباحثين لأمد طويل، حسب قول إيزنمان، أساسها التعامل مع مصطلحات مجازية متغيرة باستمرار، اتضح لاحقاً أنها تباينات تشير إلى الموضوع نفسه.

كان إدراك هذه المشكلة في الحقيقة مطلباً مبكراً منذ العام ١٩٦٩، عبّر عنه البروفسور المعروف متى بلاك، من جامعة سانت أندروز باسكتلندا بقوله: «لقد تمَّ تعريف الأسينيين على نحو ضيّق للغاية، وذلك بإسقاط المصطلح حصراً على جماعة البحر الميت، ولو كنا مهيئين لفهم المصطلح بصفته وصفاً عاماً لحركة واسعة الانتشار، مضادة لأورشليم والفريسيين وغير منسجمة مع ذلك العصر، لأدركنا بأن المسيحية قد نشأت من هذا النمط الأسيني.

ما أورده المؤرخ أيفانيوس يؤيد وجهة نظر البروفسور بلاك، الذي صرح بأن «المسيحيين» الأوائل في يهودا كانوا يُدعون النصارى، كما كانوا يُعرفون باليسوعيين في «أعمال الرسل»، ويتطابق قول المؤرخ القديم مع رؤية البروفسور بلاك في أن جماعة قمران كانت حركة واسعة الانتشار، مضادة لأورشليم والفريسيين المهيمنين على الهيكل.

هنا أيضاً يوجد ما هو أكثر حسماً.

فقد استخدمت جماعة قمران مصطلحات عدة لتعريف نفسها، كما سبق ذكره، من بينها «المحافظون على العهد» وأصلها العبري Nozrei ha-Brit، نصريه ها ـ بريت، وقد اشتقت من هذا المصطلح تحديداً، المفردة «نصراني»، أحد الأسماء الأولى لما أصبح يُعرف فيما بعد بالمسيحيين. وتعود الكلمة العربية الحديثة «نصرانية» إلى المصدر نفسه، فالنصارى، إذن، كان المصطلح الذي استعمله أعضاء الجماعة الأوائل لتعريف أنفسهم، وفقاً لما ذكره أيفانيوس، مثل مصطلح اليسوعيين الذي جاء في «الأناجيل وأعمال الرسل». ولا يرجع المصطلح إلى مدينة الناصرة، حسب الافتراض الشائع في الكتابات المسيحية المتأخرة، فالمدينة لم تكن موجودة أصلاً في ذلك

العهد، وإنما ظهرت في القرن الثالث الميلادي. ويبدو أن حيرة الشارحين القدامى إزاء ذلك المصطلح غير المألوف: Nozrim دفعتهم إلى استنتاج قدوم الأسرة المقدسة من الناصرة، رغم أن المدينة لم تكن قد ظهرت على الخرائط بعد(١٧).

استناداً إلى علم الإيتمولوجيا Etymology(١٨)، توصل البروفسور بلاك إلى وجود حركة واسعة الانتشار، تتسم بالكنايات المتغيرة والتباين في الأسماء التي أُسقطت على المجموعة نفسها، التي أخذت تتغير مع الزمن عبر الترجمة والنقل بحروف لغات أخرى، فذلك أمر مألوف يشهد عليه ويصدقه الكثير من المفردات(١٩).

يتضح من شروح الجماعة على سفر «حبقوق» أن مركز الهيئة الحاكمة لقمران، مجلس الجماعة، كان يقع في ذلك الوقت في أورشليم، و«أعمال الرسل» تشير بدورها إلى أعضاء الجماعة الأولى، بالقول « ...حتى إذا وجد أناساً من الطريق رجالاً أو نساءً» (٢/٩)، والإشارة تتطابق مع أسلوب جماعة قمران في إشارتها إلى «الرفاق على الطريق».

هل كانت جماعة قمران مرادفة للكنيسة الأولى التي تمركزت في أورشليم أم كانت الاثنتان واحداً تتبعان بعضهما البعض؟!
سؤال كان ولا يزال يثير جدالاً واسعاً.

الهوامش:

(١) الفيلسوف والعالم الرياضي والمصلح الديني الإغريقي (٥٨٢ ـ ٥٠٠ق.م.)، الذي ينسب إليه مذهب التناسخ.

(٢) Baigent and Leigh, P. 246.

(٣) Crucification by an Eye-Witness.

(٤) الغنوصية مذهب العرفان الذي اعتنقه بعض المسيحيين بناء على اعتقادهم بأن المادة شر وبأن الخلاص يأتي عن طريق المعرفة الروحية.

(٥) Powell, P. 95.

(٦) انظر تاريخ **اليهود**، أحمد عثمان، الجزء الثاني (دار الشروق، القاهرة).

(٧) Shanks, P. 5-20.

(٨) Baigent and Leigh, P. 112.

(٩) **The Community Rule,** The First Column.

(١٠) **The Complete Dead Sea Scrolls in English,** Geza Vermes (The Penguin Press, 1994), The Community Ruls, P. 99.

(١١) Allegro, **Dead Sea,** P. 37.

(١٢) Verme, P. 475.

(١٣) Allegro, **Dead Sea, P.** 120.

(١٤) المصدر نفسه، ص ١١٧.

(١٥) Baigent and Leigh, P. 251.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٢٥٤.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٢٥٦.

(١٨) أصل الكلمات وتاريخها.

(١٩) مثال على ذلك، تغير مصطلح قيصر في اللغات الأجنبية من **Caesar** إلى **Kaiser** وأخيراً أصبح **Tsar**.

الفصل التاسع

قراءة ما بين السطور

ليس صحيحاً ذلك الاعتقاد الشائع بأن «العهد الجديد» يحتوي على قصة حياة يسوع وقيامه بتأسيس «الكنيسة الأولى».. فالحقيقة التي يؤكدها الباحثون، هي أن ما لديهم من مواد لا يعدو مقتطات غير متجانسة، بل أيضاً متناقضة.

يستطرد الكاتب الأميركي، أ. باول دافيز A. Powell Davies، مضيفاً:

«إن معرفة بداية الكنيسة ليست بالأمر السهل أو المتاح، إذ تعترضه الكثير من العقبات، فليس مؤكداً قيام يسوع بتأسيس الكنيسة، أو حتى كانت لديه النية لفعل ذلك».

لهذا فمن المتعذر كتابة حياة يسوع الحقيقية لأسباب يصعب حصرها:

أولاً: نقص المعطيات.

ثانياً: الاختلافات الواضحة ليس بين الأناجيل الثلاثة الأولى وبين

إنجيل يوحنا فحسب، بل مع الأناجيل الكثيرة الأخرى.. وتلك مشكلة أشبعها المختصون بحثاً وتمحيصاً، وليست بحاجة إلى المزيد من الأدلة.

ثالثاً: المشاكل الكثيرة التي تغص بها الروايات عن بداية الكنيسة، ولهذا علينا الاعتراف صراحة بأن معلوماتنا أيضاً عن بولس وحياته مشوشة إلى درجة تدعو إلى اليأس.. فالموجود حالياً عن قيام الكنيسة، ليس في الحقيقة سوى مواد كثيرة، أثر تباينها سلباً على قيمتها التاريخية وجعلها محل خلاف. وهذا النقص الفاضح في المعلومات أمر مؤسف، لا نملك حياله سوى الاعتراف بمحدودية المواد، والكف عن التظاهر بمعرفة غير موجودة.

أخيراً وليس آخراً، لا يوجد هناك ما يؤكد قيام يسوع بتأسيس الكنيسة المسيحية، أو حتى ما يدل على توافر النية لديه للقيام بذلك. وهذه في حد ذاتها حقيقة فائقة الأهمية، لا تفتقر إلى المغزى. فيسوع لم يؤسس أية مؤسسة، ولعله ترك الحركة مرنة لينة، بحيث تستطيع التجسد أو التأقلم بحرية وحيوية، في أي شكل من أشكال التنظيم، وفقاً للظروف الموضوعية المتغيرة.

يخلص دافيز إلى القول، «من الأفضل رؤية الوضع على حقيقته» ثم ينتقل إلى انتقاد الموقف الرسمي التقليدي المقاوم للإيحاءات الجديدة والدلالات التي تطرحها وثائق قمران، والنظر إليها باعتبارها مجرد حدس لا مبرر ولا ضرورة له، قد يجلب الضرر والتشوش لما انتهى إلينا من نصوص تأسست وترسخت، ويفترض عدم المساس بها أو حتى مناقشتها. والحقيقة أن استقبال اللفائف الموغلة في القدم والمكتشفة حديثاً كان سيختلف تماماً لولا نطواؤها

على تلك المعطيات المغايرة للمفاهيم الشائعة، مع أنها أكثر منطقية وقبولاً لدى الباحثين[1].

المشكلة كما يوجزها دافيز وغيره من الباحثين في الغرب تكمن في انعدام البينات التاريخية حول حياة يسوع، وكيفية بداية الكنيسة المسيحية الأولى. والفقرة المبتسرة التي أوردها يوسيفوس مدحاً في يسوع، فندها الباحثون منذ زمن، ثم رفضوها بكاملها، باعتبارها «نوعاً من التحايل».

وبالرغم من صعوبة الوضع، فإن الأناجيل تظل الملاذ الوحيد، على أمل التمييز بين الأحداث الحقيقية وبين الأساطير، مع ضرورة الرجوع إلى الرسائل الدينية المستثناة (الأبوكريفا)[2] من «العهد الجديد»، لا سيما أنها دُونت في الفترة نفسها التي شهدت تدوين النصوص الرسمية الأخرى المعترف بها. فعلى سبيل المثال وليس الحصر، تمكن المؤرخون من تتبع رواية «القيام من بين الأموات» في «العهد الجديد»، وملاحظة الاختلافات التي أُدخلت عليها بقصد تثبيت الإيمان ومواجهة اعتراض غير المؤمنين. ولعل القديس بطرس بالغ بعضالشيء في ما أورده بصددها، إلى الحد الذي دفع آباء الكنيسة إلى استبعاد إنجيله من الكتب الرسمية.

يقول القديس بطرس في هذا الصدد:

«... بينما كان الجنود يتولون الحراسة، اثنين اثنين، في كل موقع.. سمعوا صوتاً عظيماً آتيا من السماء، ثم شاهدوا السموات تُفتح ويهبط رجلان يتلألآن بنور باهر؛ وأخذا يقتربان من القبر فإذ بالصخرة الموضوعة في المدخل تتدحرج بمفردها، لينفتح القبر ويدلف الرجلان داخله.. أسرع الجنود إلى قائد المائة وكبار

الضباط، (لأنهم أيضاً يقومون بالحراسة)، وبينما هم يخبرونهم بما رأوا إذا بالرجلين يخرجان من القبر، والثالث (يسوع) في إثرهما يتوكأ عليهما والصليب يسير من ورائهم.. وهنا سمعوا صوتاً آتياً من السماء، يقول ألم تعظ هؤلاء النيام؟ فإذا بالصليب يتولى الإجابة قائلاً: نعم»[٣].

يضيف إنجيل بطرس بأن الجميع سارعوا، بعد رؤيتهم لتلك الظاهرة العجيبة، إلى إبلاغ بيلاطس، الذي أخبرهم بأنه قد نفض يده من الموضوع برمته، ومن ثم اتفق الجميع على كتمان ما رآه الجنود، خشية مواجهة المتاعب مع اليهود في حال انتشر الأمر وأصبح معروفاً.

هذه الرواية من وجهة نظر دايفز محض اختلاق، رغم تجاوزها قليلاً لما أوردته الأناجيل الرسمية الأخرى بصدد الواقعة نفسها. ويتساءل الكاتب الأميركي: هل يمكن للباحثين اعتماد «العهد الجديد» من الناحية التأريخية بروايات كهذه؟!

نعم يمكنهم ذلك، يسارع دايفز بالرد على تساؤله، شريطة أن يتم التمييز بين التاريخي، أي بين الحدث الواقعي وبين الأسطورة، فالمشاكل التي يواجهها الباحثون في مسألة «القيامة من بين الأموات»، لا تقل بحال عن مشكلة الميلاد. وهكذا تتوالى التساؤلات.

هل قام المجوس فعلاً برحلتهم، أم أن القصة مستقاة من أساطير بارثيا القديمة حين ذهب المجوس محملين بالهدايا للإله مثراس[٤]، إله النور المدافع عن الحقيقة وبطل فارس ومخلّصها؟ أم أن القصة مستوحاة من أسطورة بحث المجوس عن فرافيشي، الملاك الحارس للإنسان، الذي ظهر إيذاناً بمولده نجم ساطع في السماء الشرقية؟!

احتمالات لها ثقلها، ولكنها لا تحل مع ذلك المسألة التاريخية.

وتنسحب المشكلة نفسها على مكان ميلاد يسوع المسيح وتاريخه[٥]. فأي بيت لحم تلك التي شهدت مولده، هذا إن كان حقاً قد ولد فيها، أتلك الموجودة في يهودا، أم الأخرى الواقعة في الجليل؟! والأرجح أن متى، وهو مطّلع بعمق على النسخة العبرية للعهد القديم، قد أسقط ما جاء في سفر ميخا على يسوع «أما أنت يا بيت لحم... فمنك يخرج الذي يكون متسلطاً على إسرائيل» (٥/٣).

وتاريخ الميلاد، المحدد بالخامس والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر، بات هو الآخر موضع تساؤل الباحثين. أليس يتفق وعيد ميلاد «مثراس» إله النور، إذ تبدأ الشمس، وهي رمزه، في الصعود إلى كبد السماء في هذا اليوم[٦]؟!
كان مثراس يعدّ أيضاً مخلِّصاً للإنسانية شأنه شأن تموز وأدونيس وأوزوريس، وقد بقيت مدن سورية ترحب ببعث الإله تموز وتنادي قائلة:

«لقد قام أدونيس (الرب)، وتحتفل في آخر أيام عيده بارتفاعه إلى السماء. ويعطي عيد الفصح مثلاً واضحاً آخر على تبني المسيحية للأعياد والمناسبات الخاصة بديانات الشرق القديمة، باتخاذ الكنيسة الشهر الرابع نيسان/ أبريل عيداً لقيامة المسيح، الذي يوافق أيضاً قيامة أدونيس»[٧].

دع عنك جانباً، مشكلة مذبحة المواليد، التي لم تأتِ على ذكرها قط المصادر التاريخية الأخرى، فيما عدا إنجيل متى، فهل يمكن لمؤرخ مثل يوسيفوس التغافل عن مذبحة وحشية بهذا الحجم!

لا عجب أمام وضع كهذا أن يمعن الباحثون في التساؤل:

هل قام القديس متى باختلاق هذه المذبحة حتى تتحقق نبوءة راحيل المنتحبة على أولادها؟!

أتراه قام للسبب نفسه بإرسال العائلة المقدسة إلى مصر «لكي يتم ما قيل من الرب بالنبي القائل من مصر دعوت ابني» (متى ٥/ ١٥).

غير أن النص الموجود في سفر هوشع (١/١١) يقول «لما كان إسرائيل غلاماً أحببته ومن مصر دعوت ابني»، وتلك كناية عن شعب، وليس المسيح.

تتكرر المشكلة نفسها مع موعظة الجبل، فمتّى يطرحها دفعة واحدة ومن مكان واحد، بينما يقدمها لوقا مجزأة ويربطها بسلسلة من الأحداث.

هذه مجرد أمثلة لبعض ما يقابله الباحثون والمؤرخون عند تناولهم لحياة يسوع الحقيقية بالتأريخ، وهي المشاكل عينها التي يواجهونها أيضاً عند معالجتهم لمرويات «العهد القديم».

قصارى القول، المؤرخون حائرون بشأن كمية المواد المستقاة من مصادر ترجع إلى عصور أقدم وأبعد. ناهيك عما أضافه المحررون والمصنفون فيما بعد، بهدف تعميق الإيمان وترسيخه، عدا التنقيح الذي قام به آباء الكنيسة إبان تفجر الخلافات المذهبية. فالمخطوطات المعتمدة حالياً تعود إلى القرن الرابع الميلادي وليس أبعد من ذلك!

هل تقدم «أعمال الرسل» حلاً؟

توجه بعض الباحثين إلى «أعمال الرسل» بحذر وحرص شديدين شأنهم دائماً في دراسة الأعمال الصادرة عن الموالين والأنصار.

فعليهم فحصها بعناية لإدراك كيفية خروج هذا العمل والخدمة من، فضلاً عن الهدف المتوخى منه في النهاية. تشتمل «أعمال الرسل» على رواية مميزة عن السنوات الأولى للمسيحية تنطوي على معلومات أساسية ليست متاحة في أي مصدر آخر، في حين سعت الأناجيل الرسمية إلى استحضار أحداث وقعت في زمن بعيد، ربما تجاوز السبعين عاماً، مما جعلها تنزلق في عجالة على الخلفية التاريخية، لتركز أساساً على شخصية يسوع الأسطورية وتعاليمه، فجاءت نصوصها بأسلوب شعري، تنتفي معه المعالجة التأريخية.

انكب الباحث الأميركي إيزنمان على دراسة «أعمال الرسل» وتفحصها بدقة ليخرج برؤية مغايرة لما استقر عليه المفهوم الشائع. فأعمال الرسل تتبع أسلوباً مغايراً للأناجيل، وهي على الأرجح من تأليف لوقا، الذي استند كما يبدو واضحاً إلى مصادر مختلفة، ثم عمد إلى إعادة صياغة المادة بحرية لتتفق وأهدافه الخاصة. وقد بُذلت لاحقاً محاولات متواضعة لتوحيد المذهب العقائدي وأسلوب كتابته، اعترف معها حتى مؤرخو الكنيسة بأن الناحية التاريخية تبدو مشوشة وقلقة، فالمؤلف على ما يبدو لم يكن على صلة مباشرة بالكثير من الأحداث التي يسردها، فأحياناً يدمج أحداثاً منفصلة في واقعة واحدة وأحياناً أخرى يفعل العكس. تبرز هذه المشكلة على نحو خاص في الأحداث التي تسبق ظهور شاؤول ـ بولس لاحقاً ـ على مسرح الأحداث. ويلفت الباحث الأميركي الانتباه إلى أن «أعمال الرسل» قد وضعت على نحو انتقائي، ولم تسلم من التبديل والتغيير على يد المحررين في مراحل عديدة لاحقة.

مع ذلك، تشكل «الأعمال» نوعاً ما من التأريخ وتعد محاولة لحفظ

سجل تاريخي يغطي على الأقل فترة متصلة من الزمن في مراحل معينة، جاءت على يد كاتب اعتمد في تناوله للأحداث على مصادر، مباشرة أو غير مباشرة. ويمكن للعين المدربة جيداً قراءة ما بين السطور لاستشفاف الحقيقة واستخلاصها.

تبدأ «أعمال الرسل» روايتها بعد محنة الصلب بفترة وجيزة، ما بين عام ٣٠ إلى أواخر عام ٣٦م، وتنتهي في فترة تقع ما بين ٦٤ ـ ٦٧م. والاعتقاد الشائع أن الرواية المطروحة، في «الأعمال»، قد وضعت ما بين ٧٠ ـ ٩٥م، ولعلها جاءت متزامنة بصورة ما مع بعض الأناجيل، بل لعلها سبقت الأناجيل الرسمية المعترف بها. مؤلف الأعمال كما يبدو رجل يوناني متعلم يقدم نفسه باسم لوقا، وسواء كان هو نفسه لوقا «الطبيب الحبيب» الذي أشاد به بولس كصديق مقرب، في رسالته إلى الكولوسيين (١٤/٤) بقوله «يسلم عليكم لوقا الطبيب الحبيب»، أم كان لوقا مؤلف الإنجيل الذي يحمل الاسم نفسه، فتلك أمور لا يمكن التأكد منها، على نحو قاطع، رغم ميل معظم باحثي «العهد الجديد» إلى القول بأنهما شخص واحد، وذلك لن يؤثر بحال على القراءة المتأنية للأعمال. تُعتبر الأعمال، بشكل عام، الجزء الثاني من إنجيل لوقا. فكلاهما موجه إلى شخص غير معروف يدعى ثاوفيلس، وكلاهما كتب باللغة اليونانية حيث تُرجمت الكثير من الأسماء والمفردات إلى اليونانية. وهناك احتمال بوقوع تغيير دقيق في المعاني نتيجة الترجمة من الأصل الآرامي أو العبري. على أية حال، فإنجيل لوقا والأعمال موجهان لمخاطبة الجمهور اليوناني، وهو جمهور يختلف عن ذلك الذي تخاطبه وثائق قمران.

تركز «أعمال الرسل» بصورة أساسية على بولس، فنصفها الأخير

يتمحور حوله، كما تعرض قصة علاقته بجماعة أورشليم، خصوصاً الأتباع المباشرين ليسوع، بقيادة يعقوب البار «أخ الرب»، وهي المجموعة التي أصبحت تعرف فيما بعد بالمسيحيين الأوائل وبأعضاء الكنيسة الأولى. غير أن «الأعمال»، إذ تطرح هذه العلاقة، فإنما تطرحها من وجهة نظر بولس، بما يمكن اعتبارها وثيقة بولس والمرجعية المسيحية الأولى. ففيها يبدو بولس البطل الفذ الفائز المنتصر على الدوام، ومن يتجرأ على معارضته، سواء كان السلطة أم يعقوب البار، يُدمغ من فوره بالنذالة والخسة.

تبدأ «الأعمال» روايتها بعد فترة وجيزة من اختفاء يسوع الناصري من مسرح الأحداث، فتمضي في وصف تنظيم الجماعة وتطورها، أو ما يعرف بالكنيسة الأولى في أورشليم، واحتكاكها المتصاعد مع السلطات. فتقوم الأعمال على استحضار الجماعة الأولى بحيوية وتدفق:

«جميع الذين آمنوا كانوا معاً وكان عندهم كل شيء مشتركاً. والأملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع كما يكون لكل واحد احتياج. وكانوا كل يوم يواظبون في الهيكل بنفس واحدة» (٢/٤٤ - ٤٦).

وجدير بالملاحظة هنا، إشارة النص إلى احترام الجماعة وتوقيرها للهيكل، فضلاً عن الحياة المشتركة.

ثم تقدم «الأعمال» في الإصحاح السادس أستفانوس بصفته «الشهيد الأول للمسيحية»، الذي حُكم عليه بالرجم حتى الموت. يقول أستفانوس مدافعاً عن نفسه أمام أحفاد الذين تنبأوا بقدوم البار:

«يا قساة الرقاب... أنتم دائماً تقاومون الروح القدس. كما كان

آباؤكم كذلك أنتم. أي الأنبياء لم يضطهده آباؤكم وقد قتلوا الذين سبقوا فأنبأوا بمجيء البار الذي أنتم الآن صرتم مسلميه وقاتليه» (أعمال ٧/٥١ ـ ٥٣).

لم يكن مصطلح البار المصطلح القمراني الوحيد الذي ورد في خطاب أستفانوس، فحين مضى يحدد مضطهديه قال:

«أنتم الذين أخذتم الناموس بترتيب ملائكة ولم تحفظوه» (أعمال ٧/٥٣).

أستفانوس كما يبدو في «الأعمال» رجل ملتزم بالناموس بدقة. يلمز قضاته، أي المؤسسة الكهنوتية الرسمية، لتهاونها في حفظ الناموس. وهذا يناقض في حد ذاته اتهام الكهنوت الفريسي للمسيحيين الأوائل، بالدعوة إلى المزيد من التحرر والمرونة، وبتحدي التقاليد والعادات المترسخة.

أين المنطق، إذن، في الحكم على أستفانوس بالموت رجماً، من قبل هيئة رسمية من المفترض أنها الأشد حرصاً والتزاماً بالناموس؟!

إن السياق التاريخي وحده يوضح أسباب ذلك التناقض، فالسلطة اليهودية الحاكمة ومؤسسة الهيكل الرسمية تكيفتا مع السلطات الرومانية الوثنية. واتخذتا موقفاً متعاوناً مع السلطة الأجنبية المحتلة، حرصاً على استمرار مصالحهما والتمتع بحياة رغدة هانئة، فآثرا الابتعاد عن المقاومة وما تجلبه عادة من أخطار ومساءلة هما في غنى عنها.

يؤكد النص موقف أستفانوس الحازم، وهو عضو في «الكنيسة الأولى»، في التمسك بالناموس، بينما مضطهدوه من المؤسسة الكهنوتية الرسمية يحتالون للمحافظة على علاقات ودية مع الرومان، فلن يضيرهم كثيراً انتهاك الناموس قليلاً طالما هم

يحافظون على شكلية الطقوس، أو حتى خيانة بعض بنوده إذا اقتضى الأمر ودفعتهم الحاجة، بما يؤمن لهم استقرار مصالحهم الخاصة ويضمن استمرارها.

في هذا السياق وحده يمكن فهم واستيعاب منطق الطرفين، أستفانوس وقضاته في آن معاً. وسوف يجسد يعقوب البار لاحقاً التزامه الصارم بالناموس ليلقى هو الآخر مصير أستفانوس، في السياق نفسه(٨).

يظهر بولس الطرسوسي للمرة الأولى، وفقاً للأعمال، على مسرح الأحداث أثناء رجم أستفانوس، حين أخذ يراقب المشهد الدموي وتحت قدميه ملابس القتلة «وأخرجوه خارج المدينة ورجموه. والشهود خلعوا ثيابهم عند رجلي شاب يقال له شاؤول» (٧/٥٨ ـ ٥٩).

تتابع الأعمال في إصحاحها التالي القول بأن «شاؤول كان راضياً بقتله» (٨/١)، ويحمل الإصحاح التاسع (٢١ ـ ٢٢)، اتهاماً صريحاً لشاؤول بضلوعه في تدبير الهجوم على أعضاء الجماعة الأولى، الذي بلغ ذروته في مصرع أستفانوس. الأمر الذي يوضح أن شاؤول كان حتى ذلك الحين من أشد الناس تطرفاً في عداوته «للكنيسة الأولى»، أو بعبارة أدق للجماعة الأولى، فما أن رآه أتباعها في الهيكل حتى انفجروا صائحين «أليس هذا هو الذي أهلك في أورشليم الذين يدعون بهذا الاسم. وقد جاء إلى هنا ليسوقهم موثقين إلى رؤساء الكهنة» (٩/٢٢ ـ ٢٣).

كان ذلك موقف أتباع الجماعة الصريح من شاؤول الذي سعى جاهداً لاستئصال شأفتهم وتدميرهم عن آخرهم، «وأما شاؤول

فكان يسطو على الكنيسة وهو يدخل البيوت ويجر رجالاً ونساء ويسلمهم إلى السجن» (٣/٨ ـ ٤).

إذن، شاؤول كان حتى ذلك الوقت المتأخر تابعاً للكهنة الفريسيين الموالين لروما الوثنية المحتلة، وقبل هؤلاء وأولئك حليفاً للهيروديين، الحكام الدمى التابعين للرومان. وبولس نفسه، شاؤول سابقاً، أقر بتبعيته للفريسيين عن طيب خاطر، استناداً إلى «الأعمال» التي أوردت ما نصه «ولما علم بولس أن قسماً منهم صدوقيون والآخر فريسيون صرخ في الجمع: «أيها الرجال الأخوة أنا فريسي ابن فريسي» (٦/٢٣). ولعل شاؤول، بولس لاحقاً، كان أحد هؤلاء التلاميذ الهيروديين، الذين ذكرهم متى في إنجيله، والذين دُفع بهم للإيقاع بيسوع بسؤاله عن جواز دفع الجزية لقيصر:

«حينئذٍ ذهب الفريسيون وتشاوروا لكي يصطادوه بكلمة. فأرسلوا إليه تلاميذهم مع الهيرودين... فقل لنا ماذا تظن. أيجوز أن تُعطى الجزية لقيصر أم لا... فقال لهم أعطوا إذاً ما لقيصر لقيصر وما لله لله» (١٩/٢٢ ـ ٢٢).

هل تجسد تلك المقولة التي ذهبت مثلاً موقف يسوع تجاه القيصر؟!

وكيف يمكن التوفيق بين مقولة يسوع الشهيرة هذه، وبين ما يورده لوقا في إنجيله بصدد واقعة اقتياد بعض العامة ليسوع واتهامهم له أمام بيلاطس قائلين:

« ...إننا وجدنا هذا يفسد الأمة ويمنع أن تعطى جزية لقيصر قائلاً إنه هو مسيح ملك» (لوقا ١/٢٣ ـ ٢).

هذه لائحة اتهام ليست بالهينة أمام سلطة أجنبية محتلة، تتضمن

دعوة صريحة إلى التمرد والعصيان وربما الثورة على السلطة المحلية الحاكمة ومؤسسة الهيكل المواليتين للرومان أصحاب السيادة الفعلية. يؤكد ذلك قول العامة في حضرة بيلاطس:

«إنه يهيج الشعب وهو يعلم في كل اليهودية مبتدئاً من الجليل إلى هنا» (٧/٥ - ٦).

ويتفق هذا الموقف الثوري الحازم مع ما أورده متى منسوباً إلى يسوع:

«لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً على الأرض. ما جئت لألقي سلاماً بل سيفاً» (٣٤/١٠).

اللافت بشكل خاص، أن مواقف يسوع والاتهامات التي كالها له الخصوم لا تنسجم البتة مع ما أورده بولس في رسالته إلى أهل روما حين أعلن صراحة «الجزية لمن له الجزية. الجباية لمن له الجباية» (١٣/ ٧) فضلاً عن دعوته في الرسالة نفسها إلى محبة الجار «أن تحب قريبك كنفسك» فأي قريب أو بالأحرى جار يقصد بولس بدعوته تلك؟!

سؤال لا بد أن تقود الإجابة عليه إلى محاولة التعرف عن كثب إلى شخصية بولس من خلال أقواله الواردة في «الأعمال» بالدرجة الأولى.

يقول بولس في رسالته الأولى أهل كورنثوس:

«استعبدت نفسي للجميع لأربح الأكثرين. فصرت لليهود كيهودي لأربح اليهود. وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس. وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس.. صرت للكل كل شيء لأخلص على كل حال قوماً» (٩/٢٠ - ٢٢).

قول كهذا لا شك يشير إلى رجل متلون يعطي كل اتجاه ما يرضيه. ولكنه يظل بناء على تعاليمه، منخرطاً في مهاودة الرومان والتكيف معهم، كيف لا وهم القوة العالمية الأولى، آنذاك، وهو في موقفه هذا متسق تماماً مع مؤسسة الهيكل والأسرة الهيرودية الحاكمة. وقد نوهت «الأعمال»، بدورها، بعلاقة شاؤول الوثيقة برئيس الكهنة، قبل تحوله المثير في طريقه إلى دمشق.

والمقصود بالعلاقة هنا، الانتماء الدين/ سياسي غير المناهض للهيروديين والملتفين حولهم، وهو انتماء لم يقتصر على فلسطين وحدها، بل يمتد إلى آسيا الصغرى حتى روما، حيث تمتع الهيروديون بنفوذ واسع. وتلك المنطقة كانت كما هو معروف المسرح الأساسي لمهمة بولس التبشيرية!!

بداية، يمضي بنا إيزنمان لتفحص «أعمال الرسل» والاطلاع عليها بتمعن في محاولة لقراءة ما بين السطور.

يبدأ الإصحاح التاسع حديثه بشد شاؤول الرحال على رأس قوة ضاربة، بعد رؤيته مصرع أستفانوس بفترة قصيرة، إلى دمشق لإعادة أعضاء الجماعة الأولى مقيدين في الأصفاد إلى أورشليم بناء على تفويض رسمي من سيده الكاهن الأكبر. من المؤكد أن دمشق لا تعني هنا دمشق السورية، المقاطعة الرومانية حينها، لأسباب نوضحها لاحقاً، وإنما تخص موقعاً أُطلق عليه من باب التورية دمشق، وهو الموقع نفسه الذي ظهر في «وثيقة دمشق».

تعرض شاؤول في طريقه، لتنفيذ المهمة الرسمية الموكلة إليه، لتجربة أوردتها «الأعمال» على النحو التالي:

« ...عند الظهر أن سطع حولي من السماء بغتة نور عظيم،

فسقطت على الأرض، وسمعت صوتاً يقول لي: شاؤول شاؤول لماذا تضطهدني». طالب شاؤول الصوت بتعريف نفسه، فما لبث الصوت أن أخبره بأنه يسوع وأمره بالتوجه إلى دمشق ليتعلم ما يتوجب عليه فعله. حين استرد شاؤول وعيه وتوازنه، اكتشف أنه قد أصيب بالعمى المؤقت، ولكنه سرعان ما استرد بصره على يد عضو قديم في الكنيسة الأولى، وتمَّ تعميده ليتحول بعدها إلى بولس.

أما القوة الضاربة المرافقة لشاؤول في المهمة الموكولة إليه، فلا أحد يعلم ما الذي حلَّ بأعضائها، فالأعمال لم تلفت إليهم، ولم تورد شيئاً عن ردة فعلهم إزاء ما ألمّ فجأة بقائدهم شاؤول وما تبعه من تغيير جذري لخططه، اللهم، سوى اقتياده وإدخاله إلى دمشق!!

تناول الباحثون المعاصرون، خصوصاً علماء النفس، تجربة شاؤول بالدراسة، فخرجوا بالقول بأن التجربة ليست بالأمر غير المألوف، ولا تخرج عن أحد الأسباب التالية: ضربة شمس، نوبة صرع، نوع من الهيستيريا أو لعلها ردة فعل نفسية، ويحتمل أن تكون صحوة مفاجئة لضمير رجل تلطخت يداه بدم رجل بريء. أما شاؤول فقد فسّر تحوله بتجلي يسوع، الذي لم يسبق له رؤيته أو معرفته شخصياً[٩].

أياً كان جوهر التجربة، فقد تحول الرجل في طرفة عين من شاؤول الخصم العنيد إلى بوليس الداعية المتحمس لتعاليم «الكنيسة الأولى»، بعد أن كان حتى لحظة قريبة عازماً على اجتثاثها من جذورها. وهكذا، التحق بولس بالجماعة ليصبح أحد التابعين أو المبتدئين على الطريق.

استناداً إلى ما أورده بولس في رسالته إلى أهل غلاطية (١٧/١ -

١٨)، فقد بقي تحت وصاية الجماعة لثلاث سنوات حيث قضى معظم الوقت في دمشق. لا بد أن تستدعي هذه السنوات الثلاثة إلى الذهن «قانون جماعة قمران»، وما نص عليه من ضرورة قضاء الراغبين في الانضمام للجماعة لثلاث سنوات بغية الإعداد والاختبار.

يقول بولس في رسالته:

«... فمن ساعتي لم أفاوض ذا لحم ودم، ولا صعدت إلى أورشليم إلى من هم رسل قبلي، بل سرت إلى ديار العربية[١٠]، ورجعت إلى دمشق أيضاً، ثم صعدت بعد ثلاث سنين إلى أورشليم» (غلاطية ١/١٧ - ١٨).

عاد بولس بعد سنوات إعداده الثلاث إلى أورشليم لملاقاة قادة الجماعة. ولا عجب فقد ارتاب معظمهم في بولس وتملكتهم الشكوك في حقيقة نواياه، فهم لم يطمئنوا تماماً إلى صدق تحوله.

تحدث بولس إلى أهل غلاطية عن زيارته تلك بقوله:

«... إلى أورشليم لأتعرف بيطرس فمكثت عنده خمسة عشر يوماً. ولكنني لم أرَ غيره من الرسل إلاّ يعقوب أخا الرب» (١/١٨ - ٢٠).

يتضح من حديث بولس أن جميع الأعضاء بمن فيهم الرسل، لم يأمنوا جانبه وتحاشوا لقاءه، فيما عدا الاثنين الذين ذكرهما.

يبدو جلياً من «الأعمال»، أن زيارة بولس هذه قد أثارت الكثير من النقاش والجدل، حتى أن بعض أعضاء الجماعة في أورشليم هددوا وهموا بقتله للتخلص من شروره المحتملة، ولعلهم أعدوا العدة لتنفيذ تهديدهم. لكن حلفاء بولس حالوا دون ذلك حين سارعوا بإخباره وإرساله إلى موطنه الأصلي طرسوس:

«... ولكنهم رأوا أن يقتلوه، فلما علمت الأخوة، أحضروه إلى قيسارية وأرسلوه إلى طرسوس، حينئذٍ استراحت الكنائس في جميع اليهودية والجليل والسامرة» (أعمال ٩/٢٩ - ٣١).

ترجح هذه الفقرة، الواردة في الأعمال، في رأي الباحث الأميركي أن ما حدث كان أقرب في الواقع إلى النفي والإبعاد. فالجماعة في أورشليم والأخرى في قمران كانتا مستغرقتين تماماً في الأحداث الجارية في فلسطين، فيما العالم الخارجي، وروما مركزه، يتابع باهتمام ما يدور في فلسطين ويراقبه عن كثب، خشية أن تنفلت الأمور ويصعب السيطرة عليها، مما يهدد الواقع الإقليمي واستقراره. ولعل جماعة أورشليم، ارتأت في مواجهتها للظروف الدقيقة الحرجة، أن إبعاد بولس عن بؤرة الأحداث يضمن سلامته حتى تنجلي حقيقة نواياه ويثبت ولاءه، وأيضاً اختباراً لمقدرته على تجنيد الأنصار وجمع الأموال والمواد التموينية. فإذا أصاب نجاحاً فأمر يحسب له، وفي حال فشل أو قتل فالجماعة في أورشليم لن تخسر شيئاً، خصوصاً أن الرجل كان مصدر إزعاج نتيجة موقفه العدائي السابق وارتباطاته المعروفة[١١].

وصل الترحال ببولس إلى أنطاكية حوالى العام ٤٣م. وهناك بدأ وللمرة الأولى إطلاق مصطلح المسيحيين على أعضاء الجماعة «...ودُعي التلاميذ مسيحيين في أنطاكية أولاً» (أعمال ١١/٢٦). قضى بولس في أنطاكية قرابة العام تأسست خلاله «الكنيسة الأولى»، وتمّ إبلاغ ذلك إلى يعقوب قائد الجماعة في أورشليم.
قطع بولس قرابة خمس سنوات ينشر التعاليم في أنطاكية، ويبدو أن خلافاً قد نشب بينه وبين جماعة أورشليم بسبب مضمون تعاليمه، حيث يذكر الإصحاح الخامس عشر من الأعمال وصول

ممثلين عن قيادة أورشليم إلى أنطاكية، ربما بهدف التحقق من ممارسات بولس:

«وانحدر قوم من اليهودية وجعلوا يعلمون الأخوة أنه إن لم تختتنوا حسب عادة موسى لا يمكنكم أن تخلصوا؟ فلما حصل لبولس وبرنابا منازعة ومباحثة ليست بقليلة معهم، رتبوا أن يصعد بولس وبرنابا وأناس آخرون منهم إلى الرسل والمشايخ إلى أورشليم من أجل هذه المسألة» (١٥/١ - ٤).

يستشف من مضمون النص، أن هؤلاء القادمين من قبل القيادة في أورشليم إلى أنطاكية، أكدوا لبولس ضرورة الالتزام بشريعة موسى شرطاً للخلاص، واتهموه بالليونة والتحلل، ومن ثم أمروه وبرنابا بالعودة إلى أورشليم للتباحث مع قادتها حول هذه القضايا. ويبدو أن تصدعاً قد وقع بين بولس ويعقوب، بسبب الخلاف حول الالتزام بشريعة موسى، ثم أخذ في الاتساع، ليتحول مؤلف «الأعمال» بدوره إلى المدافع الأول عن بولس وتوجهاته المغايرة.

يعتبر الباحث الأميركي جوناثان سميث أن تحول بولس المفاجيء يمثل انقلاباً مثيراً للمفاهيم المقدسة القديمة، بدا للكثيرين وسيلة للتحرر من طقوس عتيقة مضنية إلى أخرى أخف وطأة، تأهيلاً لإدماج الجميع على حد سواء في المسيح على المستوى الروحي، مشكلاً بذلك بداية الانتقال من مرحلة المعبد المقدس الضارب بجذوره في أرض معينة، إلى مرحلة الرجل المقدس غير المقيد بمكان محدد. منذ تلك اللحظة أصبح بولس بجدارة الرحالة والبطل العالمي، وليس يعقوب الصديق المرابط مع غيره من «الأعمدة» في أورشليم(١٢).

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

السؤال الآن

هل انصب الخلاف حقاً على جدوى مراعاة الناموس حرفياً من دون نقصان، من ختان وخلافه، أم أن ذلك تسطيحاً لخلاف جوهري كان أكثر عمقاً؟

يؤكد الباحث الأميركي إيزنمان، أن الخلاف وما لحقه من تطورات متسارعة على أرض فلسطين كان جوهرياً، مما يجعل بولس المسيحي الهرطقي الأول بحق، الذي أرست تعاليمه، المتناغمة بعمق مع التطورات الدين/ سياسية في العالم الروحاني اليوناني القديم، أسس المسيحية اللاحقة. وتمثل تعاليم بولس، في نظره انحرافاً فاضحاً عن «الطهارة» و«الصفاء»، حجري الأساس في دعوة جماعة أورشليم ورئيسها «يعقوب أخ الرب». فمن الواضح على ضوء المكتشفات الحديثة في قمران ونجع حمادي، أن يعقوب، سواء كانت أخوته ليسوع بالمعنى البيولوجي أو العقائدي، قد جمعته صلة وثيقة به، شأن غالبية أعضاء «الكنيسة الأولى»، فأحاديث هؤلاء وتعاليمهم لا بد مستقاة من المنبع الأول مباشرة، الأمر الذي يضفي عليهم مسؤولية شرعية لم تتأت لغيرهم. في حين لم يحظ بولس على الإطلاق بشرف المعرفة الشخصية لمن أخذ يعتبره «مخلّصه»، فما كان لديه لم يتعد شبه تجربة صوفية في الصحراء الملتهبة، سمع خلالها صوتاً غير مجسّد، وهذا في حد ذاته لا يخوله ادعاء سلطة مسؤولة، بل لعله تجاوز فاضح(١٣).

استحواذ بولس اللاحق على المرجعية الدينية وادعاؤه السلطة، أديا إلى تشويه تعاليم يسوع إلى حد الشطط. ناهيك عن صياغته لدينه الخاص على نحو جسد فيه ذاتيته المتضخمة، ثم نسب ذلك إلى يسوع لإضفاء الشرعية على كل ما يدعيه، أو بالأحرى نسبه إلى

يسوعه الخاص كما أراده وكما صوره له خياله[١٤].

غير أن يسوع الحقيقي كان ملتزماً بدقة بشريعة موسى، فهو يعلن مؤكداً «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل» (متى ٥/١٧). وتنفي مقولة يسوع الواضحة، في حد ذاتها، عنه الدعوة لعبادة أي شيء هالك، بما فيه شخصه، فذلك بهتان وأكثر ضروب التجديف تطرفاً. لقد بيّن يسوع موقفه بوضوح في الأناجيل، حين كان يحث أتباعه على عبادة الله وحده، فعند اتهام المجمع له بالتجديف وادعاء الألوهية، وفقاً لإنجيل يوحنا، أخذ يردد على مسامع قضاته ما جاء في المزمور ٨٢[١٥]: « ...أليس مكتوباً في ناموسكم أن قلت إنكم آلهة؟ أن قال آلهة لأولئك الذين صارت إليهم كلمة الله» (يوحنا ١٠/٣٥).

لقد حاول بولس، في الواقع، أن ينحي الله جانباً وشرع يؤسس، بمعزل عن جماعة أورشليم، عبادة يسوع ليجعله مربط الخلاص ومركزه، على نحو يقارب عبادة أدونيس وتموز، الآلهة الحيثيين، أو أي آلهة تموت وتحيا، ليصبح يسوع منافساً لتلك الآلهة المنتشرة حينها في الشرق القديم. وكل ما ألصقه بولس بيسوع يناقض في غالبيته العقيدة الصافية التي استمر يدعو إليها خليفته المباشر يعقوب، ومن معه من الأعمدة في أورشليم. لذلك كان من المنطقي أن يرتاع هؤلاء جميعاً وينزعجوا لما أخذ يلقيه بولس من تعاليم لدى «الأميين» الأغيار، أما بولس فكان يعلم جيداً ما يقوم به، وكم كان بارعاً في استخدام أساليب الدعاية الدينية، وكيفية تحويل إنسان إلى إله، في بيئة خصبة لم تجد تجاوزاً عما آلفته، بل لعله فاق الرومان حذقاً ومهارة فيما أصبغوه على قياصرتهم من ألوهية[١٦].

الأشد غرابة، اعتراف بولس الصريح، بما لا يحتمل اللبس، بأنه لا يستمد العون من يسوع التاريخي، يسوع الإنسان الذي عرفه يعقوب وبطرس وغيرهما من الأعمدة عن كثب وبشكل شخصي، فنراه يقول في رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس (٣/١١ ـ ١٥):

«ولكني مشفق من أنه كما أغوت الحية حواء بدهائها كذلك تفسد ضمائركم بوجه ما عن السذاجة التي هي في المسيح... ....سلبت كنائس أخرى آخذاً أجرة لأجل خدمتكم... .... أن حق (حقيقة) المسيح هو فيَّ لا يبطل هذا الفخر بي في أقطار أخائية... ...ولكن ما أفعله الآن فسأفعله لأقطع فرصة تعلل الذين يريدون الفرصة ليوجدوا مثلنا فيما يفاخرون به، لأن أمثال هؤلاء رسل كذبة عملاء خداعون يغيرون شكلهم إلى شكل رسل المسيح، ولا غرو فإن الشيطان نفسه يغير شكله إلى شكل ملك من نور، فليس بعظيم إن كان خدامه أيضاً يغيرون شكلهم إلى شكل خدام البر».

غني عن القول، أن بولس يلمز في رسالته جماعة أورشليم، بدعوى أنهم يدعون إلى أتباع يسوع آخر، ويُعرّفون أنفسهم بـ «خدام البر»، وهذا المصطلح كما ينوه الباحثون، مصطلح قمراني كثيراً ما يتخلل وثائق البحر الميت!

منذ تلك اللحظة، أصبحت قيادة جماعة أورشليم خصماً لدوداً لبولس في المضمون والهدف بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى. عاد بولس إلى أورشليم بناء على استدعاء القيادة حوالى العام ٤٨ ـ ٤٩م، وما لبث الخلاف أن تفجر مجدداً، وارتفعت وتيرة الصراع. فآثر يعقوب عندها، وفقاً للأعمال، التوصل إلى حل وسط حفاظاً على وحدة الجماعة والسلام فيما بينها، وتشجيعاً في الوقت نفسه

للوثنيين على الالتحاق بالجماعة. هذا الموقف يبدو غريباً في نظر إيزنمان، فكيف برجل مثل يعقوب يلتزم الناموس بصرامة، أن تهاون في بعض مبادئه حرصاً على استمرار تدفق الأموال التي يجمعها بولس من الخارج، من أجل كنيسة أورشليم وفقرائها!!

أياً كانت حقيقة ذلك الموقف المتناقض، فبولس كان لا يزال بحاجة إلى مصادقة القيادة في أورشليم، ليس لإضفاء الشرعية على مهمته التبشيرية لدى الأغيار فحسب، بل حرصاً على استمرار الجماعات التي أسسها في الخارج. ويبدو أنه نجح، من خلال مداهنته للأعضاء، في الانطلاق إلى مهمة تبشيرية جديدة، تخللتها زيارة أخرى إلى أورشليم:

«بل ودعهم قائلاً: ينبغي على كل حال أن أعمل العيد القادم في أورشليم. ولكن سأرجع إليكم أيضاً إن شاء الله» (الأعمال ١٨/ ١٢).

جاءت معظم رسائل بولس في تلك الفترة، ما بين ٥٠ ـ ٥٨م. وينبيء الفحص الدقيق لمضمونها الباحثين المدققين، بأن مواقف بولس أخذت في الابتعاد كثيراً عن القيادة في أورشليم، وعن الناموس الذي تتمسك به.

يلمح بولس بترفع مرير في رسالته إلى أهل غلاطية، متهكماً على قيادة أورشليم بقوله:

«وأما المعتبرون أنهم شيء مهما كانوا لا فرق عندي» (٢/٧).

لا يستشف من قول كهذا، سوى انحراف موقف بولس العقائدي، على نحو يتعذر إصلاحه، ويفصح عن لامبالاته بموقف قيادة أورشليم والناموس الذي تلتزم به. يتابع بولس تحديه في الرسالة نفسها بالقول:

«إذ نعلم أن الإنسان لا يتزكى بأعمال الناموس بل بالإيمان بيسوع المسيح، وكذا نحن آمنّا بيسوع المسيح لنتزكى بالإيمان بالمسيح لا بأعمال الناموس لأنه لا يتزكى بشر بأعمال الناموس» (١٦/٢ - ١٧)[١٧].

ثم نجده يخاطب أهل فيلبي قائلاً:

«بل أحسب كل شيء خسراناً لأجل أفضلية معرفة المسيح يسوع ربي الذي لأجله خسرت الأشياء كلها وأحسبها ذُبالاً لأربح المسيح، وأوجد فيه غير حاصل على تزكيتي التي هي من الناموس، بل التي هي من الإيمان بالمسيح التي هي من الله بالإيمان» (٩/٣ - ١٠).

هكذا ركز بولس الإيمان ومحوره في يسوع المسيح حصراً، منحياً الناموس، أي الشريعة، والعمل الإنساني جانباً[١٨].

يعلق الكاتب الأميركي بايجنت على أقوال بولس هذه، بأنها تمثل تحدياً واستفزازاً سافراً لمرتد يعلن ارتداده على الملأ، لينطلق لاحقاً إلى تطوير مسيحية منبتة عن جذورها الأولى، لا يجمعها وتعاليم يسوع أية صلة، بل تقتصر وتنصبّ حصراً في مفهوم بولس الخاص وتصوره الشخصي ليسوع، ولا شيء أكثر[١٩].

عاد بولس إلى أورشليم بحلول عام ٥٨م، رغم توسل أتباعه بعدم العودة خشية تعرضه للمشاكل مع قيادة الجماعة. التقى هناك بيعقوب والأعمدة الآخرين. ولا غرو أنهم أبدوا خشيتهم التي يشاركهم بها «الغيورون على الناموس»، من أسلوب تبشير بولس خارج فلسطين، الذي يدفع اليهود والراجعين من الأمم إلى التفريط بشريعة موسى، وذلك اتهام له ما يبرره وتنطق به رسائله. لم تذكر

«الأعمال» شيئاً عن ردة فعل بولس إزاء تلك الاتهامات، مما يُستشف منه أنه أنكرها مقسماً بأغلظ الأيمان على براءته.. وعندها طالبته القيادة بالتطهر لسبعة أيام، برهاناً على بطلان التهم:

«والآن فلم تتأخر قم واصطبغ فاغتسل من خطاياك مستغيثاً باسم الرب» (الأعمال ٢١/٢٢ ـ ٢٥).

امتثل بولس، ولا أفضل، للأمر من فوره.

نجح بولس بعد أيام قليلة في إقناع «الغيورين على الناموس»، فهم أقل تطرفاً من يعقوب وجماعته، بالذهاب إلى الهيكل في أورشليم. وما أن ظهر بولس حتى فوجيء بجمع غفير يتراكض نحوه مهتاجاً يسبقه صراخه الحاد:

«هذا هو الرجل الذي يعلم الجميع في كل مكان ضد الشعب والناموس» (الأعمال ٢١/٢٨).

تدافعت الجموع وارتفعت الأيدي وانتشرت أعمال الشغب، فيما رفاق بولس يحاولون عبثاً جاهدين سحبه إلى الخارج. تفاقم الموقف وازدادت خطورته حين أخذت الحلقة تضيق على بولس حتى كادت تزهق أنفاسه. ولم يسعفه سوى ظهور الضابط الروماني، قائد المائة، في اللحظة المناسبة مع ثلاثة من جنوده، ليلقي القبض على بولس ويقوده خارج الهيكل مكبلاً بالأغلال، ظناً منه أنه قائد لمجموعة متمردة، فالوضع الداخلي مضطرب والساحة تعج بالكثيرين من العصاة والمتمردين بما لا يسمح بالتهاون.

عند هذا الموقف البالغ الحرج، تبدأ رواية «الأعمال» في التشوش والارتباك، مما يوحي بتعمد حذف أحداث بعينها أو تحريفها على نحو ما. فكيف استطاع بولس، وسط كل ذلك الصخب والجموع المهتاجة تتدافع من حوله تريد تمزيقه إرباً، السيطرة على الموقف فور

وصول القوة الرومانية، وأيضاً الاحتجاج أمامهم بأن من حقه كيهودي عن طرسوس مخاطبة الجموع الثائرة المتقافزة من حوله تطالب برأسه من دون محاكمة. وأكثر ما يثير الدهشة، سماح الضابط الروماني لبولس بإلقاء كلمته وسط هذا الصخب والاضطراب!!

المهم، انطلق بولس يخاطب الجموع مسهباً في الحديث عن نشأته في طرسوس وتلقيه النهج الفريسي عند قدمي جمالائيل، أشهر معلمي زمانه، وكذلك عداوته السابقة «للكنيسة الأولى» وضلوعه في مقتل أستفانوس رجماً حتى الموت، ثم تحوله المثير المفاجىء بعد كل ما أنزله بالجماعة من أذى. ولعل إتيانه على ذكر أستفانوس وما أصابه من ضرر، أثار حفيظة الجموع وجدد حنقها، فالأحداث كانت لا تزال ماثلة في أذهانهم، أو لعلهم لم يأخذوا أمر تحوله على محمل الجد، فتعالى صراخهم من جديد مطالبين برأسه:

« ...وقالوا أرفع مثل هذا عن الأرض لأنه غير جدير بأن يحيا» (أعمال ٢٢/٢٢ - ٢٣).

حمل الجنود الرومان بولس، وسط صراخ الجموع ونزع الثياب وتمزيقها، إلى المعسكر، مركز القيادة العسكرية والإدارية الرومانية، لاستجوابه تحت التعذيب.

يتوقف إيزنمان ملياً عند سبب ذلك الاستجواب ودوافعه الحقيقية. أتراه جاء لمعرفة سبب الجلبة والهياج الذي أحدثها ظهور بولس في الهيكل، حسبما ذكرت الأعمال؟!

إن الرجل أعلن موقفه صراحة أمام الجموع المحتشدة، اللهم إلاّ إذا كان خطابه قد تضمن أموراً، لم يوضحها النص، بدت حينها لقائد المائة الروماني أموراً خطرة ومدمرة[٢٠].

أياً كانت دوافع ذلك الاستجواب، فالقانون الروماني يحظر تعذيب أي فرد يتمتع بالمواطنة الرومانية الرسمية. وبولس ابن لعائلة ثرية أرستقراطية في طرسوس وعلى دراية تامة بالقوانين الرومانية وبحقوق مواطنيته. فاندفع من فوره قائلاً للضابط الروماني، قبل أن يشرع برفع السوط «أيجوز لكم أن تجلدوا رجلاً رومانياً غير مقضي عليه!». توقف قائد المائة من فوره واستدعى رئيسه الأمير، الذي سأل بولس بدوره «هل أنت روماني؟»، فقال بولس: نعم.. فأجاب الأمير: «أما أنا فبمبلغ كبير اقتنيت هذه الرعوية»! فقال بولس «أما أنا فقد ولدت فيها» (أعمال ٢٢/٢٧ ـ ٢٨).

هكذا تراجع الجميع تهيباً من مواطنيته الرومانية، وتفادى بولس الجلد، وإن بقي محتجزاً.

أثناء الاحتجاز، التقت مجموعة من الحانقين على بولس يقدر عددهم بنحو أربعين رجلا، أقسموا ألا يقربوا طعاماً أو شراباً حتى يضعوا حداً لحياة بولس. وعقدوا العزم على تنفيذ خطتهم في سرية تامة.

هذا القدر من الحقد والكراهية لبولس لا بد يثير تساؤلات كثيرة مشروعة حول حقيقة أو إمكانية صدوره عن الفريسيين الموالين لروما!

الفئة الوحيدة المؤهلة في فلسطين لكراهية بهذا الحجم مبدئياً وعاطفياً، لا تعدو بحال «الغيورين على الناموس». يستحضر الباحث الأميركي إيزنمان في هذا السياق جماعة قمران وفقرة من «وثيقة دمشق» تنص بوضوح على إنزال العقوبة بكل من ينتهك شريعة موسى بمحض إرادته، بعد أدائه قسم الالتزام بها. ويتداعى عن ذلك النص تساؤل مهم، أيمكن لطائفة الأسينيين الزاهدة

المسالمة، المنقطعة عن العالم، الإقدام على تدبير اغتيال أحد؟! ناهيك عن امتلاكها لفرقة اغتيال؟!

الاجتماع السري والقسم بقتل بولس سلوك يتسق وطائفة مقاتلة متطرفة في التزامها، لديها جناح عسكري، أو فرقة اغتيالات، مما يرجح لدى إيزمان أن «الغيورين على الناموس» وجماعة قمران علمان لجماعة واحدة، وأياً كان انتماء هذه الجماعة السرية، فهي من دون شك فرقة اغتيال[٢١].

على أية حال، وانطلاقاً من «الأعمال»، باءت المحاولة بالفشل وتمّ إحباطها على يد ابن أخ لبولس، ظهر بغتة ومن دون مقدمات على مسرح الأحداث وفي اللحظة المناسبة تماماً، فالأعمال لم تأتِ على ذكره من قبل!

علم ذلك القريب بأمر المؤامرة وأسرع بإخبار بولس والرومان معاً. وتمّ نقل بولس في الليلة نفسها وعلى وجناح السرعة من أورشليم إلى قيسارية، عاصمة الرومان في فلسطين، في حراسة ٤٧٠ جندياً، مائتين من المشاة ومثلهم من الرماة، فضلاً عن سبعين فارساً، زيادة في الحرص على سلامته!

في قيسارية، مثل بولس أمام الملك أغريبا الثاني في حضرة شقيقته برنيكي والحاكم الروماني فستوس، حيث طالب بحقه أمامهم كمواطن روماني بعرض دعواه لدى أوغسطس، القيصر الروماني في روما. وتمت الاستجابة على الفور لرغبة بولس وأُرسل إلى روما بغرض محاكمته، من دون أن تأتي «الأعمال» على ذكر القضية التي سيحاكم بولس بموجبها أمام قيصر الروم! (الأعمال ٢٢/٢٥ ـ ٢٧).

تمضي «الأعمال» في الحديث عن الأهوال التي واجهها بولس في رحلته إلى روما، وما قام به من مغامرات مثيرة انتهت بتحطيم

السفينة. ثم تتوقف الرواية بغتة وكأنها تعرضت لبتر متعمد، لتضع نهاية فاترة باردة لأحداث ساخنة، ربما عوضاً عن نهايتها الأصلية التي يفترض اتساقها مع أحداث كهذه!

تعددت مواقف الباحثين لأسباب تلك النهاية المبتسرة، وتراوحت بين عدم معرفة المؤلف لوقا لما آلت إليه الأحداث، وهذا أضعف الاحتمالات، أو عدم مبالاته بالتناسق الجمالي لروايته فجاءت النهاية ضعيفة واهية. وهناك احتمال ثالث، بأن لوقا كان يعلم جيداً ما انتهت إليه الأحداث، ولكنه تعمد قطع روايته بنفسه، أو ربما تولى آخر القيام بذلك لاحقاً لغرض ما في نفسه. والباب ما زال مشرعاً لاحتمالات أخرى.

المهم، انتهت رواية «الأعمال» على هذا النحو المباغت، لكن الحكايات استمرت بشأنه، هناك من يقول بإدخال بولس السجن، وآخر يزعم بأنه قد حظي بالمثول أمام القيصر الذي أطلق سراحه فغادر روما إلى إسبانيا، وثالث يدّعي التقاءه مع بطرس في السجن ليتم إعدامهما معاً. لكن مشكلة هذه الروايات، تكمن للأسف الشديد في افتقارها إلى أية مرجعية تصدقها.

لم يتسنَّ للباحثين الفكاك من واقعة الشغب، فتوقفوا طويلاً أمام الاهتياج والفوضى والأحداث المتسارعة التي دبت في الهيكل على نحو غامض ومشوش بمجرد ظهور بولس، في حين انسابت الرواية في مواقع أخرى وتوالت أحداثها في نسق متسلسل وواضح، مثل واقعة تحول بولس وزملائه اللاحق.

يعمد الباحث الأميركي إيزنمان إلى قراءة ما بين السطور بتمعن، ليتبين صدعاً أوقعه بولس أدى إلى انشقاق الجماعة. بينما يبدو يعقوب، الخصم الرئيس لبولس، شخصية مبهمة باهتة، رغم

اعتراف الرواية الضمني به قائداً للجماعة في أورشليم، أي «الكنيسة الأولى».

إن القراءة المتأنية للأعمال توضح أن يعقوب كان يمثل الخط الصلب في الأحداث المتلاحقة، رغم محاولات مؤلفها بإظهاره ليناً متساهلاً في مواقف بعينها. فلم يكن بمقدور مؤلف «الأعمال» استئصال يعقوب بالكامل من الرواية، ربما لأنه كان معروفاً حينذاك بدرجة لم تسمح له بذلك، فعمد قدر استطاعته إلى تخفيف حضوره والتعتيم على مكانته إلى أدنى مستوى ممكن. وتنم قراءة ما بين السطور عن تاريخ حافل بالصراع والاحتكاك المتصاعد بين شخصيتين قويتين، يعقوب وبولس، حيث يبدو الأول القيّم المسؤول عن جماعة أورشليم، الكنيسة الأولى، والنموذج المثالي لصفاء العقيدة وطهارتها، مع الالتزام بشريعة موسى، في حين نصب الثاني يسوع إلهاً تضاهي معجزاته معجزات آلهة الشرق القديم وتفوقها إبهاراً، وهذا أمر لا بد اعتبره يعقوب تجديفاً وارتداداً، فمن أوثق منه معرفة بيسوع وبتعاليمه الدينية!

فجوة عميقة بهذا القدر بين الرجلين يستحيل جسرها، ولا بد لها أن تفضي في نهاية المطاف إلى عداوة قاتلة تتطلب الحسم. والقراءة الفاحصة لما بين السطور في نهاية «الأعمال» توحي بالكثير لدى بعض المدققين. فقد وقفت «المسيحية» التي ظهرت في النصف الأول للقرن الأول للميلاد عند مفترق طرق، لتتطور من خلال الصراع المرير الدامي، بين يعقوب وبولس، فلو حدث وجاء تطورها متناغماً وموقف يعقوب وتعاليمه، التي تشربها من نبعها الرقراق الأول، لما كانت المسيحية الحالية بصورتها الراهنة، ولربما سادت وهيمنت على فرقة الفريسيين، التي خرجت وحدها سليمة معافاة

من خضم المعمعة وأحداث العنف، لتتسيد عالم اليهودية حتى اليوم، على حساب الفرق الأخرى التي طحنها الصراع وأطاحتها القوى المهيمنة في زوايا النسيان، لتتبدد بذلك تعاليم الجماعة الأولى إبان انتقال الثقل الديني من أورشليم إلى روما عاصمة الأمبراطورية. لكن الأمور، من وجهة نظر إيزنمان، اختلفت ولم تأخذ اتجاهها الصحيح، حيث تمحور التطور، خلال القرون الثلاثة اللاحقة، حول بولس وتعاليمه، بفضل الظروف الموضوعية، ليصبح التيار السائد المحبذ لدى السلطة الرومانية الحاكمة، خصوصاً أن الجماعة الأولى قد دُمرت إثر الاجتياح الروماني، عام ٦٦م، وتمزقت أوصالها وفرَّ من بقي حياً من أتباعها إلى بيلا شرقي نهر الأردن، بلا حول ولا قوة.

وتحققت بذلك هواجس يعقوب ورفاقه التي طالما أرقتهم. وولد دين جديد، بعد وفاتهم ووأد تعاليمهم، مغاير لأصوله الأولى، ليأخذ في التطور مبتعداً شيئاً فشيئاً عن تعاليم المعلم الأول وتلامذته المقربين.

هذا الطرح يقود إلى شخصية تاريخية كانت معاصرة لبولس أشار إليها يوسيفوس في أعماله بشاوليوس أو شول، ووصفها المؤرخ بأنها تمت بصلة قرابة إلى الأسرة الهيرودية، ثم ما لبثت أن اختفت من مسرح الأحداث بعد مهمة غامضة قامت بها إلى نيرون، أطلعته خلالها على خطورة الموقف في يهودا عام ٦٦م. ويتضح مما أورده المؤرخ المعاصر للأحداث، أن شاوليوس هذا كان لاعباً سياسياً بارعاً في الأحداث التي تفجرت إثر مصرع يعقوب البار، التي دفعت نيرون إلى إرسال فسباسيان من بريطانيا إلى فلسطين لإخماد الثورة المشتعلة هناك. المثير واللافت، اختفاء شاوليوس هذا من

أعمال يوسيفوس حوالى ٦٦م، بالتزامن مع اختفاء بولس في التاريخ المسيحي[٢٢]!

أحاديث قمران طويلة متشعبة، مثيرة للجدل وحافلة بالاختلافات حول تاريخها ودلالات محتوياتها، غير أنها تتيح للباحثين فرصة ثمينة لمحاولة فتح مغاليق القرن الأول للميلاد وإلقاء الضوء على أحداثه المبهمة. وهو أمر يعلم الباحثون جيداً بأنه ليس بالقليل أو اليسير.

المعركة لا تزال دائرة، وليس أمام أطرافها سوى الموضوعية يتسلحون بها، فهي الطريق الوحيد لإدراك المعرفة الصحيحة وإن كثرت المحاذير.

الهوامش:

(١) Powell, P. 89-92.

(٢) الكتابات المتأخر وتعتبر غير قانونية من وجهة النظر الرسمية، ولا يعترف بها البروتستانت.

(٣) إنجيل بطرس (٤/٣٥ - ٤٢).

(٤) ديانة فارسية قديمة انتشرت في آسيا الوسطى، تتضمن عناصر من الزرادشتية. وقد شكلت منافساً قوياً للمسيحية في الأمبراطورية الرومانية ما بين القرنين الثاني والرابع للميلاد. فمثراس كان إلهاً للنور والحق، ويقال أحياناً إنه الشمس، وكان اليوم السابع من كل أسبوع يوماً مقدساً، ويحتفل أتباعه في الأيام الأخيرة من كانون الأول/ ديسمبر بمولد مثراس «الشمس التي لا تغلب»، وعلى رأس كهنته «حبر أكبر»، وكان عباده يشتركون في تناول طعام مقدس من الخبز والنبيذ، ودقات الناموس كانت الإشارة التي يختتم بها عيده، أنظر: **قصة الحضارة**، ول ديورانت، الجزء الثالث من المجلد الثالث، ص ١٤٨ - ١٤٩.

(٥) لم تذكر الأناجيل تاريخاً محدداً لمولد السيد المسيح، ولذلك لم تحتفل الكنيسة الأولى بميلاده. ثم بدأ مسيحيو مصر الاحتفال بالميلاد يوم ٦ كانون الثاني/ يناير، ومع نهاية القرن الثالث للميلاد تبنت الكنيسة الغربية يوم ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر تاريخاً رسمياً للميلاد.

(٦) أدونيس هو تموز، الإله الشاب ذو الطبيعة الإلهية الإنسانية، يموت ويحيا من جديد.

عاماً بعد عام، بما يشير إلى ذبول الحياة في النبات وميلادها من جديد وتموز اسم سومري الأصل، وأصله دمر ـ زي ـ ايزد «ابن أبو الحق»، ويشتمل التقويم السومري على شهر خاص بالإله تموز، وهو الشهر الرابع لدى الأكديين ثم العبرانيين.

(٧) أنظر أيضاً: ول ديورانت، ص ١٤٦.

(٨) Robert Eisenman, (James The Brother of Jesus, Penguin Book, New York, London, 1998), P. 415.

(٩) Baigent and Leigh, P. 221-3.

(١٠) توقف المؤرخ اللبناني المعروف كمال صليبي طويلاً عند إشارة بولس بذهابه إلى العربية حيث قضى ثلاث سنوات، مرجحاً أن المقصود جزيرة العرب وليس البتراء كما هو شائع، ليخرج بنظرية جديدة في كتابه الصادر باللغة الإنكليزية Conspiracy in Jerusalem، أي مؤامرة في أورشليم.

(١١) Baigent and Leigh, P. 204.

(١٢) كارين أرمسترونغ (**القدس: مدينة واحدة، عقائد ثلاث**، ترجمة، د. فاطمة نصر ود: محمد عناني، دار سطور، ١٩٩٨).

(١٣) Eisenman, (The Dead Sea Scrolls and First Christian), P. 235.

(١٤) Baigent and Leigh, P. 271.

(١٥) مزمور (٥/٨٢) الله قائم في مجمع الله، في وسط الآلهة يقضي... أنا قلت أنكم آلهة وبنو العلي كلكم، لكن مثل الناس تموتون وكأحد الرؤساء تسقطون. قم يا الله. لأنك أنت تمتلك كل الأمم».

(١٦) Eisenman, Ibid, P. 245.

(١٧) النص في ترجمة عربية أخرى للكتاب المقدس يأتي كالتالي «إذ نعلم أن الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس بل بإيمان يسوع المسيح آمنّا نحن أيضاً بيسوع المسيح لنتبرر بإيمان يسوع لا بأعمال الناموس لأنه بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما».

(١٨) النص كما يرد في ترجمة أخرى للكتاب المقدس «إني أحسب كل شيء أيضاً خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربي الذي من أجله كل الأشياء وأنا أحسبها نفاية لكي أربح المسيح. أوجد فيه وليس لي برّي الذي من الناموس بل الذي بإيمان المسيح البر الذي من الله بالإيمان».

(١٩) Baigent and Leigh, P. 245.

(٢٠) Eisenman, (James the Brother of Jesus), P. 532.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٥٣٢.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ٥٨٨.

الفصل العاشر

استقطاب وثورة

«كان مقدساً من رحم أمه، لم يشرب خمراً ولم يأكل لحماً.. لم يعل رأسه موسى، ولم يلطخ جسده بالزيت، لم يغتسل.. وحده كان مسموحاً له بدخول قدس الأقداس. وبالدخول إلى الهيكل وحده، لأنه لم يلبس ملابس صوفية بل كتانية، وكان يصلي من أجل الناس حتى صارت ركبتاه غليظتين كركب الابل»[1].

هكذا كان يعقوب البار، وتلك كانت صفاته حسبما أجمع عليها وأوردها بعض آباء ومؤرخي الكنيسة الأوائل، في معرض حديثهم عن تقواه وورعه الشديدين إبان قيادته للجماعة الأولى في فلسطين.

مصادر تاريخية عديدة تناولت منزلة يعقوب الرفيعة ودوره القائد في الجماعة الأم «الكنيسة الأولى» في أورشليم. غير أن هذه المصادر على أهميتها الفائقة وأصالتها النسبية لم تحظَ باعتراف الكنيسة الرسمية!!

يعكس جيروم (٣٤٨ ـ ٤٢٠م) في أعماله مدى ذيوع صيت يعقوب في البر والتقوى، وسعة انتشار سمعته الذكية، بقوله:

«كان يعقوب تقياً إلى حد أن الناس كانوا يتدافعون خلفه للمس أطراف ثوبه، أثناء مروره بهم»[٢].

هذه شهادة رجل له مكانته، خصوصاً أنه ركز في أعماله على أوجه عدة في التراث المسيحي تساعد كثيراً في تبيان الصورة.
تناول المؤرخ يوسيفوس (٣٧م ـ ٩٦م) يعقوب بالحديث، كما أتى يوسابيوس القيصري (٢٦٠ ـ ٣٤٠م)، أسقف قيسارية العاصمة الرومانية في فلسطين، على ذكر منزلته الرفيعة، ويعد مؤلفه «تاريخ الكنيسة» أهم مصدر تاريخي للكنيسة الأولى. كما تحدث كذلك أبيفانيوس (٣٦٧ ـ ٤٠٤م) عن يعقوب البار، وهو شأنه شأن يوسابيوس من فلسطين.

اعتمد هؤلاء الآباء والمؤرخون في أعمالهم على مصادر ترجع إلى ما قبل القرن الثاني للميلاد، لم يتسنَ العثور على أصولها، في مقدمها أعمال هيجسبوس Hegesippus (٩٠ ـ ١٨٠م)، وهو أيضاً من فلسطين.. انصبت أعماله على القرن الذي عاش فيه يعقوب، ولا بد أنه قد التقى في شبابه المبكر بأناس كانت أحداث النصف الأول القرن الميلادي الأول لا تزال نديَّة في أذهانهم، وليس بمستبعد أن جمعت بعضهم صلات ما بأشخاص عاشوا هذه الأحداث أو شاركوا فيها. أعمال هذا المؤرخ للأسف مفقودة في الوقت الراهن، رغم أنها كانت متاحة حتى أواخر القرنين السادس عشر والسابع عشر إلاّ أنها اختفت بقدرة ما، ويرجح وجود نسخ عنها في مؤسسة الفاتيكان وفي دير في إسبانيا. ونظراً لتعذر الاطلاع المباشر عليها، يعتمد الباحثون حالياً على ما أورده يوسابيوس من شهادات هيجسبوس، خصوصاً أنه قد أوردها على نحو مفصل.

هناك أيضاً مواد بالغة الأهمية تُعرف باعترافات كليمنت الإسكندري (١٥٠ - ٢١٥م)، ظهرت في القرن الثالث للميلاد، كثيراً ما استشهد يوسابيوس بمقتطفات منها. وتتركز أهميتها في أصحاحها الأول، الذي يعتبره المؤرخون عملاً مضاداً «لأعمال الرسل» وموازياً لها، خصوصاً عندما يأخذ كليمنت في عرض صورة الأيام الأولى للجماعة في أورشليم، من وجهة نظر متعاطفة مع يعقوب وجماعته، وليس من وجهتي نظر لوقا أو بولس.. فشهادة كليمنت تُعلي من شأن يعقوب إبان القرن الأول الميلادي، وتضعه في مركز الصدارة في فلسطين ومناطق أخرى في الشرق القديم، كما تعرض للظروف والملابسات التي أودت بحياته.

في نهاية الكتاب الأول للاعترافات، توجد مواد مهمة أطلق عليها Pseudo- clementines[٣] أي الاعترافات الزائفة، وتتضمن مؤشرات تاريخية مهمة، ليس أقلها الرسائل المتبادلة بين كل من بطرس وكليمنت ويعقوب التي جاءت على شكل تقارير دورية، خاطب كليمنت يعقوب في مقدمتها بدعوته «أسقف الأساقفة الذي يحكم أورشليم، والكنائس في كل مكان»[٤].

تعرضت مصادر تاريخية أخرى إلى يعقوب، مثل بابياس (٦٠ - ١٣٥م) وجوستين مارتر (١٠٠ - ١٥٠م). الغريب في الأمر، أن الأخير لم يأتِ على ذكر يعقوب بالاسم، وإن أتاح ما دوّنه من معلومات إعطاء فكرة عن جوهر المسيحية الأولى، التي تأسست على مبدأي البر والتقوى باعتبارهما ركيزتي العقيدة. الأكثر غرابة، أن المؤرخ أيضاً لم يأتِ على ذكر بولس، رغم أنه مواطنه من آسيا الصغرى، بل تعمد على ما يبدو تجاهله، مما يشير إلى حدوث

انشقاق عقائدي في القرن الثالث للميلاد، ومن هنا وعلى وجه التحديد تنبع أهمية هذا العمل. فما بقي من نصوص باپياس يحتل أهمية بالغة، ويبدو أن يوسيفوس كان ملماً بأعماله، فقد عثر أخيراً على نص منها ذي أهمية كبيرة، في حال ثبتت أصالته، لتعلقه بالعائلة المقدسة.

جاءت مخطوطات نجع حمادي عام ١٩٤٥، قبل العثور على لفائف قمران بقليل، لتكشف المزيد عن يعقوب، ودوره البارز الذي اضطلع به في الأيام الأولى لجماعة أورشليم «الكنيسة الأولى». فقد ركز توماس في إنجيله الذي يعود إلى القرن الثالث أو الرابع للميلاد، على أقوال نسبها إلى يسوع متحاشياً الخوض في الروايات التي أحاطته بها الأناجيل المعروفة، كما عُثر على مخطوطات أخرى تبرز مكانة يعقوب المتميزة في القرون الأولى، لا سيما في المشرق، حيث كان يعد رجلاً خارقاً ومخلّصاً، لا يفوقه قدراً ورفعة سوى يسوع. فإذا كان هذا شأن يعقوب في الشرق القديم فكيف به أثناء حياته في فلسطين؟!

تمّ العثور في نجع حمادي أيضاً على رسالتين تعودان إلى يعقوب، يطلق عليهما حالياً الأبوكرافيا، تكشفان بما لا يحتمل الشك، من خلال أحاديثهما المنفردة معاً، موقع يعقوب كرئيس لجماعة أورشليم ومعرفته الوثيقة بطفولة يسوع وأقربائه، حيث بدا يعقوب خلالهما أقرب الجميع إلى قلب يسوع وأكثرهم حظوة لديه، وإن ظهرت أخوتهما روحية عقائدية أكثر منها أخوة دم. وكل هذه عوامل تضفي على شهادة يعقوب قيمة بالغة، يتعذر على أي باحث منصف الاستهانة بها أو الانتقاص من شأنها.

رغم أهمية تلك المصادر وغيرها، فكثيرون يعارضونها، وعلى وجه

الخصوص، اعتراضات كليمنت، بدعوى أنها ليست تأريخية، بل محض خيال لطبيعتها الرومانسية الهلينستية. وقد وجّه هؤلاء معارضتهم أخيراً إلى مخطوطات نجع حمادي، المكتشفة حديثاً، بحجة نزوعها إلى المعرفة الغنوصية. غير أن هذه المعارضة على صخبها لا تعني خلو تلك المصادر من الحقيقة التاريخية لدى فريق آخر من الباحثين. فالعالم الأميركي إيزنمان يبدي دهشته لمعارضة أولئك، لأن ذلك واقع الحال بالنسبة إلى غالبية الوثائق المتصلة بتلك المرحلة، ما عدا أعمال يوسيفوس، مع التحفظ، ومن الإنصاف والعدل معاملة كافة وثائق المرحلة على قدم المساواة ووفق المعايير نفسها. فاعترافات كليمنت، خصوصاً الكتاب الأول، لا تختلف عن «أعمال الرسل»، وتتضمن مثلها مواد يمكن الاستناد إليها تاريخياً، لمعرفة أحداث القرن الأول للميلاد.

المشكلة الحقيقية تكمن في طرح اعترافات كليمنت صورة مغايرة عما تطرحه «الأعمال» عن الكنيسة الأولى في فلسطين، لكن هذا لا يعني وجود قواسم مشتركة تجمعهما معاً، فكلاهما يعتمد على المصادر نفسها، وكلاهما طاوله التنقيح مراراً وتكراراً، غير أن معالجة المعطيات لدى كل منهما مختلفة، فكيف يمكن الاعتراف بمعالجة ومرجعية إحداهما وإنكار ذلك على الأخرى؟!

يستطرد إيزنمان مضيفاً: أما الإدعاء بأن «الأعمال» تعود إلى القرن الثاني الميلادي، فادعاء يعوزه الدليل، وحتى إن وجد لما اختلف الأمر قيد أنملة، لتوفر الأرضية المشتركة التي تجمعهما معاً[٥].

أياً كان الموقف تجاه هذه المصادر التاريخية، فهي تظل وثائق ذات أهمية قصوى للكشف عن الغموض الذي يكتنف أحداث القرن الأول للميلاد، فضلاً عن توضيحها لمكانة يعقوب وتعاليمه،

وكذلك الأحداث التي واكبت ظهور المسيحية الأولى، وحتى ولو لم يعترف بها رسمياً ضمن «الكتاب المقدس» الذي ظهر بعد الأمبراطور قسطنطين.

تأتي من بين هذه الوثائق رسائل كل من أوريغن ويوسابيوس وأبيفانيوس وجيروم، ومعظم أصولها مفقودة، غير أن المؤرخين اللاحقين اطلعوا عليها وأوردوا مقتطفات منها بكاملها، تبدت فيها مكانة يعقوب لا سيما بعد محنة الصلب.

المهم، وبرغم كل هذا الأخذ والرد، فإن «العهد الجديد» المعترف به رسمياً لم يخل من ذكر يعقوب كأحد أخوة يسوع المسيح، وإن جاء ذلك في عجالة وعلى نحو غامض ومبهم وبأسلوب بدا غير مبالٍ، الأمر الذي يعده البعض ثمرة لتلاعب ما قد وقع على النص.

فعلى سبيل المثال وليس الحصر، يقول متى في إنجيله:

«أليس هذا ابن النجار. أليست أمه تدعى مريم وأخوته يعقوب ويوسي وسمعان ويهوذا. أوليست أخواته جميعهن عندنا فمن أين لهذا هذه كلها» (١٣/٥٥ - ٥٧).

ومرقس أورد بدوره في إنجيله ما نصه:

«وكانت أيضاً نساء ينظرن من بعيد بينهن مريم المجدلية أم يعقوب الصغير ويوسي وسالومة» (١٥/٤٠ - ٤١).

أما «أعمال الرسل» فقد أتت على ذكر يعقوب على نحو مباغت، في إصحاحها الثاني عشر، ومن دون مقدمات تذكر متحاشية بذلك التنويه صراحة بأنه كان القائد الأول لجماعة أورشليم.

لا يعتد كثيراً من الناحية الموضوعية «بالأعمال» كمصدر للتأريخ، ويعدها كثيرون محض خيال فحسب. مع ذلك، يرى إيزنمان أن الإصحاحات التالية للعشرة أو الخمسة عشر الأولى غنية بالدلالات

التاريخية والإيحاءات المهمة، وإن تطلب التقاطها عيناً فاحصة مدققة لوضعها في سياقها الموضوعي، وعندها لن يخطىء أحد في إدراك أهمية يعقوب المغيبة وتلمس دوره الفاعل في تاريخ المسيحية الأولى.

في الجزء الثاني من «الأعمال»، تبدو شخصية يعقوب أكثر حيوية وأقوى حضوراً وذات هوية محددة. يقول بولس في رسالته إلى أهل غلاطية:

«ثم صعدت... إلى أورشليم... ولكن لم أرَ غيره من الرسل سوى يعقوب، أخا الرب» (١٨/١ ـ ١٩).

وتبرز منزلة يعقوب الرفيعة أكثر فأكثر عند ذهاب بولس إلى أورشليم.

«وفي الغد، دخل بولس معنا إلى يعقوب، وحضر جميع المشايخ» (١٨/٢١).

أكثر من هذا، قول بولس في رسالته إلى أهل غلاطية:

«... يعقوب وصفا ويوحنا المعتبرون أنهم أعمدة» (٩/٢).

بعد التمعن في أمثال هذه المقاطع المتناثرة بين دفتي «العهد الجديد»، يسهل على الباحث المدقق استشفاف دور يعقوب البارز بصفته رئيساً لجماعة أورشليم، حيث يعيش ويترأس مجلس شيوخها. لم تلقَ هذه المقاطع على أهميتها، شأنها في ذلك شأن المصادر التاريخية الأخرى، انتباهاً يذكر. ولم تدرس بالعناية اللازمة، اللهم إلاّ على صعيد نخبة النخبة! فقد وضعت المؤسسة الكنسية الرسمية تلك المصادر جانباً معتبرة إياها خارج الكتب الرسمية المعترف بها، مكتفية «بالعهد الجديد» مرجعاً وحيداً لمعرفة تاريخ تلك الحقبة السحيقة البالغة الغموض.

وهكذا ظل يعقوب البار، كما كان يُلقب، نسياً منسياً لقرون طويلة، حتى جاءت مخطوطات نجع حمادي لتدفع به إلى واجهة أحداث القرن الأول للميلاد بعد أن لفته متاهة التعتيم لقرابة الألفي عام، ونجحت في اختزال دوره في الأحداث التي واكبت ظهور النصرانية في فلسطين، وإن لم تستطع القضاء على وجوده التاريخي قضاء مبرماً، حيث بقيت ظلاله تنساب بخفة وحيوية في ثنايا «العهد الجديد»، وإنما على نحو متقطع ومبهم»[٦].

الخليفة الأول ليسوع.. من يكون؟

قبل الخوض في هذه المسألة، قد يبادر البعض بالسؤال، والأسئلة أمر أساسي وحيوي في البحث العلمي بهدف التوصل إلى الحقيقة الموضوعية، عن سبب إغفال «أعمال الرسل» ذكر اختيار يعقوب أو تعيينه صراحة خليفة ليسوع؟!

الإجابة بسيطة للغاية ومباشرة، كما يوردها إيزنمان، فالجهر بذلك لم يكن الهدف الأصلي «للأعمال»، التي اقتصر هدفها الأول على إظهار الروح القدس وحلولها على الرسل الذين امتلأوا بها، ثم تركزها فيما بعد، على نحو مكثف، في بولس لتقود خطواته في أداء مهماته التبشيرية اللاحقة!

المفارقة هنا، توقف أنشطة بولس على نحو مباغت بعد وصوله إلى روما للمرة الأولى حوالى عام ٦٠م، بالتزامن مع مصرع يعقوب في أورشليم، حيث أوردت «الأعمال» مشاهد مختصرة عن البيت الذي اكتراه في روما، مع إشارة سريعة تفيد إصراره على الاستمرار في نشر تعاليم يسوع!!

سؤال مهم آخر، لا ينبغي على الباحث إغفاله، عن سبب عدم

اتساق محتوى «أعمال الرسل» مع العنوان الذي تحمله. فقد جاء المضمون مفتقراً لأعمال الرسل وما انتهوا إليه، فضلاً عن الأحداث المحورية المتصلة بتاريخ الكنيسة الأولى، ليتمحور بشكل ملحوظ على بولس المتميز دائماً، ويصب في صالحه دوماً، واضعاً إياه بعد الثلث الأول من الأعمال في بؤرة الأحداث ومحط اهتمامها الأول. فالقارىء، على سبيل المثال، لا يكاد يعرف شيئاً عن رحلات، «بطرس» إلى الخارج وكيفية وصوله إلى روما، وما الذي فعله في أنطاكية. حتى المرشحين ليحلا محل يهوذا، ميتاس ويوسف برسابا، لم تذكر «الأعمال» شيئاً حولهما. وكذلك الحال بالنسبة إلى «يوحنا»، الذي أشارت إليه في اصحاحها الأول، دون أن تعرض شيئاً عما فعله في آسيا الصغرى، هذا إن كان قد ذهب بالفعل إلى هناك! والشيء نفسه يذكر بشأن «ثاوفليس» و«يعقوب أخ يوحنا»، فقد تبخر الاثنان من دون مقدمات، حالهما في ذلك حال توماس وميتاس، رغم اختيار الأخير خليفة ليسوع وهو منصب ليس بالقليل. حتى «بولس» نفسه ليس بأفضل حالاً منهم، فبعد وصوله إلى روما تلاشت أخباره هو الآخر، فيما عدا إشارة سريعة إلى احتمال توجهه إلى إسبانيا، ثم لا شيء بعدها. فغالبية «الرسل» الوارد ذكرهم في «الأعمال» تبدو مجرد أسماء وكأن الهدف من ذكرها لا يعدو تجسيد الاثني عشر رسولاً، ليس إلاّ!

يظهر يعقوب فجأة وبقوة في نهاية الإصحاح الحادي عشر «للأعمال»، وهذا يعني، في رأي إيزنمان، أحد أمرين لا ثالث لهما: أن تقديمه قد سبق بالفعل على نحو موسع، أو أن هويته كانت معروفة جيداً للقراء آنذاك، وفي غير حاجة لمزيد من التقديم.

لنطّلع قليلاً على بعض ما أوردته المصادر التاريخية بشأن يعقوب،

مع التنويه بأن شهاداتها متداخلة، وتشوبها أحياناً اختلافات يسيرة في بعض التفاصيل.

أتى يوسابيوس القيصري في كتابه الأول، على ذكر «يهوذا» الخائن.. فاختيار ميتاس «للرسولية من أجل خدمة الشعب»، ثم «أستفانوس، أول من رجم حتى الموت بعد الرب.. وهكذا كان أول من نال الأكاليل وفقاً لاسمه ـ أستفانوس تعني إكليل باليونانية ـ الذي يمتلكه شهداء المسيح». ثم انتقل مباشرة للمرة الأولى وبالتزامن مع تلك الأحداث إلى ذكر يعقوب بقوله:

«بعد ذلك دُون عن يعقوب ـ الذي لقبه الأقدمون بالبار بسبب سموه في الفضيلة ـ أنه صار أسقفاً لكنيسة أورشليم، ويعقوب هذا كان يدعى أخ الرب، لأن المعروف عنه أنه كان ابناً ليوسف».

ما لبث يوسابيوس أن تنبه للمشكلة، فسارع بالقول:

«كان يُظن أن يوسف أبو المسيح، لأن العذراء كانت مخطوبة له، وقبل أن يجتمعا وُجدت حبلى من الروح القدس، كما تبين رواية الأناجيل (متى ١/١٨)»[٧].

يكرر يوسابيوس هنا ما سبق أن أورده أوريغن قبله بنحو قرن، فهو أول من ذكر أن يعقوب كان يدعى «أخ الرب»، لأنه كان ابناً ليوسف من زوجة أخرى.

اللافت بحق، مرور يوسابيوس مرور الكرام إزاء ما يسرده من معلومات بصدد يعقوب، دون أن يتوقف لبرهة إزاء مسألتين حرجتين:

الأولى، اختيار ميتاس، وهو رجل غير معروف لخدمة الشعب، بينما يوجد آخر في ثقل يعقوب ومكانته، كان يلقب بالبار لسموه في الفضيلة. ناهيك عن دعوته بـ «أخ الرب»!

والثانية، حديثه عن أَستفانوس، ذلك اليوناني الذي «كان يصنع عجائب وآيات عظيمة في الشعب»، والذي رجم حتى الموت بتحريض حشد من الهلينستيين، أي اليونانيين، من دون أن يثير ذلك شكوكاً بوجود أحداث كثيرة كانت تجري تحت السطح!!

إن الأمر برمته يشير إلى حلقة مفقودة في التاريخ المسيحي.

يتناول يوسابيوس مسألة اختيار يعقوب خلفاً ليسوع بأساليب متباينة، فهو يقول:

«إن بطرس ويعقوب ويوحنا أشخاص ميزهم ربنا، لم يسعوا وراء المجد بعد صعود مخلِّصنا، بل اختاروا يعقوب البار أسقفاً لأورشليم».

ثم يقتبس من الكتاب السابع لكليمنت الإسكندري (١٥٠ - ٢٥٠م) ما نصه:

«إن الرب بعد قيامه وهب معرفة ليعقوب البار وليوحنا وبطرس، وهؤلاء أعطوها للسبعين، الذين كان برنابا أحدهم»[٨].

أياً كان السبب وراء أسلوب يوسابيوس المتحفظ، فإن ما أورده يعني بوضوح أن يعقوب كان رسولاً أسوة بيوحنا وبطرس، بينما لم يرد ذكر أستفانوس مطلقاً!!

ويبدو جلياً أن يوسابيوس تنبه إلى ما قد تحدثه كلمات كليمنت من شك وريبة، فسارع متراجعاً بقوله:

«كان هناك اثنان باسم يعقوب، أحدهما يدعى البار وقد طرح من فوق الهيكل، وضربه قصار ـ منظف ملابس ـ بعصى غليظة حتى الموت، أما الآخر فقطع رأسه».

ثم أسرع يلوذ بـ «أعمال الرسل» قائلاً: وقد ذكر بولس أيضاً

يعقوب البار هذا، عندما كتب «لكنني لم أر غيره من الرسل إلاّ يعقوب أخا الرب».

جدير بالذكر، أن كليمنت يذكر الحادثين بشكل منفصل، وإن جاء بهما على التتابع، ولعله بهذا يساعد على فهم أوضح. أما يوسيفوس فيقول من ناحيته:

«إن يعقوب قد رجم حتى الموت عام ٦٢م، الأمر الذي يجعل العلاقة بين الرجم وبين الضرب على الرأس غير واضحة المعالم!».

يعاود يوسابيوس الإشارة إلى يعقوب في سياقات أخرى، في الفصل الثالث والعشرين من كتابه الثاني، بمناسبة اختياره خليفة ليسوع، فيقول:

«ذلك يعقوب نفسه، الذي لقبه الرجال بالبار.. وقد دُون أنه أول من انتخب لكرسي الأسقفية في كنيسة أورشليم».

وهذا يعني في مضمونه اختيار السبعين ليعقوب. واللافت المثير في شهادة يوسابيوس الثانية قوله «أول من انتخب» من قبل الرسل، وليس من قبل الحلقة التي تضم بطرس ويعقوب ويوحنا فحسب. ترى هل جاءت شهادة يوسابيوس الأخيرة من باب إعادة الصياغة، أم لدمج ما سبق له ذكره في بداية كتابه الأول؟!

في كتابه السابع يقوم يوسابيوس مجدداً بعرض شهادة كليمنت الثانية بصدد خلافة يعقوب «أما كرسي يعقوب الذي نال أسقفية أورشليم من المخلِّص نفسه والرسل، والذي كان يسمى أخا المسيح، كما تبينه الأسفار الإلهية..»[9].

لم يأتِ يوسابيوس في هذا المقطع على ذكر «بعد القيامة»، كما أنه يصف للمرة الأولى يعقوب بأخ المسيح وليس الرب، إضافة إلى

كرسي يعقوب الذي يشير إليه أيضاً للمرة الأولى. ويبدو أن هذا الكرسي قد بقي في أورشليم حتى أيام يوسابيوس، فقد أضاف قائلاً:

«إنه بقي إلى الآن، وقد أظهره الأخوة الذين خلفوه لجميع الكرام.. ولا يزال رجال العصر الحاضر يظهرونه للقديسين بسبب تقواهم».

وما يلبث يوسابيوس أن أضاف في شهادة أخرى:

«... يعقوب أخ الرب الذي أوكل إليه الرسل كرسي أسقفية أورشليم...»

أما هيجسبوس الذي عاش بعد الرسل مباشرة، فقد قدم وصفاً أدق في الكتاب الخامس، من مؤلفه «سير الأبطال»، حيث دُون:

«لقد تسلم يعقوب أخو الرب إدارة الكنيسة من الرسل، وقد لقبه الجميع بالبار من وقت مخلِّصنا إلى اليوم الراهن»(١٠).

تحدث المؤرخ جيروم (٣٤٨ ـ ٤٢٠م)، بدوره، عن «أخ الرب» يعقوب البار، لكنه أضاف بأنه «ليس ابناً ليوسف من زوجة أخرى، كما يعتقد البعض»، ثم سارع إلى إنجيل يوحنا بحثاً عن حل لهذه المعضلة، جاء غير منطقي، حين استطرد قائلاً: «ولكنه ابن مريم شقيقة أم الرب» استناداً إلى قول يوحنا « ...أمه وأخت أمه مريم، زوجة كلوبا» (٥/٩).. ما يعنيه بعبارة أخرى، أن لمريم شقيقة تدعى هي الأخرى مريم، ومتزوجة من كلوبا(١١)!!

أقوال كثيرة كهذه توالت ضمن محاولات حثيثة بذلت في القرن الثاني للميلاد، لإثبات البنوة الإلهية. أورد جيروم تماشياً مع من سبق من المؤرخين، عدة ألقاب ليعقوب منها البار، الحصن، والركن.

أما المؤرخ أيفانيوس (٣٦٧ ـ ٤٠٤م) فذكر أن يسوع سلم

الكرسي مباشرة إلى يعقوب، والأرجح أنه اقتبس ذلك من هيجسبوس، وإن لم يوضح موعد حدوث ذلك أكان في حياة يسوع أم بعد رحيله.

نسب إنجيل توماس، المكتشف حديثاً في نجع حمادي، إلى يسوع قوله:

«حيث تتوجهون (أورشليم) إذهبوا إلى يعقوب البار، الذي من أجله خلقت السماء والأرض»[١٢].

وفي هذا القول إشارة واضحة إلى تنصيب يسوع أثناء حياته يعقوب خليفة له، مما يؤكد اعترافات كليمنت بأولويته في خلافة يسوع.

السؤال الآن، لماذا لم يُقدر يعقوب البار حق قدره وبُخست منزلته رغم خلافته المباشرة ليسوع، سواء تمّ ذلك بتنصيب مباشر أم باختيار الرسل؟!

أياً كانت طبيعة الصلة بين السيد المسيح ويعقوب، فمن المؤكد أن الأخير قد عايش يسوع بشكل شخصي لم يتوفر لغيره من الرسل. لهذا كانت تعاليم يعقوب لا بد أقرب إلى المصدر الأول عما كانت عليه تعاليم الآخرين. وينسحب هذا أيضاً على أهدافه واهتماماته الأولية، التي تبدو من خلال تفحص النصوص، مختلفة عن اهتمامات بولس وأغراضه، وربما متعارضة معها في كثير من الأحيان. والأرجح أن يعقوب وتعاليمه، أسوة بمعلمه يسوع، كانا مصدر إزعاج دائم لروما وحلفائها، مما أدى إلى مقاومة هذه التعاليم وتراجعها وشحوب صورة صاحبها، مع انتقال الثقل الديني إلى روما، بعد اجتياح قواتها لأورشليم وتدميرها الهيكل عام ٧٠م،

لتتربع مسيحية بولس وتترسخ مفاهيمه على حساب نصرانية أورشليم وما تمثله. واستوجب تحقيق ذلك إغفال منزلة يعقوب وتقزيم دوره إلى الحد الأدنى، وتركيز الأضواء على بولس وحده. حتى أن رسالة يعقوب في «العهد الجديد» جاءت مبتسرة، والأرجح أنها مأخوذة عن نص ليعقوب، يلوح فيما بقي منه طابع قمراني في اللغة والاستعارة، ففي الإصحاح الخامس، يرد اتهام مختصر لا يعوزه المغزى، يقول:

«حكمتم على البار، فقتلتموه» (٥/٦).

....

قتل بالجملة

لقي اثنان مصرعهما، وفقاً لأعمال الرسل، في أحداث عنف: حنانيا الكاهن الأكبر لأورشليم، وأستفانوس اليوناني الذي رجم حتى الموت، والثالث حسبما تشير مخطوطات البحر الميت «المعلم البار» قائد جماعة قمران. وأيضاً هناك يعقوب البار، خليفة يسوع الأول، استناداً إلى مؤرخي الكنيسة الأوائل.

فهل من أرضية مشتركة تجمع هؤلاء في ضوء الظروف الدين/ سياسية التي كانت سائدة في أورشليم في ذلك الوقت؟

وردت بشأن مصرع يعقوب روايات كثيرة من مصادر متعددة يجمعها معاً قاسم مشترك، وإن اختلفت في بعض التفاصيل. جاء يوسابيوس، اعتماداً على هيجسبوس، بأكثر الروايات شمولاً، كما تناولها يوسيفوس في أعماله وكليمنت في اعترافاته. وتحدث الأخير عن مواجهات وقعت في جبل الهيكل، ليس بين يعقوب وكبار الكهنة فحسب، بل بينه وبين شخص مجهول أشار إليه بـ «العدو»، مما يضفي على شهادته أهمية فائقة في ضوء ما كشفته

لفائف قمران أخيراً من إيحاءات.

اعتمد يوسابيوس في روايته على من سبقه من المؤرخين إضافة إلى جيروم، أما «أعمال الرسل» فقد تجاهلت تماماً ما انتهى إليه أمر يعقوب. أترى مؤلفها لم يعلم بما وقع لأسقف أورشليم الأول، ولم يكن قد مضى على رحيل يسوع سوى عقود ثلاثة؟!

ترتبط الإجابة على هذا التساؤل بالإجابة على السؤال الأول بصدد إغفال «الأعمال» الإعلان صراحة عن اختيار أو تعيين يعقوب خليفة ليسوع!!

يقدم يوسابيوس مصرع يعقوب، استناداً إلى «الاعترافات»، في موقعين من كتابه «تاريخ الكنيسة»، يشير في الأول إلى وجود يعقوبين. أحدهما يدعى البار، وقد ألقي به على جناح الهيكل ثم ضرب على رأسه بعصي قصار، والثاني قُطع رأسه. ثم يعاود التقاط الحادث في فصول لاحقة بمناسبة حديثه عن لجوء بولس إلى قيصر روما، بقوله:

«بعد أن فشل اليهود في اصطياده تحولوا إلى يعقوب أخ الرب، الذي أوكل إليه كرسي أسقفية أورشليم.. فاقتادوه في وسطهم... لكنهم لم يطيقوا شهادة ذلك الرجل، الذي كان يعتبره الجميع أعظم بار بين البشر للسمو والتقوى اللذين أظهرهما في حياته، ولذا قتلوه. وقد تهيأت الفرصة لذلك التعسف إثر الفوضى التي سادت يهودا بوفاة الحاكم الروماني فستوس المفاجئة (٦٠ - ٦٢م)، الأمر الذي ترك الولاية بلا والٍ أو رأس»[١٣].

تناول يوسيفوس أيضاً الفراغ السياسي عقب وفاة فستوس، إبان حديثه عن مصرع يعقوب، في حين اكتفت «الأعمال» بذكر مناقشات فستوس مع بولس (٢٤/٧، ٢٦/٣٢).

أما جيروم فيضيف في شهادته عنصراً جديداً، باستناده إلى هيجسبوس وكليمنت، حين يؤكد أنهم «طرحوا البار من جناح الهيكل فكسرت ساقيا، ولكنه بقي حياً، فرفع يده إلى السماء وقال: إلهي، اغفر لهم.. لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون.. ثم عاجلوه بضربة على رأسه بعصى قصار.. فمات»[١٤].

هذا الدعاء نفسه ردده وفقاً للأعمال، أستفانوس الذي رجم حتى الموت، لكن الجديد في رواية جيروم تمثل في كسر ساقي يعقوب، ثم إشارته في نهاية شهادته إلى قول يوسيفوس:

«لقد حلت باليهود هذه الأمور ـ سقوط أورشليم وتدمير الهيكل ـ انتقاماً لدماء يعقوب البار... فقد كان ورعاً تقياً، لذا أرجع الناس السبب في سقوط أورشليم إلى مصرعه».

ثم يناقض يوسيفوس نفسه في مؤلفه «الحروب اليهودية» أثناء حديثه عن تعمد اليهود كسر سيقان المحكوم عليهم بعقوبة الصلب اليونانية، للتعجيل بموتهم، مما يسمح بدفنهم قبل غروب الشمس، حين أخذ يذكر تفاصيل التمثيل بجثة الكاهن الأكبر، حنانيا، بعد اغتياله وإلقاء جثته خارج أسوار أورشليم طعاماً للجوارح، إمعاناً في تحقيره حياً وميتاً. ثم شرع في الثناء على المغدور وورعه، زاعماً أن مصرعه جعل تدمير أورشليم أمراً محتماً[١٥].

اللافت إشارة يوسابيوس إلى إتقان هيجسبوس للغة العبرية، وكأنه يؤكد بطرف خفي مصداقيته، وبما يفيد أنه كان على دراية واسعة بأحداث فلسطين، وذلك عند استشهاده بقوله:

«وقد سألته بعض الشيع السبع، التي كانت موجودة بين الشعب.. قائلة: ما هو الباب (الطريق) إلى يسوع؟».

لم يحدد يوسابيوس، في هذا السياق، ماهية تلك الشيع لكنه

ذكرها لاحقاً، اعتماداً على هيجسبوس بمناسة حديثه عن انتخاب سمعان من كلوبا خليفة ليعقوب، الذي كان هو الآخر يصف تلك الشيع بالهرطقة لأنها «تنكر البعث» ولا تؤمن «بقدوم من يعطي لكل حسب عمله» متهماً إياها بأنها ضد سبط يهودا والمخلّص... ثم يورد تأكيد هيجسبوس بأن «الكثيرين قد آمنوا بذلك بفضل يعقوب» واتباعاً لتعاليمه.

يسلط الباحث الأميركي إيزنمان الضوء على هذه الشهادة الحية، ليس لمجرد تعبيرها عن منزلة يعقوب الرفيعة وحضوره القوي في أورشليم فحسب، بل لأنها تؤكد صفاء عقيدة يعقوب وارتكازها على الاستقامة والعمل، ودون ذلك التخبط والهرطقة.. فالخلاص إذن يتأتى عبرهما، فذلك ما تُدونه السماء للإنسان، وما يحسب له أو عليه يوم الدينونة، حيث لا شفاعة لأحد يومئذٍ، ومن المحال بالتالي لأحد أن «يموت من أجل خطاياك»[١٦].

يشكل مبدأ «الثواب بحسب العمل» جزءاً من رواية هيجسبوس عن إعلان يعقوب لرؤيته في الهيكل يوم الفصح عام ٦٢م، أو قبله بقليل حول القدوم الوشيك للمخلّص مع جند السماء بقوة على سحب السماء.

لا يفتقر حديث هيجسبوس إلى المغزى عند إشارته إلى ما وقع في الهيكل يوم الفصح. فالفصح يوافق تحرر بني إسرائيل من رق العبودية، حين احتشدت الجموع وحضر يعقوب، بناء على طلب مؤسسة الكهنة الفريسية/ الصدوقية، لتهدئة ثائرتهم، فألقى كلمة ضمنها رؤيته الخلاصية، زادت الجموع توهجاً واشتعالاً.

يقول يوسابيوس في هذا الصدد:

«صار اضطراب بين اليهود والكتبة الفريسيين، الذين قالوا هنالك خطر أن يظن الناس بأن يسوع هو المخلِّص ولهذا أتوا إلى يعقوب قائلين: نتوسل إليك، أن تكبح جماح الشعب لأنهم ضلوا بيسوع، وكأنه المخلّص».

شهادة ناصعة أخرى بمكانة يعقوب، كركن وحصن للشعب، دفعت الكهنة إلى دعوته بصفته قائداً محبوباً مصدقاً، لتهدئة غضبة الشعب وتوقعاته الخلاصية.

أما اعترافات كليمنت «الزائفة» فتؤكد على منزلة يعقوب في الهيكل منذ أواسط أربعينيات القرن الأول للميلاد، إبان عرضها لمشهد المناظرات بين الرسل بقيادة يعقوب وبين المؤسسة الدينية الرسمية على درجات الهيكل، وغالباً أنها كانت تدور حول طبيعة الخلاص وغايته، وتعرض يعقوب أثناءها لهجوم عنيف بقيادة من دعاه بـ «العدو»[١٧]. وقد أشارت «الأعمال» هي الأخرى إلى تلك المناظرات التي خاضها أعضاء «الكنيسة» في ذهابهم وإيابهم من وإلى الهيكل (٣/٦).

أما هيجسبوس فمضى يعرض توسلات الكهنة والفريسيين ليعقوب:

«نتوسل إليك، أقنع الشعب الذي أتى لعيد الفصح بشأن يسوع، إننا جميعاً نثق بك، فنحن والشعب نشهد بأنك العادل، لا تحابي أحداً.. لهذا أقنع الشعب بأن لا يضل من ناحية يسوع، وعلينا وعلى الشعب طاعتك»[١٨].

شهادة أخرى تعكس موقع يعقوب ونفوذه باعتباره العادل البار، وتناقض ما أورده يوسيفوس عن عدالة الكاهن الأكبر حنانيا ومعاملته الجميع، أياً كان وضعهم الاجتماعي، على القدر نفسه من المساواة.

يبدو أن يعقوب استجاب لتوسلات الكهنة والفريسيين، حسبما يواصل يوسابيوس نقلاً عن هيجسبوس.

«قف إذن، فوق جناح الهيكل حتى يراك الجميع ويسمع كلماتك من ذلك المكان المرتفع.. فقد احتشدت كل الأسباط، وأعداد كبيرة من الأمم، بسبب عيد الفصح، لهذا دفع الكتبة والفريسيون بيعقوب للوقوف على جناح الهيكل.. وأخذوا يصيحون ويصرخون قائلين: أيها البار، الواجب طاعة كلماته، فالشعب قد ضلَّ بعد يسوع، المصلوب، بيّن لنا ما هو الباب إلى يسوع؟ فأجاب بصوت مرتفع: لماذا تسألونني عن ابن الإنسان؟! الجالس في السماء على يمين القوة العظيمة، والذي على وشك القدوم على سحب السماء.. ولما اقتنع الكثيرون بشهادة يعقوب، وقالوا: أوصنا لابن داود، قال أولئك الكهنة والفريسيون عندئذٍ ـ وقد شعروا بخطئهم في إضفاء كل هذه الأهمية على يعقوب ـ لبعضهم البعض: لقد أسأنا التصرف، إذ منحنا شهادة كهذه ليسوع، ولكن لنصعد ونطرحه إلى أسفل كي يخافوا أن يصدقوه. فصرخوا قائلين: آه، لقد انحرف البار أيضاً. فصعدوا وطرحوا البار، وأحدهم يقول للآخر، لنرجم يعقوب البار، لأن السقوط لم يقتله..».

يتابع هيجسبوس وصف ما حدث ليعقوب بعد طرحه من أعلى، بقوله:

«لكنه تحرك وجثى على ركبتيه، قائلاً: أتضرع إليك أيها الرب الإله والأب، اغفر لهم.. فإنهم لا يعلمون ماذا يفعلون»[١٩].

يتوقف إيزنمان طويلاً عند هذا المشهد، الذي يكاد يماثل رواية رجم أستفانوس في «الأعمال»، فالكلمات التي تتخلل النصين تبدو واحدة: الطرح والرجم، فضلاً عن الجثو على الركبتين والدعاء.

تقول الأعمال في نهاية إصحاحها السابع:

«أما هو، فشخص إلى السماء... ... وهجموا عليه بنفس واحدة... ...فكانوا يرجمون أستفانوس وهو يدعو... ثم جثا على ركبتيه وصاح بصوت عظيم، يا رب لا تقم لهم هذه الخطية، وإذا قال هذا رقد».

يسهل على المرء إدراك تداخل النصين وتشابكهما، بحيث يتعذر التفريق بينهما، ومعرفة أي منهما المرجوم. ناهيك عما يُنسب إلى يسوع في إنجيل لوقا «يا أبتاه اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون» (٢٣/٢٤).

أما «الاعترافات» فتأتي بالجديد والمثير في آن معاً، حيث تعود بالهجوم المذكور إلى أربعينيات وليس ستينيات القرن الأول للميلاد، فتورد النص التالي:

«بدأ يعقوب في عرض... النبوءة القائلة بقدوم [يسوع] لمرتين: الأولى بالخزي، وقد تحققت والثانية بالمجد [أما هو أستفانوس - فشخص إلى السماء وهو ممتلىء بالروح القدس فرأى مجد الله.. (أعمال ٧/٥٥)]... حين بلغ هذه النقطة.. دخل العدو [عُرف العدو ببولس في هامش إحدى النسخ] إلى الهيكل ومعه شرذمة قليلة، وبدأوا بالصياح من جديد... لإثارة الناس وإشعال الفتنة... ثم أخذ يدفع الجميع بصراخه إلى الفوضى... ويحرض كالمسعور على القتل... سرعان ما انتشر الشغب والضرب المتبادل في كلا الجانبين... دم كثير أريق، وتدافع الكثيرون للفرار... في خضم هذه الجلبة هاجم العدو يعقوب، وألقى به من أعلى الدرج... ولم يجرؤ على إنزال مزيد من الأذى لاعتقاده أنه لفظ أنفاسه، لكن أصدقاءنا رفعوه، فقد كانوا أكثر عدداً... وعادوا إلى بيت يعقوب

[في أورشليم حيث ذهب بطرس وترك رسالة ليعقوب والأخوة] (أعمال ١١/٢٢).. حيث قضى الليل في الصلاة، وقبل بزوغ الفجر ذهب إلى أريحا حيث الخمسة آلاف رجل»[٢٠].

ثم يأتي النص على ذكر تلقي العدو رسائل من كبير الكهنة للذهاب إلى دمشق و«الإمساك» بكل الذين آمنوا بيسوع، بمساعدة الكفار، والعمل على إرباك المؤمنين ودفعهم إلى الحيرة[٢١].

تناولت الاعترافات «الزائفة» الواقعة نفسها مع اختلافات طفيفة، حيث أرسل كبير الكهنة مرؤوسيه من الكهنة الصغار لدعوة كبار الجماعة في أورشليم، بقيادة يعقوب، للدخول في مناظرات على درجات الهيكل مع المؤسسة الرسمية، والأرجح أنها تناولت طبيعة المسيح وماهية النبي الحق. لبت الجماعة الدعوة وبدأ الجدل، الرسل من ناحية والكهنة في الناحية الأخرى، وقد قام رجل فريسي، جمالائيل، بدعم الرسل[٢٢] وما لبث أن انضم يعقوب «رئيس الأساقفة» إلى «كامل الكنيسة»، «حيث كان حشد كبير ينتظر رؤيته منذ منتصف الليل» ووقف يعقوب في أعلى الدرج حتى يتمكن الجميع من رؤيته.

أشار يوسيفوس، أيضاً، إلى النقاشات الحامية الدائرة بين مجموعات الكهنة المتنافسة، المؤسسة الرسمية من ناحية، وبين أولئك الذين يعبرون عن الفقراء من الناحية الأخرى.

حين أوشك يعقوب أن يلزمهم الحجة «دخل عدو ترافقه قلة قليلة إلى الهيكل ووقف بجوار الهيكل، وصرخ قائلاً:

«ما الذي تفعلونه، يا بني إسرائيل؟ أمن السهل أن يزيغكم هؤلاء التعساء الذين أضلهم ساحر (يسوع)؟».

شارك العدو في الجدل الدائر، وحين أوشك الأسقف يعقوب أن:

«يقطعه، بدأ يثير الفوضى حتى يتعذر على الجموع سماع الشروح الصحيحة، ويستعصي عليهم الفهم، وهنا صرخ محتجاً على ضعف الكهنة وغبائهم، واقترب منهم يحرضهم بقوله: ما الذي يؤخركم؟ لمَ لا تُمسكون بكل من معه؟ ثم قام إلى المذبح وتناول قضيباً [يستعمله صغار الكهنة عادة لضرب من يدنو إلى المذبح من غير المتطهرين حتى ولو كان من كبار الكهنة]، وبدأ يضرب الناس ملوحاً بعصاه، وما لبث أن تفشى الذعر، حين أخذ صغار الكهنة يحذون حذوه، وتدافع الكثيرون للهرب».

وتتابع النسخة السريانية مضيفة:

«دم كثير تدفق من القتلى، وطرح العدو يعقوب من قمة الدرج، واعتقد أنه مات لهذا لم يضربه ثانية»(٢٣).

وما لبث أصدقاؤه أن حملوه نصف ميت إلى بيته في أورشليم، حيث قضوا الليل معاً في الصلاة.

ليس من سبب، من وجهة نظر إيزنمان، يدعو لاختلاق المؤرخين الأوائل أو إقحامهم لحادث الاعتداء على يعقوب البار، فالحادث يعد في رأيه محورياً يمثل الاعتداء الأول وليس الأخير، وربما خرج منه بساق مكسورة، كما جاء في الاعترافات، فحمله أتباعه قبل بزوغ الفجر التالي إلى أريحا، وهي على بعد بضعة أميال من قمران، بعد أن قضوا الليل في الصلاة في بيته في أورشليم. فالحادث حلقة تاريخية في صراع مرير متصل، موازٍ لما أوردته الأعمال من ذهاب بطرس إلى بيت مريم أم يوحنا الملقب بمرقس، كي يترك رسالة إلى «يعقوب والأخوة» حيث «كان كثيرون مجتمعين وهم يصلون»(٢٤)، فهناك رابط مشترك بين الروايتين، لا يتعذر التقاطه، رغم التشوش المتعمد في الأعمال.

أما بالنسبة إلى العدو، فلا مجال للبس، خصوصاً وقد ذكرت النسخة السريانية، بعد حادث الاعتداء مباشرة ما نصه:

«أن العدو وعد الكاهن الأكبر قيافاً، أمام الكهنة، بقتل كل الذين يؤمنون بيسوع.. ثم انطلق وفي جعبته رسائل تكفل له مساعدة غير المؤمنين، وقد ذهب إلى دمشق أولاً لاعتقاده بوجود بطرس هناك».

وتضيف الاعترافات، بصدد هذه الرواية:

«بعد ثلاثة أيام (من وقوع الاعتداء) جاء أحد الأخوة من جمالائيل... يحمل أنباء سرية بأن العدو تلقى تفويضاً من قيافا، رئيس الكهنة، للإمساك بالمؤمنين بيسوع».

ترى هل كان جمالائيل، المكرم عند جميع الشعب، هو من حمل إلى جماعة أورشليم تلك الأنباء السرية؟!

... ...

جاء الاعتداء الثاني على يعقوب في ستينيات القرن الأول للميلاد، وفقاً لما أوردته مصادر تاريخية مختلفة، آخرها مخطوطات نجع حمادي.

يقول يوسابيوس نقلاً عن الفلسطيني هيجسبوس:

«... وفيما هم يرجمونه صرخ أحد الكهنة، من أبناء ركاب من الركابيين قائلاً: توقفوا عما تفعلونه، البار يصلي من أجلكم، وتقدم قصار من بينهم وهوى بالعصى، التي يضرب بها الملابس، على رأس البار... وهكذا استشهد، ودفنوه على الفور بجوار الهيكل، وما يزال قبره هناك.. وفي الحال حاصرهم فسباسيان»[٢٥].

ثم عقب يوسابيوس ببضع كلمات، سواء منه أم نقلاً عن هيجسبوس، بقوله:

«فصار شهادة صادقة لكل من اليهود واليونانيين بأن يسوع هو المسيح».

وبعدها استند إلى يوسيفوس في الربط بين مصرع يعقوب وحصار أورشليم وهدم الهيكل.

أما أبيفانيوس (٤٦٧ ـ ٤٠٤) فعمد إلى تصحيح رواية يوسابيوس عن أنشطة يعقوب في الهيكل، حيث كان يذهب مرة كل عام إلى قدس الأقداس، واضعاً إكليلاً على رأسه، ليصلي جاثياً على ركبتيه حتى صارتا خشنتين كركب الإبل، بسبب ركوعه الدائم من خشية الله.

«كان يُسمح ليعقوب وحده بدخول قدس الأقداس، مرة في العام، لأنه كان نصرانياً ومرتبطاً بالكهنوت... وكان عضواً مميزاً في الكهنوت... ويرتدي إكليلاً على رأسه».

وتأكيداً لروايته استند إلى يوسابيوس وكليمنت وآخرين، بقوله «كثيرون قبلي دونوا عنه ذلك». إن حديث أبيفانيوس عن تضرع يعقوب للرب، من أجل الشعب، وسجوده طوال اليوم على ركبتيه طلباً للغفران، لم يأتِ لمجرد الحديث، بل إشارة متعمدة للصلاة الصحيحة لكاهن/ صديق، «مقدساً» و«تقياً»[٢٦].

جاء أبيفانيوس أيضاً على ذكر مطالبة ابن عم يعقوب بالكف عن رجمه «أنظروا إنه يصلي من أجلكم، أفضل الصلوات»، وقال إنه توفي عن عمر يناهز الستة والتسعين عاماً، مما يعني توليه قيادة الجماعة لحوالى أربعة وعشرين عاماً.

لم يثر حديث أبيفانيوس، للمفارقة، عن يعقوب البار دهشة مؤرخي الكنيسة، وتقبلوه من دون تردد، مما يفيد أن ممارسات يعقوب ودخوله مرتدياً الكتان، ثوب الكهانة، إلى قدس الأقداس، على

الأغلب في يوم الغفران، بدا لهم أمراً اعتيادياً ومألوفاً، تسنى له بفضل منزلته الرفيعة. ولم يدر بخلدهم أنه ربما كان، بحكم نشأته وورعه، الكاهن الأكبر المعارض بشدة لمؤسسة الهيكل الرسمية لإذعانها لروما الوثنية وحلفائها، فضلاً عن تدنيسها الهيكل، الأمر الذي دفع الكتبة والفريسيين إلى التخلص منه، وكان لهم ما أرادوا، وبرروا فعلتهم بنبوءة أشعيا بموت الصديق(٢٧).

نظرت الدراسات المسيحية طويلاً بازدراء إلى شهادة أبيفانيوس، ولم تعرها التفاتاً.. حتى جاءت مخطوطات البحر الميت، لتوفر دليلاً على المعارضة الصديقية (الصدوقية) الشديدة لمؤسسة الهيكل الرسمية. فقد وردت إشارة مبهمة، على سبيل المثال، في شروحات جماعة قمران على سفر حبقوق، تشير إلى المصاعب التي واجهها أتباع المعلم البار على يد الكاهن الشرير.

لنلق نظرة على مقطع من شروحات الجماعة على السفر المذكور:

«ويل لمن يسقي قريبه، ساكباً عليه غضبه حتى يسكره، ليتلصص على أعيادهم [ويل لمن يسقي صاحبه سافحاً حموك ومسكراً أيضاً للنظر إلى عوراتهم] (حبقوق ٢/١٥).

تفسير ذلك يتعلق بالكاهن الشرير الذي

يطارد المعلم البار ليبتلعه في حام [حقد]

غضبه في بيت منفاه. عند اكتمال عيد الراحة

يوم الغفران، ظهر ليبتلعهم

مما جعلهم يتعثرون [ألقى بهم أرضاً] يوم الصوم، سبت راحتهم»(٢٨).

يتفق إنجيل توماس، المكتشف حديثاً في نجع حمادي، مع ما أشار

إليه أبيفانيوس وكليمنت بتعيين يسوع يعقوباً خلفاً له «فمن أجله وجدت السماء والأرض». يحظى هذا الإنجيل الآن باهتمام كبير في الغرب، باعتبار أنه يرجع إلى مرحلة مبكرة، تمَّ فيها حفظ أقوال يسوع قبل ظهور القصص بما تضمنته من صلب وقيامة، رغم اتسامه بالغموض لطبيعته الغنوصية في التوصل إلى المعرفة.

استند جيروم في حديثه عن طرح يعقوب ورجمه إلى رواية يوسيفوس في مؤلفه «قدم اليهود». فرواية الأخير، وبالأحرى كل أعماله رغم تناقضها تساعد أحياناً في إعادة بناء الأحداث حسب تسلسلها الزمني في ضوء الظروف الدين/ سياسية السائدة، آنذاك.

ربط يوسابيوس أيضاً، بدوره بين مصرع يعقوب وانفجار الموقف وبين تدمير الهيكل وسقوط أورشليم، وجاء برواية تتسق مع ما أورده يوسيفوس على النحو التالي:

«فور علمه بوفاة فستوس، أرسل القيصر [نيرون] ألبينيوس نائباً عنه إلى يهودا، لكن الملك [أجريبا الثاني] أقال يوسف من رئاسة الكهنة، ومنح شرف المنصب إلى ابن حنانيا، الذي كان يدعى هو الآخر حنانيا [حنانيا بن حنانيا]، ويقال إن حنانيا الكبير كان محظوظاً للغاية فلديه خمسة أبناء، أصبحوا جميعاً رؤساء كهنة الرب، بعد أن تمتع والدهم طويلاً بهذا المنصب، على نحو لم يسبق لغيره من كبار الكهنة».

لم يورد يوسابيوس من ناحيته هذه المعلومات حول عائلة حنانيا الكبير، وهذا يعد، في رأي إيزنمان، أمراً مثيراً..

أولاً، لأن يوسيفوس يدلي في موضع آخر بالمعلومات نفسها عن خصم يعقوب، حنانيا بن حنانيا.

وثانياً، لأن حنانيا الكبير تمتع بالمنصب لمدة طويلة، قد تسبق أو

توازي فترة حكم بيلاطس، الذي أبرزت الأناجيل دوره الأساسي في محنة صلب يسوع (لوقا ٢/٣، يوحنا ١٨/٣).

على الرغم من حداثة سنه تمتع أجريبا الثاني (٤٩ - ٩٣) بامتياز تعيين كبار كهنة اليهود، أسوة بوالده، حسبما أورد يوسابيوس، وقد كان متهوراً في طباعه عديم الاكتراث.

تناول يوسيفوس ما حدث على نحو شامل، حين يذكر التالي:

«رأى حنانيا، بطباعه هذه، أن الفرصة باتت سانحة، بوفاة فستوس وعدم وصول خليفته ألبينيوس، فقام بدعوة السنهدرين وإحضار يعقوب أخ يسوع، المدعو بالمسيح، مع آخرين للمثول أمامه، وأقام عليهم الدعوى، أمام القضاة، بنقضهم الناموس ثم أسلمهم للرجم.

غير أن المواطنين الأكثر إنصافاً والأشد حرصاً على الالتزام بالناموس، استاؤوا كثيراً وناشدوا الملك سراً بإيقاف حنانيا عن تصرفات كهذه، قائلين إنه لم يلتزم أبداً بالناموس من قبل. وذهب بعضهم لمقابلة ألبينيوس، في طريقه من الإسكندرية إلى أورشليم، ليبلغوه بعدم شرعية انعقاد السنهدرين من دون موافقته.. فأرسل ألبينيوس كتاباً إلى حنانيا يهدد بمعاقبته لما أقدم عليه. أقال الملك أجريبا حنانيا نتيجة لذلك، من رئاسة الهيكل وأحلّ آخر مكانه، ولم يكن قد مضى على تعيينه سوى ثلاثة أشهر فقط»(٢٩).

تشير رواية يوسيفوس بوضوح إلى قيام الملك أجريبا الثاني وحنانيا الكبير بانتهاز فرصة الفراغ السياسي الناشيء عن وفاة الحاكم الروماني المفاجئة، لتدبير مكيدة، أي مؤامرة بلغة العصر، للتخلص من يعقوب. فالرجلان توطدت بينهما الصداقة أثناء وجودهما في روما، في خمسينيات القرن الأول للميلاد، حينما ذهبا إلى للاحتكام لدى القيصر، إثر اضطرابات عصفت حينها بالبلاد. وقد

أسفرت الزيارة عن إرسال فيلكس، عبد القيصر المحرر، حاكماً على فلسطين. كان لأغريبا الثاني وحنانيا، فضلاً عن صداقتهما الوطيدة، دوافع مشتركة للتخلص من يعقوب، خصوصاً إذا كان المحرك الأساسي للاهتياج الحاصل في الهيكل حول شرعية عدة قضايا، ليس أقلها، السماح أو عدم السماح للملوك الهيروديين بدخول الهيكل، وكذلك الحق المخول لهم في تعيين رؤساء الكهنة، وجواز تقبل أولئك لهبات الأغيار وقرابينهم، بمن فيهم القيصر الروماني نفسه، وكل هذه تشكل دوافع قوية لكلا الرجلين للتخلص من يعقوب وما يثيره من اضطراب، ناهيك عن هجومه المستمر على الأثرياء لصالح الفقراء، وقد تمّ لهما ما أرادا وخططا له بإحكام.

لم يكن الحاكم الروماني الجديد، ألبينوس، بأفضل حالاً من سابقيه. فسرعان ما أفسدته هبات كبار الكهنة الأثرياء ورشاويهم، فأطلق لهم العنان، وهم بدورهم كانوا «متحالفين مع أشد الناس انحرافاً» إلى حد استيلائهم على العُشر «المخصص لفقراء الكهنة». وقد أورد يوسيفوس ملاحظاته حولهم في مناسبتين: الأولى أثناء ولاية فيلكس (٥٩ ـ ٦٠م)، الذي وضع بولس تحت حمايته في قيسارية، والثانية إبان فترة ألبينيوس (٦٢ ـ ٦٤م) بعد رجم يعقوب مباشرة. وفي كلتا المناسبتين، كان جشع كبار الكهنة وراء تفشي الصدامات ورمي الحجارة وتنامي الكراهية بين «طبقة كبار الكهنة الأثرياء من ناحية وقادة الكثيرين ـ الفقراء ـ في أورشليم من ناحية أخرى».

المذهل، أن جماعة قمران تنتقد أيضاً هي الأخرى جشع «الكاهن الشرير» واكتنازه الثروات على حساب الفقراء، فتتناول نصاً في

سفر حبقوق بالشرح قائلة: «الرجل متكبر ولا يهدأ. الذي وسع نفسه كالهاوية وهو كالموت فلا يشبع بل يجمع إلى نفسه» (٢١/ ٥ ـ ٦)، وتشرحه كالتالي:

«تفسير ذلك يخص الكاهن الشرير، الذي؛

دُعي باسم الحق في بداية توليه، ولكنه عندما حكم؛

في إسرائيل، تكبر وهجر الله، وخان الشريعة من أجل الثراء».

تعمد يوسيفوس على الأرجح بث معلوماته المستقاة من مصادر متعددة، بصدد رجم يعقوب البار، على نحو متفرق في ثنايا مواد أخرى في نهاية مؤلفه (قدم اليهود). ثم ما لبث أن انتقل مباشرة إلى ذكر الحملة الواسعة التي شهدتها البلاد، بقيادة ألبينيوس وكبار الكهنة للقبض على الأسخاري (Sicarri) واصفاً إياهم باللصوص وقطاع الطريق، غير أنه استخدم المصطلح نفسه لتعريف أتباع الفلسفة الرابعة أو الثوريين، قبل استعماله لمصطلح «الغيوريين» في موقع آخر من مؤلفه «الحروب اليهودية» تعبيراً عمن قاموا باغتيال كبار الكهنة وحرق قصورهم وتدمير ضياعهم، انتقاماً على الأغلب لمصرع يعقوب.

قام يوسيفوس بتقديم الأسخاري لأول مرة عام ٥٥م ـ وزعم أنهم كانوا يخفون خناجرهم في طيات ملابسهم أسوة بالأسلوب العربي ـ بدعوى إقدامهم على اغتيال يوناثان رئيس الكهنة حينها وهو بالمناسبة شقيق حتانيا، وأوضح المؤرخ بأنهم ورثة الحركة التي أسسها يهودا وصادوق في الجليل حوالى عام ٤م، مما يرجح معه إقدام حنانيا لاحقاً في الستينيات بمعاقبة يعقوب بالرجم حتى الموت انتقاماً لمصرع شقيقه.

أياً كان تقييم يوسيفوس المتباين لاضطرابات القرن الأول للميلاد،

فقد جاءت احتجاجاً، حسبما أورد بين حين وآخر، على ما يقوم به كبار الكهنة من «تدنيس للهيكل» بتقبلهم هبات الأغيار وتعاونهم مع السلطات الرومانية المحتلة، فضلاً عن «عدم تقوى الله» في سلوكياتهم، وهي تهم طالما رددتها جماعة قمران في وجه مؤسسة الهيكل الرسمية في أورشليم. وقد جاء مصرع يعقوب واغتيال حنانيا، كما يستنتج إيزنمان، ليفجرا الموقف المتوتر أصلاً برمته، والذي بلغ أوجه في ثورة ٦٦م. وقد كان من الطبيعي في مواجهة الوضع المتدهور أن يتبلور الاستقطاب في مواجه عدو مشترك: في ناحية من أطلق عليهم يوسيفوس «المجددون في دينهم»، وهم النصارى، الثوار، الصدوقيون الأطهار، «الغيورون على الناموس» وجماعة قمران، وفي الضفة المواجهة أسرة هيرودس الحاكمة ومؤسسة الهيكل الرسمية وحلفاؤهما الفريسيون، الرومان أصحاب السيادة الفعلية خلف كل هؤلاء.

أمام اشتعال الموقف أمر فسباسيان الجيش الروماني عام ٦٦م، باقتحام يهودا وإخماد الثورة، الأمر الذي أدى إلى سقوط أورشليم وتدمير الهيكل عام ٦٨م.

لم يستطع يوسيفوس، رغم موقفه المتأرجح، تجاهل الأحداث الدامية ومضمونها الحقيقي، وما انتهت إليه من اجتياح أورشليم وتدمير الهيكل، فعلق بالقول متأسياً «لقد حلّت هذه الكوارث باليهود انتقاماً لدماء يعقوب البار، الذي كان أخاً ليسوع، الذي يدعى المسيح، فقد قتله اليهود رغم أنه كان شخصاً باراً للغاية»[٣٠].

ويأتي يوسابيوس، أسقف قيسارية، بعد قرابة قرنين من الزمن، ليقول هو الآخر وإنما بتحفظ:

«كان يعقوب شخصاً عجيباً، اشتهر بيره بين الجميع.. حتى اعتقد كثيرون بأن حصار أورشليم وما حلّ بهم، بعد استشهاده مباشرة، وقع بسبب الجريمة النكراء التي راح ضحيتها».

يبدو أن ذكرى يعقوب البار وصلابته في الحق ظلت ماثلة في أذهان الناس في فلسطين لفترة طويلة. فالذكرى الطيبة تبقى وتتوارثها الأجيال.

الهوامش:

(١) يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة، ترجمة القس مرقس داود (مكتبة المحبة، القاهرة، ١٩٧٩) ص ١٢.

(٢) Eisenman, James, P. 438.

(٣) تعود الوثيقة على الأرجح إلى فيلافيوس كليمنت، الذي كان ينتمي إلى الطبقة الأرستقراطية في روما، إلا أنه أتبع برنابا إلى قيسارية بفلسطين، إثر سماعه لتعاليمه، وقد لقي حتفه على يد الأمبراطور دوميتان عام ٩٥م. ويعود الفضل في بقاء الوثيقة إلى المؤرخ روفانيوس، الذي ترجمها إلى اللاتينية، كما يوجد نسخة عن الوثيقة بالسريانية، ظهرت في الغرب حوالي القرن الثالث للميلاد، ولم توجد لها ترجمة باليونانية، فضلاً عن أنها غير معترف بها، بل يزدريها المؤرخون الرسميون.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٨٦.

(٥) المصدر نفسه، ص ٧٣.

(٦) جاء قول بولس لأهل غلاطية «لما سره الله الذي أفرزني من بطن أمي ودعاني بنعمته أن يعلن الله فيّ لأبشر به بين الأمم للوقت لم أستشر لحماً ودماً»، تمهيداً للقائه مع يعقوب، مما يستشف منه أنه يقدم نفسه، منذ البداية، منافساً ليعقوب ونصرانيته التي بات أمرها معروفاً في أورشليم في ذلك الوقت، فبولس يدين بمهمته إلى يسوع والله الأب الذي أقامه من الأموات. انظر رسالة غلاطية (١٧/١).

(٧) يوسابيوس، ص ٦٤.

(٨) المصدر نفسه، ص ٦٤.

(٩) المصدر نفسه، ص ٣٦٥.

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٠٢.

(١١) Eisenman, James, P. 65.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٢٠١.

(١٣) يوسابيوس، ص ١٠٢.

(١٤) Eisenman, James, P. 215.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٤١٦.

(١٦) المصدر نفسه، ص ٤١٧.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٤٢٥.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٤٢٠.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٤٢٤.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٤٢٤، انظر الأعمال (٤/٤) «كثيرون من الذين سمعوا الكلمة آمنوا وصار عدد الرجال نحو خمسة آلاف».

(٢١) انظر الأعمال (٢٢/٩) «... وقالوا أليس هذا الذي أهلك في أورشليم الذين يدعون بهذا الاسم، وقد جاء إلى هنا ليسوقهم موثقين إلى رؤساء الكهنة. وأما شاؤول فكان يزداد قوة ويحير اليهود الساكنين في دمشق».

(٢٢) انظر الأعمال (٣٤/٥ ـ ٣٩) «فقام في المجمع رجل فريسي اسمه جمالائيل مكرم عند جميع الشعب... والآن أقول لكم تنحوا عن هؤلاء الناس واتركوهم، لأنه إن كان هذا الرأي أو العمل من الناس فسوف ينتقض، وإن كان من الله فلا تقدرون أن تنقضوه».

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٥٩٠.

(٢٤) انظر الأعمال (٤/٨)، (١٢/١٢ ـ ١٧)، (١٢/١ ١٢ ـ ١٧).

(٢٥) المصدر نفسه، ص ٤٥٤.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٤١٣.

(٢٧) سفر أشعيا «ويل لنفوسهم لأنهم يصنعون لأنفسهم شراً. قولوا للصديق خير، لأنهم يأكلون ثمر أفعالهم» (١٠/٣).

(٢٨) شروح سفر حبقوق (عمود ١١/٢ ـ ٨).

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٤٨٦.

(٣٠) المصدر نفسه، ص ١٠٥.



يعقوب البار

الرئيس الأول لجماعة أورشليم

الفصل الحادي عشر

قمران تتحدث

تعرضنا في الفصول السابقة لما أثارته لفائف قمران من صخب بسبب حساسية المواد، وما كشفته معطياتها من رؤى مغايرة وما أثارته من شكوك، زادها اشتعالاً الحظر والتكتم اللذان فرضهما الفريق الدولي حولها لعقود طويلة.

والآن لنتعرف إلى بعض نماذج كتابات الجماعات وإيحاءاتها. ويجدر التنويه أن بعضها خاص بالجماعة لم يسبق للعالم الاطلاع على مثلها من قبل، وبعضها الآخر يتناول أسفار «العهد القديم» وأعمالاً أخرى، تعرف بالأبوكرافيا، بالشرح والتعليق على نحو مخالف لما ألفه العالم واعتاده في التراثين التلمودي والمسيحي المعاصر. غير أن ذلك، لا ينفي أهميتها التاريخية في محاولة فهم أحداث القرن الأول للميلاد، وإزاحة الستار عما يكتنفها من غموض.

الوثيقة النحاسية

أدهشت هذه الوثيقة العالم وأسالت لعاب الطامحين. فهي تحتوي على قائمة بكنز موزع على أربعة وستين موقعاً، أكثرها يقع في

أورشليم أسفل الهيكل أو متاخماً له، وبعض منه مخبأ في القرى المحيطة، ربما أبعد قليلاً من منطقة قمران ومحيطها. تمَّ العثور على اللفافة في الكهف المثير رقم ٤، ويقدر الوزن الإجمالي لمحتويات الكنز، في حال صحة الوثيقة، بخمسة وستين طناً من الفضة وستة وعشرين طناً من الذهب. هذا عدا الأوعية والأواني الثمينة المستخدمة في تأدية الطقوس الدينية. وتقدر القيمة الإجمالية للكنز، حسب أسعار التسعينيات، بحوالى ثلاثين مليون جنيه أسترليني، غير أن القيمة الأثرية والمعنوية تفوق المبلغ المذكور بكثير.

أتمَّ العالم البريطاني أليغرو تقطيع اللفافة وترجمتها في أوائل الخمسينيات، مع ذلك، لم تنشر المادة حينذاك خوفاً من الطامعين والمغامرين، فالمبلغ المقدر قد لا يبدو مذهلاً للبعض في أيامنا هذه، لكن حلم العثور على الكنز كان ولا يزال يداعب الكثيرين، ولم نعدم حتى اليوم مغامراً يأتي من أقاصي الدنيا يحدوه الأمل في العثور على المواقع المذكورة في الوثيقة.

يقع المخطوط النحاسي في اثني عشر عموداً، يشير بكلمات مقتضبة إلى مواقع الكنز.

لنلق نظرة على بعض الأمثلة:

العمود الأول:

١ ـ هورباه، Horebbah، وادي أشور Achor، أسفل الدرجات المتجهة شرقاً على بعد أربعين ذراعاً: صندوق (مملوء) فضة يزن في مجمله سبعة عشر طالين[1]؛

٢ ـ في مقبرة ... الثالث: مائة سبيكة ذهبية؛

... ...

٥ ـ في كوة الملاذ الواقي من المطر، الهبوط إلى أسفل في اتجاه اليسار، فوق القاع بثلاثة أذرع: أربعون طالين فضة؛

العمود الثاني:

٧ ـ في كهف منزل الشيخ دوشر، في المنصة الثالثة: ست وخمسون سبيكة ذهبية؛

٨ ـ في الفجوة السفلى من منزل لوجس الريفي، هناك حوض: أوان من الفضة وسبعون طالين؛

... ...

العمود السادس:

٩ ـ في مخدع الملكة على الجانب الغربي، احفر اثني عشر ذراعاً: سبعة وعشرين طالين؛

... ...

العمود السابع:

٣٣ ـعند دوت، تحت الجانب الشرقي لمركز الحراسة، احفر سبعة أذرع: اثنين وعشرين طالين؛

... ...

العمود الثاني عشر:

٦٠ ـ... تحت عتبة حجرة الضريح: اثنان وأربعون طالين؛

٦١ ـعلى جبل جيرزيم، أسفل درجات الهوة الأعلى: صندوق يحتوي على ستين طالين فضة[٢].

... ...

هكذا تتوالى المواقع والمخابىء على امتداد اللفافة، وقد فشلت

محاولات الأركيولوجيين المكثفة في العثور على أي منها. فمرور ألفي عام ليس بالأمر الهين، تبدلت خلالهما معالم الأرض وتغير تخطيط المنطقة لمرات ومرات، ناهيك عن الأسماء والاتجاهات.

مع ذلك، وبغض النظر عن الكنز المذكور، تحتل اللفافة النحاسية أهمية قصوى لما تتضمنه من دلالات تاريخية، لا يزال يدور حولها جدل عنيف، محوره السؤال التالي: من الذي كان بوسعه امتلاك تلك الثروة الطائلة في ذلك الوقت؟

ترجح الاحتمالات، بناء على إيحاءات اللفافة النحاسية، امتلاك مؤسسة الهيكل للكنز، ويبدو أنها قد هربته سراً بغرض حمايته من الغزاة الرومانيين، مما يعني أن تأريخانية الوثيقة تعود إلى الغزو الروماني للبلاد عام ٦٨م.

عمد الفريق الدولي المحافظ وفي مقدمته البروفسور كروس والأب ميليك، إلى التخلص من ذلك الحرج بقولهما بأنه: ليس بمقدور مؤسسة الهيكل امتلاك ثروة طائلة كهذه، فاللفافة النحاسية بالنسبة إليهما، ليست سوى وهم كاذب ومحض خيال. واكتفى العضوان والفريق الدولي من ورائهما بحصر أهمية اللفافة في الناحيتين اللغوية والطبوغرافية[٣]، وأعادا كتابتها إلى عام ١٠٠ق.م.

غير أن دفوع الأب ميليك، لم تستطع إعطاء تفسير لخاصتين واضحتين في الوثيقة: أسلوب كتابتها الذي جاء جافاً محدداً، يختلف تماماً عن الأسلوب المتبع في صياغة الأساطير القديمة، ثم ما الداعي إلى نقشها على النحاس، بدلاً من استعمال الرق أو البردى، الأرخص تكلفة والأقل جهداً؛ دع عنك وجودها بين لفائف قمران الأخرى في الكهف رقم ٤؟!

وتعددت الآراء.

البعض يعيد الكنز إلى طائفة الأسينيين، لكنه رأي ضعيف يتعذر قبوله؛ فالأسينيون طائفة صغيرة نسبياً لم يكن بوسعها امتلاك ثروة طائلة كهذه، بل مؤسسة الهيكل وحدها هي التي يمكنها جمع ثروة عن طريق الهدايا والهبات والنذور، ناهيك عن العُشر.

يعارض البعض هذا الرأي بالسؤال التالي:

أيعقل أن تنقل مؤسسة الهيكل الرسمية ثروتها الطائلة إلى مقر جماعة معادية لها في قمران؟!

ويجيب العالم البريطاني أليغرو، بأن «الغيورين على التوراة» هم الذين قاموا بنقل الكنز وإخفائه، فضلاً عن نقش اللفافة النحاسية، مفترضاً بأنهم قد سيطروا في ذلك الوقت على قمران، وأن علاقاتهم بمؤسسة الهيكل في أورشليم قد شهدت تحسناً ملحوظاً بسبب الأخطار المحدقة بالبلاد(٤).

في خضم الجدل المتبادل، تمَّ في عام ١٩٨٨، العثور على إبريق فخاري في كهف يقع شمال الكهف رقم ٣ في قمران، على عمق ثلاثة أقدام، يرجع تاريخه إلى هيرودس الأكبر وخلفائه.

بدا الإبريق قيماً للغاية ومخبأ بعناية فائقة في لفافة من زعف النخيل إمعاناً في المحافظة عليه على أفضل وجه، ويحتوي على زيت غليظ القوام، أحمر اللون. وقد أثبتت التحاليل الكيميائية أنه يختلف عن أي زيت نعرفه في أيامنا الحالية، ويعتقد أنه زيت البلسم(٥) الذي كان يستخرج بالقرب من أريحا، لاستعماله وفق التقاليد المعروفة في مسح ملوك إسرائيل الشرعيين. بالطبع من الصعب التيقن من ذلك على نحو قاطع، فشجر البلسم اختفى منذ حوالى ١٥٠٠ عام، ولعل الزيت المكتشف كان جزءاً من الكنز المذكور في اللفافة النحاسية، والمعروف أنه مادة مكلفة للغاية، ومن غير المنطقي

استعمالها من قبل جماعة يفترض أنها ناسكة زاهدة تعيش منزوية في صحراء قاحلة[٦].

وبالرغم من الضجة المثارة، فاللفافة النحاسية تنطوي على دلالة مهمة أخرى، تفيد بأن قمران لم تكن منقطعة عما حولها، كما يصر الفريق الدولي، بل كانت تشكل حلقة وصل رئيسة بين جماعتها وبين الزمر المرتبطة بالهيكل في أورشليم.

«قانون الجماعة»

تمَّ اكتشاف لفافة «قانون الجماعة» في الكهف رقم واحد عام ١٩٤٧، وقد خرجت في حالة جيدة، كما تمَّ العثور لاحقاً على بقايا لعشر نسخ منها. اللافت، إدخال الجماعة بعض التعديلات على نصوصها الأصلية، فعلى سبيل المثال عدلت فقرة تنص على «سوف أغلف العلم بالحذر» إلى «سوف أمنح العلم بتحفظ». أرجع الفريق الدولي تاريخ كتابة الوثيقة إلى الفترة ما بين ١٠٠ ـ ٧٥ق.م. ورأى أنها مخصصة لمعلمي الجماعة والقائمين على شؤونها، وهي تحتوي على مقتطفات من الطقوس والواجبات الدينية الأساسية، كما تنص على المواسم الدينية للجماعة، فضلاً عن آداب السلوك ولائحة عقوبات لمن ينتهك مبادئها ونظمها. أجمع الباحثون بلا استثناء على عدم وجود كتابات موازية لقانون الجماعة أو مماثلة لها في المصادر اليهودية القديمة، وأقر الجميع بانتعاش مضمون مشابه لها بين المسيحيين فيما بين القرنين الثاني والرابع الميلادي، وهي الفترة التي شهدت ملاحقة الفرق المسيحية واضطهاد أعضائها، وتطور هذا المضمون إلى ما أصبح يعرف فيما بعد بنظام الكنيسة.

لنطلع على بعض ما جاء في الوثيقة:

تبدأ الوثيقة بمخاطبة القائد في كيفية تعليم الأطهار أسلوب العيش حسب قانون الجماعة.

«سوف يتم قبول كل أولئك المتطوعين في عهد التقوى، كي يعملوا بحسب شرائع الله؛

حتى يصبحوا جزءاً من مجلس الله ويسيروا أمامه في الكمال بكل؛

ما أوصى به فيما يخص الأعياد، وكي يحبوا كل أبناء النور؛ كل بحسب مكانته المخصصة في مجلس الله، وحتى يكرهوا كل أبناء الظلام، كل بحسب ذنبه في انتقام الله، وكل (أولئك) المتطوعين للحق سوف يضعون معرفتهم، وقوتهم وثرواتهم في جماعة الله، فلربما يزكون معرفتهم لحق الله، ويهذبون قوتهم بالكمال في دروبه، وثرواتهم في مجمع الحق، حتى لا يضلون في أي شيء من كلمات الله».

يوضح قانون الجماعة المبادىء والنظم والطقوس التي تحكم حياة جماعة الصحراء، وتميز أبنائها عن غيرهم، مؤسساً بذلك سلطة مراتبية تُطرح من خلالها تعاليم القائد لأعضاء الجماعة عبر المسؤولين التابعين له. واهتم القانون كذلك بتحديد آداب السلوك وعقوبات انتهاكها، فالكذب المتعمد مثلاً يخضع مرتكبيه للكفارة لمدة ستة أشهر، ولهذا فعلى جميع الراغبين في الدخول في العهد أمام الله الالتزام بكافة وصاياه، حتى يتطهروا من كل آثامهم. فالتمسك بالناموس بحذافيره يحتل المكانة الأولى لدى الجماعة:

«.. سوف لن يبرأ من سمح لقلبه العنيد، لأن يتطلع إلى الظلام عوضاً عن دروب النور. ولن يُحسب في نبع الكاملين.

ولن يُبرأ بالكفارات، أو يتطور بالمياه الصافية، ولن تُزكيه مياه البحار

والأنهار، ولن تطهره أية مياه وضوء، نجساً نجساً، سوف يكون في كل الأيام التي ازدرى فيها أحكام الله»[٧].

فالمغفرة تتأتى، حسبما تشير الوثيقة:

«بالتسليم لمجمع جماعة الله، وبالخضوع المتواضع لشرائعه، فعندها يتطهر اللحم ويتزكى بالماء الطهور ليرى النور الحي، وليغتسل من كل آثامه بواسطة الروح القدس».

تقدم لفافة «قانون الجماعة» أصحابها بمصطلحات عدة منها «المحافظون على العهد» و«الغيورون على الناموس» وأيضاً «أبناء النور»، وللجماعة مجلس يتكون من اثني عشر عضواً وثلاثة كهنة، وإن كان لا يعرف على وجه الدقة إن كان هؤلاء الثلاثة جزءاً من الاثني عشر أم لا. وتصرّح الوثيقة بأن المجلس «سوف يحفظ الإيمان في الأرض» ويكفر عن الآثام عبر المعاناة والإنصاف.

في مواجهة حديث الوثيقة عن الكفارة والمغفرة، أكد الفريق الدولي في مسعاه الحثيث لإبعاد جماعة قمران، قدر المستطاع، عن تعاليم يسوع وأتباعه، على أن فكرة التكفير عن خطايا البشر وآثامهم لم تظهر في تعاليم قمران، مما يميز يسوع عن المعلم البار بفاعلية عقيدة الكفارة واستثنائيتها. ورغم محاولات الفريق، فالوثيقة تطرح فكرة الكفارة لدى جماعة قمران مثلما تظهر مع يسوع وأتباعه فيما يعرف بالكنيسة الأولى، حيث تبدو الكفارة لدى الجماعة عقوبة ينزلها المخطىء بنفسه تعبيراً عن الندم والتوبه بتوجيه من الكاهن[٨].

... ...

تشدد الوثيقة على ضرورة تقيد الأعضاء بكل مبادىء التوراة، شريعة موسى والتمسك بالأنظمة الجماعية الأساسية، حتى «مجيء النبي ومسيح هارون وإسرائيل». أثارت هذه الفقرة الواردة بالوثيقة

موجة عارمة من الحيرة بذكرها «مجيء النبي» لمرة واحدة وعلى نحو مباشر وبإيجاز شديد. يقول العالِم جيزا فيرمس:

«تم إخبارنا بقدوم نبي ومخلِّص، أو مخلِّصين، من هارون وإسرائيل، وللأسف فالجملة ليست كاملة، وقد عثر عليها في مجموعة الكهف رقم ٤».

ويضيف قائلاً:

«ربما استندت الجماعة في ذكرها النبي، إلى السياق الفكري «للعهد القديم»، حيث ساد الاعتقاد بعودة إيليا ليبشر بالمخلِّص، أو لعله مرشد إلهي يُرسل إلى إسرائيل في الأيام الأخيرة بما يتطابق مع النبي الذي وعد به الله موسى وفقاً لقوله: «إني أقيم لهم نبياً من بني إخوتهم مثلك، وأجعل كلماتي في فمه، فيكلمهم بكل ما آمره به» (تثنية الاشتراع ١٨/١٨ - ١٩)[٩].

فسَّر البعض العبارة المقتضبة المتعلقة بالمخلصين بأنها قد تعني مخلِّصين اثنين متميزين، كلاهما في مستوى عظيم، أحدهما من نسل هارون والآخر من نسل إسرائيل، أي داود وسليمان، أو لعلها تشير إلى سلالة من المخلِّصين توحد السلالتين معاً.

تناول الباحث البريطاني أليغرو، بدوره، هذه الفقرة المحيرة، لافتاً الانتباه إلى مقتطفات في سِفر التثنية ركزت عليها جماعة قمران بشكل خاص، توضح أن الشعب كان يتطلع إلى وسيط بينهم وبين الله، فأرسل موسى:

«.. قال لي الرب سمعت صوت كلام هؤلاء الشعب الذي كلموك به، قد أحسنوا في كل ما تكلموا. يا ليت قلبهم كان هكذا بينهم حتى يتقوني ويحفظوا جميع وصاياي كل الأيام كي يكون لهم ولأولادهم خير إلى الأبد» (٥/٢٨ - ٣٠).

ويمضي أليغرو مضيفاً:

«يجب جمع ودراسة النصوص التي تحذر الغافلين، عن اتباع رسل الله من المصير الذي ينتظرهم في الأيام الأخيرة حتى يتضح الهدف من هذه الشهادات. ويأتي في مقدمة هؤلاء المسيح والنذير، أي النبي، فالمصنف القديم لم يجد أدنى حرج في ذكر الفقرة التالية من سفر التثنية «أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأضع كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ويكون الإنسان الذي لا يسمع كلامي الذي يتكلم به باسمي، أطالبه» (١٨/١٨).

هذا النص، كما يعتقد أليغرو، لا يتصل بموسى ولكن بالنبي الذي طال انتظاره، والذي تنبع سلطته من المصدر الإلهي. غير أن بطرس وأستفانوس قاما بإسقاط هذه الشهادات على يسوع عبر مواعظهما في العهد الجديد:

«فإن موسى قال للآباء إن نبياً مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم. له تسمعون في كل ما يكلمكم به. ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبي تباد من الشعب» (الأعمال ٣/٢٢ ـ ٢٤).

كما جاء في الأعمال أيضاً.

«هذا هو موسى الذي قال لبني إسرائيل نبياً مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوانكم»[١٠].

يدلي الباحث باول دايفز بدلوه في النقاش الدائر، موضحاً بأن الوثنية والآلهة المتعددة كانت منتشرة في الشرق القديم، أثناء حياة يسوع وبعدها، وقد كانت لتلك الوثنيات معتقدات ومزاعم بفكرة الخلاص على أيدي آلهتهم.. مثرا، تموز، أدونيس وأوزوريس، فكل هؤلاء مخلِّصون للإنسان، لذلك أُضيفت عقيدة المخلِّص إلى يسوع، وهي ليست فكرة يهودية، كما لم تكن متبعة لدى

المسيحيين الأوائل في فلسطين.. ويستطرد دايفز: «إن المسيح المخلِّص الذي كان يتوقعه اليهود وينتظرونه لم يكن «ابن الله» بل رسول من الله، ليس مخلِّصاً عبر المسح بالدم، ولكن بواسطة شريعة يأتي بها إلى الأرض في ملكوت الخلاص»(١١).

يشارك الكاتبان بايجنت وليه برأيهما في هذا الصدد، بالقول:

«لم يكن مصطلح المساي يعبر في السياق الزمني البعيد عما آل إليه لاحقاً في التراث المسيحي. فمصطلح المسيح كان يعني بالتحديد وببساطة الممسوح، أي المرسَّم بالزيت، ويندرج تحت هؤلاء كل الملوك والكهنة، بل أيضاً المطالبين بالمراتب الرفيعة، فهم أيضاً كانوا يمسحون بالزيت ليصبحوا بعدها مخلِّصين»(١٢).

... ...

توقف الباحثون طويلاً عند الوليمة الجماعية التي تقيمها جماعة قمران في وجبة العشاء، كلما انتظم عقد عشرة أعضاء على الأقل. أتراها كانت أساس الشعيرة التي اتبعها يسوع، كما ورد في العهد الجديد عن العشاء الأخير!

تقول وثيقة قانون الجماعة:

«عندما يجتمعون لتناول طعام الجماعة ولشرب الخمر... فلا يمد أحد يده إلى بواكير الخبز و[...] قبل الكاهن، ذلك [أنه هو] سيبارك بواكير الخبز والـ[...] [وبعده] كل رعية الجماعة ستبارك كل بحسب رتبته»(١٣).

في حين يرد في «العهد الجديد»:

«وفيما هم يأكلون أخذ يسوع خبزاً وبارك وكسر وأعطاهم وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي. ثم أخذ الكأس وشكر وأعطاهم فشربوا منها كلهم» (مرقس ١٤/٢٢).

اللافت في نص إنجيل مرقس، أن احتفال القربان المقدس قد حدث أثناء الوليمة. ولم يبد حينها أحد من التلامذة أية إشارة تنم عن الدهشة، مما يعني في جوهره أن ما حدث كان أمراً مألوفاً ومعتاداً لديهم. حتى د. كروس، أحد أعضاء الفريق الدولي، أقر بالموازاة القوية بين وليمة الجماعة المقدسة ووليمة المسيحيين الفلسطينيين.

أمام هذا التماثل المثير يطرح باول دايفز تساؤلاً بديهياً: إذا كان الأسينيون هم أسلاف المسيحيين الفلسطينيين الأوائل ومعاصروهم، تصبح مسألة من الذي أخذ عن الثاني، أمراً محسوماً، وإلاّ فسوف يبقى لدينا احتمال واحد لا غير، إذا لم يتأثر المسيحيون في وليمتهم المقدسة بالأسينيين، فهم إذن فرقة منهم ولا شيء آخر(١٤)؟!

«لفافة الحرب»

تمّ العثور على نسخ من وثيقة «حرب أبناء النور وأبناء الظلام» في الكهفين ١ و٤، وقد نشرت للمرة الأولى في عام ١٩٥٤، ثم أعيد نشرها كاملة عام ١٩٨٢. وتحتوي الوثيقة في أحد مستوياتها على كتيب خاص بالاستراتيجية والتكتيك يتعلق بظروف دقيقة خاصة وبأماكن وأوقات محددة، مثل إشارتها إلى:

«سبع فرق من الخيالة ستتمركز، أيضاً، على يمين التشكيل ويساره، على أن تقف قواتهم على هذا الجانب وذاك، سبعمائة فارس على أحد الأجنحة وسبعمائة آخرون على الجناح الآخر. سوف يتقدم مائتا فارس مع ألف رجل من المشاة، يتمركزون على جناحي المعسكر، يبلغ العدد الإجمالي ٤٦٠٠ رجل، وألف فارس مع تشكيلاتهم، يضم كل منها خمسين رجلاً، ويبلغ مجموع الخيالة والفرسان ستة آلاف بواقع خمسمائة لكل سبط»(١٥).

يتضمن المخطوط في مستوى آخر المواعظ والدعاية التعبوية، لرفع الروح المعنوية في مواجهة الغزاة الكتيم، والمصطلح يرمز إلى الرومان، كما يحتوي على ابتهالات لحظة النصر وشعائر الشكر فضلاً عن تنظيم الأسلحة وواجبات الكهنة واللاويين.

وقد عمد جيزا فيرمس في معالجته للفائف إلى ترجمة المخلِّص The Messiah، إلى Thine anoited، أي الممسوح لك، في محاولة للتمويه، فالقائد الأعلى للجماعة كان يُعرف بالمخلِّص على نحو لا يحتمل اللبس[١٦].

يشير العمود الحادي عشر من الوثيقة إلى التالي:

«سوف يخرج نجم من يعقوب

ويقوم صولجان من إسرائيل

ليحطم معابد مؤاب

ويقتل جميع أبناء شيت».

يعود الكاتبان الأميركيان، بايجنت وليه، إلى سفر الأعداد حيث يرد: «يبرز كوكب من يعقوب ويقوم قضيب من إسرائيل فيحطم طرفي موآب ويهلك كل بني الوغا» (١٨/٢٤).

فالمقصود بالصولجان الوارد في الوثيقة: السلطة، وبذلك يصبح النجم أو الكوكب، لقباً لكل من المخلِّص والكاهن والملك والمحارب العظيم الذي سوف يقود إسرائيل إلى النصر[١٧]. ويركز الباحث الأميركي إيزنمان، بدوره، على هذه النبوءة الواردة في سفر الأعداد التي ربطت شخص المخلِّص بالكوكب، مما يضفي على المصطلح أهمية بالغة، فقد استشهد به مؤرخو القرن الأول الميلادي، مثل يوسيفوس وفاكتيوس، كما جاء في لفائف قمران و«العهد الجديد»

على حد سواء. واللافت أيضاً أن سمعان بن كوخبا مفجر ثورة ١٣٢ ـ ١٣٥م ضد الرومان، قد أطلق على نفسه هو الآخر هذا اللقب.

تضفي لفافة الحرب على القتال ضد الغزاة الكتيم (الرومان) والمتعاونين معهم بعداً دينياً وميتافيزيقياً، بوصفه صداماً بين «أبناء النور وأبناء الظلام»، ولذلك يكتبون على رايات الحرب «رايات الله»، ويدوّنون بجوارها أسماء القادة ورؤساء العشيرة ويكتبون راية الألف «غضب الله المشتعل على حزب بلعال (الشيطان) ورجاله، لا تدعوا منهم بقية». وحين يسيرون إلى المعركة يكتبون على راياتهم «عدل الله»، «حق الله»، «مجد الله» و«حكم الله»، ثم قائمة بأسماء القادة والمشاركين. وعلى أبواقهم يسجلون «فرق الله من أجل الانتقام لغضبه من أبناء الظلام»، أو «سيقتل الله جميع أبناء الظلام، لن يهدأ غضبه حتى يبادوا جميعاً». وعند رجوعهم من ساحة القتال يدونون على راياتهم «مجد الله»، «نصر الله» و«سلام الله».

ما أدهش الباحثين، احتواء الوثيقة على مؤشر ضمني يحدد بجلاء تأريخ الأحداث الدائرة وقتها، فحين يأتي النص على ذكر الكتيم يشير بوضوح إلى ملكهم، مما يعني ضمنياً أن الجند المشار إليهم في الوثيقة، ليسوا أولئك الذين قاموا، بقيادة بومبي، بغزو فلسطين عام ٦٣ق.م، حسبما يصر الفريق الدولي. فروما كانت حينها جمهورية ليس لها أو لجنودها أي ملك، بينما تشير الوثيقة إلى ملك للجند مما يدل على أن الغزاة كانوا يتبعون هذه المرة، روما الأمبراطورية، وليس الجمهورية. لهذا يصر الباحثون الجدد على ضرورة دراسة وثيقة الحرب بعناية، وفي سياق القرن الأول للميلاد،

وليس الاكتفاء بردها إلى مرحلة ما قبل المسيحية، خصوصاً أنها تنطوي على مؤشر يدحض ما حاول الفريق الدولي جاهداً تجاهله، رغم أنه يتضح أكثر فأكثر في الوثيقة الأخرى للجماعة المعروفة بـ «شروح سفر حبقوق».

«لفافة الهيكل»

تمّ اكتشاف هذه الوثيقة حسبما قيل في عام ١٩٥٦ في الكهف رقم ١١، وهو أمر غير مؤكد. على أية حال لم تظهر اللفافة في العلن سوى عام ١٩٦٧. ثم قام إيغال يادين، بنشر الطبعة الأولى لمجملها عام ١٩٧٧. وتعد أطول اللفائف إذ يربو طولها على ثمانية وعشرين قدماً، ووجد بقايا لنسخ لها في الكهف رقم ٤.

تتعامل الوثيقة في جزء منها مع هيكل أورشليم من ناحية التصميم والبناء والأثاث، حيث تذكر ثلاث باحات، الأولى مخصصة للكهنة والثانية للشباب فوق سن العشرين والثالثة للنساء والأطفال. كما تحدد بنايات الهيكل مثل بيت الدرج، المغسلة، المسلخ وآخر خاص بالأواني المقدسة، ومذبح للمحروقات وهكذا.

تطرح الوثيقة إضافة إلى ذلك، وبإيجاز شديد، تفاصيل معينة للشعائر الدينية المؤداة في الهيكل مثل القرابين سواء كانت يومية أم أسبوعية أم شهرية، إضافة إلى قرابين الأعياد. ويرى بعض المدققين أن إيغال يادين تعمد إلى حد كبير إطلاق اسم مضلل عليها، لا يعكس مضمونها الحقيقي الواضح للعيان، الخاص بالهيكل والطقوس والشرائع الدينية. فلفافة الهيكل في جوهرها ضرب من التوراة، أو كتاب للشريعة مما يجعلها توراة بديلة أو مختارة اتخذتها جماعة قمران وزمر أخرى في فلسطين نبراساً لها.

تحتوي «التوراة» الرسمية كما هو معروف، على الأسفار الخمسة

الأولى: التكوين والخروج واللاويين والعدد وتثنية الاشتراع، وتعد تلك الأسفار خاصة بالشريعة، التي تلقاها موسى، حسب المفهوم الشائع، على جبل سيناء، ويعزى إليه شخصياً وضعها. غير أن «وثيقة الهيكل » تحتوي على كتاب سادس للتشريع، لا يقتصر على العبادة والشعائر، المتصلة بالهيكل، بل يتعداها إلى أمور عامة مثل التطهر والزواج والممارسات الجنسية. فقد ورد فيها على سبيل المثال «إذا ادعى رجل بعد الدخول بعروسه بأنها ليست بكراً، فعلى والد الفتاة أو أمها إظهار دليل عذرية ابنتهما على الملأ، فيعاقب المدعى ويغرم مائة قطعة فضية يدفعها إلى والد الفتاة لإساءته إلى سمعتها»... «إذا اغتصب رجل امرأة في المدينة، يُرجم الاثنان معاً حتى الموت، الرجل لانتهاكه حرمة جاره والمرأة لأنها لم تصرخ طلباً للنجدة، أما إذا اغتصبت خارج المدينة، في البساتين مثلاً، فيرجم الرجل وحده حتى الموت»[١٨].

الأكثر أهمية وإثارة في «لفافة الهيكل»، تلك التشريعات الخاصة بالمؤسسة الملكية الحاكمة في إسرائيل، فقد تناولت بالتشريع شخصية الملك بكل أبعادها؛ تصرفه وسلوكه والواجبات الملقاة على عاتقه. فالوثيقة تنص على سبيل المثال، بألا يكون الملك أجنبياً، ويحظر عليه بشكل قطعي الجمع بين أكثر من زوجة، أو الزواج من المحارم، شقيقته، عمته، خالته، زوجة الأب أو الابن، أو الجمع بين شقيقتين. وكلها تشريعات تسري على بقية اليهود دون استثناء، ويمكن الرجوع إليها في سِفر اللاويين (٨/٧ ـ ٢٠).

ما الجديد، إذن، في الأمر؟ ولِمَ كل هذه الضجة المثارة حول الوثيقة؟!

الجديد والمثير في آن معاً، التحريم المستجد واللافت للنظر الذي جاءت به «لفافة الهيكل» وأكدت عليه لفافة أخرى تُعرف بـ«وثيقة دمشق»، ويتمثل في حظر الزواج من ابنة الأخ أو الأخت، الأمر الذي يجعل ذلك التحريم الجديد مفتاحاً مهما لتأريخ كل من الوثيقتين، فضلاً عن الوثائق الأخرى.

فالفريق الدولي، كما سلف، يصر على عودة الوثائق إلى ما قبل ظهور المسيحية، إلى الملوك المكابيين أو أي ملوك آخرين. غير أن المشكلة تتمثل في عدم إقدام الملوك المكابيين على الزواج من بنات إخوتهم أو أخواتهم، كما لم يثبت بحقهم على الإطلاق انتقاد ما بصدد سلوك كهذا، إذن فالتحريم المستجد غير متصل بهم، وليس لهم به أية علاقة، وهذا يعني أحد أمرين لا ثالث لهما، إما أن هذا النمط من الزواج كان أمراً شائعاً ومقبولاً لا يستوجب الانتقاد، وإما أن المكابيين لم يمارسوه قط، ولا شيء آخر. وفي كلتا الحالتين أيضاً لم يكن بالأمر المحرم.

ما يلفت النظر بحق، تغير الوضع على نحو مفاجىء ومثير حين تولى الهيروديون الحكم. فقد كان هيرود الأكبر حسب المعايير اليهودية، أجنبياً يرجع إلى أصول أدومية عربية، كما مارس الملوك الهيروديون الزواج على نحو منهجي من بنات الأخوة، فكثيراً ما تزوجت أميراتهم من أعمامهن، فالأميرة بيرنيس شقيقة الملك أجريبا الثاني (٤٨ ـ ٥٣م) تزوجت عمها، وهيروديا الشهيرة، شقيقة أجريبا الأول (٣٧ ـ ٤٤م) ذهبت إلى أبعد من ذلك بزواجها باثنين من أعمامها على التوالي. لهذا لا يفتقر الانتقاد اللاذع الذي تشنه «وثيقة الهيكل» إلى المغزى، ولا بد أنه يتصل على نحو خاص بعهد الهيروديين، حيث يعكس النص نقمة واسعة على سلالتهم،

لأصولهم الأجنبية ولكونهم مجرد دمى تولوا الحكم على أسنة رماح الرومان.

قصارى القول، تتضمن «وثيقة الهيكل» ثلاثة أدلة تناقض بوضوح ما ارتآه الفريق الدولي وأجمع عليه:

الأول، إجماع الفريق الدولي بلامبالاة جماعة قمران وعدم اكتراثها بالهيكل أو اليهودية الرسمية، وهذا تدحضه وثيقتا «الحرب والهيكل» وتبرهنان بما لا يحتمل اللبس استغراق الجماعة التام في شؤون الهيكل والثيوقراطية الحاكمة.

الثاني، العلاقات الودية المزعومة التي ربطت بين «الأسينيين» في قمران وهيرودس الأكبر، وفقاً لإجماع الفريق الدولي وهذا يناقضه بجلاء الانتقاد المرير الذي تشنه «وثيقة الهيكل» على ممارسات هيرودس وسلالته إضافة إلى خلو تلك الانتقادات من المغزى في أي سياق تاريخي آخر.

الثالث، إيحاءات «لفافة الهيكل» ودلالاتها تشير إلى الهيروديين، بما يضعها في سياق القرن الميلادي الأول، وليس ما قبل المسيحية الأولى.

«لفافة دمشق»

كانت هذه الوثيقة معروفة للعالم منذ أواخر القرن التاسع عشر، أي قبل اكتشاف لفائف قمران بعدة عقود، لكن الباحثين وقتها لم يتبينوا ماهيتها بشكل دقيق لافتقارهم إلى السياق. جاء العثور على الوثيقة في القاهرة عام ١٨٩٦، داخل سدة علوية لمعبد يهودي يحتوي على جنزا[١٩]. فقد عرض تاجر للعاديات على سولومون شختر، المحاضر في جامعة كامبردج، قصاصات منها، فأدرك أن أحداها تتضمن رواية يهودية لنص كان لحوالى ألف عام معروفاً من

خلال الترجمة. سارع المحاضر البريطاني إلى إجراء المزيد من البحث والاتصالات أدت في النهاية إلى قيامه بجمع كل ما في الجنزا من رقاع وقصاصات، بلغت حوالى مائة ألف قطعة، وشحنها في ١٤٦ صندوقاً إلى كامبردج.

خرجت من ذلك الخليط روايتان لما بات يُعرف بوثيقة دمشق، اتضح أنهما نسختان لعمل قديم مبهم. فالنصوص لم تكن كاملة، تعوزها البدايات وأحياناً المتون، مما جعل موضوعاتها مشوشة، ورغم حالتها السيئة تلك أحدثت ضجة حينما نشرت في عام ١٩١٠.

أما وثيقة دمشق التي عثر عليها في قمران، فقد جاءت ضمن سياق كامل وفي حالة أفضل وشبه كاملة، كما وجد لها ثماني نسخ في الكهف رقم ٤، وبقايا لنسخة أخرى في الكهفين رقم ٥ و٦، مما يبرهن على انتشارها وأهميتها البالغة لدى الجماعة.

فرض الفريق الدولي حظراً مشدداً على الوثيقة، ولم ينجح الباحثون رغم مساعيهم الحثيثة والضجة التي أثاروها، في فك الحصار حتى عام ١٩٨٩!!

فما المثير الذي تحمله «وثيقة دمشق» حتى يفرض عليها الحظر وتحاط بكل هذا التكتم؟!

تتحدث «وثيقة دمشق» في المقام الأول عن فئة صغيرة من اليهود التزمت على نحو صارم بشريعة موسى خلافاً لأغلبية بني جلدتهم، بقيادة «المعلم البار» الذي خرج بجماعته إلى «البرية» حيث جددوا «العهد» مع الله، وتُماثل مبادىء هذا «العهد» الكثير من البنود الواردة في «قانون الجماعة».

لنلق نظرة على بعض المقاطع الواردة في الوثيقة:

«لأنهم تمردوا بهجرانهم له (الله)، أخفى وجهه عن إسرائيل وهيكله؛

وأسلمهم للسيف؛

... ...

وكانوا كالعميان يبحثون عن الطريق؛

لعشرين عاماً. وقدر الله عملهم، لأنهم سعوا إليه بكل قلوبهم؛

فأقام من بينهم المعلم البر كي يقودهم في الطريق إلى قلبه (الله) حتى يصبح معلوماً للأجيال الأخيرة ما الذي صنعه للجيل الأسبق لجماعة [ويحتمل مجمع أو كنيسة] الخونة.

... ...

والآن استمعوا إليّ يا من دخلتم العهد وأنا سوف أفتح آذانكم فيما يتصل بدروب الأشرار. الله يحب المعرفة والحكمة والمشورة الطيبة، وكل هذا جعله ماثلاً أمامه، فالحصانة والمعرفة وزيراه؛

والحلم الصابر والتسامح الفياض

للتكفير عن التائبين عن الإثم، لكن قوته وقدرته وجل غضبه (يصبه) مع ألسنة النار بواسطة ملائكة الدمار، على الذين حادوا عن الدرب وازدروا [ويحتمل جدفوا] الشريعة؛ فلن يذر أحداً منهم، ولن ينجو منهم أحد».

ما يحمل على الدهشة، أيضاً، اتخاذ الجماعة لمصطلح دمشق علماً لموقعهم، أكانت دمشق مقراً للجماعة، أم كان ذلك مجرد مصطلح اتخذته الجماعة للكناية عن قمران[٢٠]؟!

توضح النظرة الفاحصة لسياق الوثيقة، أن تلك المنطقة الواقعة في قلب الصحراء لا تنطبق بحال على دمشق/ سورية الخاضعة،

آنذاك، للحكم الروماني المباشر، فهل تكون قمران هي المعنية في حقيقة الأمر؟

لم يتوصل الباحثون بعد، إلى السبب الحقيقي لإطلاق مصطلح دمشق على الوثيقة، فالاحتمال يظل أمراً وارداً، ولا يعوزه المنطق، بأن تكون قمران هي المعنية، فربما أطلقت الجماعة مصطلح دمشق على موقعها من باب التمويه حفاظاً على سلامتها، إثر الفوضى والاضطرابات التي عصفت بالبلاد في أعقاب ثورة عام ٦٦م. كل هذه دوافع منطقية يمكن تفهمها، خصوصاً أن المنطقة لم يكن لها في ذلك الوقت اسم محدد خاص بها، ومن المحال أن يكون الاسم وليد الصدفة، فقد عُثر على بقايا ما لا يقل عن عشر نسخ للوثيقة نفسها في كهوف قمران، مما يدل على أهميتها وأنها كانت محل تدارس بين الأعضاء.

تضم الوثيقة كثيراً من القوانين الواردة في وثيقة «قانون الجماعة»، غير أنها تضيف المزيد، فهناك بند يعالج مسألتي الزواج وتنشئة الأطفال، مما يدحض انتماء الجماعة إلى طائفة الأسينيين التي يعزف أفرادها عن الزواج. وتشير فقرة أخرى، بتلقائية ملحوظة، إلى فروع الجماعة المنتشرة في مختلف أنحاء البلاد، وكأن الأمر كان معروفاً لدى الجميع، مما يثبت أن الجماعة لم تكن منعزلة عن العالم في ذلك الوقت، رغم محاولات الفريق الدولي في إثبات العكس.

تندد الوثيقة وتشجب بعنف ثلاث جرائم حددتها بـ «شباك أو حبائل» تدعي تفشيها بين أعداء البررة «الصديقين» الملتزمين «بالعهد الجديد». وهذه الجرائم هي الزنا، الثراء وتدنيس الهيكل. وأيضاً تنسحب جريمة الزنا على الجمع بين أكثر من زوجة «فداود لم يقرأ الكتاب المختوم للتوراة الذي كان في تابوت (العهد) لأنه لم يُفتح

منذ يوم مات أليعازر ويشوع والشيوخ الذين خدموا عشتروت»، وعلى الزواج أيضاً من بنات الأخ أو الأخت، وعلى تدنيسهم الهيكل، لأنهم لا ينفصلون كما تأمر التوراة - أي «لا ينؤون بأنفسهم عن غير المتطهرين - بل ينامون مع المرأة أثناء حيضها، ويأخذ كل منهم ابنة أخيه وابنة أخته زوجة له».

وهكذا تردد الوثيقة ما جاء في «وثيقة الهيكل» عن أوضاع وثيقة الصلة بعهد الهيروديين، ثم تمضي لتشير إلى خلاف نشب في وسط الجماعة بسبب أولئك الذين «دنسوا روحهم القدسي، وفتحوا أفواههم بلسان يطفح بالإهانات [التجديف] ضد شرائع العهد مع الله، قائلين: إنها غير صحيحة، وتحدثوا بشأنها بمقت شديد [التجديد]، ثم فروا إلى الكذاب».

كما تدين الوثيقة بوضوح أولئك الذين «دخلوا في العهد الجديد في أرض دمشق ثم نكثوا به ورحلوا»، فهؤلاء «لن يكون لهم حصة في بيت التوراة» لأنهم «انحرفوا مع المهرج وتحدثوا بخلط عن شرائع الحق - وهي العهد الجديد»[٢١].

والآن، هل مُصطلح دمشق كناية بالفعل عن قمران؟

مع بداية الإصحاح التاسع في أعمال الرسل، تصبح دمشق علماً مألوفاً لمعظم المسيحيين، يشير إلى مدينة سورية رومانية، تحت الحكم المباشر لروما، توجه إليها شاؤول الطرطوسي على رأس عصبة ضارية بتفويض من رئيس كهنة أورشليم، للقبض على جماعة يهودية هرطوقية - المسيحيين الأوائل - تقيم في دمشق. في الطريق، تعرض شاؤول للتجربة المعروفة، ليعبر من خلالها إلى «العهد الجديد» متحولاً، من ثم، إلى بولس.

غني عن الذكر، أن مؤسسة الهيكل كانت متعاونة مع الرومان،

وشاؤول كان أحد أدواتها الفاعلة، وقد تورط وفقاً «لأعمال الرسل» في الأحداث التي أودت بحياة رجل، قدمته الأعمال باسم أستفانوس، الذي يُعتبر شهيد المسيحية الأول حسب الكتابات التراثية اللاحقة، وبولس قد اعترف بأنه اضطهد ضحاياه «حتى الموت».

وهكذا انطلق بولس بحماسة شديدة إلى دمشق لاصطياد الأعضاء الهاربين، تدعمه عصبة مسلحة وبحوزته تفويض رسمي باعتقالهم. يتوقف الباحث الأميركي إيزنمان عند هذه النقطة ويتساءل، كيف يمكن لرئيس كهنة أورشليم إصدار أمر رسمي بملاحقة أفراد واعتقالهم في مقاطعة خارج دائرة سلطته؟!

لم تكن سورية في ذلك الوقت جزءاً من يهودا، بل مقاطعة منفصلة تخضع مباشرة لنائب القيصر، ولا تربطها أية علاقة إدارية أو سياسية بفلسطين، فكيف يمكن لقيصر روما إضفاء الشرعية، أو تقبل قيام عصبة من منطقة أخرى، تتمتع بحكم ذاتي ديني وحسب، بملاحقة أفراد يقيمون في مقاطعة تخضع للحكم الروماني المباشر، لتفعيل ما يحلو لها من اعتقال أو اغتيال ضاربة عرض الحائط باستقرار النظام المدني القلق أصلاً!

هذا الموقف يتعارض أساساً مع السياسة الرسمية للأمبراطورية الرومانية، التي تعمد إلى التغاضي عن أتباع الديانات المختلفة شريطة ألا يهددوا السلطة الحاكمة، أو البنية الاجتماعية للأمبراطورية. أمام وضع كهذا، ليس باستطاعة رئيس كهنة أورشليم إرسال عصبة من رجاله الأشداء إلى سورية من دون المخاطرة بالتعرض لرد حاسم من الإدارة الأمبراطورية، رد لا يجرؤ على استثارته أو مواجهته رئيس كهنة يدين بمكانته للسلطة الرومانية الحاكمة.

أما قمران فأمرها مختلف، فهي تقع ضمن دائرة نفوذ رئيس الكهنة، وبإمكانه إيفاد من يشاء لاعتقال من يشاء من دون عائق. فمن غير المنطقي، بناء على ذلك، أن تكون دمشق/ سورية موضع المهمة المنوطة بشاؤول، فيما قمران على بعد بضعة أميال من أريحا، تحتضن جماعة مناهضة للهيكل وتُترك لحال سبيلها!!

لهذا يرجح الباحث الأميركي أن الجماعة أطلقت على مقرها مصطلح دمشق من باب الكناية، وفي هذه الحالة، تظل أوامر رئيس الكهنة شرعية وسارية المفعول، ولا تتعارض مع السياسة الرسمية للأمبراطورية، التي آثرت دائماً عدم التورط في الشؤون الداخلية، مما يسمح لمؤسسة الهكيل بمطاردة المتمردين من أتباعها في منطقة يهودا واضطهادهم، طالما لا يتخطى نشاطها الإدارة الرومانية وخطوطها الحمراء. فالكاهن في النهاية تابع لروما ولا بأس من ملاحقته للخارجين على سلطته[٢٢].

بالرغم مما تقدم، لا يزال الفريق الدولي مصراً على أن جماعة قمران ليست سوى طائفة الأسينيين المغالية في الزهد والتنسك، رافضاً رؤية أية علاقة قد تربطها بالمسيحية الأولى، أو التيار اليهودي السائد آنذاك. لكن ما العمل و«أعمال الرسل» تقول إن شاؤول توجه إلى دمشق للإمساك بأعضاء «الكنيسة الأولى»، بناء على تفويض من رئيس الكهنة!

يبرز هنا تحد لجهات ثلاث، لكل منهم على حدة وبالقدر نفسه: الفريسيين المسيطرين على الهيكل والموروث المسيحي والفريق الدولي، فإما أن يكون أعضاء «الكنيسة الأولى» قد فروا للاحتماء لدى جماعة قمران، أو أنهم وجماعة قمران شيء واحد، ولا شيء آخر بين هذا وذاك.

لقد تفادى الفريق الدولي النظر إلى المسألة برمتها، ليظل التساؤل قائماً، وأياً كان الموقف. فوثيقة دمشق تبرهن على استحالة فصل مخطوطات البحر الميت عن أصول المسيحية الأولى، وفقاً لمنطوقها الداخلي.

«شروح سفر حبقوق»

تمّ العثور على هذه الوثيقة الفائقة الأهمية في الكهف رقم واحد، ونشرت في عام ١٩٥٠، وتمثل في جوهرها تأريخاً دقيقاً لجماعة قمران، فهي تحفل بتطورات تاريخية معنية تجعلها أهم الوثائق لدراسة جماعة قمران ومعرفة المصير الذي واجهته. تركز الوثيقة على الخلاف الذي ألمحت إليه «وثيقة دمشق»، والذي أدى إلى الانشقاق الأول في صفوف الجماعة. وقد اعتبر ذلك الانشقاق، على ما يبدو، حدثاً صاعقاً في حياة الجماعة، عكس الآثار المترتبة عليه أربعة وثائق أخرى، بالإضافة إلى وثيقتي «دمشق وشروح سِفر حبقوق».

تبدأ الوثيقة على النحو التالي:

[الوحي الذي رآه النبي حبقوق، حتى متى يا رب أدعو وأنت لا تسمع] (١/٢).

تفسير ذلك يتعلق ببداية الجيل الأخير... وما سوف يأتيهم.

[أصرخ إليك من الظلم وأنت لا تخلّص

لم تريني إثماً وتبصر جوراً

وقدامي اغتصاب وظلم ويحدث خصام] (١/٣).

التفسير يخص الذين تمردوا على الله بالاضطهاد والخيانة.

... إنهم سرقوا الثروات، وهناك [خصام وترفع ومخاصمة] (١/ ٣).

وتفسير ذلك الخصام يعود..

... ولهذا باتت الشريعة مهجورة والحكم لا ينتصر البتة

وتفسير ذلك لأنهم رفضوا شريعة الله.

ولأن الشرير يحيط بالبار] (١/ ٤).

تفسير ذلك أن الشرير هو الكاهن الشرير، وأن الصالح هو «المعلم البار».

وتمضي الوثيقة في الحديث عن «أولئك الخونة» و«الكذاب» الذين لم يؤمنوا بما تلقاه المعلم البار من فم الله، «خونة شريعة الله والعهد الجديد، طالما أنهم لم يؤمنوا بعهد الله ودنسوا اسمه المقدس»[٢٣].

على هذا النحو تتابع الوثيقة، شأنها شأن وثيقة دمشق، الإشارة إلى أعضاء معينين خرقوا «العهد الجديد» وتوقفوا عن الالتزام بالشريعة وانسحبوا من الجماعة، جراء تحريض «الكذاب» و«منبع الكذب»، مما يفيد بحدوث خلاف حاد بين قائد الجماعة «المعلم البار» وبين أولئك الخونة، عجل بوقوع انشقاق ما ترتبت عليه نتائج وخيمة. تأتي الوثيقة أيضاً على ذكر خصم خسيس أشارت إليه بالكاهن الشرير «الذي يتفوق عاره على مجده» لأنه «لم يختتن (يطهر) سوداء قلبه، وقد سار في طريق الثمالة علها تطفيء ظمأه، لكن كأس سخط الله سوف تغرقه (الكاهن الشرير) ليتراكم عليه العار والذل والألم».. وتمضي الوثيقة في وصف أعمال «الكاهن الشرير» البغيضة من تدنيس للهيكل ونهب لمال الفقراء.

ارتأى الفريق الدولي أن كلاً من «الكذاب» و«الكاهن الشرير» هما

شخص واحد، فيما تفصح الوثيقة بأنهما شخصان منفصلان. فالكذاب على عكس الكاهن الشرير كان عضواً في الجماعة ثم خرج عليها. وأياً كانت المرتبة التي حصّلها، فقد انشق عن الجماعة مما يجعله خائناً وليس خصماً، في حين لم ينتم الكاهن الشرير يوماً إلى الجماعة ولم يكتسب عضويتها، بل ظل موقفه متجانساً مع مؤسسة الهيكل الرسمية الملتحق بها أصلاً، ولهذا يعد خصماً لجماعة قمران وليس خائناً لها، فالفرق واضح بين الخصومة والخيانة يعرفه كل ذي عقل وعلم.

وقد توقف الباحثون طويلاً عند إشارة الوثيقة للكاهن الشرير، فإذا كانت الإشارة تعني أن الكاهن المذكور كان عضواً في مؤسسة الهيكل، فهذا يثبت أن الهيكل كان ما يزال قائماً يمارس عمله بالصورة المعتادة، مما يعني أن اعتداءات الكاهن الشرير تسبق تدمير الهيكل على يد «الرومان».

أيضاً، تتضمن وثيقة سفر حبقوق، مؤشرات تؤكد ما ألمحت إليه «وثيقة الحرب» مما يرجح الرأي القائل بأن الأحداث تتصل بالقرن الميلادي الأول. فالوثيقة تشير إلى سلوك الجنود الرومانيين، بعد انتصارهم، تجاه تماثيل القيصر ورموزه. فقد مورست تلك الطقوس حسبما يذكر يوسيفوس، عند سقوط الهيكل عام ٧٠م، ولم تكن تمارس إبان عهد الجمهورية، حين كان الجنود يقدمون القرابين إلى آلهة متعددة، غير أن الوضع اختلف بقيام الأمبراطورية وإضفاء سمة الألوهية على القيصر، محولة إياه إلى إله أعلى لرعاياه، تزين صوره وتتصدر رموزه رايات قواته المحاربة. وهذا في حد ذاته دليل كافٍ على أن الوثائق «حبقوق ودمشق والحرب» تشير إلى عهد الهيروديين على وجه التحديد.

«ابن الرب»

ثمة رقعة من وثيقة بالآرامية تتمحور حول سفر دانيال، وتعبر عن الكشف والرؤى بأسلوب مفعم بالمجاز، تستند إلى إشارة وردت في سفر دانيال عن المملكة التي يقيمها إله السموات «مملكة لن تنقرض أبداً وملكها لا يترك لشعب آخر وتفنى كل هذه الممالك وهي تثبت إلى الأبد» (٢/٤٤).

في موازاة هذا الأسلوب، يجيء تصوير «العهد الجديد» ليسوع متنبئاً بأعداء المستقبل الذين سيدمرون أورشليم «ومتى رأيتم أورشليم محاطة بجيوش فحينئذٍ اعلموا أنه قد اقترب خرابها» (لوقا ٢١/٢١). ويتضمن النص، أيضاً، فقرة تشكل المرجع في دعوة المخلِّص القادم، الذي يكون «سلطانه سلطان أبدي»، بـ «ابن الرب» أو «ابن العلي»، كما تساعد فقرة أخرى في سفر دانيال على تحديد الأفكار التي أحاطت بيسوع المخلِّص، تتصل بابن الإنسان الآتي على سحاب السماء، تقول التالي «كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحاب السماء مثل ابن الإنسان آتي» (٧/١٣).

هذا الأسلوب المجازي يستخدم بقوة في «وثيقة الحرب» عند إشارتها إلى جند السماء القادمين، لينزلوا الحكم مثل المطر: «المحاربون من جند الملائكة بين جموع رجالنا، وبطل الحرب بين حشدنا، وجنود الروح المقدس مع فرساننا ومشاتنا، فهم مثل السحب، سحب الندى يغطون الأرض، مثل المطر المدرار، ينزلون الحكم على كل ما ينمو على الأرض» (وثيقة الحرب/ ١٢).

من الصعب، وفقاً لوجهة نظر إيزنمان، إنكار هذه التلميحات فيما أورده لوقا في تصويره ليسوع «هذا يكون عظيماً وابن العلي يدعى ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه.. وكذلك يدعى المولود منك

القدوس بابن الله» (٢٢/٣٣). فهذا الأسلوب المجازي مستخدم بغزارة في «العهد القديم» خصوصاً لتكريم الملوك العظام مثل قول المزمور (٧/٢) «قال لي أنت ابني، أنا اليوم ولدتك»، ويتكرر القول نفسه في المزمور (٢١/٨٩) «هو يدعوني أبي. إلهي وصخرة خلاصي»، ونجد المجاز نفسه في سفر صموئيل الثاني (١٤/٧) «أنا أكون له أباً. وهو يكون لي ابناً».

يتردد هذا التشبيه التوراتي بقوة في باب الحكمة لدى قمران وفي ترانيمها، حيث يعتبر كل الصديقين أبناء الله، ولهذا تضفى «البنوة» الإلهية بقوة على «المعلم البار». اللافت في النص، التركيز على الحق والاستقامة كركيزتين أساسيتين، فهما يتخللان النص، إضافة إلى البعد الأخروي في التأكيد على «الحساب» أو «الدينونة الآخرة»، وعلى الأرجح أن هذه المفاهيم مستقاة من سفر دانيال «في إشارته إلى الوقت الموقوت» (٢٠/٨).

تفتح مسألة «الأبوة الإلهية» المجازية هذه، والواردة بشأن الأنبياء في «العهد القديم» الباب على مصراعيه، لإعادة التفكير في اتهام المؤسسة الدينية في أورشليم، ليسوع بالتجديف. فالعقوبات في التراث اليهودي تنص على قطع رأس العصاة الخارجين على السلطة أي الثوار، وهي عقوبات معروفة لدى الرومان، وإن مارسوا الصلب على عامة الناس. أما الرجم فهو النوع الآخر للعقوبة لكل من يجدف على الله وينطق اسمه المحرم. ولهذا فادعاء البنوة لله لا يخضع لكلا العقوبتين، حيث يُعتبر الأنبياء جمعياً وفقاً «للعهد القديم» أبناء الله، وترانيم قمران تعكس بدورها هذا المفهوم، ولهذا لم تكن «البنوة الإلهية» تُعد حينها تجديفاً. أما فكرة يسوع المسيح، فيبدو، على الأرجح، أنها اكتسبت ذلك المعنى في العالم

الهلينستي، فالمصطلح لم يكن جارياً في فلسطين، حتى أن مؤلف «أعمال الرسل» يعتبر أن مصطلح المسيحيين بدأ استعماله حوالى العام ٥٠م في أنطاكية أولاً، ولهذا تخلو لفائف قمران من الإشارة لهذا المفهوم، وتقتصر على ذكر المُخلِّص، ذي القوة الميتافيزقية الآتي على سحب السماء، وهذه أيضاً لا تشكل مثل سابقتها خروجاً على الناموس.

يؤكد إيزنمان أن الأفكار المتضمنة في هذه الوثيقة، قد أُسقطت مباشرة في التراث المسيحي على يسوع وأنشطته، حين يقول في رسالته (١٠/٣٤) «لا تظنوا أني جئت لألقي على الأرض سلماً، ما جئت لألقي سلماً بل سيفاً»، وإشارة السيف هذه تظهر بجلاء في الوثيقة، وفي وثيقة «ابن الرب» أيضاً عند حديثها عن مواجهة الرومان:

«إضرب بيدك على رقبة أعدائك؛

وضع قدمك على أكوام القتلى؛

إضرب الأمم، أعداءك؛

وبدد الأجسام بسيفك»[٢٤].

هكذا تقدم وثائق قمران مخلِّصها المرتقب: مقاتل صارم ينتصر دائماً، لا يقبل الحلول الوسط، وهو أقرب إلى ملك وطني عظيم، كما تبشر بالسلام الذي سيعم الأرض بعد حرب خلاصية أشبه بالطوفان، يشارك فيها جند السماء إلى جانب أبناء النور في مواجهتهم لأبناء الظلام، ولهذا يتوجب عليهم الالتزام بالطهارة الصارمة في البرية حتى يصلوا إلى الكمال بالروح والجسد، لأن ملائكة الروح القدس ستنضم إليهم في أتون المعركة.

إليكم بعض مقاطع الوثيقة:

«العمود الأول

الملك، حلت عليه الروح سقط أمام العرش

[فقام دانيال وقال] أيها الملك لماذا أنت غاضب تصر بأسنانك،

وقد كشف لك الرب العظيم [الآتي] الذي سوف يتحقق ويبقى إلى الأبد.

العمود الثاني:

سوف يدعى ابن الله، وسيدعونه ابن الأعلى، مثل الشهب التي رأيتها تكون مملكتهم، سوف يحكمون لفترة معينة من السنين؛

الأرض، وسوف يسحقون كل إنسان. الناس ستسحق الناس، والأمم ستسحق الأمم؛

حتى يقوم أناس الله ويجعلوا كل واحد يضع سيفه

مملكته ستكون أبدية، وسوف يكون عادلاً في كل دروبه، وسوف يحكم

الأرض بالعدل ويعمل كل إنسان للسلام، ويتوقف السيف في الأرض».

كلمات ميكائيل

يمكن الإشارة إلى هذا النص برؤية ميكائيل أيضاً، فالنص في مجمله ينتمي إلى أدبيات العروج وتلاوات الرؤى، ويشكل جزءاً من التوجهات الروحية والكشفية لكتابات جماعة قمران، التي تدين لها تجارب الرؤى اللاحقة بما في ذلك القبالة(٢٥) التي ظهرت في القرون الوسطى. جاءت الإشارة إلى جبريل رئيساً للملائكة ومفسراً للرؤية، مثيرة لافتة للنظر، توقف عندها الباحثون ملياً،

فاليهود لا يحبونه ويفضلون ميكائيل. احتلت تلاوات الرؤى في سفر دانيال أهمية فائقة لدى جماعة قمران كما يبدو لارتباطها من الناحية الروحية بالثورة المكابية، مثل العديد من كتابات قمران. قام جبريل كما في دانيال (١٦/٨) بشرح الرؤية، فهو سفير الله الغامض، والروح القدس، إلى «المصطفين من الله»، غير أن النص غير واضح أيهما، صاحب الرؤية، جبريل أم ميكائيل.

تتحدث الوثيقة عن عروج ميكائيل إلى السماء الأعلى ثم هبوطه ليقص رؤيته على الملائكة العاديين، وربما تستند الوثيقة إلى حزقيال عند قوله «أخذ بناصية رأسي ورفعني روح بين الأرض والسماء وأتى بي في رؤى الله إلى أورشليم» (٣/٨)، فسفر حزقفيال يحظى هو الآخر باهتمام جماعة قمران، ليس لأعماله فحسب، بل لمصالح «أبناء صادوق»، فضلاً عن أنه أحد الأوائل الذين شاهدوا «مجد الله»، وهذا المصطلح شائع أيضاً في كتابات جماعة قمران وفي «العهد الجديد» على حد سواء.

لنتطلع الآن على ما بقي من النص:

كلمات السفير التي قالها جبريل لملائكة الله [بعد عروجه إلى السماء الأعلى]،

قال: وجدت هناك جنوداً من نار؛

هناك تسعة جبال، اثنان إلى الشرق واثنان إلى الشمال واثنان إلى الغرب واثنان إلى الجنوب، هناك شاهدت جبريل الملاك... وقلت له،

... وأنت قد جعلت الرؤية مدركة، فقال لي...

مكتوب في كتابي أن العظيم، الله الأزلي...

أولاد حام إلى أولاد شيث، الآن ها هو العظيم، الله الأزلي...
حين ... الدموع من...
الآن ها هي مدنية سوف تبنى من أجل اسم العظيم، [الله الأزلي]
...
ولن يسمح للشر أن يرتكب في حضرة العظيم، الله [الأزلي] ...
هنا سوف يتذكر، العظيم، الله الأزلي خلقه [من أجل الخير]...
[الجلال والثناء والمباركة [تكون] للعظيم، الله الأزلي..
فله (الله) ترجع الرحمة وإليه يرجع...
في مناطق بعيدة سوف يكون هناك رجل...
هو يكون، و(الله) سوف يقول له، اشهد هذا...
لي الفضة والذهب..]»[٢٦].

الجبال تعني في الرؤى عادة أعاظم الرجال، والفضة والذهب تشير إلى القمر والشمس. وكم في الوثائق من الإيحاءات والرموز، تتطلب جهود الباحثين الجادة في الغرب، على أمل أن يساهم الشرق في تلك الجهود ولو بعد قرن.

الهوامش:

(١) وحدة نقدية، أو وزن، قديمة تساوي ثلاثة آلاف شيقل.

(٢) Vermes, P. 585.

(٣) الوصف الدقيق للأقاليم من ناحية الأسماء والسمات السطحية من هضاب وأودية وأنهار.

(٤) Allegro, P. 253.

(٥) مادة زيتية راتينجية عطرة تسيل من بعض الأشجار غير موجودة حالياً.

(٦) Eisenman, **The Dead Sea Scrolls**, P. 47.

(٧) المصدر نفسه، ص ٣٨٠.

(٨) Baigent and Leigh, P. 101.

(٩) Vermes, P. 86.

(١٠) Allegro, P. 155.

(١١) Powell Davies, P. 236.

(١٢) Baigent and Leigh P. 213.

(١٣) لم يكن الخبز وحده المقدس في العصور القديمة، بل تشاركه أطعمة أخرى، لا سيما ما يقدم منها حصة للآلهة. لكن الخبز كان يمثل كافة الأطعمة لكونه سلعة أساسية متاحة للجميع، ولهذا تمتع بالقداسة في أماكن عديدة. ولا تختلف حالة النبيذ عن الخبز، فالقدماء لم يكونوا يعرفون كيمياء التخمر، سواء في النبيذ أو الخبز، ولذلك كانوا يعتبرون تأثير النبيذ عليهم استحواذاً إلهياً يملأهم حرارة وحماساً، وكأن الآلهة تتخللهم فيتوحدون معها.

(١٤) Powell Davies Paries, P. 101.

(١٥) Vermes, P. 169.

(١٦) Baigent and Leigh, P. 212.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٢١٤.

(١٨) Allegro, P. 118.

(١٩) مستودع مخصص للنصوص الدينية البالية أو الفائضة عن الحاجة.

(٢٠) بعض الباحثين أعمل الفكر ورجع بالمصطلح من اليونانية Damascus إلى العبرية، دم + كؤوس، أي كؤوس الدم، فلربما اتخذ المصطلح، بناءً على معناه بالعبرية، علماً على الموقع، لا سيما أن الأناجيل تذكر أيضاً، بدورها، مصطلح «حقل دم». وجدير بالملاحظة، قول بولس أنه قضى في دمشق أياماً يكرز في مجامعها، فدمشق السورية لم تكن أبداً مدينة يهودية حتى يوجد بها معابد لليهود، وهذا في حد ذاته ينفي أن تكون دمشق/ سورية هي المعنية (أعمال ٩/٢٠).

(٢١) Vermes, P. 135-143.

(٢٢) Baigent and Leigh, P. 225.

(٢٣) Vermes, P. 478-486.

(٢٤) Robert Eisenman and Michael Wise, **The Dead Sea Scrolls Uncovered**, (Penguin Books, London, 1992), P. 86-70.

(٢٥) علم التأويلات الباطنية والصوفية عند اليهود، كان يقصد بها التراث الشفهي، ثم أصبحت عند أواخر القرن الثاني عشر للميلاد، تعني الأشكال المتطورة للتصوف (العلم الحاخامي) في اليهودية.

(٢٦) المصدر نفسه، ص ٣٧

الفصل الثاني عشر

للحديث بقية

سنون طويلة مرت من دون أن تسبر خلالها أغوار لفائف قمران بالدقة المتوخاة، فقد شُغل معظم الباحثين في معارك جانبية ضارية، وتاهوا وتاه العالم معهم في الشكوى من مماطلة الفريق في نشر النصوص كاملة، أو في تفنيد آراء بعضهم البعض حول تأريخ الجماعة، من دون الالتفات الجاد إلى معطيات الوثائق الداخلية في ضوء الظروف الموضوعية التي عاشتها فلسطين وجوارها الجغرافي في أوائل الألفية الأولى، اللهم فيما عدا قلة قليلة من الباحثين تعد على أصابع اليد، أصاب معظمهم التجريح والتسفيه مما دفع البقية إلى الانزواء بعيداً طلباً للسلامة. فغالباً ما تفسد الأفكار المسبقة والمفاهيم المتوارثة مسار البحث العلمي وتحرفه عن مسار الحقيقة الموضوعية، ولطالما هيمن ذلك التوجه على أبحاث وثائق قمران، مما أدى إلى إفراغ الوثائق من مغزاها التاريخي وتقزيم أهميتها. وقد قاد هذا التوجه بالفعل، سواء كان واعياً أم غير واع، إلى إقصاء المواد عن السنوات الأولى لنشأة «المسيحية» في فلسطين وإلحاقها قصراً بالفترة المكابية رغم

خلو تلك الفترة من الانتهاكات الدينية والممارسات التي تطفح محتويات الوثائق بانتقادها والتنديد بها.

لا يعني هذا انعدام تأثير مضمون الثورة المكابية على أحداث القرن الميلادي الأول، بل العكس هو الصحيح. فقد اندلعت هذه الثورة عام ١٦٧ق.م، عندما طفح الكيل بالكاهن ميتاس ورفض الانصياع لأوامر ضابط يوناني بتقديم القرابين إلى مذبح وثني، فأقدم على قتل الضابط وتابعه اليهودي الذي خضع للأمر. كان ذلك الحادث بمثابة الصاعق الذي فجّر العنف في مواجهة السلوقيين وما فرضوه من عادات ومفاهيم هلينستية، كان أشدها استفزازاً وضع الأوثان في الهيكل، وفي مقدمها زيوس كبير آلهة اليونان وتقديم الخنازير على عتبات مذبحه.

شكلت هذه القضية، إضافة إلى مسألة شرعية البيت الحاكم ومؤسسة الكهنة، محور الاضطرابات والثورات التي عصفت بفلسطين وجوارها الجغرافي طوال مائتين وخمسين عاماً. فشرعية مؤسستي الحكم والكهانة قضية مبدئية تحظى باهتمام بالغ في «العهد القديم». ومن بدهياتها تولي نسل داود من سبط يهودا الحكم، وقيام نسل هارون من سبط لاوي على الشؤون الدينية، ويعرف هؤلاء بالصدوقيين. ولم يحدد الباحثون بعد على وجه الدقة، إن كان ذلك المصطلح اسماً أم علماً لمنصب ديني رفيع. فالعهد القديم يخبرنا بقيام الكاهن صادوق بمسح سليمان بالزيت، والمسح ليس قاصراً على الملوك، بل أيضاً كان كبار الكهنة يُمسحون بالزيت. بناء على ذلك، فمن المفترض أن يُحكم الشعب من قبل سلالتين متوازنتين، الأولى تعنى بالأمور الزمنية، والثانية تتولى الشؤون الدينية. وهذا يفسر في رأي البعض إشارة وثائق

قمران إلى مخلِّصين اثنين. وقد استمر هذا العرف جارياً على نحو ما خلال العصور الوسطى في أوروبا عبر ترؤس البابا والقيصر معاً للأمبراطورية الرومانية المقدسة.

بعد سقوط المكابيين وزوال دولتهم، تمَّ لروما السيطرة على فلسطين عبر حلفائها اليهروديين أحياناً، وأخرى عبر اشتراكهما في الحكم معاً، مثلما حدث إثر وفاة حفيد هيرودس الأكبر عام ٤٤م، بسبب تزايد الفرق الدينية وتفاقم المعارضة ذات السمة الخلاصية الوطنية في مواجهة مؤسستي الحكم والهيكل المواليتين للرومان، لذلك لا يمكن بحال إغفال العامل الروماني المتسيد منذ بدايات الألفية الأولى، كسبب رئيس وفاعل في تصاعد الاستياء العام وتفاقم العنف في طول البلاد وعرضها، إضافة إلى كونه أداة مهمة لفهم الأحداث وخلفياتها، على نحو أكثر دقة، مما يساعد الباحثين على تحديد المرحلة التاريخية التي أثمرت جماعة قمران وكتاباتها.

أصبح الرومان الحكام الفعليين ليهودا بالتعاون مع حلفائهم الهيروديين وأحبار الهيكل، واتخذوا قيسارية عاصمة إدارية لهم، اتقاء لما قد يثيره وجودهم العلني في أورشليم من حساسيات دينية واضطرابات هم في غنى عنها. قرر الحاكم الروماني في سورية كيرنيبوس بين العامين ٦م ـ ٧م، إجراء تعداد للسكان في فلسطين تمهيداً لفرض ضرائب مباشرة، وذلك هو التاريخ نفسه الذي يحدده لوقا في إنجيله لمولد السيد المسيح (١/٢)، في حين يحدده متى قبل وفاة هيرودس الأكبر عام ٤م (١/٢).

أياً كان موعد الميلاد الفعلي للسيد المسيح، فقد عارض «الغيورون على الناموس» بشدة عملية التعداد وما يترتب عليها من ضرائب،

فيما أيدها الجانب الموالي للرومان، ومؤسستي الحكم والهيكل.

ما يسترعي التوقف في هذا الصدد، إجابة يسوع المسيح في هذه المسألة الحساسة، «ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، التي جاءت متفقة مع موقف الفريسيين رغم عدائه الشديد لهم!! وهي الإجابة نفسها التي غدت عذراً كلما تعارضت السياسة ومبادىء الأخلاق والقيم الرفيعة!

أغفل الفريق الدولي والباحثون الملتفون حوله العامل الروماني المهيمن، إمعاناً في إبعاد وثائق قمران عن النشأة الأولى للمسيحية في فلسطين، وتجاهلوا تماماً مراوغة المؤرخ اليهودي يوسيفوس في كتاباته والتناقض البين في المعلومات التي يوردها، من كتاب لآخر بحكم الظروف المحيطة، وآثر الفريق الاكتفاء به مصدراً تاريخياً مهماً فيما يتعلق بحركتي «الأسينيين» و«الغيورين على الناموس»، دون الالتفات إلى موقف الرجل المنحاز للسلطة الرومانية التي يدين لها بحياته ومكانته، والتي لم تبخل عليه، بدورها، منذ ارتداده والتحاقه بها، فمنحته المواطنة وشجعت القيصر نيرون على نشر أعماله. لم يأبه الفريق الدولي بالجانب المنتصر، الذي غالباً ما يصبغ التاريخ بصبغته، رغم أنها كانت ولا تزال حقيقة شاخصة لكل ذي عينين. ويوسيفوس نفسه أفصح عن هذه الحقيقة في مقدمات أعماله، التي يلوح فيها تورط المؤرخ وعجزه عن تفادي نتائج تورطه.

لقد كشف يوسيفوس أفضل من غيره، كشاهد عيان، مدى تفشي الخنوع خشية من بطش روما وجبروتها في كتابه «الحروب اليهودية»، حين علق على الأعمال التاريخية المعبرة عن تلك المرحلة، بقوله «إنها تعاني من آفتين أساسيتين: مداهنة الرومان

والاستخفاف باليهود (الشعب).. حيث حلَّ التزلف والتعسف محل التسجيل الحقيقي للتاريخ»[1].

ليس هناك بالطبع ما يحول دون تأثير هاتين الآفتين على كل كتابات المرحلة المذكورة، بما فيها أعمال يوسيفوس.. اللهم فيما عدا وثائق قمران لسبب بسيط للغاية، فأصحابها لم يكونوا جزءاً من آلة الدعاية للأمبراطورية الرومانية، بل كانوا مناوئين لها يناصبونها أشد العداء، لاذوا بكهوف قمران وأودعوها كتاباتهم تفادياً لبطش الرومان وعيون حلفائهم، ولم يتمكنوا للسبب نفسه من العودة لاستعادتها، ربما لأنهم قضوا جميعاً نحبهم، أو لعجز الناجين منهم عن العودة لاستردادها.

كانت قوى البطش الرومانية، شأنها شأن كل قوى البطش العالمية، المحرك الأساسي وراء عملية تعسفية مريرة للتكييف السياسي والعقائدي، وتمريره إلى الجماعات والفرق الدينية المختلفة، بمن فيهم الفريسيون والمسيحيون الأوائل. وأعمال يوسيفوس لم تنج هي الأخرى، أسوة بغيرها، من عملية التكييف السياسي والعقائدي هذه، ولهذا جاءت مشوبة باللبس والتناقض، الذي انتقلت عدواه تلقائياً إلى الباحثين اللاحقين. مثالاً على ذلك، نجد يوسيفوس يكيل المديح لحنانيا، رئيس الكهنة، في كتابه «الحروب اليهودية»، في حين يخسف به الأرض في كتابه «قدم اليهود»، ولهذا تعتقد غالبية الباحثين بتعرض كتابه الأول إلى تنقيح وإلى حذف مجحف لبعض مقاطعه، التي وجدت لها سبيلاً في أعماله الأخرى، ولعلها تلك المقاطع نفسها التي اعتمد عليها رواة الكنيسة الأول في تأكيدهم على أن سقوط أورشليم وانفجار الوضع جاء نتيجة لمصرع يعقوب البار وليس لمقتل حنانيا، كما ورد على لسان يوسيفوس.

من الصدف الغريبة والمحيرة أيضاً، إتيان يوسيفوس في سياق عرضه لفرق اليهود في كتابيه المذكورين على ذكر حركة أسسها يهودا الجليلي، قامت بالهجوم على مستودع أسلحة ملكي في صفورية بالجليل عام ٤ق.م، واصفاً عقيدتها «بفلسفة جديدة لم يعرفها اليهود من قبل» وبأنها ذات «نزوع شديد للحرية، تأبى إضفاء الألوهية على أي إنسان»(٢).

اللافت أيضاً، ذلك الجديد الذي أضافه يوسيفوس في كتابه «قدم اليهود»، بعد هدوء العاصفة ومرور ربع قرن على اشتعال الثورة وإخمادها، حين أتى على ذكر شخصية لم يشر إليها من قبل، كانت ترافق يهودا الجليلي دعاها بعفوية يشوبها الغموض بـ«البار»، ويبدو أن يهودا الجليلي قد قتل في بداية المواجهة، وخلّف ثلاثة أبناء أنزل الرومان بين عامي ٤٦ ـ ٤٨م عقوبة الصلب، باثنين منهم هما يعقوب وسمعان(٣).

يمضي يوسيفوس في الحديث عن الوضع الملتهب حينها في فلسطين بالقول: «إن ما حرك الشعب للثورة ضد الرومان نبوءة غامضة في الكتاب المقدس، بأن رجلاً من بلدهم يحكم العالم برمته»، غير أنه يضيف مستطرداً، ربما إنقاذاً لجلده: «لقد جلب الشعب الدمار والخراب على نفسه بحصر النبوءة في أبنائه دون غيرهم»، بينما هي تنطبق، من وجهة نظره ونظر الفريسيين، على القائد الروماني فسباسيان الذي أصبح لاحقاً قيصراً للروم».

لم يأت يوسيفوس والفريسيون بجديد في إسقاطهم تلك النبوءة على فسباسيان، قاهر الثورة في فلسطين وقيصر العالم لاحقاً، فهناك سابقة في القرن الرابع قبل الميلاد حين قدم أشعيا قورش الفارسي بوصفه «مسيح يهوه» مخلّص الشعب. ويبدو أن إسقاط

نبوءات «العهد القديم» على كل من يدعم النخب اليهودية في تحقيق طموحاتها، سلاح فعال أحسن اليهود استخدامه، قديماً وحديثاً، في دغدغة مشاعر حلفائهم الدوليين، بدءاً من بلفور صاحب الإعلان الشهير ومروراً برؤساء الولايات المتحدة الأميركية. والله وحده يعلم انتهاء بمن!

على أية حال، يمضي يوسيفوس في لحظة صدق نادرة إلى القول «قام رؤساء الفريسيين ورئيس الكهنة والهيروديون ورجال السلطة وكل الراغبين في السلام، بدعوة الجيش الروماني المعسكر في الخارج إلى دخول أورشليم لإخماد الثورة»، فهذا جوهر ما عناه المؤرخ في مقدمة كتابه «الحروب اليهودية» عن دعوة قادة اليهود الرومان لدخول المدينة. ثم يسترسل ليذكر تفصيلة مذهلة، بدا أبطالها شخصيات معروفة لدى معاصريه في القرن الأول للميلاد، بقوله «إن أحد أعضاء الأسرة الهيرودية ويدعى شاوليوس أو شؤل، قام بنقل رسالة «تحالف السلام» إلى قيادة الجيش الروماني المعسكر خارج المدينة لدخول أورشليم»، مؤكداً أنه الشخص نفسه الذي سبق أن قدم تقريراً عن الوضع النهائي إلى مركز قيادة نيرون في كورنثوس باليونان[٤].

ليست ممالأة الفريسيين للرومان، على حساب التوجهات الخلاصية التحررية التي عمت البلاد، بالأمر المستهجن أو المستبعد وليست بحاجة إلى مزيد من الشرح، في ضوء الظروف الموضوعية وشهادة يوسيفوس، مما يتعذر معه اعتبارهم وفقاً للمفهوم الشائع حزباً شعبياً أو منقذاً للشعب. فقد كان عليهم اعتماد سياسة تعليمية وتوجيهية مغايرة، في ظل القبضة الرومانية، إيذاناً بانتقال الثقل الديني من أورشليم إلى روما، عاصمة الأمبراطورية والعالم، حينذاك. أما

الحركة الشعبية الحقيقية، فجسدها «أصحاب التوجهات الخلاصية» و«الغيورون على الناموس» و«الصدوقيون الأطهار» وجميع الكارهين للسلطة المحتلة والمتعاونين معها، على الأقل حتى سقوط أورشليم وتدمير الهيكل.

وليس هناك من سبب في رأي الباحث الأميركي إيزنمان، يمنع انحياز بولس، أسوة بيوسيفوس، للبلاط الحاكم والفريسيين، مما أثر على مهمته التبشيرية خارج فلسطين، لا سيما أن مسرح نشاطه كان ضمن نفوذ الهيروديين وتحت السيادة الرومانية. وأقوال بولس كما وردت في «أعمال الرسل» فيها الكفاية لتوضيح مدى اعتزازه بفريسيته وبقرابته للهيروديين، ناهيك عن مواطنته الرومانية، التي لم يكن الحصول عليها متيسراً في ظل تلك الظروف المضطربة. ويبرهن الباحث الأميركي من خلال تتبعه لأعمال الرسل ويوسيفوس، أن شاؤول كان يمت بصلة قرابة للهيروديين حكام آسيا الصغرى، فهو ينحدر من الآدومي كوستوباريوس زوج سالومي شقيقة هيرودس الأكبر، كما أنه شقيق هيرودس، حاكم كليكيا، بالرضاعة حيث ولد وفقاً لما تقوله الأعمال[٥].

أياً كانت الصلة التي جمعت بولس بالهيروديين، بيولوجية كانت أم دين/ سياسية، فلا بد أنها كانت وثيقة، وإلاّ كيف يتأتى لشاب حديث السن من آسيا النفاذ إلى دوائر المؤسستين، الزمنية والدينية، في مستوياتها العليا والالتقاء برموزها الكبار. وأعمال الرسل تحفل بما يثبت المعاملة المميزة التي لقيها بولس. فما إن أتى مخفوراً من أورشليم إلى قيسارية، حتى مثل لتوه أمام الملك أجريبا الثاني والأمير برنيكي في دار الاستماع حيث «الأمراء ورجال المدينة المقدمون»، وعلى رأسهم الحاكم الروماني فستوس، الذي لم يجد في أفعال

بولس ما يستحق عليه القتل، رغم صراخ الجموع في أورشليم «لا ينبغي له أن يعيش».

والحاكم الروماني، بدوره، لم ير في الأمر ما يستدعي إقامة الدعوى على بولس أمام القيصر حسب قوله «لأني أرى حماقة أن أرسل أسيراً ولا أشير إلى الدعاوى التي عليه»!! (أعمال ٢٥/٢٧).

وجاء رأي الملك أغريبا الثاني، بشأن بولس، متفقاً أيضاً مع فستوس «فهذا الإنسان ليس يفعل شيئاً يستحق الموت أو القيود» (أعمال ٢٦/٣١).

غير أن بولس كان مصراً على رفع دعواه أمام القيصر، ولم تحدد «الأعمال» ماهية الدعوى أو سبب إصراره!!

عند وصوله إلى روما حظي بولس أيضاً بمعاملة خاصة حيث «سلم قائد المائة الأسرى إلى رئيس المعسكر، أما بولس فأذن له أن يقيم وحده مع العسكري الذي كان يحرسه»... وما لبث بعد أيام ثلاثة أن اجتمع «بوجوه اليهود في المدينة»، ليؤكد لهم أنه «لم يفعل شيئاً ضد الشعب»، فحدد له هؤلاء يوماً ليشرح للكثيرين «شاهداً بملكوت ومقنعاً إياهم من ناموس موسى والأنبياء بأمر يسوع من الصباح إلى المساء» (الأعمال ٢٨/١٦ - ٢٢).

لم تقتصر مشكلة مخطوطات البحر الميت على إغفال الباحثين للظروف الموضوعية التي أحاطت بنشأة المسيحية الأولى في فلسطين وحسب، بل ازداد الوضع سوءاً باعتماد غالبيتهم على الترجمات اليونانية واللاتينية واللغات الحية الحديثة للمصطلحات الآرامية والعبرية، دون التمعن في دلالاتها في لغاتها الأصلية. ولهذا يدعو إيزنمان إلى دراستها في لغاتها الأولى، إضافة إلى ضرورة

وضع المفاهيم المسبقة جانباً، أياً كان مصدرها، سواء اليهودية التلمودية الحالية أم التراث المسيحي الموروث، لأن معطيات الوثائق معادية لكلا الطرفين بدرجة يتعذر معها التخفيف من حدتها. ويذكّر، إن نفعت الذكرى أن كتابات الطرفين جاءت مراعية لمتطلبات الأوضاع السياسية المستجدة، وليس أدل على ذلك من تحول الأحبار بعد تدمير الهيكل إلى جباة ضرائب للرومان، دع عنك، تحول الحبر بن زكاي الذي فرَّ من أورشليم في صندوق للموتى حتى يبعث برسالة إلى تيطس يخبره فيها أن «ابن زكاي أحد أصدقاء القيصر»، ثم عمد جاهداً إلى تكييف الشريعة اليهودية بما يتفق والأوضاع الجديدة[٦].

يمضي إيزنمان إلى أبعد من ذلك، مؤكداً أن العالم يعيش أكذوبة كبيرة منذ ألفي عام، حاكت خيوطها السلطات الرومانية والفريسيون على حساب طهارة العقيدة النصرانية ـ المسيحية ـ الأولى في أورشليم. ثم يعقد مقارنة بين تعاليم يعقوب، خليفة يسوع الأول وبين تعاليم بولس التي جاءت أكثر توافقاً مع العالم الهلينستي، مسرح نشاطه، ربما بهدف كسب مزيد من الأنصار، أو ممالأة لروما، عاصمة العالم، حيث استقر به المقام. هذا الرأي عبر عنه المؤرخ البريطاني المعروف أرنولد توينبي بصياغة مختلفة حين أعاد نصر المسيحية إلى جهود آباء الكنيسة أنفسهم، بداية بالقديس بولس، في ترجمة العقيدة المسيحية إلى مصطلحات الفلسفة الهلينستية، وفي تشييد الدرجات الكهنوتية وفقاً لمراتب الموظفين في الإدارة الرومانية، وفي صياغة الطقوس المسيحية طبقاً للطقوس السرية، إلى درجة قلب الاحتفالات الوثنية إلى أعياد مسيحية، وإسقاط عقائد الأبطال الوثنيين على عقائد القديسين المسيحيين[٧].

كان من الطبيعي، نتيجة لعملية التكييف العقائدي، تعّرض رسالة يعقوب البار في «العهد الجديد» إلى التشويه والتنقيح والصقل، منذ أيام يوسابيوس وحتى مارتن لوثر.. إلى أن تدفقت مخطوطات البحر الميت، فإذا بالرسالة تظهر متجانسة مع الوثائق، تعكس محتوياتها بدقة متناهية. فإصرار يعقوب على التمسك بالناموس، شريعة موسى، واضح جلي يجسده قوله:

«لا بد من حفظ كل الناموس. وإنما عثر في واحدة فقد صار مجرماً في الكل» (٢/١).

فالناموس بالنسبة إليه وحدة واحدة لا تتجزأ، يتوجب الالتزام بكل نقاطها، فلا يصح التمسك ببعض وانتهاك البعض الآخر. ويعقوب بموقفه المبدئي الصارم يحذو حذو معلمه الأول يسوع المسيح، الذي نقل عنه متى قوله:

«لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس... ...فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد من الناموس حتى يكون» (٥/١٧ ـ ١٩).

وحين سئل عن الوصية العظمى في الناموس رد بالقول:

«تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك» (متى ٢٢/٢٧).

يتردد صدى هذا الالتزام الصارم بالناموس وبالعمل والتقوى في وثائق قمران حين يخاطب «قانون الجماعة» القائد في عموده الأول على النحو التالي:

«من أجل (قائد الجماعة حتى يعلم المتطهرون) كي يعيشوا، وفق قانون، الجماعة، ويبحثوا

عن الله بكل قلبهم، وليعملوا بكل ما هو خير ومستقيم أمامه (الله) كما
جاء على (أوصى به) موسى، وخدمه (خدم الله) الأنبياء، كي يحبوا كل
ما يصطفى ويبغضوا كل ما يزدرى، حتى يبتعدوا بنفوسهم عن كل شر
ويتعلقوا بكل الأعمال الصالحة، ويمارسوا الحق والاستقامة والعدالة
على الارض، ولا يوغلوا بعد في عناد قلب مذنب وعيون شبقة».

وبالنسبة للمتطوعين الجدد الداخلين في الجماعة، فهؤلاء:

«سوف يفترقون عن تجمع الضالين
ليصيروا في جماعة التوراة

وسوف تُختبر أرواحهم وأعمالهم عاماً بعد عام حتى يرتقي كل بحسب ذكائه وكماله على الطريق، أو يُخفض حسب المخالفات (التي يرتكبها)» (٥/٢٤).

أما بولس فموقفه يختلف جذرياً، في قوله:

«أخبروا عنك أنك تعلم جميع اليهود الذين بين الأمم الارتداد عن موسى قائلاً أن لا يختتنوا أولادهم ولا يسلكوا حسب العوائد» (أعمال ٢١/٢٢).

فبولس يعتبر التمسك بالشريعة ضعفاً يصل إلى حد العبودية، فنجده يقول لأهل غلاطية بشأن الختان:

«فاثبتوا إذاً في الحرية التي حررنا المسيح بها ولا ترتبكوا بنير العبودية، ها أنا بولس أقول لكم إنه إن اختتنتم لا ينفعكم المسيح

شيئاً. لكن أشهد أيضاً لكل إنسان مختتن أنه ملتزم أن يعمل بكل الناموس. فقد تبطلتم عن المسيح أيها الذين تتبررون بالناموس. سقطتم من النعمة» (٥/١ ـ ٥).

استخدم كل من يعقوب وبولس المصطلحات نفسها، الحب الصدق العمل، غير أن كل منهما وضعها في سياق مختلف تماماً. الأول وضعها في سياق الحرص على الناموس:

«فإن كنتم تكملون الناموس الملكي حسب الكتاب، تحب قريبك كنفسك، فحسناً تفعلون، ولكن إن كنتم تحابون تفعلون خطية، موبخين من الناموس كمعتدين» (٢/٨ ـ ١٠).

أما الثاني فاستعملها في سياق انتهاك الناموس:

«أما أنا أيها الأخوة فإن كنت بعد أكرز بالختان فلماذا اضطهد بعد. إذاً عثرة الصليب قد بطلت. يا ليت الذين يقلقونكم يقطعون أيضاً... ... لأن كل الناموس في كلمة واحدة يكمل. تحب قريبك كنفسك» (غلاطية ٥/١٢ ـ ١٤).

لم يكن موقف بولس من الختان مبدئياً، كما قد يعتقد البعض، فأعمال الرسل تتحدث عن تيموثاوس، رفيق سفر بولس، الذي لم يكن مختتناً «فأمه يهودية وأبوه يوناني»، غير أن بولس «أخذه وختنه من أجل اليهود الذين في تلك الأماكن» (أعمال ١٦/٢)، بينما «لم يضطر ولا تيطس الذي كان معي (مع بولس) وهو يوناني أن يختتن» (غلاطية ٢/٣).

الخلاف لم يقتصر على قضية الختان فحسب، بل أيضاً امتد إلى الأطعمة.

كان يعقوب عابداً ناسكاً لا يشرب الخمرة ولا يقرب اللحم وينهى عما ذبح للأوثان بقوله:

«... أرى ألا يثقل على الراجعين إلى الله من الأمم. بل يرسل إليهم أن يمتنعوا عن نجاسات الأصنام والزنى والمخنوق والدم» (أعمال ١٥/٢٠).

وكرر تحذيره في الأصحاح نفسه:

«أن تمتنعوا عما ذبح للأصنام وعن الدم والمخنوق والزنى التي إن حفظتم أنفسكم منها فنعما تفعلون». (١٥/٢٩).

اللافت، قول يعقوب «الراجعين إلى الله من الأمم»، مما يستشف منه أن دعوة السيد المسيح لم تكن مقتصرة على اليهود. وهذا يناقض الفقرة التي انفرد بها متى في وصف يسوع للكنعانيين بالكلاب حين جاءته المرأة الكنعانية تسأله أن يشفي ابنتها (متى ١٥/٢٢ ـ ٧). فهذا قول يتسم بالعنصرية لا يمكن أن يصدر عن السيد المسيح، الذي يدعو إلى الأخوة الإنسانية في أوسع صورها.

ينسجم موقف يعقوب في موضوع الأطعمة مع يوحنا المعمدان، الذي عمّد يسوع، فقد كان «لا يأكل خبزاً ولا يشرب خمراً» (لوقا ٧/٢٤). والغريب أن ينسب العكس إلى يسوع بالقول في هذا الصدد:

«جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب فتقولون هوذا إنسان أكول وشريب خمر، محب للعشارين والخطاة» (لوقا ٧/٢٥)، ومتى يورد في إنجيله ما يقرب من ذلك أيضاً، بقوله:

«إن يسوع كان يكثر الجلوس مع الخطاة والعشارين ويشاركهم الطعام» (متى ٩/١٢)[٨].

يتساءل إيزنمان، كيف يمكن تصور أو تقبل أن يكون المعلم الأول، نبع الإيمان والاستقامة، أقل تشدداً وأكثر تحرراً من تلامذته المقربين، يحول الماء خمراً حتى يشرب الجميع حسبما أورد يوحنا (٢/١)،

ويكثر الجلوس مع الخطاة والعشارين لمجرد كونهم بحاجة إلى الهداية أكثر من غيرهم!! (متى ٩/١٢).

أما بولس فقد بدا أكثر تحرراً من قيود هذه المحرمات «كل ما يباع في اللحم كلوه غير فاحصين عن شيء من أجل الضمير... (كورنثوس الأولى ١٠/٢٦ ـ ٣٠). ويأتي موقفه بالنسبة لما ذبح للأوثان مرناً إلى حد ملحوظ... فمن جهة أكل ما ذبح للأوثان نعلم أن ليس وثن في العالم وإن ليس إله آخر إلاّ واحداً» (كورنثوس الأولى ٨/١ ـ ٥).

مواقف بولس تعكس رغبة في التحرر من الناموس، فهو يقول صراحة:

«كل الأشياء تحل لي ولكن ليس كل الأشياء توافق. كل الأشياء تحل لي لكن لا شيء يتسلط علي شيء. الأطعمة للجوف والجوف للأطعمة والله سيبيد هذا وذاك» (كورنثوس الأولى ٦/١٥).

قد تبدو تلك الخلافات حول الختان والأطعمة أموراً غير ذات قيمة للقارىء المعاصر، لا تستحق الصراع والدماء التي أريقت بسببها، أو الضجة المثارة حولها الآن. غير أن الأمر يختلف تماماً عند وضعه في سياقه التاريخي، فالتشبث بالموروث من العادات والتقاليد والأعراف، سواء كان واعياً أم غير واعٍ، صيانة للخصوصية ودفاع عن الذات الجمعية، في مواجهة قوة عاتية أجنبية تريد فرض رؤاها ومفاهيمها.

جاء الحكم الروماني المباشر بعد وفاة هيرودس الأكبر بقليل، ليزيد الوضع الملتهب أصلاً في فلسطين وشرق الأردن تأججاً، ويكسب الثورة زخماً شديداً تمحور حول شرعية البيت الحاكم ومؤسسة الهيكل، فالأخيرة لها أهمية قصوى في «العهد القديم». فقد دفعت

هيرودس الأكبر بعد توليه الحكم، بمؤازرة روما، إلى الزواج من أميرة مكابية، ميريام، تأكيداً لشرعيته، وما لبث أن قضى على نسل المكابيين بقتلها وولديه منها وشقيقها بعد أن استتب له الأمر، وأحكم سيطرته على مؤسسة الهيكل بعد أن ملأها بأتباعه المخلصين، الذين اشتروا الحياة الدنيا سعياً وراء «الأشياء الناعمة».

تقول «وثيقة دمشق» بشأن أولئك الحريصين على الحياة الرغدة:

«أنزل عليهم لعنات عهده، وأسلمهم إلى السيف المنتقم ثأراً للعهد، لأنهم سعوا وراء الأشياء الناعمة وفضلوا الضلال، وحرصوا على؛

الانتهاكات [أشعيا ١٠/١٠ - ١٣] واختاروا العنق الناعم (الطريق الأسهل) وزكوا اللئيم وأدانوا العادل؛

وانتهكوا العهد وخرقوا الشريعة، والتأموا معاً ضد (حياة) البار وضد كل السائرين في الكمال» (١٧/١ - ٢٠).

هكذا استبدت بالبلاد سلطتان، زمنية ودينية، فاسدتان مطعون في شرعيتهما معاً، تدعمهما قوة أجنبية وثنية محتلة، الأمر الذي فجّر معارضة واسعة في بدايات القرن الأول للميلاد. وقد تبلور الوضع في اتجاهين متعارضين، يتمثل الأول في كبار الكهنة التابعين للبيت الهيرودي الحاكم وجميع الموالين للرومان، ويتكون الثاني من المعارضة الشعبية الواسعة لكل أشكال التعاون مع الرومان وذيولهم المحليين، انضم إليها صغار الكهنة، والتفّ الجميع حول ثلاثة مبادىء رئيسة: الشرعية الكهنوتية المتمثلة في بيت لاوي، المخلّص الملكي من بيت داود، الغيرة على الناموس، والأخير مبدأ تراثي معروف منذ فجر النصرانية، جسده يهودا الجليلي وصحبه في ثورتهم التي أشعلوها عقب انتهاء فترة الحِداد على هيرودس الأكبر،

كما عبرت عنه الثورة العارمة التي تفجرت إثر الهجوم على يعقوب البار، والتي لم يخمد أوارها بسقوط أورشليم وتدمير الهيكل بين عامي ٦٨ - ٧٠م، أو بسقوط الماسادا عام ٧٤م، فالبرغم من فرار الكثيرين إلى بيلا في شرق الأردن وفارس والإسكندرية، اشتعلت الثورة مجدداً بقيادة سمعان بن الكوكب بين عامي ١٣٢ - ١٣٥م.

كان العثور على بعض وثائق قمران في الماسادا صدمة حقيقية سببت انزعاجاً شديداً لكل من إيغال يادين والفريق الدولي على حد سواء، فقد هزت على نحو ملموس المفهوم الشائع عن صلابة اليهود حصراً، خصوصاً الفريسيين، في مواجهة الاحتلال الروماني، فقد جاءت الوثائق لتضفي صبغة مخالفة لما هو شائع عن واقعة الماسادا والمشاركين فيها. إن هذا الحجم من التحفز والإصرار العنيد على مواجهة الرومان والملتفين حولهم، كما يظهر في وثائق قمران ويُستشف من كتابات يوسيفوس، لا يعبر عن معارضة سياسية فحسب، بل ينبع من فكر ديني جديد مغاير ، تؤججه حماسة ملتهبة، يسعى أصحابه إلى ثورة خلاصية لتحقيق ملكوت آخر غير الأمبراطورية الرومانية وحلفائها الفريسيين، جمعت في صفوفها الحلفاء الدينيين إضافة إلى الأغيار، وانصهر جميعهم في تيار معارض واسع. وأياً كان المصطلح المستخدم للدلالة على أصحاب ذلك التوجه سواء كان النصارى، الكنيسة الأولى، الغيورين على الناموس، أو الصدوقيين الأطهار، فجماعة قمران كانت من دون شك في وسطهم.

هذا بدوره يدفع إلى التساؤل عن سبب اضطهاد الرومان للمسيحيين، خلافاً لسياستهم المعروفة بعدم التدخل في معتقدات

رعاياهم الدينية، على مبدأ «عش ودع الآخرين يعيشون»، مما يرجح أن المسيحيين باتوا يشكلون خطراً على استقرار الأمبراطورية، خاصة وقد استمر الاضطهاد لما يربو على الثلاثة قرون في مختلف أنحاء الأمبراطورية، ولم يتوقف إلاّ باستكمال اتخاذ المسيحية طابعاً هلينستياً لتصبح مقبولة لدى الرومان واليونان، وليس الاقتتال المسيحي/ المسيحي بين أتباع المذاهب الدينية المختلفة بمعزل، على الأغلب، عن عملية التفاهم والتكيف بين الديانة المسيحية والحضارة الرومانية[٩].

... ...

لم يتوقف الخلاف على مسألتي الختان والأطعمة، بل انصبّ أيضاً على جوهر العقيدة. فيعقوب شأنه شأن جماعة قمران يؤكد على العمل الصالح، الذي لا يصح بدونه الإيمان ولا يجدي صاحبه نفعاً، تماشياً مع قول يسوع «وأما من عمل وعلم فهذا يدعى عظيما في ملوك السموات» (متى ١٦/٥)، وقوله «من ثمارهم تعرفونهم... هكذا كل شجرة جيدة تضع ثماراً جيدة» (متى ١٦/٧). وفي هذا الصدد يقول يعقوب:

«ما المنفعة يا إخوتي إن قال أحد إن له إيماناً وليس له أعمال، هل يقدر الإيمان أن يخلصه... هكذا الإيمان أيضاً إن لم يكن له أعمال ميت في ذاته... أرني إيمانك بدون أعمالك وأنا أريك أعمالي بإيماني. أنت تؤمن أن الله واحد، حسناً تفعل... ... ولكن هل تريد أن تعلم أيها الإنسان الباطل، أن الإيمان بدون أعمال ميت» (١٤/٢ - ٢١).

ويستند يعقوب إلى إبراهيم مشدداً على أهمية العمل:

«ألم يتبرر إبراهيم أبونا بالأعمال... فترى أن الإيمان عمل من

أعماله وبالأعمال أكمل الإيمان» (٢٢/٢). وبينما يؤكد يعقوب على الإيمان والعمل أساساً للعقيدة، يحدد بولس الإيمان، في رسالته إلى غلاطية، ويحصره بقوله:

«ولكن أن ليس أحد يتبرر بالناموس عند الله فظاهر، لأن البار بالإيمان يحيا. ولكن ليس من الإيمان بل الإنسان الذي يفعلها سيحيا بها. المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا لأنه مكتوب ملعون كل من علق على خشبة»!! (٣/١٠ ـ ١٤).

ويكرر بولس وجهة النظر نفسها في رسالته إلى روما: «لأني لست استحي بإنجيل المسيح، لأنه قوة الله للخلاص لكل من يؤمن لليهودي أولاً ثم اليوناني، لأن فيه معلن بر الله بإيمان، لا إيمان كما هو مكتوب، أما البار فبالإيمان يحيا» (١/١٧). ما أذهل الباحثين، شروح جماعة قمران على فقرة وردت في سفر حبقوق «البار بإيمانه يحيا» (٢/٢)، التي علقت عليها بالقول «تفسير ذلك يخص العاملين بالشريعة في بيت يهودا، الذين سوف ينجيهم الله من بيت الدينونة بسبب معاناتهم وإيمانهم بالمعلم البار».

توقف الباحث الأميركي إيزنمان ملياً عند شرح الجماعة، فقد وجده مساوياً في فاعليته لصياغة العقيدة المسيحية، حيث يعلن بجلاء أن الإيمان والمعاناة بالمعلم «البار» تعبد الطريق نحو النجاة والخلاص، ليستنتج أن بولس قد استقى جوهر لاهوته من تلك الفقرة، وجسده في رسالتيه إلى روما وغلاطية، مشكلاً بذلك المنطلق الأول لفكره الديني والمبدأ الذي اعتمده في مواجهة يعقوب البار. غير أن جماعة قمران، بناء على شروحاتها، تقصر النجاة والخلاص في الإيمان والمعاناة بالمعلم الصادق، لأولئك الذين يلتزمون بناموس بيت داود، فذلك هو الشرط الذي أسقطه بولس والتف حوله،

مكتفياً بتأسيس لاهوته بالكامل، وحصره في الإيمان والمعاناة بالمعلم، سبيلاً وحيداً للنجاة والخلاص، الأمر الذي عجل بالنزاع العقائدي بينه وبين يعقوب وجماعة أورشليم الأولى.

توضح القراءة المتأنية «لأعمال الرسل» واستشفاف ما بين سطورها طبيعة علاقة بولس بجماعة أورشليم وقائدها يعقوب البار. يتوقف إيزنمان ملياً عند إعلان بولس الصريح في رسالته إلى غلاطية، حيث يقول:

«وأما المعتبرون أنهم شيء مهما كانوا لا فرق عندي، فإن هؤلاء المعتبرين لم يشيروا عليّ بشيء» (٢/٦).

ويتردد صدى الأسلوب نفسه في رسالته الثانية إلى كورنثوس، حين يقول:

«بل هم إذ يقيسون أنفسهم على أنفسهم ويقابلون أنفسهم بأنفسهم لا يفهمون» (١٠/١٢).

يشمل الحديث هنا بالطبع يعقوب البار والتلامذة الأوائل، وجاء بأسلوب يتسم بالتعالي وتفوح منه خصومة كامنة لهؤلاء المعتبرين! فاحترام بولس لجماعة أورشليم الأولى لا يعدو احتراماً شكلياً، ولا أكثر!!

ويمعن بولس في تسفيه جماعة أورشليم بقوله في رسالته إلى غلاطية:

«ولكن بسبب الأخوة الكذبة المدخلين خفية، الذين دخلوا اختلاساً ليتجسسوا حريتنا التي لنا في المسيح كي يستعبدونا» (٢/٤).

الحرية التي يقصدها بولس في مقولته هذه، تعني التحرر من الناموس ومن جماعة أورشليم، فإشارته إلى «الأخوة الكذبة» لا

تخلو أيضاً من مغزى يتطلب التوقف عنده وتدبره!!

استمر بولس في هجومه المبطن على قيادة أورشليم «الذين لم نذعن لهم بالخضوع ولا ساعة ليبقى عندكم حق الإنجيل» (غلاطية ٢/ ٥). فكلما واتته الفرصة، يعمد إلى تصغير شأن جماعة أورشليم وازدرائها، رغم اعترافه الضمني بقيادة يعقوب البار، الذي جاء في قوله إلى أهل غلاطية:

«فإن هؤلاء المعتبرين لم يشيروا علي بشيء، بل العكس فقد رأوا أني أوتمنت على إنجيل الغرلة [الأغيار] كما بطرس على إنجيل الختان، فإن الذي عمل في بطرس لرسالة الختان عمل فيَّ أيضاً في الأمم» (٢/٢).

ويأتي اعترافه بأنه موفد من قبل جماعة أورشليم أكثر وضوحاً في رسالته إلى غلاطية، حين يقول:

«فإذا علم بالنعمة المعطاة لي يعقوب وصفاً ويوحنا، المعتبرون أنهم أعمدة، أعطوني وبرنابا يمين الشراكة فيكون نحن للأمم وأما هم للختان» (٩/٢).

بالرغم من إقرار بولس الضمني بتبعيته لجماعة أورشليم، فإنه يلجأ إلى أسلوب التفافي مصطنع، حين يصور زيارته الثانية إلى أورشليم لرؤية ألمت به، وليس استجابة لاستدعاء القيادة كي يقدم تقريراً عن مهمته التبشيرية في الخارج. فنجده يقول:

«وإنما صعدت بموجب إعلان، وعرضت عليهم الإنجيل الذي أكرز به بين الأمم، ولكن بالانفراد عن المعتبرين، لئلا أكون أسعى أو قد سعيت باطلاً» (غلاطية ٢/٢).

جدير بالملاحظة استعمال بولس لمفردة «صعدت» كلما أشار إلى ذهابه إلى أورشليم، وهي المفردة ذاتها التي يستعملها اليهود حتى

اليوم عند إشارتهم إلى الذهاب إلى القدس[١٠].

يطرح بولس نفسه، في النص المذكور أعلاه، وكأن لديه وحياً خاصاً به يأتيه «بالانفراد عن المعتبرين»، ولعله يعني الروح القدس الذي يتنزل على الأنبياء والرسل، رغم ما قد يتراءى للبعض، للوهلة الأولى، بأنه يشير إلى صلته المباشرة بيسوع المسيح، غير أن اعتقادهم هذا لا بد ينتفي إزاء تعبير بولس الصريح حين يقدم نفسه في بداية رسالته إلى غلاطية بقوله:

«بولس رسول لا من الناس ولا بإنسان بل بيسوع المسيح والله الآب...» (١/١).

عبارة تحمل في طياتها تلميحاً واضحاً علنياً بأنه لم يعين من قبل أحد، لا من «مشايخ أورشليم»، ولا بواسطة رسائل توصية منهم!! ويمضي مؤكداً على وضعه المتفرد المتميز في رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس، بقوله:

«... أم لعلنا نحتاج كقوم رسائل توصية إليكم أو رسائل توصية منكم» (١/٣)..

اللمز جلي واضح بيعقوب وجماعة أورشليم الأولى.

لقد بلغ تضخم الذات لدى بولس حداً دفعه إلى القول:

«صرت للكل كل شيء، لأخلّص على كل حال قوماً، وهذا أنا أفعله لأجل الإنجيل لأكون شريكاً فيه. ألستم تعلمون أن الذي يركضون في الميدان جميعهم يركضون، لكن واحداً يأخذ الجعالة (الجائزة)، هكذا أركضوا لكي تنالوا... أنا أركض ليس عن غير يقين، هكذا أضارب (أقاتل) ليس كواحد يضرب الهواء» (كورنثوس الأولى ٩/٢٤ ـ ٢٦).

ما يريد بولس قوله ضمنياً أنه يعرف جيداً ما يصبو إليه، وكيفية الوصول والمكافأة التي سوف يحصدها!!

لم يكن بوسع الباحثين، على اختلاف مشاربهم، تجاهل التشابه بين جماعتي قمران والمسيحيين الأوائل، حتى أن البروفسور فرانك م. كروس، أحد الأعضاء الأوائل في الفريق الدولي، قال:

«إذا لم يكن هناك سوى موازاة سطحية بين المعلم البار للأسينيين وبين يسوع الناصري، فهناك موازاة جوهرية بين الأسينيين والجماعات المسيحية الأولى»(١١).

ويعمد الأميركي باول دايفز، بدوره، إلى تتبع الموازاة بين الجماعتين ليجدها أكثر ما تكون وضوحاً في المجمع الذي يضم الأعضاء بكاملهم، الذي يدعى لدى كليهما بـ «الكثيرين»، حيث يجري اختيار الاثني عشر من بينهم، فضلاً عن وجود «المراقب العام في الجماعتين»، ذلك المنصب الرفيع الذي جسده يعقوب البار، كرئيس للكنيسة الأولى في أورشليم.

تخلي الأعضاء طواعية عن ثرواتهم الخاصة لصندوق الجماعة العام، أسلوب اتبعته كلا الجماعتين، مما يذكر بمقولة يسوع في إنجيل متى (١٩/٢٢)، للشاب الثري «إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكاً وأعط الفقراء... وتعالى اتبعني». فالفقراء أحد المصطلحات المستخدمة لدى الجماعتين لتعريف نفسيهما. فهل الالتحاق بجماعة الفقراء يعني الانضمام إلى يسوع؟! فالرجل الثري لم يكن ليلتحق بجماعة لا ينتمي إليها يسوع!

والتنازل الطوعي عن الممتلكات يرد أيضاً في «الأعمال» بما نصه «وجميع الذين آمنوا كانوا معاً وكان عندهم كل شيء مشتركاً» (٢/٤٤).

أيضاً هناك قوانين عقوبات متشابهة لدى الجماعتين في حال الاختلاف وفي أسلوب حل النزاعات التي تنشب بين الأعضاء، إضافة إلى ممارستها لشعيرة العماد، رمزاً للتوبة عن الآثام، وإن كان لا يُعرف بعد إذا كان المسيحيون الأوائل قد مارسوها يومياً، أسوة بجماعة قمران. ناهيك عن الوليمة المقدسة المتبعة لدى جماعة قمران، فهي تشبه إلى حد مذهل العشاء الأخير. وكذلك انتظار المخلّص، غير أن المسيحيين كانوا ينتظرون مخلّصاً واحداً، في حين تتحدث وثائق قمران عن مخلّصين اثنين وعن نبي. وأخيراً وليس آخراً، اعتبار كلا الجماعتين أنه شعب «العهد الجديد». قد يرى البعض اختلافات، ولكنها طفيفة لا تؤثر بحال على الجوهر العام للسلوكيات(١٢).

قمران تتحدث

ليس هناك أفضل أو أحق من جماعة قمران لتقدم نفسها عبر وثائقها الخاصة، حيث تبدو مختلفة جذرياً عن ذلك المفهوم الشائع عن الأسينيين أو عن المسيحية الأولى. مراكزها منتشرة في مختلف أنحاء بما فيها أورشليم. تتمتع بنفوذ واسع ولديها قوة لا بأس بها مكنتها من السيطرة على مراكز استراتيجية مثل الماسادا وجماليل في الجليل، إضافة إلى منطقة قمران. وكان بمقدورها أيضاً إيفاد مبعوثين للخارج، على غرار بولس وبرنابا وغيرهما، لجمع الأنصار والمعونات، كما كان في استطاعتها تدبير عمليات اغتيال، مثل المحاولة الفاشلة لاغتيال بولس، والأخرى الناجحة في الإيقاع بحنانيا، رئيس الكهنة، بواسطة ذراعها اليسرى. وأيضاً كانت تستطيع طرح مرشحها الشرعي لرئاسة مؤسسة الهيكل، والأهم، إمكاناتها في حشد الجموع لمواجهة روما الوثنية وأتباعها، وإشعال

ثورة عارمة استمرت زهاء سبع سنين تطلبت تدخل الجيش الروماني لإخمادها.

أكثر ما يستدعي الدهشة أن تأتي الأناجيل في وضع مشتعل كهذا وتقدم فلسطين وجوارها الجغرافي كريف هادىء ينعم بالدعة، حيث يقوم صيادو الجليل برمي شباكهم وإصلاح قواربهم، فيما يتجول السيد المسيح هادئاً مسالماً يعالج المرضى ويخرج الشياطين، بل تكاد الأناجيل تظهر بعض المسؤولين الرومان، وبعض الهيروديين أشبه بالقديسين، مما يعده البعض التفافاً لتبرير الخضوع لروما وأدواتها. ولعل أقوال يوسيفوس المتضاربة وموقفه المذبذب بين العاطفة والمنفعة الخاصة، خير دليل على ذلك، حين يصف أولئك الخارجين على السلطة بأنهم «رجال يدّعون التدين وهم أكثر خطورة من القتلة وقطاع الطرق، مخادعون يزعمون إلهام السماء، ويقودون أتباعهم إلى البرية لمشاهدة علامات الوحي والخلاص الوشيك»، فيما يصفهم في موضع آخر «بالمجددين» أو بأتباع «فلسفة رابعة، لا تضفي الألوهية على أية إنسان».

انكبّ الباحث الأميركي إيزنمان على قراءة متفحصة للوثائق على ضوء الظروف الموضوعية للقرن الأول للميلاد، مدققاً في أعمال كل من سبقوه من المؤرخين ليخرج برؤية جديدة للأحداث. فإثبات تأريخية يعقوب البار، من وجهة نظره، إثبات لوجود معلمه الأول، يسوع التاريخي، الذي بحث عنه المؤرخون مطولاً.

تتدفق وثائق قمران في الحديث عن نظام الجماعة ومعتقداتها، وعن زعيم يتمركز في وسطها أطلقت عليه «المعلم البار»، يتمتع بالفضيلة ويلتزم بالمبادىء التي يجسدها «يعقوب البار» قائد جماعة أورشليم. فكلاهما قائد لطائفة دينية ذات تنظيم هرمي، يتمسك أعضاؤها

بالناموس، من دون انتقاص، وشأنهم في هذا شأن يعقوب البار في قوله بأن «من عثر في واحدة فقد صار مجرماً في الكل سواء»، فانتهاك جزء من الشريعة يعني نقض الكل. سواء كانت شريعة موسى في صورتها الأصلية، أو مع التعديلات التشريعية المتضمنة في الوثائق، فالالتزام كان المبدأ السائد لدى الجماعتين.

إذا وضعنا «الكاهن الشرير» الذي قاد الهجوم على المعلم البار وما أسفر عنه الهجوم جانباً، نجد أن قائد كلا الجماعتين كان يواجه خصماً قوياً، انشق عن الجماعة وأخذ يناصبها العداء. تتحدث الوثائق عن عضو خرج على الجماعة، دعته «بالكذاب» و«المهرج»، و«منبع الكذب»، استطاع السطو على جزء من عقيدة الجماعة وأخذ ينشرها على نحو مختلف، مستخدماً مصطلحات الجماعة ولكن في سياق سلبي مغاير ومن دون اعتبار لشريعة أو عمل صالح. وقد دانت جماعتا قمران وأورشليم الكذب بقولهما: «اللسان مطية الكذب ولي للحقيقة»، فيما يعقوب البار يقول في رسائله «اللسان نار عالم الإثم» (٥/٣).

اللافت بصدد مسألة الكذب هذه، إصرار بولس وتكراره من حين لآخر بأنه ليس بكاذب «... إني لست أكذب» (غلاطية ١/٢٠)، ثم يعاود دفع تهمة المراوغة والكذب عن نفسه بحساسية مفرطة «الحق أقول ولا أكذب» (تيموثاوس ٢/١ ـ ٧). وما يلبث أن يقسم مجدداً بأغلظ الأيمان في موضع آخر «الله وأبو ربنا المسيح... يعلم أني لست أكذب» (كورنثوس الثانية ١١/٣١). فرسائل بولس تشوبها رغبة محمومة في تبرئة نفسه من الزيف والكذب، ولعله يرد بمحاولاته هذه على إشارة يعقوب إلى سوء استخدام اللسان، في قوله:

«هكذا اللسان أيضاً هو عضو صغير ويفتخر متعظماً. هو ذا نار قليلة أي وقود تحرق... ...فلا يستطيع أحد أن يذلله. هو شر لا يضبط مملوء سماً مميتاً» (٣/٥ ـ ١٠).

تتناول جماعة قمران هي الأخرى مسألة الكذب بالانتقاد المرير في العديد من وثائقها، مما يدل على تجانس الموضوعات، فقد جاءت الإشارة إلى الكذب في وثيقتين «دمشق وشروح ترنيمة ٣٧»، فضلاً عن شروح «سفر حبقوق». وقد علقت الجماعة على النص القائل «أليس من قبل رب الجنود أو الشعوب يتعبون للنار والأمم الباطلة يعيون» (حبقوق ١٢/٢ ـ ١٣)، بالشرح التالي:

«يخص التفسير منبع الكذب، الذي يضل الكثيرين؛

كي يبني مدينة باطلة على الدماء ويقيم مجمعاً (ويُحتمل كنيسة) على الكذب؛

من أجل مجده ليهلك الكثيرين في طقوس باطلة ويرشدهم إلى؛

أعمال كاذبة حتى يذهب عملهم باطلاً» (٩/١٠ ـ ١٢).

عالجت «وثيقة دمشق» بدورها مسألة الكذب، بقولها:

«أولئك الذين انحرفوا عن الطريق، وذلك هو الزمان الذي كُتب عنه «مثل عجلة جامحة» هكذا ضللت إسرائيل (الشعب) [هوشع ١٦/٤]. وحين ظهر المهرج الذي أغرق إسرائيل بمياه الكذب، وجعلهم يهيمون في التيه، وحط من سموها الرفيع، مبطلاً سبل الحق» (١٢/١ ـ ١٦).

لم يكتف الكذاب، وفقاً للوثائق، بنشر عقيدة منحرفة عن الخلاص، تأتي على حساب «الحدود التي وضعها الأسلاف مودياً بالناس إلى الضلال ودروب الباطل» إشارة إلى انتهاكه للناموس،

بل لقد «رفض الناموس وسط الجماعة برمتها»، وشنَّ هجوماً على «المعلم البار»، سواء جاء الهجوم مادياً أم شفهياً. فالوثائق تبوح بتفاصيل يتعذر إقصاؤها عن أحداث القرن الأول للميلاد، كما تعكس العلاقة المتوترة بين قائدها والخارج عليه في وجوه عدة، بما يكاد يطابق علاقة بولس ونظرته إلى «أعمدة» أورشليم وعلى رأسهم يعقوب البار. رغم أن هذا أمر يصعب تصديقه بالنسبة إلى الكثيرين، أقله من الناحية العاطفية.

إن تشابه الأحداث التي توردها جماعة قمران، في رأي إيزنمان، وتقاطعها مع أحداث القرن الأول الميلادي، يبدوان واضحين، ليس من ناحية المصطلحات المستخدمة في كتابات كلا الجانبين فحسب، بل أيضاً عبر وصف نشاط الخصم التبشيري بالكذب الذي يقود الكثيرين إلى الضلال، عبر تعليمهم «طقوساً باطلة»، تتناقض مع المبادىء الصحيحة التي يدعو إليها المعلم البار. فتعاليم الأخير هي وحدها القادرة على «التبرئة من الآثام»، وجعل «الكثيرين صالحين»، مستحقين لنعمة الخلاص. أما الكذاب بالنسبة إلى جماعة أورشليم، فأداؤه الخاص ليس سوى أداء فارغ باطل، طالما حذر منه يعقوب البار صراحة عند إشارته إلى خصمه العقائدي، في رسائله، بقوله: «أيها الإنسان إن الإيمان بدون أعمال ميت» (٢/٢٠).

تقترب الموازاة بين جماعتي أورشليم وقمران أكثر فأكثر، ليس من ناحية الغيرة على الناموس، أياً كان ما يعنيه ذلك، بل من ناحية بؤرة الاهتمام العقائدية لكل منهما، ويمكن الاستدلال على ذلك بواسطة نصوص دينية معينة واستحوذت على اهتمام الجانبين وعنيا بتأويلها. أحد هذه النصوص، على سبيل المثال، سفر دانيال الذي

حظي بمنزلة أثيرة لدى جماعتي قمران و«العهد الجديد» على حد سواء، ربما لارتباطه بالثورة المكابية على أمل الاحتذاء بها في إشعال الثورات مجدداً في مواجهة روما الوثنية، ولعل انتقاص الفريسيين لمكانة دانيال وسفره وتعريفه بالأبوكرافيا، يرجع إلى السبب نفسه، فدانيال كان يحض على الحرب المقدسة، الجهاد، ضد الحكم الأجنبي ويدعو إلى التمسك بالناموس والاستشهاد سبيلاً للخلاص، في حين سعى الفريسيون وراء «الأشياء الناعمة» والتكيف في سبيلها مع الرومان سادة العالم آنذاك.

يضرب بولس، بدوره مثلاً بيّناً على التكيف مع السلطة الحاكمة، من دون أن يوضح طبيعتها أجنبية كانت أم محلية، فاسدة أم صالحة، يقول بولس في رسالته لروما:

«لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة. لأنه ليس سلطان إلاّ من الله و(السلاطين) الكائنة هي مرتبة من الله. حتى إن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة (اللعن والإدانة)... أتريد أن لا تخاف السلطان. افعل الصلاح فيكون لك مدح منه. لأنه خادم الله للصلاح. ولكن إن فعلت الشر فخف. لأنه لا يحمل السيف عبثاً إذ هو خادم الله منتقم للغضب من الذي يفعل الشر.. فإنكم لأجل هذا توفون الجزية أيضاً. إذ هم خدام الله مواظبون على ذلك بعينه» (١٣/١ - ٧).

قول بولس يعني، بلغة العصر، أن الحاكم ظلّ الله في الأرض وطاعته واجبة لأنها من طاعة الله، بغض النظر عن توجهات الحاكم وطبيعة حكمه!!

كان موقف جماعتي قمران و«العهد الجديد» مختلفاً عن الفريسيين، فقد حظي دانيال وسفره لدى كل منهما بمنزلة رفيعة،

لأسلوبه المتدفق المشرق، فهو أول من جاء على ذكر «ملكوت الله»، في قوله:

«... هو الإله الحي القيوم إلى الأبد وملكوته لن يزول وسلطانه إلى المنتهى. هو ينجي وينقذ ويعمل الآيات والعجائب في السموات وفي الأرض. هو الذي نجى دانيا من يد الأسود (الموت)» (٦/٦). إضافة إلى إثارته مسألة «ابن الإنسان الآتي مع سحب السماء» (٧/ ٣) واستخدامه تعبيرات باتت شائعة وأثيرة لدى الجماعتين مثل «اليوم الآخر»، في قوله:

«وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الأبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الأبدي. والفاهمون يضيئون كضياء الجلد... كالكواكب إلى أبد الدهور» (١٢/٢ - ٣).

انصبّت شروح جماعة قمران على مقاطع منتقاة من «العهد القديم»، لا سيما رؤى الأنبياء وبعض الترانيم، فضلاً عن أسفار التكوين واللاويين وسفر التثنية، وجاءت شروحاتها بأسلوب شعري مفعم بالروحانية. لم يكن اختيار الجماعة عشوائياً بل جاء متجانساً معنياً بمقاطع غنية بالمعاني ولا ينقصها المغزى. ويبدو أن واضعي الوثائق عمدوا إلى شرح المقاطع والتعليق عليها في ضوء معتقداتهم، وكمرجعية للأحداث الملمة بهم، الأمر الذي جعل كتاباتهم عملاً تاريخياً للجماعة وأحداثها المعيوشة. وربما جاء تناولهم واستشهادهم بهذه المقاطع ليساعداهم على فهم الزيف والتضليل الذي يروّج حولهم. هذا في حين استخدم واضعو «العهد الجديد» المقاطع والمصطلحات نفسها، لكن في سياق إعادة بنائها وتطويرها بما يخدم توجهاتهم التصالحية.

مثالاً على ذلك، تطبيق جماعة قمران لما جاء في سفر أشعيا «صوت صارخ في البرية أعدوا طريق الرب» (٣/٤٠)، وقد جسد أعضاء الجماعة ذلك بخروجهم إلى البرية للتطهر والعبادة، وفقاً لقانون الجماعة الذي ينص على ابتعاد الأعضاء عن «السكن وسط المنحرفين وليذهبوا إلى البرية ليمهدوا طريق الرب كما هو مكتوب»، حتى ينكبّوا على دراسة التوراة (الشريعة) التي أوصى بها موسى ليعملوا بـ «كل ما أوصى به من عصر إلى عصر، وبحسب ما كشفه الأنبياء بواسطة روحه القدس». (قانون الجماعة ٨/١٣ ـ ١٥).

هكذا جاءت الوثائق مشبعة بعبارات مثل «الروح القدس»، «التطهر»، «العمل» و«الشريعة»، بينما عمد واضعو «العهد الجديد» إلى إسقاط ذلك المقطع من سفر أشعيا، على يوحنا المعمدان وحده.

مقطع آخر من السفر نفسه ركزت عليه جماعة قمران، ربما لاقتفاء المصدر الذي بنى عليه بولس لاهوته، حيث يقول أشعيا:

«أما الرب فسر أن يسحقه الحزن. أن جعل نفسه ذبيحة إثم... وعبدي البار بمعرفته يبرر كثيرين وآثامهم هو يحملها» (٥٣/١٠).

فيما يقول بولس في رسالته إلى روما في سياق انتقاصه للناموس: «إذا الجميع أخطأوا وأعوزهم مجد الله، متبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي بيسوع المسيح الذي قدمه الله كفارة بالإيمان لإظهار بره من أجل الصفح عن الخطايا السالفة» (٣/٢٤ ـ ٢٧).

ويكرر الفكرة نفسها في رسالة كورنثوس الأولى «المسيح قد ذبح لأجلنا» (٥/٨)[١٣].

غير أن الخلاص اقتصر لدى جماعة قمران، وفقاً لشروحها على سفر حبقوق، على أولئك «العاملين بالتوراة»، ويعقوب البار أوصى

أيضاً بضرورة الالتزام بالناموس من دون انتقاص. تقول الجماعة بصدد النص الخاص بالشريعة في السفر المذكور:

«لذلك جمدت الشريعة ولا يخرج الحكم بتة لأن الشرير يحيط بالصديق، فلذلك يخرج الحكم معوجاً» (١/٤ - ٥).

وفسرت ذلك بأنه يخص الخونة ورجل الكذب لأنهم لم يؤمنوا بما تلقاه المعلم البار من الله، ويتعلق أيضاً بخونة نواميس الله والعهد الجديد لأنهم لم يؤمنوا بعهد الله ودنسوا اسمه المقدس (١/١ - ٥).

فشروح الجماعة تنص صراحة بأن «الكذاب مثقل بالخداع، وأقام تجمعاً على الضلال ومدنية على الدماء»، ولجأ ومعه الخونة إلى «غير المؤمنين بالعهد الجديد».

وتركز جماعة قمران في تعاليمها على الفقرة التالية من سفر التثنية «فاعلم أن الرب إلهك هو الله الإله الأمين الحافظ للعهد والإحسان للذين يحبونه ويحفظون وصاياه إلى ألف جيل، فاحفظ الوصايا والفرائض والأحكام التي أنا أوصيك اليوم لفعلها» (٧/٩ - ١٠).

وتعلق «وثيقة دمشق» على هذا النص بقولها:

«لم يحفظوا وصايا خالقهم

ولهذا اشتعل غضب الله عليهم ... ...

أما إبراهيم فلم يتبع خطاهم

ولذلك أصبح (جُعل) خليل الله، لأنه حفظ وصايا الله، ولم يتبع أهواء أصدقاء الله (الصديقين) وورثه العهد إلى الأبد» (٣/١ - ٤).

وتتابع الوثيقة، أن أبناء يعقوب ضلوا ولم يحفظوا الوصايا وانساقوا وراء أهوائهم، ولهذا باتوا خارج العهد.

يتناول يعقوب البار، بدوره، الصديقين المحافظين على العهد، أصدقاء الله وليس العالم، في رسالته الثانية مشيراً إلى إبراهيم «وتم الكتاب القائل آمن إبراهيم بالله فحسب له براً ودعي خليل الله» (٢/٢٤). ثم يأتي على الفكرة ذاتها في رسالته الرابعة، بالقول: «من أراد أن يكون محباً للعالم فقد صار عدواً لله. أم تظنون أن الكتاب يقول باطلاً... ...يقاوم الله المستكبرين وأما المتواضعون فيعطيهم نعمة، فاخضعوا (سلّموا) لله وقاوموا إبليس فيهرب منكم» (٤/٤ - ٥).

في حين يحمل قول بولس، إلى غلاطية، في طياته مواجهة لتعاليم يعقوب وإجهاضاً لحديثه عن الذين يحبهم الله ويضعهم في مرتبة الصديقين، ولعلها محاولة منه لقطع الطريق على أي إرباك للاهوته الخاص، ومصادرة لأي قول آخر. يقول بولس في رسالته:
«إني أتعجب أنكم تنتقلون هكذا سريعاً عن الذي دعاكم بنعمة المسيح إلى إنجيل آخر... ولكن إن بشرناكم نحن أو ملاك من السماء بغير ما بشرناكم فليكن اناثيما (أي ملعون)، كما سبقنا فقلنا أقول الآن أيضاً إن كان أحد يبشركم بغير ما قبلتم فليكن اناثيما» (١/٩ - ١٠).

تشير وثائق قمران إلى عدو للمعلم البار، من خارج الجماعة، دعته «بالكاهن الشرير» ممثل مؤسسة الكهنة الفاسدة، التي تتهمها «وثيقة دمشق» بالتالي:
«لكن جميع أولئك الذين أدخلوا في العهد
لن يدخلوا الهيكل ليشعلوا (النار) في مذبحه سدى... ...
فإذا لم يحفظوا (الوصايا) وفقاً للمحتوى الدقيق للتوراة (الشريعة)
في زمن الشر،

وينفصلوا عن أبناء الشرك، ويبتعدوا عن ثروات الشر المدنسة،
ويبعدوا عن ثروات الهيكل ونهب الفقراء (المساكين) من شعبه
وسلب الأرامل (جعلهن غنائمهم)
وقتل الأيتام» (٦/١١ ـ ١٧).

يوصي يعقوب إخوته بالصبر والعمل في آن معا، «إن امتحان إيمانكم ينشىء صبراً» ويسألهم التوجه إلى الله طلباً للحكمة «إن كان أحدكم تعوزه الحكمة فليطلب من الله الذي يعطي الجميع بسخاء» (١/٥). وتحفل رسائله بدعم الفقراء وانتقاد من يحتقرونهم لثيابهم الرثة، فيجعلونهم عند موطىء الأقدام، بينما يضعون الأثرياء في الصدارة، «اسمعوا يا إخوتي الأحباء، أما اختار الله فقراء هذا العالم أغنياء في الإيمان وورثة الملكوت الذين يحبونه» (٢/٣ ـ ٦).

أقوال يتردد صداها في شروح جماعة قمران على المزمور ٣٧، وفي العديد من وثائقها.

يقول المزمور: «انتظر الرب واصبر له ولا تغر من الذي ينجح في طريقه من الرجل المجري المكايد» (أي عبر المكائد الشريرة).

وتقول الجماعة: «التفسير يخص الكذاب الذي أضل الكثيرين بكلماته الكاذبة حتى يختاروا الباطل ولا يسمعوا لمفسر الحكمة... إنهم سوف يهلكون بالسيف والمجاعة والطاعون».

يقول المزمور: «الذين ينتظرون الرب هم يرثون الأرض».

وتقول الجماعة: «التفسير يتعلق بمجمع مختاريه الذين يعملون وفق مشيئته».

يقول المزمور: «أما الودعاء (المساكين) فيرثون الأرض ويتلذذون بكثرة السلامة».

وتقول الجماعة: «التفسير يخص (مجمع) الفقراء الذين يقبلون الكفارة (عقوبة ذاتية تكفيراً عن خطاياهم) فهؤلاء سوف ينجون من حبائل بلعال (الشيطان)، وبعدها يمتلكون الأرض».

يقول المزمور: «الشرير يتفكر (يتآمر) ضد الصديق ويحرق عليه أسنانه. الرب يضحك به لأنه رأى أن يومه آت».

وتقول الجماعة: «تفسير ذلك يتعلق بمحرفي العهد من بيت يهودا، الذين تآمروا لتدمير المحافظين على الناموس، الذين هم في مجمع الجماعة، ولكنه لن يتخلى عنهم ويتركهم بين أيديهم».

يقول المزمور: «القليل الذي للصديق خير من ثروة أشرار كثيرين».

وتقول الجماعة: «تفسير ذلك يخص أولئك الذين يطبقون الشريعة».

يقول المزمور: «الشرير يراقب الصديق محاولاً أن يميته. الرب لا يتركه في يده ولا يحكم عليه عند محاكمته».

وتقول الجماعة: «التفسير يتعلق بالكاهن الشرير، الذي يترصد المعلم البار على أمل قتله [بسبب القدر الإلهي] والناموس الذي أرسله إليه. لكن الله لن يتخلى عنه ولن يدعه ويدان عندما يحاكم. [أما الكاهن الشرير] فالله سوف يجازيه عندما يدفع به إلى أيدي أشداء الأمم، حتى يجروا عليه أحكامهم» (مزمور ٣٧)[١٤].

لم يكتف الكاهن الشرير بمطاردة «المعلم البار» كي يبتلعه، أي يهلكه، بل تمكن من إصابته بجروح خطيرة، غير أن النص غامض حول حجم الضرر ونتيجته، وتتهم الوثائق «الكاهن الشرير» بخيانة دينه وعمله بتآمره «لإهلاك الفقراء» و«تدنيس الهيكل» بتقديم قرابين

الأغنياء الوثنيين. غير أن أتباع «المعلم البار» نجحوا في اغتيال «الكاهن الشرير»، وحققوا انتقامهم على «لحم جسده»، أي مثلوا بجثته.

تعلق جماعة قمران على نص سفر حبقوق التالي: «لأنك سلبت أمما كثيرة فبقية الشعوب كلها تسلبك لدماء الناس وظلم الأرض والمدنية وجميع الساكنين فيها» (٢/٧ ـ ٨)، بقولها في هذا الصدد: «التفسير يخص آخر كهنة أورشليم، الذين كدسوا الثروات وجنوا الفوائد من نهب الشعوب، ولكن في الأيام الأخيرة، ستقع ثرواتهم وأغنامهم في أيدي جيش الكتيم» (الرومان) (٩/٥ ـ ٨).
هذا المصير المشترك لكل من «الكاهن الشرير» وحنانيا رئيس مؤسسة الهيكل، فضلاً عن سقوط أورشليم وتدمير الهيكل ونهبه، أمور لا بد أن تدعو إلى التفكير وإعادة النظر، فالتطابق واضح لا تخطئه أي عين فاحصة.

بعد أن قام الباحث الأميركي إيزنمان بالتحري الدقيق عن الخطوط المتوازية في كل من وثائق قمران و«أعمال الرسل» والنصوص التاريخية الأخرى، وضع «المعلم الصادق» و«الكذاب» و«الكاهن الشرير» في جانب، وكلاً من يعقوب وبولس ورئيس الكهنة حنانيا في الجانب الآخر. ثم مضى في الكشف عما تضمنته نصوص الجانبين، من رموز ومجاز، في ضوء الظروف الموضوعية السائدة، آنذاك، إبان تفنيده لرؤى الفريق الدولي.

أجمعت غالبية الأعضاء على أن «الكاهن الشرير» استدرج إلى وليمة في قمران فشرب حتى الثمالة، استناداً إلى فقرة وردت في شروح الجماعة على سفر حبقوق، جاء فيها «يشرب كأس الرب»،

غير أن الكأس المعنية في رأي إيزنمان ليس لها علاقة بخمر أو شراب، وإنما تعني أن انتقام الرب سوف يحل على «الكاهن الشرير»، الذي لم يختتن غلفة قلبه «انتقاماً لما فعله بالمعلم البار» ولما أصاب الفقراء على يديه من بلاء. فالنص يشير ضمنياً إلى «سفر أشعيا»: «قومي يا أورشليم التي شربت من يد الرب كأس غضبه» (١٧/١١ - ٢٢)، وكذلك إلى سفر حبقوق «فاشرب أنت أيضاً واكشف غرلتك. تدور إليك كأس يمين الرب» (١٧/٢)، وكما يوضح أيضاً سفر الرؤيا ذلك المجاز بقوله:

«فهو أيضاً سيشرب من خمر غضب الله المصبوب صرفاً في كأس غضبه ويعذب بنار وكبريت أمام الملائكة القديسين وأمام الخروف» (٨/١٤ - ١٠).

لقد ورد هذا الاصطلاح المجازي في العهدين «القديم والجديد»، فهناك في إنجيل متى يأتي قول يسوع «أتستطيعان أن تشربا الكأس التي سوف أشربها» (٢٢/٢١)، كما جاء في إنجيل يوحنا «الكأس التي أعطاني الرب ألا أشربها» (١١/١٨)، غير أن المصطلح يعبر هنا عن الشهادة ولا علاقة له بالخمر. وبناء على ذلك، فما تعنيه الوثيقة لا يتعدى انتقام الله الذي سوف يصيب الكاهن الشرير.

... ...

أشارت وثيقتا «دمشق والهيكل» إلى شباك ثلاث لبلعال (الشيطان)، حيرت الباحثين وأربكتهم. تعد هذه الإشارة في الحقيقة فقرة محورية، توضح المرحلة التاريخية للوثائق بناء على منطوقها الداخلي. وتستند الإشارة إلى سفر أشعيا حيث يقول: الأرض قد تدنست تحت سكانها لأنهم تعدوا الشرائع غيروا الفرائض نكثوا العهد الأبدي... عليك رعب وحفرة وفخ يا ساكن

الأرض، ويكون أن الهارب من صوت الرعب يسقط في الحفرة والصاعد من وسط الحفرة يؤخذ بالفخ» (٢٤/٥ ـ ١٨).

أما الإشارة المعنية الواردة في الوثيقة فتقول:

«في كل هذه السنوات،

سيسلط بلعال (الشيطان) ضد إسرائيل، كما قال الله بواسطة النبي أشعيا بن؛

عاموس «عليك رعب وحفرة وفخ يا ساكن الأرض»، التفسير يتعلق بـ؛

ثلاث شباك لبلعال تحدث عنها لاوي بن يعقوب؛

بواسطتها أوقع إسرائيل، مصوراً هذه الأشياء أمامهم وكأنها ثلاثة صنوف للحق، الأولى الزنا، الثانية الثروة، والثالثة تدنيس الهيكل، من يهرب من الأولى يقع في الثانية، ومن يفلت من الثانية يقع، في الثالثة» (وثيقة دمشق ٩/٤ ـ ١٨).

وحبائل الشيطان وفقاً للنص لا تخرج بحال عن الثروة والزنى وتدنيس الهيكل، التي طفحت الوثائق بانتقادها وشجبها.

تنطوي الإشارة حسبما يبرهن إيزنمان، على اتهامات يمكن إثارتها في وجه أية مؤسسة حاكمة، دينية كانت أم زمنية، بغض النظر عن الزمان والمكان، وهي موجهة تحديداً في هذا السياق إلى الهيروديين وأتباعهم من كبار كهنة الهيكل. أيضاً، تردد صدى هذه الاتهامات في وصايا يعقوب البار الواردة في أعمال الرسل، وفي الأصحاح الثاني لرسائل كل من بطرس ويهوذا. ولم تغفل الأناجيل الأربعة، بدورها، عن ذكر واقعة بحر الجليل التي جاءت رغم اختلافاتها الطفيفة بأسلوب شديد الرمزية، حين ظهر يسوع

لتلامذته وأخذوا يرمون الشباك لصيد الأسماك، فقد تكرر ذكر الشبكة لثلاث مرات في ما لا يزيد على ستة أسطر(١٥).

يندرج كل من تعدد الزوجات وزواج بنات الأخوة والأخوات إضافة إلى الطلاق في دائرة الزنى. وقد نددت جماعة قمران في وثيقتي «دمشق والهيكل» بزواج المحارم، مما يعد تعديلاً في الشريعة، وبتدنيس الهيكل، إضافة إلى اكتناز الثروات. كان زواج المحارم أمراً مألوفاً لدى النخبة الحاكمة، وينطبق هذا على الهيروديين دون غيرهم، فلم يمارسه المكابيون أو سواهم من الحكام. وقد أسهبت وثيقة «الهيكل» في انتقادها الحاكم لتعدد زوجاته. إذ كان لدى هيرودس الأكبر عشر زوجات، وقد اشتهرت أميرات الأسرة برنيكي ودورسيلا، بالممارسات الجنسية الفاضحة، ناهيك عن هيروديا المسؤولة عن مصرع يوحنا المعمدان. كما أفاضت اللفائف في انتقاد كبار الكهنة لاستيلائهم على أموال الفقراء ولقبولهم قرابين الأغيار وهباتهم، رغم ما يعنيه ذلك من تدنيس للهيكل. وقد عكست لفافة «الهيكل» امتعاض الجماعة وتنديدها «لمضاجعة الزوجات أثناء حيضهن»، وينطبق ذلك على أجريبا الأول والثاني، فقد نشأ الاثنان في روما وفق الأساليب الهلينستية حيث لا غضاضة في ذلك.

كل ما تنطوي عليه الوثائق من انتقادات، يشكل انتهاكات فاضحة للناموس، ولا شك أنها استفزت الجماعات الدينية، أياً كانت لافتتها، وأسهمت بدورها في انفجار الثورة عام ٦٦م. لمنع الوثنيين من تقديم قرابينهم إلى الهيكل، والحيلولة دون دخول الهيروديين ليس إلى الهيكل فحسب، بل إلى أورشليم بأسرها.

يخلص روبرت إيزنمان في نهاية تحليله الدقيق والمضني إلى أن

يعقوب البار، الخليفة الأول ليسوع، هو نفسه المعلم البار لجماعة قمران، فليس مصادفة أن تشير الوثائق، لا سيما شروح الجماعة على سفر حبقوق، إلى الأحداث الواردة في «أعمال الرسل» ويوسيفوس والمؤرخين الأوائل. فالتكرار المذهل والمكثف لفلسفة الجماعة وأسلوبها المجازي الذي يتردد صداه في رسالة يعقوب البار ورسائل بولس تؤكد أن الوثائق تشير إلى الأحداث نفسها وإن اختلفت المعالجة. ويعزز هذا الاتجاه أن قمران البحر الميت وليس ودمشق سورية، كانت المكان الذي قضى فيه بولس السنوات الثلاث كمرشح للعضوية.. حتى الزعم بأن اضطهاد يعقوب ومصرعه كانا في أورشليم، فيما اللفائف تشير إلى أحداث وقعت في قمران، فالعمود الثالث عشر في شروح سفر حبقوق يوضح أن قيادة قمران كانت في أورشليم في ذلك الوقت.

يقول سفر حبقوق:

«أما الرب ففي هيكل قدسه. فاسكتي قدامه يأكل الأرض» (٢/ ٢٠).

وجماعة قمران تشرح النص بقولها:

«أصمت أمامه، يا كل العالم، التفسير يخص كل الأمم،

التي تخدم (توقر) الحجر والخشب، لكن في يوم

الدينونة سيمحق الله كل عبدة الأوثان

وكل الأشرار في الأرض» (١/١٣ - ٤).

لمخطوطات البحر الميت وجوه وإيحاءات تختلف حولها الآراء ويشتد بصددها النقاش، ومن المتوقع استمرار الجدل وتشعبه في القرن القادم وربما الخروج برؤى جديدة. فوثائق على هذا القدر من

الأهمية ملك الإنسانية، شرقاً وغرباً، ولا شك أن المزيد من الباحثين سوف يسهمون في الدراسة والبحث، حيث تبقى الحقيقة الموضوعية المجردة الهدف المنشود دوماً لكل من يستحق صفة الباحث، فالظن في النهاية لا يغني من الحق شيئاً.

الهوامش

(١) Eisenman, **James Brother of Jesus**, P. 63.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٣٥.

(٤) المصدر نفسه، ص ٤٣٥.

(٥) Eisenman, **Dead Sea Scrolls**, P.210.

(٦) Eisenman, James, P. 290.

(٧) أرنولد توينبي، **مختصر دراسة التاريخ**، ترجمة فؤاد محمد شبل، الجزء الثاني، الإدارة الثقافية (جامعة الدول العربية، ١٩٦١)، ص ٢٥٢.

(٨) يعلق إيزنمان على هذه المسألة استناداً إلى القرآن الكريم «بقي هذا المفهوم عالقاً حتى جاء القرآن الكريم ليبرئه من كل هذا». أنظر كتابه **The Dead Scrolls, and The First Christians**.

(٩) عقد عام ٣٢٥ مجمع كنيسي في مدينة نيقية في آسيا الوسطى يضم كل أساقفة الأمبراطورية وكان أول مجمع من نوعه، وقد حكم فيه على الأريوسية، ونظمت مجموعة مفاهيم الدين المسيحي بصورة نهائية.

(١٠) أنظر «الأعمال» (١٨/١ - ٢٠).

(١١) **Powell Pares**, P. 94.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٩٧.

(١٣) التضحية بالابن البكر فكرة مألوفة في مصر وآسيا الصغرى وبلاد اليونان للتكفير عن خطيئة آدم الموروثة، حيث قامت أوزوريس وأتيس وديونيشس، بانتداء بني الإنسان بالموت. وكانت الألقاب مثل المنقذ والمنجي تطلق أيضاً على هذه الآلهة. فلفظ

كريوس (الرب) الذي أضفاه بولس على المسيح هو اللفظ الذي تطلقه الطقوس اليونانية ـ السورية على ديونيشس السيف المفتدى. أنظر ديورانت، ص ٣٦٤.

(١٤) Vermes, P. 437.

(١٥) Eisenman, **Dead Sea Scrolls,** P. 334.

المراجع

١ ـ الأجنبية:

Allegro, J.M. **The Dead Sea Scrolls** (London, 1955).

The Dead Sea Scrolls and the Christian Myth (Newton Abbopt, 1979).

The Treasure of the Copper Scroll (London, 1960).

Baigent, M. and Leigh, R. **The Dead Sea Scrolls Deception** (Corgi Books, Great Britain, 1992).

The Missianic Legacy (Dell Pubiishing, New york, 1986).

Brownlee, W.M **The Meaning of the Qumran Scrolls for the Bible,** (Oxford, 1964).

Bossy, J. **Christianity In The West 1400- 1700** (Oxford University Press, New York, 1987).

Cross, F.M. **The Ancient Library of Qumran** (London, 1958).

Davies, A.P. **The Meaning of the Dead Sea Scrolls** (Penguin Books, London, 1956).

Davies, P.R. **Behind the Essenes** (Atlanta, 1987).

The Damascus Coverant (Scheffield, 1983).

In Search of Ancient Israel: A Study in Biblical Origins (Jost Supplement Series, 1992).

Eisenman, R.H. Maccabeez, Zodokites, **Christians and Qumran** (Leiden, 1983).

The Dead Sea Scrolls Uncovered (Penguin Books, London, 1992).

The Dead Sea Scrolls and The First Christians (Element Books Limited, Shoftesbury, 1996).

James The Brother of Jesus: The Key to Unlocking the Secrets of Early Christianty and The Dead Sea Scrolls (Penguin Books, USA, 1998).

Fogarty S. Robert **The Righteous Remnant, the House of David,** (the Kent State University Press, Kent, USA, 1981).

Josephas, F. **The Jewish War** (Penguin Books Trans, by G.A. William, London, 1970).

Kreiger, Barbara **The Dead Sea myth, History and Politics** (Brandeis University Press, Hanover, New England, 1988).

Robinson, J.M. ed **The Nag Hammadi Library** (Haper San Francisco, 1978).

Salibi, K. **Conspiracy in Jerusalem, The Hidden Origins of Jesus** (R.B. Tauris and Co. Ltd, London, 1988).

Silberman, N.A. **The Hidden Scrolls: Christianity, Juduism, And The War for the Dead Sea Scrolls** (Mandarin, Great Britain, 1995).

Vanderkam, J.C. The **Dead Sea Scrolls Today** (Wm. B. Eerdmans, USA, 1994).

Vermes, G. **The Complete Dead Sea Scrolls in English** (The Penguin Press, USA, 1997).

Whitelam, K.W. **The Invention of Ancient Israel, the Silencing of Palestinian History,** (Routladge, London, 1997).

Wilson, E. **The Scrolls From The Dead Sea** (London, 1955).

٢ ـ العربية:

أكرم إبراهيم **التوراة في ميزان الحقائق المسيحية** (دار جعفر للدراسات والنشر، ١٩٩٧).

أرنولد توينبي **مختصر دراسة للتاريخ**، ترجمة فؤاد محمد شبل، ومراجعة محمد شفيق غربال وأحمد عزت عبد الكريم (الإدارة الثقافية، جامعة الدول العربية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٤).

إسرائيل شاحاك **الديانة اليهودية وتاريخ اليهود: وطأة ٣٠٠٠ عام**، ترجمة رضى سلمان (شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، الطبعة الرابعة، ١٩٩٧).

أنيس القاسم **نحن والفاتيكان وإسرائيل**، (مركز الأبحاث الفلسطيني، بيروت، ١٩٦٦).

توماس ل. طومبسون **التاريخ القديم الإسرائيلي**، ترجمة صالح علي سرداح (دار بيسان للنشر، بيروت، ١٩٩٥).

توفيق الطويل **قصة الاضطهاد في المسيحية والإسلام** (دار الفكر العربي، ١٩٩٧).

جودت السعيد **أوهام التاريخ اليهودي** (الأهلية للنشر، عمان ١٩٩٨).

جورجي كنعان **الأصولية المسيحية في نصف الكرة الغربي** (بيسان للنشر، بيروت، ١٩٩٥).

جون ألدر **الأحجار تتكلم**، ترجمة د. عزت زكي (دار التأليف والنشر، الكنيسة المرقسية، القاهرة).

جون لوريمر **تاريخ الكنيسة** (دار الثقافة المسيحية، القاهرة).

ج. م. هيسي **العالم البيزنطي** ترجمة وتقديم د. رأفت عبد الحميد، (دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٨٤).

حسين عمر حماده **مخطوطات البحر الميت** (دار منارات للنشر، عمان، ١٩٨٢).

سبتينو موسكاتي **الحضارات السامية القديمة**، ترجمة د. السيد يعقوب بكر (دار الكاتب العربي للطباعة والنشر).

شحاده خوري ونقولا خوري **خلاصة تاريخ كنيسة أورشليم الأرثوذكسية** (مطبعة بيت المقدس، القدس، ١٩٢٥).

فرج الله صالح ديب **كذبة السامية وحقيقة الفينيقية** (دار نوفل، بيروت، ١٩٩٨).

د. فؤاد حسنين علي **اليهودية واليهودية المسيحية** (معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٦٨).

فيليب حتي **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين** ترجمة د. كمال اليازجي، (دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٢).

قاموس الكتاب المقدس نخبة من المختصين ورجال اللاهوت (مكتبة المشعل الإنجيلية، بيروت، ١٩٦١).

كارلين أرمسترونغ **القدس مدينة واحدة: ثلاث عقائد**، ترجمة د. فاطمة نصر ود. محمد علي (دار سطور، القاهرة، ١٩٩٨).

الكتاب المقدس (دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، بيروت).

الكتاب المقدس (مكتبة السائح، طرابلس، لبنان، ١٩٨٣).

م. ب. تشارلز وورث **الأمبراطورية الرومانية**، ترجمة رمزي عبده جرجس، (دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦١).

ول ديورانت **قصة الحضارة**، ترجمة محمد بدران (الإدارة الثقافية، جامعة الدول العربية، ١٩٥٥).

صدر لها

هالة العوري

مواليد: القدس

حاصلة على درجة الماجستير في الاقتصاد السياسي من الجامعة الأميركية بالقاهرة.

مؤلفاتها:

- **الإسلام والجنس** - ترجمة - دار مدبولي - ١٩٨٦.
- **عندما تتعانق الجزر** - مسرحية - دار مدبولي - ١٩٨٨.
- **اليابان لم تقل لا** - ترجمة - دار يافا - ١٩٩١
- **قراءة في كتاب د. محمد شحرور** - دار الفكر الإسلامي - ١٩٩٤.
- **فلسطين: كشف المستور فيما آلت إليه الأمور** - دار مدبولي - ١٩٩٧

فهرس الأعلام

أ

آريوس ١٦٩، ١٧٠
آشتون (الجنرال) ٥٣
آلت، ألبرخت ١٩٥
إبراهيم، أكرم ١٣
ابن حنانيا ٣٠٧
أبو غزالة، أسامة ٢١
أبيفاليوس ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٨٢، ٢٩٣، ٣٠٦، ٣٠٧
إثناسيوس (الأب) ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤١، ٤٦
أجريبا الثاني (الملك) ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣٣١، ٣٥٨
أرسطو ٢١٣
الأزعر، محمد خالد ٢١
أستروس، دافيد ١٦٠
استفانوتس ٢٩١، ٢٩٧
إسكندر ينيوس ١١٠
أغريبا الثاني (الملك) ٢٧٥، ٣٥٩
ألبينيوس ٣١٠
أفرام إيفنايوس (البطريرك) ٤٦
ألكسندر، بريد ٤٢
أليغرو، جون ٣٣، ٣٥، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٢، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٩، ١٥٢، ٣٢٣، ٣٢٤
أنطيوخوس الثالث ٢١٣
أنطيوخس الرابع ٢١٣
أوريان الثاني ١٨١
أوريجانس ٣١
أوكتافيوس بن يوليوس ١٣٠
أولبرايت، ويليام ٩٦، ١١٨، ١٩٤، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤
أوهان ٤٠
إيزغان، روبرت ٨٧، ١٢٠، ١٣٧، ١٤٠، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ٢٤٤، ٢٥٥، ٢٦٢، ٢٦٧، ٢٧٠، ٢٧٦، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٠٣، ٣٣٧، ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٥٨، ٣٦٤، ٣٦٩، ٣٧٥، ٣٨٧، ٣٨٩

ب

بايجنت، مايكل ٧٠، ١٢٦، ٢٧١، ٣٢٥، ٣٢٧
بلافاتسكي، هـ. ي. ٢٢٤
بليني ٩٦، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٤١
بن غوريون ٤٧
بنوا، بيير ٨٩
بوتش، إميل ١٢٦، ١٢٧
بولس ١٧، ١٧٨، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٨٣، ٢٨٧، ٢٨٩، ٢٩٥، ٣٣٦، ٣٣٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٩، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٧٦، ٣٧٩، ٣٨٣، ٣٩٠
بونابرت، نابليون ١٥٩
بومبي ١٢٩، ١٣٠، ٣٢٨
بيلاطس ٢٦١، ٣٠٨
بيليه، موريس ٨٤
بيوس الثاني عشر ١٧٤

ت

تريفر، جون ٢٩، ٤٥، ٤٦
توف، إيمانويل ١٥١
توينبي، أرنولد ٣٦٠

ث

ثاوفيلس ٢٥٦

ج

جون بول الثاني (البابا) ١٧٩، ١٨٠
جيروم ٢٩٧

ح

حامد، محمد أحمد ٢٩
الحبر بن زكاي ٣٦٠
حنانيا بن حنانيا ٣٠٧، ٣٠٨

خ

الخيري، فيصل ٢١

د

دايفز، باول ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٣٢٤، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٧٣
دايفز، فيليب ١٠٥، ١٤٨، ١٦٢، ٢٠٦
دريفر، غودفري أر ٨٥، ٩٩، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٧، ١٤٠، ١٤٢
دوثون م. ١٩٠
الديب، محمد ٢٥، ٢٦، ٢٧
ديفو، رونالد ٥٠، ٥٤، ٦٣، ٧٩، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٨، ٨٩، ٩٣، ١٠٢، ١٠٦، ١١٠، ١١١، ١١٧، ١١٩، ١٢١، ١٢٤، ١٣٢، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤١، ١٤٢، ١٥٤، ١٧٦، ٢٤٠، ٢٤٢
ديكسلر، توما ٤١

ر

رابين، إسحق ١٢
راتزنجر، جوزيف ١٧٨، ١٨٠
راني أر. ١٩٤
روبنسون، جيمس م. ٨١
روث، سيسيل ١٣٠
ريمارس، هرمان ١٥٩
رينان، إرنست ١٦٧، ١٦٨، ١٧٠

ز

الزين، عكاشة ٥٣

س

ساندرس، جيمس ٨٢
سبنسر، هربرت ١٦٨
ستروجنيل، جون ٦٩، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨٨، ٩٢، ١١٧، ١١٨، ١٤٦، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣
سرجيوس ٣١
سعد، يوسف ٥١
سكمان، باتريك ٨٤
سومي، بطرس (الأب) ٤٥
سكيلبك (الأب) ١٧٩
سليمان (الملك) ١٠٧، ٢١٢
سمعان بن كوخبا ٦٣، ١٣٤
سميث، جونسون ٢٦٦
سميث، مورتون ٩١
سوكنيك، أليعازر ٣٩، ٤٠، ٤٤، ٤٥، ٤٧، ٢٢٦
سومر، أندريه ديبونت ١١٢، ١١٥، ١١٦، ١٢٠
سيلبرمان، نيل أشر ٢٨، ٣٢، ٣٣، ٣٦، ٤٢، ٩٣، ٩٨، ١٠١

ش

شابيرا ٣٤، ٣٥، ٣٦
شاهين، خليل إسكندر ٣٢
شعيا، جورج ٣٦، ٣٨
شلايين ١٦٦
شنودا (البابا) ١٣
شيلبيرك، إدوارد ١٧٩

ص

صموئيل (المطران) ٥١، ٥٤
طومبسون، توماس ل ١٩٩، ٢٠٤، ٢٠٦

ط

طيموثاوس (البطريرك) ٣١، ٣٢
علي، محمد ٨١
العودات، أحمد ٢١
العوري، هالة ٢١

غ

غلادستون، وليم ٣٤
غولب، نورمان ٩٠، ١٤٢، ١٥٥، ١٧٤

ف

فاكتيوس ٣٢٧
فرويد، سيغموند ١٦٨
فسبتوس ٢٩٦
فسكو، جين لوك ١٧٦
فلافيوس، يسيفوس ٩٤
فولتي ١٥٩
فيثاغورس ٢٢٣
فيرمس، نيزا ١٢٥، ١٢٦، ٢٤٣، ٣٢٧
فيلكس ٣٠٩
فيلو الإسكندري ٢٢١، ٢٣٨، ٢٤١، ٢٤٣
فيليب (الكابتن) ٥٠

ق

قسطنطين ١٦٩، ١٨٠، ١٨١، ٢٨٦

ك

كاندو ٣٦، ٣٧، ٥٤، ٥٧، ٥٨، ٦٧، ٦٨
كروس، فرانك مور ٧٨، ٧٩، ٨٣، ٨٤، ٩١، ٩٢، ٣١٨
كليمنت الإسكندري ٢٨٣، ٢٨٥، ٢٩١، ٢٩٧، ٢٩٩
كنعان، جورج ١١
كوبلاند، مايلز ٤٢، ٤٣
كورنثوس ٣٨١
كوستو باريوس ١٦، ٣٥٨
كيندي، بول ٢٠٥
كينيون، كين ٢٠٧
كيونغ، هانز ١٧٩
لاش (الجنرال) ٥٣
لاغرانغ، ١٧٦
لوثر، مارتن ٣٦١
ليبنز، فيليب ٥٠
ليمك، ن. ب ١٨٧، ١٨٩
ليه، ريتشارد ٧٠، ٣٢٧
ليوسي، ألفرد ١٧١

م

مارتر، جوستين ١٢٦
محمد، جمعة ٢٩
مندنهال، جي ١٩٨
مور، جورج ٢٢٥
موسى، خليل ٢٩
ميريام (الأميرة) ٣٣٦
ميللر ١٦٥
ميليك ٨٤، ١١٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٣، ١٧٥، ٣١٨

ن

نعمان، يوفال ١٤٤
نوفيل، رينيه ٣٠
نيرون ٢٧٨، ٣٠٧

هـ

هاردينغ، لانكستر ٥٠، ٥١، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٨، ٦٠، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٨، ٧٠
هركالس، يوحنا ٩٧
هكسلي، توماس ١٦٨
هنزنفر، كلاوس هونو ٨٤
هوميروس ١٦٦، ١٦٧، ٢٠٩
هيجسبوس ٢٨٢، ٢٩٥، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠
هيركانس ٢١٣
هيرودس ١٦، ١٠٧، ١١٠، ١١١، ١٣٦، ١٣٨، ١٦٠، ١٦٣، ١٦٦، ٢٠٩، ٢٢٣، ٢٤٢، ٣٣١، ٣٥٣، ٣٥٨، ٣٦٥، ٣٦٦
هيروديا ٣٣١

و

وايزمن، حايم ١٢
ويلسون، إدموند ١١٣، ١١٤، ١١٩، ١٢٠، ١٢٥
ويلسون، تشارلز ١٦٧

ي

يادين، إيغال ٣٩، ٦٧، ٦٩، ١٠١، ١٠٢، ١٣٢، ٣٢٩

يوحنا ١٦٠، ١٦٤، ٣٨٩

يوسابيوس ١٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٩٠، ٢٩٢، ٢٩٣، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٠٤، ٣٠٧، ٣١١، ٣٦٧

يوسيفوس، فلافيوس ١٦، ٩٦، ١٠٨، ١١٥، ١٣١، ١٣٩، ١٦١، ١٦٣، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٥١، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٢، ٢٨٥، ٢٩٦، ٣٠٢، ٣٠٥، ٣١٠، ٣١١، ٣٢٧، ٣٤١، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٧٥

يوليوس قيصر ١٣٠

فهرس الأماكن

أ

آسيا الصغرى ٢٨٣، ٣٥٨

الأردن ٦٨، ١٩٨، ٣٦٥، ٣٦٧

أريحا ٢٣، ٥٢، ٥٩، ٦٤، ١٣٩

إسبانيا ٢٨٢، ٢٨٩

إسرائيل ١٢، ٦٧، ٦٩، ٨٧، ١٤٧، ١٤٩، ٢٠٨، ١٦٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٤، ٢١٦، ٢٣٩، ٣١٩، ٣٢٣، ٣٢٧، ٣٣٤، ٣٨٨

إسكتلندا ٢٤٥

الإسكندرية ٣٦٧

أفريقيا ٧٨

ألمانيا ١٦٧

الأناضول ١٩٨

إنطاكية ٢٦٥، ٢٦٦

أورشليم ١٠٨، ١٠٩، ٢٠٧، ٢١٣، ٢١٦،٢١٨، ٢٢٧، ٢٣٥، ٢٤٠، ٢٤٦، ٢٥٧، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٦، ٢٩٧، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣١١، ٣١٦، ٣١٩، ٣٢٩، ٣٣٦، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٥٣، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٦٠، ٣٦٧، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٨، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٩

أوروبا ١٤، ٦٣، ١٦٦، ٣٥٣

إيطاليا ١٤٥

ب

بابل ٢١٧

البتراء ١٦

البحر الميت ١٤، ١٨، ١٩، ٢٣، ٢٨، ٣٠، ٣١، ٥٣، ٨٣، ٩١، ٩٧، ٩٨، ١١٧، ١٢١، ١٣٣، ١٤٣، ١٤٧، ١٥٤، ١٦٣، ١٦٦، ١٧٤، ١٨٣، ٢١٨، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٤٤، ٣٥٩

بريطانيا ١١٦

بيت لحم ٤٠، ٥٧، ٦٠، ٦١، ٦٧

بيروت ٤٣

ت

تل العمارنة ٢٠٥

ج

جبل سيناء ٣٣٠

د

دمشق ٤٣، ٢٣٢، ٢٦٢، ٢٦٣، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٨٧

ر

روما ٩٥، ١٠٠، ٢٧٥، ٣٣٨، ٣٥٩، ٣٨٩

س

سورية ١٦٧، ٢١٢

ض

الضفة الغربية ٤٩، ٨٧

ع

عسقلان ١٣٩

عمان ٥١، ٥٩

ف

فارس ٢١٢، ٣٦٧

فرنسا ٨٣، ٨٤، ١١٢، ١٦٧، ١٦٩

فلسطين ١٢، ١٣، ١٥، ١٦، ١٩، ٣١، ٣٧، ٤٤، ٤٩، ٩٥، ١٠١، ١٠٢، ١٢٢، ١٣٠، ١٨٧، ١٨٨، ١٩٠، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٦، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٠، ٢١٢، ٢٢٥، ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٦٥، ٢٦٧، ٢٧١، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٨، ٣١٢، ٣٢٥، ٣٢٨، ٣٣٧، ٣٤٤، ٣٥١، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٦٥

ق

القدس ٣٦، ٣٧، ٣٩، ٤١، ٤٥، ٥٠، ٥١، ٥٧، ٦٠، ٦٢، ٦٤، ٦٧، ٧٠، ٨٢، ٨٥، ٨٨، ٩٢، ١١٧، ١٢٦، ١٣٥، ١٥٢، ١٦٧، ١٧٣، ١٧٤، ٣٧٢

قمران ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٨، ٢٩، ٣٥، ٣٨، ٤٢، ٤٣، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٤، ٥٦، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٨٠، ٨١، ٩٦، ٩٨، ١٠٦، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٥، ١٢١، ١٢٤، ١٢٩، ١٣١، ١٣٨، ١٤٠، ١٤١، ١٤٥، ١٤٦، ١٥٣، ١٧٤، ١٧٧، ٢١٠، ٢١٣، ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٤٣، ٢٤٦، ٣١٥، ٣١٨، ٢٣٢، ٣٣٤، ٣٣٨، ٣٤١، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٥١، ٢٥٤، ٣٦١، ٣٦٧، ٣٧٤، ٣٧٧، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٤، ٣٨٦، ٣٩٠

ل

لندن ٣٥، ٦٩، ٧٠، ١١٧، ١١٩

م

مصر ٨٠، ٨١، ٢١٢، ٢١٧، ٢٥٤

ن

نهر النيل ٤٩، ٢٧٨

نيويورك ٤٧، ٦٩

و

وادي الأردن ٢٨، ١١٠
وادي أشور ٣١٦
الولايات المتحدة الأميركية ١٢، ٢١، ٤٦، ٦٩، ٨٤، ١١٢، ١١٣، ١١٦، ١٤٣، ١٩٥، ٣٥٧

ي

اليونان ١٥



هالـة العـوري

أهـل الكهـف

قـراءة في مخطوطـات البحـر الميـت

لسخرية القدر تم تدوين وثائق قمران وفلسطين تحت الاحتلال الأجنبي الروماني. وجاء اكتشافها، للمفارقة، بعد ألفي عام وفلسطين ترزح أيضاً تحت الانتداب البريطاني، والاستيطان الصهيوني على أشده.

وقد تلقفت المؤسسات الغربية مخطوطات البحر الميت هذه منذ أواخر الأربعينيات وفرضت عليها حصاراً محكماً قرابة أربعة عقود.

في هذا الكتاب، ولأول مرة باللغة العربية، سوف يعثر القارئ على عرض عميق وشامل لسيرة هذه المخطوطات ومحتوياتها منذ واقعة الاكتشاف المثيرة الأولى والحصار الذي ضرب حولها، وصولاً إلى ما فجرته محتوياتها من خلافات حادة في الأوساط الدينية انطلاقاً من حقيقة «تهويد المسيحية» في بلاد الغرب.



1855134861